

توفيق الحكيم

شجرة الحكم السياسي

في مصر (١٩١٩ - ١٩٧٩)

- صور رؤساء حكومات ما بعد ثورة ١٩١٩.
- الحرب العالمية الثانية.
- الثورة المباركة ١٩٥٢.
- الهزيمة وتحقيقات رسالة إلى عبد الناصر.
- عودة الوعي (النص الكامل للكتاب).
- اليسار المصري وفتح ملف عبد الناصر.

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

توفيق الحكيم

شجرة الحكم السياسي

في مصر

١٩١٩ - ١٩٧٩

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز - ت ٩١٩٣٧٧
٤٢ ميدان الأوبرا - ت ٩٢٠٨٦٨
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

كتب للمؤلف نشرت باللغـــة العربيـــة

١ — محمد ﷺ (سيرة حوارية) ١٩٣٦
٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
٣ — اهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
٤ — شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
٥ — يوميات نائب فى الأرياف (رواية) ... ١٩٣٧
٦ — عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
٧ — تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ... ١٩٣٨
١٠ — حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
١١ — براكسا او مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
١٢ — راقصة المعبد (رواية قصيرة) ١٩٣٩
١٣ — نشيد الانشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ... ١٩٤١
١٦ — من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ... ١٩٤٢
١٨ — بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
١٩ — سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤
٢٢ — شجرة الحكم (صور سياسية) ١٩٤٥
٢٣ — الملك اوديب (مسرحية) ١٩٤٩
٢٤ — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) ١٩٥٠
من وحى أخـــلاق المجتمع (بين يوم وليـــلة)
قصة تمثيلية فى منظرين — من وحى الطبـــائع
البشرية (أريد ان أقتل) قصة تمثيلية فى فصل

واحد — من وحى الحركة النسوية (النائبــة المحترمة) قصة تمثيلية فى منظرين — من وحى الحياة الزوجية (أصحاب السعادة الزوجية) تمثيلية فى فصل واحد — من وحى حرب فلسطين (ميلاد بطل) تمثيلية فى منظرين — من وحى رجال الأعمال وصراع الأجيال (اللص) تمثيلية فى أربعة فصول — من وحى حرية المرأة (أريد هذا الرجل) تمثيلية فى فصل واحد — من وحى الصحافة والسياسة (عرف كيف يموت) قصة تمثيلية فى فصل واحد — من وحى الســـينما والفن (المخرج) قصة تمثيلية فى فصل واحد — من وحى أخلاق الحرب (عمارة المعلم كندوز) قصة تمثيلية فى فصل واحد — من وحى المــال والحب (الكنز) قصة تمثيلية فى فصــل واحد — من وحى المعتقدات الشعبية (بيت النمــل) تمثيلــة فى فصــل واحــد — من وحى الاداة الحكومية (أعمال حرة) قصة تمثيلية فى فصــل واحد — من وحى الحوادث الجارية(الساحرة) قصة تمثيلية فى فصل واحد — النماذج البشرية (الحب العذرى) قصة تمثيلية فى فصل واحد — من وحى الحياة العصرية (الجياع) تمثيلية فى فصل واحد — من وحى الحياة الفنية (العش الهادىء) قصة تمثيلية فى أربعة فصول — من وحى الأخلاق الوصولية (مفتاح النجاح) قصة تمثيلية فى فصل واحد — من وحى تيار المجتمع (الرجل الذى صمد) قصة تمثيلية فى فصــل واحد — من وحى المجتمع والعلم الحديث (لو عرف الشباب) قصة تمثيلية فى أربعة فصول — من وحى العادات الريفية (أغنيــة الموت) قصة تمثيلية فى فصل واحد .

٢٥ — فن الأدب (مقالات) ١٩٥٢
٢٦ — عدالة وفن (قصص) ١٩٥٣
٢٧ — أرنى الله (قصص فلسفية) ١٩٥٣

٢٨ — عصا الحكيم (خطرات حوارية) ... ١٩٥٤
٢٩ — تأملات في السياسة (فكر) ١٩٥٤
٣٠ — الأيدي الناعمة (مسرحية) ١٩٥٩
٣١ — التعادلية (فكر) ١٩٥٥
٣٢ — ايزيس (مسرحية) ١٩٥٥
٣٣ — الصفقة (مسرحية) ١٩٥٦
٣٤ — المسرح المنوع (٢١ مسرحية) ١٩٥٦

سر المنتحرة — من اربعة فصول (١٩٢٩) — حياة تحطمت — من مقدمة واربعة فصول وخمسة مناظر (١٩٣٠) — رصاصة في القلب — ثلاثة فصول (١٩٣١) — الأيدي الناعمة/ اربعة فصول (١٩٥٤) — الخروج من الجنة/ ثلاثة فصول (١٩٢٨) — صاحب الجلالة/خمسة فصول (١٩٥٥) — المرآة الجديدة / ثلاثة فصول (١٩٢٣) — الصندوق / فصل واحد (١٩٤٩) — الزمار / فصل واحد (١٩٣٢) — جنسنا اللطيف فصل واحد (١٩٣٥) — نهر الجنون / فصل واحد (١٩٣٥) — حديث صحفي / فصل واحد (١٩٣٨) — دقت الساعة / فصل واحد (١٩٥٠) — الشيطان في خطر / فصل واحد (١٩٥١) — لكل مجتهد نصيب / فصل واحد (١٩٥١) — بين الحرب والسلام / فصل واحد (١٩٥١) — لا تبحث عن الحقيقة / فصل واحد (١٩٤٧) — امام شباك التذاكر / فصل واحد (١٩٢٦) — نحو حياة أفضل / فصل واحد (١٩٥٥) — صلاة الملائكة / فصل واحد وستة مناظر (١٩٤١) — كل شيء في محله / فصل واحد (١٩٦٦) .

٣٥ — لعبة الموت (مسرحية) ١٩٥٧
٣٦ — اشواك السلام (مسرحية) ١٩٥٧
٣٧ — رحلة الى الغد (مسرحية تنبؤية) ... ١٩٥٧
٣٨ — السلطان الحائر (مسرحية) ١٩٦٠
٣٩ — يا طالع الشجرة (مسرحية) ١٩٦٢

٤٠ ــ الطعام لكل فم (مسرحية) ١٩٦٣
٤١ ــ رحلة الربيع والخريف (شعر) ١٩٦٤
٤٢ ــ سجن العمر (سيرة ذاتية) ١٩٦٤
٤٣ ــ شمس النهار (مسرحية) ١٩٦٥
٤٤ ــ مصير صرصار (مسرحية) ١٩٦٦
٤٥ ــ الورطة (مسرحية) ١٩٦٦
٤٦ ــ ليلة الزفاف (قصص قصيرة) ١٩٦٦
٤٧ ــ قالبنا المسرحى (دراسة) ١٩٦٧
٤٨ ــ بنك القلق (رواية مسرحية) ١٩٦٧
٤٩ ــ مجلس العدل (مسرحيات قصيرة) ... ١٩٧٢
٥٠ ــ رحلة بين عصرين (ذكريات) ١٩٧٢
٥١ ــ حديث مع الكوكب (حوار فلسفى) ... ١٩٧٤
٥٢ ــ الدنيا رواية هزلية (مسرحية) ١٩٧٤
٥٣ ــ عودة الوعى (ذكريات سياسية) ... ١٩٧٤
٥٤ ــ فى طريق عودة الوعى (ذكريات سياسية) ١٩٧٥
٥٥ ــ الحمير (مسرحية) ١٩٧٥
٥٦ ــ ثورة الشباب (مقالات) ١٩٧٥
٥٧ ــ بين الفكر والفن (مقالات) ١٩٧٦
٥٨ ــ ادب الحياة (مقالات) ١٩٧٦
٥٩ ــ مختار تفسير القرطبى (مختار التفسير) ١٩٧٧
٦٠ ــ تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات) ١٩٨٠
٦١ ــ ملامح داخلية (حوار مع المؤلف) ... ١٩٨٢
٦٢ ــ التعادلية مع الاسلام والتعادلية ١٩٨٣
(فكر فلسفى) ... ...
٦٣ ــ الأحاديث الأربعة (فكر دينى) ١٩٨٣
٦٤ ــ مصر بين عهدين (ذكريات) ١٩٨٣
٦٥ ــ شجرة الحكم السياسى (١٩١٩ ــ ١٩٧٩) ١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت فى لغـة اجنبية

شهر زاد : ترجـم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الاكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل اديسيون لاتين) وترجم الى الانجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرىكنتننتز بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالانجليزية فى واشنجطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الارياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة اولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الانجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ ــ ترجمة أبا ايبــان ــ ترجــم الى الاسبانية فى مدريد ١٩٤٨ وترجم ونشر فى الســـويد عـــام ١٩٥٥ ، وترجـــم ونشر بالالمانيـــة عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الاســـتاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم الى الايطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالاسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ، ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة ومن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك اوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠، وبالانجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالانجليزية فى امريكا بدار نشر (كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالايطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عـــام ١٩٥٠ .

براكسا او مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنســية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالانجليزية فى امريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالانجليزية فى امريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالانجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالانجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالانجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالانجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الورطـــــة : ترجم ونشر بالانجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالاسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهـــادىء : ترجـــم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الســـاحرة : ترجم ونشر بالفرنســـية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

انشودة الموت : ترجم ونشر بالانجليزية فى لنـــدن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالاسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجـــم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عـام ١٩٥٤ .

رحلة الى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالانجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالانجليزية لنــدن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالايطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالانجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دارنشر اكسفورد يونيفرستى بريس « الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل أيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحـــائر .

نشـــيد المـــوت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان ــ لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالانجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « ادبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الامريكية بالقاهرة ــ ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . ابراهيــم المــوجى ١٩٦٤ (بالانجليزية) نشر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المراة التى غلبت الشيطان : ترجمة توبليت الى الالمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة انجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان ــ لندن .

مقدمة

إن الشكل الحوارى والإطار الخيالى فى هذا الكتاب قد يوحى بأنه عمل إبداعى ، وليس له صلة بالواقع التاريخى أو السياسى ، فأنا لست من رجال السياسة ولا من رجال التاريخ ، إنما انتمائى هو إلى رجال الأدب والفن والفكر ... فكتابى هو انطباعات .. ومع ذلك فإن رجال السياسة منذ ظهوره فصولا فى الصحف — أواخر الثلاثينيات — قد اهتموا بمضمونه السياسى ... أما إطاره الفنى ، فلم يلتفت إليه سوى واحد من السياسيين ، دعانى إلى تناول الشاى فى منزله ، فلما اجتمعنا فاتحنى بعزمه على كتابة مذكراته السياسية بأسلوب شبه خيالى وبعنوان أدهشنى هو : « أبو الهول يتكلم ... » فاستغربت ذلك منه وهو « زعيم الحزب الوطنى » فى ذلك العهد : « حافظ رمضان بك » ... وصارحته بأن هذا العنوان وهذا الأسلوب لا يقبل من خليفة مصطفى كامل ومحمد فريد ... ولكنه مقبول منى لأنى لست من أهل السياسة ولا من أهل التاريخ ، بل أنتسب إلى أهل الفن والأدب ... وهى انطباعات وليست مذكرات ... واقتنع ... ثم التقى بى بعد ذلك المؤرخ « سليم حسن » وقدم إلىّ مخطوط كتابه عن الأدب الفرعونى ، فوجدت أسلوبه العربى ركيكا ، ففطن إلى ذلك ، ودفع بالمخطوط إلى من صاغه فى أسلوب عربى سليم .. وتحادثنا بهذه المناسبة فى علاقة التاريخ بالأدب ، وما سبق من تساؤل قديم عن التاريخ : وهل هو أدب أو علم ؟ ...

فالمؤرخ اليونانى الرومانى « بلوتاركس » فى كتابه عن المشاهير ظل ذخيرة الأدباء ... ولقد قرأت فيه تصويره لكليوباترا فلم أجد له نظيرا فيما كتب عنها ...

حتى العلم نفسه وجد من بين علمائه من أحسن التعبير فأفاد من ليس له بالعلم علاقة، وأنا منهم ... فقد قرأت لأينشتين و« هنرى بوانكاريه » و« شرودنجر » و« رستان » ما استطاعوا بأقلامهم المبينة أن يكشفوا لى عن عالمهم العجيب ...

أما الفلسفة فعلاقتها بالأدب وثيقة ... ومحاورات أفلاطون وكتابات ابن رشد وابن سينا وابن خلدون لا يبتعد عنها أديب حق... لكن التاريخ يبقى مع ذلك موجودا مستقلا بجوهره ، حتى لو بعد عن الأسلوب اللغوى السليم كما هو الحال عند الجبرتى ... وسوف يستقل التاريخ عن الأدب كما استقل العلم عن الفلسفة ... ويكون المعول عليه عندئذ فى التاريخ الوثائق، كما أصبح المعول عليه فى العلم المعامل... ولو أننا حتى اليوم نقدر فى المؤرخين ، وخاصة عندنا ، البيان اللغوى السليم ... ولقد كان من معارفى وأصدقائى مؤرخون ممتازون أذكر منهم : « شفيق غربال » وكان زميلا لى فى وزارة المعارف ، ثم « عبد الرحمن الرافعى » و « محمد صبرى » الشهير بالسوربونى ، وكانا من الأصدقاء الملازمين لى فى المصيف بقهوة « بترو » ...

كان « السوربونى » ممن لازمنى أيضا فى باريس ، وكان يؤلف بالفرنسية عن تاريخ « محمد على » كما كتب بالعربية عن « الشوقيات » ... أما « عبد الرحمن الرافعى » فقد نال الجائزة التقديرية فى التاريخ ، نفس العام الذى نلتها فيه للأدب ... وناب عنى لظروف الصحية فى إلقاء الكلمة التى تقضى التقاليد بأن يلقيها الأديب الفائز بجائزة الأدب باسم بقية الفائزين ... وكان أسلوب الرافعى كما هو معروف أسلوب المؤرخ المتمكن من لغته ، النزيه فى أحكامه ...

أما بعد : فإنى أود أن أكرر أن الشكل والإطار وما لجأت إليه من أسلوب ليس بالمألوف عند أهل السياسة والتاريخ لا يمنى أن المضمون متخيل فى كل الأحوال ، بل هى حقائق شاهدتها وشخصيات عرفتها ، ويمكن الاعتماد على واقعها التاريخى ، وعلى صدق انطباعاتها فى نفس محايدة لكاتب معاصر ... على الرغم من الشكل والإطار مما ينتمى إلى الأسلوب الفنى الأدبى الذى لا يمارسه السياسى والمؤرخ ... وإن كان السياسى أو المؤرخ يستطيع أن يستخرج من مجرد الانطباعات ما يمكن أن يهمه معرفته إلى جانب ما يستخرجه مباشرة من الوثائق والمذكرات ...

١٩٨٥/٢/٩

توفيق الحكيم

قيام ثورة ١٩١٩

لقد صدق نظر الأثرى الفرنسى :

« أمة أتت فى فجر الإنسانية بمعجزة « الأهرام » لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى . أو معجزات ! . . أمة يزعمون أنها ميتة منذ قرون ، ولا يرون قلبها العظيم بارزا نحو السماء من بين رمال الجيزة ! . . لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش إلى الأبد . . ! »

لعل هذا الأثرى الذى يحيا فى الماضى كان يرى مستقبل مصر أكثر من أى إنسان ! . .

فى « شهر مارس ١٩١٩ » . . مبدأ الربيع . . فصل الخلق والبعث والحيـــاة . . اخضرت الأشجار بورق جديد وحبلت وحملت أغصانها الأثمار ! . .

وكذلك مصر أيضاً ... قد حبلت وحملت فى بطنها مولوداً هائلا . . وها هى مصر التى نامت قروناً تنهض على أقدامها فى يوم واحد . . إنها كانت تنتظر — كما قال الفرنسى — تنتظر ابنها المعبود رمز آلامها وآمالها المدفونة يبعث من جديد . وبعث هذا المعبود من صلب الفلاح ! . .

كان « محسن » فى صباح اليوم المشهود فى فصله ، وإذا أحد التلاميذ قد أقبل وهو يلهث . وكلما صادف فى طريقه فئة لفظ بضع كلمات سريعة بلهجة

خطيرة، فتتغير وجوه السامعين .. حتى بلغ الخبر مسامع « محسن »، وما كاد يفكر فيه وفى معناه حتى ألفى للدرسة بأجمعها حوله تتهامس وتتناقش وتتساءل، ودق جرس الدخول فلم يأبه له أحد، أمر عجيب إذ ذاك فى تاريخ المدارس : أن يحتشد الطلبة هكذا، وفى ملامحهم معنى واحد هائل، ويدعون إلى الدرس فلا يجيبون، كأنما هو يوم القيامة !! ...

كان الجميع يتحدثون عن رجل لم يسمع به « محسن » من قبل، ولكنه أحس فى لحظة أن حياته يجب أن تعطى لهذا الرجل، وإذا الحماسة تبلغ إلى حد الهتاف فى رفاقه التلاميذ أن اتركوا المدرسة واخرجوا لملاقاة زملائكم طلبة المدارس الأخرى، فإن الأمر أجل من أن نشتغل بغيره الساعه . ولعل هذا كان نفس إحساس رفاقه، فإذا الجميع يهرعون إلى باب المدرسة، ولم تمض دقائق معدودة حتى كانت المدرسة بأجمعها سائرة فى الطريق، وخطر لـ « محسن » أن يذهبوا لملاقاة مدرسة الهندسة، حتى يجتمع بـ « عبده » ولأن هذه المدرسة قريبة منهم، إلا أنهم ماكادوا يسيرون قليلا حتى لمحوا حشداً من الطلبة مقبلا عليهم، فتبينوه فإذا هم طلبة الهندسة خرجوا أيضاً، وإذا « محسن » — لدهشته — يرى على رأسهم عمه « عبده » يلوح بذراعيه، ويهتف صائحاً وقد احمر وجهه وقطب حاجبيه، وفى رنين صوته ما يدل على هياج عصبى عظيم، وانضمت المدرستان إحداها إلى الأخرى وسار الكل لملاقاة المدارس الأخرى واقترب « محسن » من « عبده »، ووضع ذراعه تحت إبطه، وسارا معاً يهتفان... وبين الضجيج والأصوات الراعدة كان « عبده » يسأل « محسن » :

— خرجتم ازاى ؟ ! ...

فيجيبه « محسن » بكل بساطة :

— زى ما خرجتم انتم ! .

ولعل هذا السؤال وذاك الجواب تبودلا مراراً عدة بين جميع الطلبة وجميع المدارس . . وبين كل طبقات الشعب — إن كل فئة وطائفة كانت تحسب نفسها البادئة بالقيام . . الشاعرة بالعاطفة الملتهبة الجديدة ، ولم يفهم أحد إذ ذاك أن هذه العاطفة انفجرت فى قلوبهم جميعاً فى لحظة واحدة ؛ لأنهم كلهم أبناء مصر ، لهم قلب واحد ! . .

* * *

ما غابت شمس ذلك النهار حتى أمست مصر كتلة من نار ، وإذا أربعة عشر مليونا من الأنفس لا تفكر إلا فى شىء واحد : الرجل الذى يعبر عن إحساسها . . والذى نهض يطالب بحقها فى الحرية والحياة ؛ قد أُخذ ، وسجن ، ونفى ، فى جزيرة وسط البحار ! ! . . » .

* * *

كذلك « أوزوريس » الذى نزل يصلح أرض مصر ويعطيها الحياة والنور ، أخذ وسجن فى صندوق ، ونفى مقطعاً إرباً فى أعماق البحار ! . .

وانقلبت القاهرة رأسا على عقب ، فأغلقت الحوانيت والمقاهى والبيوت ، وقطعت المواصلات ، وعمت المظاهرات ، وقام نفس الهياج فى جميع أرجاء الأقاليم والأرياف! .. وإن الفلاحين لأشد من أهل المدن فى إظهار احتجاجهم وغضبهم ، فلقد قطعوا الخطوط الحديدية ليمنعوا وصول القطارات المسلحة ، وأحرقوا دور الشرطة « البوليس » ! . . »

* * *

وعاد « محسن » إلى المنزل ، فألفى « الرئيس حنفى » يحدث « زنوبة » بما وقع ، ويشرح لها الأسباب والعلل ، وهو يفرك ركبتيه تعباً وجهداً ،

فلقد مشى هو أيضاً فى مظاهرات عدة طول النهار ، ولم يلبث « سليم » أن عاد كذلك ، وقد اندمج فى جموع أخرى ، وجعل كل يتحدث بما رأى وسمع .. ويتنبأ بما سيحدث ، ويروى ما تتناقله الإشاعات التى تكثر فى هذه الظروف ، وجاء « مبروك » فقال أيضاً : إنه اشترك فى مظاهرة كبيرة بميدان السيدة ، وانه كان برفقة الجزار وصبيه والخباز وبائع البرتقال .. فكسروا وحطموا مصابيح الغاز وحواجز الأشجار ، وتسلحوا بالحجارة والعصى الغليظة والمراوات والسكاكين ، وحكى أن الخنادق قد حفرت هناك ، وأنه حفر معهم خندقاً عمقه متران وعرضه ثلاثة ! ..

وأصبح هذا حديث البيت .. ولعله الحديث العام فى كل البيوت ، وحضر « عبده » وطلب العشاء على عجل ؛ لأنه خارج ليلا إلى حى الأزهر ، حيث يعقد اجتماع كبير فى المسجد ، وسيخطب الخطباء فى الحالة الحاضرة ! ..

إذا الجميع ما عدا الرئيس « حنفى » — التعب — الطالب النوم يوافقون « عبده » ويبدون الرغبة فى مرافقته ! ..

وما جاء موعد الاجتماع حتى كان الأمر قد تفاقم .. فإذا « الأزهر » محاصر، وإذا المتظاهرون قد أقاموا المتاريس يتحصنون خلفها، وإذا هذا الحى، والحى المسمى « طولون » قد أصبحا ميدانا لمواقع دموية ، وقيل إن كثيرا من المصريين كشفوا عن صدورهم للمدافع الرشاشة فى بسالة مدهشة .. وقيل إن مصريا سودانيا تقدم فى جرأة إلى مدفع رشاش مصوب جهته ، فانتزعه بيده ، وجعل يضرب به أعداءه ضرب العصا ! ..

ولم يحجم « عبده » ورفاقه ، بل احتالوا حتى اجتازوا مناطق الحصار من حارات ضيقة مجهولة ، وحضروا الاجتماع ! ..

* * *

كان الناظر إلى القاهرة وشوارعها أثناء ذلك الوقت يرى منظراً عجيباً .. في وسط المظاهرات والهتافات .. كانت ترفرف الأعلام المصرية وقد رسم فيها الهلال يحتضن الصليب ! .. ذلك أن مصر أدركت في لحظة أن الهلال والصليب ذراعان في جسد واحد له قلب واحد : « مصر » !! ..

اشتدت الحالة حرجا ، غير أن المدهش أن « عبده » و « محسن » و « سليم » اندفعوا وانغمسوا في الثورة على نحو يقلق ، ولعل « زنوبة » هي الوحيدة التي لاحظت ذلك .. وقد خيل إليها أنها فهمت قليلا سر ذلك : إن هؤلاء الثلاثة الذين كانوا منذ قليل ساكنين صامتين كأصحاب « بنك » أفلس .. تخنقهم الكآبة والضيق كأنهم في سجن من نفوسهم لايستطيعون منه خلاصا ، هؤلاء الثلاثة ما كادت الثورة تنفجر حتى انفجروا معها .. وإذا هم يروحون ويغدون منهمكين فيها وفي حوادثها المتجددة المثيرة للحواس ، وإذا هم قد ذهب انقباضهم ووحشتهم ، وحل محله الاهتمام والكفاح والتحمس ، ولعل أصغرهم « محسن » كان أظهرهم تأثراً بذلك الحادث التاريخي ! فقد استحال كل ما كان في قلبه من حب خاب فيه بقسوة ، إلى عواطف وطنية حارة .. وكل عواطف التضحية التي كان مستعداً لبذلها في سبيل معبود قلبه ، إلى عواطف تضحية جريئة من أجل معبود وطنه .. هذا ما حدث أيضاً لـ « عبده » و « سليم » بمقدار أقل ..

عجباً ! .. أترى كان لا بد من تلك الثورة لتصريف عواطف هؤلاء المنكوبين في عواطفهم ؟ ! ! ! ...

ثم شيء آخر ، أتراها هي الأعجوبة التي كان لابد منها ، كيلا يسقط « محسن » في امتحان هذا العام ! ؟ .. في الواقع لم يكن ثمة أمل في « محسن » بإجماع أساتذته ، وهو نفسه ما كان يفكر في موضوع الامتحان ، ولا في شهادة الكفاءة هذه السنة ولكن ها هي الثورة أغلقت المدارس ، وألغت

الإمتحانات ، وها هو قد نجا من وصمة الفشل بأعجوبة ! ... غير أن «محسن» لم يعلق أهمية كبيرة على هذه المسألة ، ولم ينظر إلى الثورة بهذه العين الخاصة.. هى عواطفه القوية التى تحولت إلى وطنية ، كانت تملك كل كيانه ، وتصرفه عن كل شىء آخر حتى عن سلامته فى تلك الظروف الخطرة !...

* * *

ليس يدرى أحد على التحقيق أكان الثلاثة «عبده» و «محسن» و«سليم» قد اندمجوا فى سلك جمعية سرية أم ماذا ؟ .. لقد أصبحت حجرة السطح مستودعاً لرزم هائلة مكدسة من المنشورات الثورية ، وكانت تقف فى كل مساء بالباب « رقم ٣٥ شارع سلامة » عربة نقل ، يجرها حمار ، عليها صندوق خشبى كبير ، يصعده السائق بمساعدة « مبروك » تحت إشراف « عبده » إلى حجرة السطح وبعد أن يفرغ ما فيه من رزم يعاد إلى العربة ، ولا يدرى أحد بالضبط من أين تأتى هذه العربة ، ولا إلى أين تذهب الرزم ؟ .. هذا سر كان الثلاثة يفضلون الموت على إفشائه !...

* * *

وفى ذات يوم سَرت فى البلد إشاعة : أن التفتيش جار ، وأن كل مار فى الشارع والطرقات ، وكل مختلف إلى مقهى أو مشرب معرض للتفتيش فى أى وقت ، ومن يعثر فى جيبه على سلاح أو ورقة مشتبه فيها — يساق إلى السجن فى الحال ، ولكن . . للأسف ... جاءت الإشاعة بعد فوات الأوان ! . . ففى تلك الساعة كان « محسن » و « عبده » فى قهوة « الشيشة الكبرى » ، وجيوبهما محشوة بالمنشورات يوزعانها يميناً وشمالا ، فلم يشعرا إلا وضابطان إنجليزيان اقتحما المكان شاهرين المسدسات ، وخلفهما جنود مسلحون وفتش « عبده » و « محسن » ، وأخرجت من جيوبهما المنشورات .. وفتش بعد ذلك

منزلها ، وعثر على حجرة السطح ورزمها المكدسة ، هذا يكفى بالطبع لقبض على البيت بأكمله !.. وذلك أقل ما يعمل فى ظرف كهذا : قبض حتى على « الرئيس حنفى » والخادم « مبروك » وأخذ « حنفى » من سريره وهو يفرك عينيه ويقسم أنه لا يعرف شيئاً ، والواقع كان « حنفى » مظلوماً ، لأنه لا يدرى بما فى حجرة السطح .. ولكنه دائماً مظلوم ، وكونه مظلوماً دائماً لا يخليه قط من تحمل نصيبه من المسئولية !! ..

لم يستثن غير « زنوبة » !.. كل الدلائل تبرئها من التهمة ! .. إنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، ولا علم لها بشىء ، فتركوها وحدها فى البيت .. وقد ظل « مبروك » يغمز « اليوزباشى سليم » بيده طول الطريق ، ويهمس له فى سخط :

— كله منك يا « سى سليم » !.. قعدت تفتش.. لحد بلا قافية ما فتشونا ، وعلى رأى المثل ...

ولم يتم .. لأن الجنود المرافقين لهم منعوه من الاسترسال فى الثرثرة ، ولوحوا له بالبنادق ، فوضع يده على فمه ، وقال مرتجفاً :

— ياجناب العسكر ! .. مفيش لزوم للبنادق ! .. قطعت لسانى خلاص ! .. العمر مش بعزقة ! ...

* * *

زج بالخمسة فى قاعة واحدة من السجن ، فناموا ليلتهم من فرط التعب ، فلما أصبح النهار قام « مبروك » قبلهم ، وأخذ يتأمل المكان ، ويتبين أرجاءه ، فوجد شباكاً عالياً فى ركن ، كأنه برج بارز ، فاحتال حتى ارتفع إليه ، ونظر من بين قضبانه ، فرأى ساحة فأجال بصره فيها ، فإذا فى وسطها « عقلة » منصوبة ، وبجانبها « متوازيان » من الخشب ، لعلهما وضعا لتمرين الضباط والجنود الانجليز على الألعاب الرياضية ، غير أن « مبروك » لا يعرف ذلك ، فما كاد يرى هذه الأشياء حتى نزل يصيح :

— نصبوا المشنقة . .!!

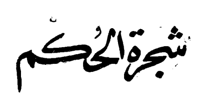
فا سمعه « الرئيس شرف حنفى » حتى فتح عينيه فى الحال وانتفض هلعاً ، ثم انتصب قائماً على قدميه يقول :

— المشنقة ! . . هى حصلت المشنقة ! . . هم رايحين يشنقونا ! ... لا . . دا كلام ما ينفعش ! . .

ونظر إلى « عبده » و « محسن » و « سليم » فإذا هم نيام أو متناومون فى هدوء تام ، فهزهم صائحاً :

— قوموا . . قوموا يا اولاد ! . . دى داهيتنا تقيلة ولا احناش عارفين !..

« عودة الروح »
١٩٢٧



« فوسوس إليه الشيطان ، قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ ... فأكلا منها ... فبدت لهما سوءاتهما ! ... ...
« قال : اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ! ... ... »

(القرآن الكريم)

مقدمة

(طبعة ١٩٤٥)

« شجرة الحكم » فصول نشرت فى الصحف فى سنة ١٩٣٨م وما بعدها ، وقد أثار نشرها وما فيه من مساس بالنظام البرلمانى كما يطبق فى مصر ، غضب الأحزاب جميعها ، لأن هذه الأحزاب جميعها تصل إلى كرسى الحكم على أساس هذا النظام ... وهى نتيجة لا نحمد عليها ، فإن الغاية المنشودة دائماً هى إرضاء الكل ... فإذا تعذر هذا الأمر فلا أقل من إرضاء البعض...أما إثارة السخط العام فهو عمل لايقدم عليه إلا الحمق ومن فى حكمهم... وأنا من هؤلاء ولا شك ... فقد فاتتنى فى دنياى حتى اليوم لذة لم أذقها قط ... تلك هى لذة من يَنقد ويُرمى وظهره مسند إلى حائط حزب ... كما فعل « العقاد » وهو نائب فى البرلمان الوفدى وصاح : « نحن مستعدون لتحطيم أكبر رأس فى البلد يعتدى على الدستور » !...

كنت ذلك الذى يصيب فلا يبسم له أحد ، ويصاب فلا يأسف له أحد ! ..

نقدت عيوب « النظـام البرلمانى » عام ١٩٣٨ ، وكنت يومئذ موظفاً فى الحكومة (مديرا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف العمومية) ، فعاقبونى عقاب اللص والمختلس ، وخشوا أن يحاكمونى ، لئلا أحسن الدفاع وأكشف القناع ، ولم يصغوا إلى قولى الذى رددته :

« إن من حق الكلام فى هذه الشئون ... إن لم يكن بصفتى كاتباً فباعتبارى مواطناً » . ولكن هيهات أن يكون لى حق الكلام فى إطار ذلك النظام ، حتى وإن نعت بالديمقراطية ! ...

ذلك لأنه الطريق المفروش بالورد لكل طامع فى الوصول إلى الحكم ، بل إنه « الخيلة » الجيلة التى تُظل عشاق الحكم ، فمن ذلك المجرم الذى تحدثه نفسه أن يمسك بالمقص ليشذب تلك الخميلة ، ويزيل الزائد من أطرافها ، ويهذب الفاسد من أوراقها ، ويدع ضوء الشمس ينفذ من خلالها ، فيهتك ستر العاشقين ، ويفضح سر الطامعين ؟ ! ...

« النظام البرلمانى فى مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام غير الصالحين » ! ...

كان هذا مضمون رأيى الذى أذعته فى نوفمبر ١٩٣٨م .

ولقد أنفأت فى ذلك الوقت مقالا بعنوان :

« لماذا أنتقد النظام البرلمانى ؟ ... » هذا نصه :

« ... فى عقيدتى أن كل مواطن يرى رأياً فيه صلاح لبلاده ويكتمه خوفاً أو جبناً أو إيثاراً لراحة النفس والبدن ، — إنما هو رجل مذنب فى حق بلاده وضميره ... لذلك لم أحجم عن إبداء رأيى فى النظام البرلمانى الحاضر ، باعتبارى مواطناً له حق الكلام ، وما زلت مصراً على قولى إنه فى حاجة كبرى إلى الإصلاح ، وما زلت على استعداد لتحمل المتاعب فى سبيل عرض رأيى صريحاً مجرداً أمام الجميع ! ...

مرحباً بكل من يقارع رأيى برأى ، حتى نصل آخر الأمر إلى اقتناع النفس بما فيه خير الوطن ... إذا لم يكن هذا هو جوهر الروح الديمقراطى فما معنى الديمقراطية إذن ؟ ... أهى فى الإرهاب ؟ ... أهى فى الحرج الذى يقع فيه كل من يحمل رأياً يخالف آراء الأحزاب ؟ ... لا أريد أن أعتقد ذلك ، وإنى لأود

من الرجال الأحرار أن يقنعونى بغير ذلك ، فيأذنوا لى أن أعرض آرائى التى قد تخالف آرائهم ...

رأيى الذى لم أقتنع بعد بخطئه : أن كل البلاء الذى نحن فيه ناشىء من نظامنا السياسى على وضعه الحالى ، ويظهر أن مصر ليست وحدها الواقعة فى هذا البلاء ..

فهاكم عبارات أضعها تحت الأنظار للمسيو « فلاندان » رئيس الوزارة الفرنسية الأسبق، نشرت فى صحيفة « كانديد » بتاريخ ٢٨ يوليو سنة ١٩٣٨ م :

« ... إن « البرلمان الفرنسى » لم يعد له فى البلاد اعتبار ... فقد كف عن مراقبة أعمال الحكومة بالمعنى الحقيقى ... إنما الحكومة اليوم تحكم ارتكاناً على شبه توكيل من أغلبيتها البرلمانية ! ... »

أليس هذا القول ينطبق على ما يقع فى مصر أيضاً ؟ ... أوَ ليس معنى هذا أن الحصول على أغلبية برلمانية تمنح الحكم هو الهدف الأسمى لكل حزب سياسى؟... وهو منبع الأتون الملتهب لذلك التطاحن الحزبى الذى لن ينطفىء؟... وهو المحرك الذى يدفع الأحزاب المتحاربة إلى المطالبة فى كل حين بتفريغ البرلمان وتعبئته، تبعاً لمطامعها دون التفات إلى أثر تلك الهزات المنيفة فى كيان الشعب وأمواله وأخلاقه ! ...

فلنستمع كذلك إلى قول مسيو « أندريه تارديو » ، رئيس وزراء فرنسا الأسبق فى جريدة « جرنجوار » ١٧ نوفبر سنة ١٩٣٨ م :

« الحقيقة هى أن كل أزماتنا الاقتصادية والمالية ليست إلا ثمرة نظامنا السياسى ... ثمرة تلك « الحرفة » البرلمانية ، التى تجمع فى نفس الوقت بين الاستبداد والعبودية ، بما لها من هذين الغرضين :

« ١ » تكرار الانتخابات إلى ما لا نهاية .

« وإن هذه الغاية هي كل الحقيقة الثابتة في الأمر إلى حد نرى معه « المعارضة » نفسها مجردة من البرنامج الإنشائي ... مثـلها في ذلك مثل « الحكومة »... إن للمعارضة لم تخترع شيئاً للعلاج سوى الإصلاح الانتخابي، أي بمعنى آخر : لا شيء مطلقاً ... لماذا ؟ ... لأنها خاضعة لعين الأغراض وللمطالب التي تسعى إليها « للمهنة البرلمانية » ، وهي : إعادة الانتخابات ، والوصول إلى مناصب الوزارة ، أو بمعنى آخر : هذان الغرضان اللذان يبددان مال الدولة ... تلك هي كل الحقيقة الناصعة ...

نعم ... كل هذا صحيح إلى حد نرى معه المسيو « رينو » وزير مالية فرنسا الحالي ، وهو يطالب بثلاث سنوات يطبق خلالها برنامجه ؛ — قد عرض لصميم المسألة السياسية : أين يجد هذه السنوات الثلاث ؟ ... أتراه يجهل أن في مدى ثلاث سنوات تستهلك فرنسا ١٢ وزارة ؟ ...

وصاح « تاردبو » في ختام كلامه قائلا :

« إذا أردنا أن ننقذ ماليتنا فلا بد قبل كل شيء أن نغير النظام السياسي ! ... »

أنا أيضاً أعني لمصر مثل هذه الصيحة القوية « إذا أردنا أن ننقذ بلادنا الغارقة في دماء الحرب الحزبية ، فلنصلح قبل كل شيء النظام النيابي ... بل أكثر من كل ذلك ... هناك دم الوطن الجديد ! ... هناك الشباب ، أي مصر الغد ، إذا أردنا أن ننقذ مصر الغد في شبابها ، فعلينا أن نصلح عيوبنا السياسية ، لأن ضررها قد امتد إلى أبنائنا ، وسمها زحف إلى صميم عملهم وكيانهم ومستقبلهم ! ...

ذلك أن الأوضاع الجديدة الديمقراطية — كما يساء فهمها في مصر — قد

صرفت شباب اليوم عن الجد والعمل ... فإن سريان داء الحزبية السياسية إلى كتلة الطلاب ، واستخدام الساسة للطلبة ذلك الاستخدام المعروف ، قد جعل الطلبة من جانبهم يستخدمون الساسة هم أيضاً للتدخل فى مسائل الدرس والامتحان ؛ وبذلك فهم شباب اليوم أنهم بمجرد الشكوى والإلحاح والوساطة لتخفيف البرامج وتسهيل الامتحانات ، يستطيعون بلوغ ماكان يبلغه أسلافهم بالكد والجد والعمل ! ...

ثم كان من أثر تدخل السياسة فى شئون الطلبة وللمدرسة أن ضعف نفوذ المدرسة ، هذا الضعف الذى أعجزها عن هداية الطلاب ! ...

ثم كان من أثر تفشى المحسوبية — وهى أحد نتائج مرض الحزبية — أن دب التراخى والتواكل فى المعلمين ، وغدا أكثرهم مثل بقية الموظفين وأكثرية الناس ، يتطلع إلى المادة والترقى عن طرق الوساطة ! ...

وتأثر البيت بذلك ، وبما فهمه خطأً من مرامى كلمة الحرية والاستقلال ، فاستقل كل عضو فى الأسرة عن الباقين ، وتحرر فى تصرفاته واتجاهاته ... وخرج عن طاعة رب البيت ... فتفككت عرا الأسرة ، وحلت فيها الفوضى ، وفقد الوالدان السيطرة على الأبناء ، وأصبح الصغار هم الذين يقودون الكبار فى البيت وفى السياسة ! ...

ولما كان الشباب هو طور اللهو والعبث وعدم المسئولية ، فإن تزايل الحواجز التى تنظم هذا الطور يؤدى حتما إلى جوحه وتغليبه ، وهذا ماحدث بالفعل من انطلاق الشباب إلى اللهو انطلاقا لا يحده شىء ولا يوقفه أحد ! ...

والرأى عندى فى علاج كل هــذا أن الأمر فيه موكل بتغير عام يحدث فى محيط المجتمع المصرى من جميع نواحيه السياسية والخلقية والدينية ، فلا للمدرسة ولا البيت يستطيعين الآن شيئاً كبيراً فى إصلاح ما فسد ، لأن الفساد جاء من عاصفة جائحة لمبادىء شوهت وأسىء فهمها ، هبت فجأة على هذا البلد

فقلبته ، « كما رأينا » شر منقلب ... فالأمر أجل وأخطر من أن يعالج بالعلاجات الموضعية ... إنما هي عاصفة أخرى جامحة من المبادىء الصحيحة السليمة ، ينبغي أن تهب فتقتلع ما وقع وترم ما انهدم ! ...

ولكن المعضلة هي : كيف ومتى تأتي العاصفة المباركة ؟ ...

في رأيي أنها لا تأتي بغير إعداد واستعداد كما جاءت العاصفة الأولى الهوجاء ؛ فلقد دخلت تلك العاصفة خلسة من النافذة التي فتحها جهاد طويل مجيد وحركة وطنية مجيدة ! ...

وهنا يأتي دور البيت والمدرسة في الإعداد والاستعداد ... عليهما يقع عبء تفهيم الشباب أن هذه الحال التي هم عليها لا يمكن أن تدوم وأن عليهم أن يستعدوا لإصلاح ما بأنفسهم ... على البيت والمدرسة الإكثار من تذكير الشباب بالمثل العليا القويمة والمبادىء الخلقية السليمة ، وأن يعرضا عليه عيوبه وعيوب الجيل وأمراض العصر ، وأن يقنعاه بأنه هو المنوط به يوما إصلاح كل هذا الفساد ، وإحداث الثورة المباركة التي تقيم الوطن على أقدام الصحة والقوة والنظام ! ...

* * *

على أن نقدي للنظام النيابي لا يعني أني أطالب بإلغائه ؛ فزوال هذا النظام من عالمنا الذي نعيش فيه يفضي إلى مشكلات لا حل لها ؛ لأن هذا النظام ليس تدبيراً متعسفاً فرضته إرادة معينة في وقت معين ، وإنما هو نتيجة طبيعية لتطور فكرة السلطة الشرعية منذ فجر التاريخ ! ...

ذلك أن الناس منذ خلقوا على الأرض في هيئة جماعات منظمة ، لم يكفوا عن التفكير في مبعث سلطان من يحكمهم ، فكانوا يعتقدون في البداية أن الآلهة هي التي تحكم !! ...

هكذا تروى لنا الأساطير القديمة ، ثم تركت الآلهة الأرضَ لحكام من أنصاف الآلهة ، ثم ترك حكم الأرض بعدئذ للملوك من البشر يستمدون سلطانهم من الآلهة ، وهنا ظهر نفوذ الكهنة فى سياسة الدولة ، فهم الجسر بين السماء والأرض ، من أيديهم تنتقل السلطة الشرعية من الإله إلى الملك ! ...

لم تمت هذه الفكرة بموت الوثنية ، بل استمرت فى العهود المسيحية ، ومضى رجال الدين يتوجون الملوك باسم الله مبعث السلطان الشرعى لملوك الأرض ! ...

بناء على هذه الفكرة السهلة الواضحة كان اختيار الحاكم سهلا واضحاً ، ولكن جاء بعد ذلك الزمن الذى نبذ الله فيه الناس لأنفسهم — ولعله ضاق بهم — ولم يشأ الاستمرار فى تحمل تبعة كذبهم وافترائهم ! ... أو لعلهم هم الذين أرادوا ذلك ، يوم قدّموا العقل والفكر على الإيمان والعقيدة ! ...

مهما يكن من أمر فقد جاء الوقت الذى أذن الله فيه للناس أن يفكروا برءوسهم ، وكان من أثر تفكيرهم أن تحملوا هم تبعة أعمالهم ، وبهذا تخلص الله نهائياً من مسئولية تعيين الحكام ، وترك للناس حرية الاختيار ! ...

وهكذا أصبح الناس أولياء الحق ! ...

ومن هنا نشأت « الديمقراطية » ، وكانت نشأتها فى عهد الإغريق ! ...

والإغريق هم أول من أخضع كل شىء لحكم الفكر والعقل والمنطق ... وبهذا ومن أجل هذا ، كانوا أول من أطاح بنفوذ الكهنة ، وسلطان الدين !!..

والآن حيث لا حق إلهياً ولا سلطان دينياً ولا تعيين سماوياً ، فالأمر متروك إلى الناس ! ...

كيف إذن يختار الناس حكامهم ؟ ... المنطق يقضى بأن نسأل الناس

رأيهم، وهذا السؤال قد اتخذ مسالك عدة حتى وصل آخر الأمر إلى طريقة الانتخاب ونظام الحكم النيابي، كما نراه اليوم في البلاد الديمقراطية ...

والانتخاب على عيوبه هو الوسيلة التي لابد منها، ما دام الناس هم أصحاب الرأي في تنصيب حكامهم! ..

ولقد اختلف الباحثون في أيهما أهون على البشر: حكم الفرد طبقاً لاختيار السماء؟ ... أو حكم الدستور طبقاً لانتخاب الناس؟ ... مهما تكن النتيجة فإن الرأي عندي هو أن طبيعة الحكمين مختلفة في محاسنهما وعيوبهما!! ...

فحكم الفرد لا تظهر حسناته إلاّ إذا نظرنا إليه في فترة سعيدة معينة بالذات، لأن العبرة فيه بشخصية ذلك الفرد، ومبلغ توفيق الظروف في إظهاره ... وعيوبه تتضح إذا أخذناه جملة، لأن حسن المصادفات التي تأتي بالفرد الصالح لا تتكرر كثيراً! ...

أما النظام النيابي فعلى النقيض، تظهر عيوبه إذا نظرنا إليه في فترة معينة ومكان معين، وتبدو حسناته إذا تناولناه جملة، وأخطناه بنظرة شاملة لأوقات مختلفة وحلقات متتابعة لأن هذا النظام له هذه المزية: وهو أنه يصحح ذاته بذاته، ويحوي الداء والدواء في طياته!! ...

على أن الحكمين في الحقيقة، بل كل حكم على هذه الأرض مردّه الوحيد إلى الشخص، ومرجعه إلى الرجل!! ...

فالنظم السياسية، والأوضاع الديمقراطية، والمبادىء المثالية، — ليست في ذاتها كل شيء، ومهما تصلح من فاسدها، وتبلغ من كاملها، فلن يغنينا ذلك إلاّ قليلا، ما دام الفساد ينخر في نفوس الأشخاص! ... وما قيمة إطار جميل لصورة قدرها ضئيل؟ ... وما نفع الثوب الرائع لشخص منحل معتل ضائع؟ ...

إن الحكم المثالي، في واقع الأمر، ليس في المبادىء المثالية؛ بل في الأشخاص المثاليين ...

ما أضعف المبادىء أمام الأشخاص !! ...

أكبر خطر على المبادىء هم الأشخاص ! ...

المصلحة الشخصية هي دائماً الصخرة التي تتحطم عليها أقوى المبادىء ! ...

ففي مصر وما شابهها من بلاد الشرق، تتمثل المصلحة الشخصية في ذات رجل الحكم ... في شهوة الحكم للحكم ورفاهيته وسلطانه وسيطرته وأبهته وعزته ! ...

وفي البلاد المتحضرة الكبرى — حيث الرأي العام اليقظ، والضمير القوي للنقد — تتمثل المصلحة الشخصية لا في ذات رجل الحكم؛ بل في ذات دولته ورفاهيتها وأبهتها وسلطانها وعزتها وسيطرتها ومكانتها، ويصبح رجل الحكم فيها أداة لتحقيق هذه السيادة والسيطرة ولو ضحى في سبيل ذلك بالمبادىء الإنسانية ونقض المواثيق العالمية ! ...

في أمثال مصر من البلاد لا يستطيع السياسي أن يتجرد من مآرب ذاته ومطامع شخصه عند مواجهته للمبادىء الوطنية القومية ! ...

وفي أمثال انجلترا من البلاد، لا يستطيع السياسي أن يتجرد من مآرب أمته ومطامع دولته عند مواجهته للمبادىء الإنسانية العالية ...

تلك هي مأساة الحكم في كل زمان ومكان؛ بل تلك هي مأساة الضعف الإنساني ! ... خير مصر والبلاد الشرقية في محيطها الصغير، وخير العالم كله بدوله الكبرى والصغرى في محيطها الكبير؛ يتوقف على ظهور حفنة من رجال نسوا — في لحظة من اللحظات — أبهة أشخاصهم وسيادة دولهم؛ ليعملوا

خالصين مخلصين لتحقيق للبادىء المثالية على الأرض ، بما تحويه من عدالة وحق وتعاون ومحبة وإخاء ! ...

ولكن هيهات ! ... هيهات ! ... إن ظهور هؤلاء الرجال لمن المحال !! ...

إن معجزة الأنبياء ليست فى مبادئهم بقدر ما هى فى أشخاصهم ...
فالخير والشر ، والفضيلة والرذيلة والهدى والضلال ، أفكار ومبادىء ونوازع يعرفها الناس قبل ظهورهم ، وليس مجرد الدعوة إليها أو النهى عنها هو كل ما جاءوا به من جديد ، ولكن الجديد فى النبى هو شخصيته ! ...

إنه تلك المبادىء العليا لا فى هيكل كلمات ، بل فى هيكل لحم ودم ! ... شخصه مبادئه ، ومبادئه شخصه ، ولا سبيل إلى فصل أحدهما عن الآخر !! ...

ذاته هى الفكرة المثالية ، والفكرة المثالية هى ذاته ، يعيشان معاً فى السر والعلن ! ... لذلك نظر الناس إلى الأنبياء مشدوهين يتساءلون : أهم من طين؟ ... أم عجنوا بنور تلك الفكرة التى من أجلها جاءوا ؟ ... ذلك أن النور العلوى يحف بأشخاصهم ، ويشع من أجسادهم ! ... لهذا صدقهم الناس واتبعوهم ، وانقلبت تلك المبادىء المعروفة ، وتحولت فى أيدى الأنبياء إلى دين يبذل الناس فى سبيله الأرواح ويجودون من أجله بدمائهم راضين !! ...

لا خير فى فكرة لم يتجرد لها صاحبها ولم يجعلها رداءه وكفنه ، بها يعيش وبها يموت ...

فى رأسى كلمة لـ « نيتشه » أحفظها منذ أكثر من عشرين عاماً ولا أنساها :

« ليست قوة المشاعر العظمى هى التى تخلق العظماء ... ولكن مدتها » ! ...

نعم ! ... نعم ! ... إن المشاعر الكبرى فى متناول الجميع ، ولن تكون عظيمة بقوتها ، ولكن بمدتها ! ...

ما من شك عندى فى أن أكثر رجال السياسة والحكم فى مصر قد خالجتهم يوماً أعظم مشاعر التضحية والبطولة ، ولكن إلى أى وقت عاشت فى قلوبهم هذه المشاعر ؟ . . وإلى أى مدى احتفظوا بقوة هذه العواطف فلم يلينوا بعد ذلك لمغريات المنصب ولم يذعنوا لشهوات النفس ، ولم يخضعوا لمطالب العيش ، ولم يجرفوا فى تيار النعمة والأبهة والرفاهية ؟؟ ...

ما أكثر أولئك الأبطال الذين يبدءون بالعذاب والتضحية والتشريد وينتهون إلى الملذات والأرائك والعيش الرغيد ! ... وما أندر أولئك الأبطال الذين يعيشون بفكرتهم العليا مشردين ، ويموتون بها محشورين فى زمرة المساكين ! ... تلكم هى العظمة ! ...

١٩٤٥ ت . ا

شجرة الحكم السياسى (*) فى الآخرة

« جنة الخلد بأشجارها وأنهارها وحورها
وقطوفها الدانية ! . . . . »

(*) وهى هنا مجرد تخيل ؛ لأن حقيقة الآخرة فى علم الغيب وحده ... وقد تخيلت زعماءنا فى الجنة — والله غفور رحيم — ولكن أفكارهم هى أفكارهم فى الدنيا ... فالأسلوب متخيل ، ولكن المضمون حقيقى .

١

"صاحب الدولة" و "صاحب المعالى" (*)

« صاحب الدولة » يتمشى فى الجنة باسماً
مرحاً بقرب نهر « الكوثر » متأبطاً
ذراعى حوريتين جميلتين ... ... »

* * *

الحورية الأولى : « باسمة » ما رأيك فى الجنة ؟ ...

صاحب الدولة : بديعة كنفسانيا ! .. ولو كان بقبضتى زمام الحكم هنا لأنشأت على هذا الكوثر « كورنيشا »[1] ! ...

الحورية الأولى : « باسمة » مثل « كورنيش الإسكندرية » ؟ ! ...

صاحب الدولة : « يلتفت إليها فجأة » ما كنت أحسب نساء الجنة على مثل هذا الذكاء ! ...

الحورية الأولى : من حسن حظنا أن يدخل مثلك الجنة ... إنى لأتساءل : لو لم تجىء أنت ها هنا فمن ذا الذى كان يقدّر ذكاءنا ويتذوق جمالنا ؟ ...

(*) « صاحب الدولة » هو اسماعيل صدقى باشا ... و« صاحب المعالى » هو توفيق دوس باشا .

(١) كورنيش الاسكندرية الذى أنشأه اسماعيل صدقى باشا .

أهؤلاء النساك أصحاب اللحى الكبيرة والسبح ذات الجلال والوقار ؟! ...

صاحب الدولة : إنك ظريفة حقاً ... أين رأيتك قبل الآن ؟ ... ألم نتقابل فى الدنيا فى مكان ما ؟ ... فى سهرة مثلا ، أو فى ...

الحورية الأولى : كلا ... مطلقاً ! ... لم أرك قبل الساعة ! ... ماذا كنت تصنع فى الدنيا ؟ ... وأين كنت ؟ ...

صاحب الدولة : كنت فى مصر ، رئيساً للوزارة ، وصاحب حزب من أقوى الأحزاب[1] ، بنيته بيدى فى أقل من شهر ! ...

الحورية الثانية : صاحب حزب ! ؟ ... ما هو الحزب ؟ ... أهو « فيللا » أم « عمارة » ؟ ...

الحورية الأولى : كلا أيتها البلهاء ! ... بل هو « عشة فى رأس البر » ؛ فهى وحدها التى يمكن أن تبنى فى أقل من شهر ! ...

صاحب الدولة : « ممتعضاً » أنتما لا تفهمان شيئاً فى السياسة ، فلنتكلم ... فيما يفهمه النساء ...

الحورية الثانية : تقول إنك كنت رئيساً للوزارة ... ما معنى هذا ؟ ...

الحورية الأولى : ألا تعرفين رئيس الوزارة ؟ ... يالك من حمقاء ! ... هو رئيس الحكومة الآمر الناهى ... الذى يعين ويفصل ويحيل إلى المعاش بقرار من مجلس الوزراء ، ويعطى ويمنع ، ويتصرف فى الميزانية والمصاريف السرية ، ويتزاحم حوله ذباب المحاسيب والمقربين ، ويجتمع ببابه فريق العساكر

(١) حزب الشعب ، أنشأه اسماعيل صدقى باشا ، وانتهى أمره بسقوط صدقى باشا الذى أنشأه .

والمخبرين ، وتتقدم سيارته « للموتوسيكلات »
والسكونستبلات ، حتى إذا ما استقال أو أقيل ، تخاطفته
مجالس إدارات الشركات ! ...

صاحب الدولة : « يغمض عينيه » آه لا تذكّريني ... لا تذكريني ...

الحورية الأولى : « تنظر إليه » ماذا دهاك ! ...

صاحب الدولة : « يثوب إلى نفسه » لا شيء ! ... « يتنهد » إن الدنيا كانت حقيقة حلوة ...

الحورية الثانية : « تلتفت خلفها ، وتصيح » صه ! ... أنظر ! ... أنظر ! ... من هذا الرجل الأنيق بين حوريتين ؟ ! ...

صاحب الدولة : « يلتفت دهشاً » ماذا أرى ؟ ... زميلي ! ...

« يدنو الرجل الأنيق فما يكاد يلمح
صاحب الدولة حتى يترك حوريتيه ،
ويفتح فاه دهشة وعجباً ... ... »

صاحب المعالي[1] : مستحيل ! ! ... دولتك فى الجنة ؟ ... هذا غير معقول ! ...

صاحب الدولة : « يترك هو كذلك حوريتيه ويقبل على زميله » معاليك هنا ؟؟...

صاحب المعالي : دولتك ! ... « يتعانقان ... ... »

صاحب الدولة : أأنت حقيقة فى الجنة ؟ ! ...

صاحب المعالي : وأنت ؟ ... أخبرني هل أنت ! ... أنت ... هنا ؟ ! ...

صاحب الدولة : « باسماً » كما ترى ...

---

(١) صاحب المعالي توفيق دوس باشا كان وزيراً فى وزارة اسماعيل صدقى باشا .

صاحب المعالى : هذا من أعجب ما يتصوره العقل البشرى ... دولتك فى الجنة ! ...

صاحب الدولة : ما وجه الغرابة ؟ ...

صاحب المعالى : كيف أدخلوك هنا ؟ ! ...

صاحب الدولة : أدخلونى كما أدخلوك ، وكما أدخلوا غيرى من ... المؤمنين الصالحين ! ...

صاحب المعالى : المؤمنين الصالحين ! ...

صاحب الدولة : « باسماً » أتشك فى ذلك ؟ ...

صاحب المعالى : تدخل الجنة بعد أن كان منك فى دنياك ما كان ؟؟ ...

صاحب الدولة : ماذا حصل ؟ ... وإذا كان قد حصل ما حصل ، فهل منعنى ذلك من دخولى فى الدنيا أى مكان أحببت الدخول فيه ؟ ... إنى أستطيع أن أذهب إلى أية جهة تروقنى ... وأستطيع أن أدخل أى مكان يعجبنى ، وأستطيع أن أدخل ... فى ... عينيك ! ! ...

صاحب المعالى : نعم ! ... لباقتك ودهاؤك وانتهازك الفرص ... انتظر ... ألا تكونُ انتهزت فرصة إغفاءة من حارس الجنة ، وانسللت كما هى العادة ! ...

صاحب الدولة : أو تظن حارس الجنة يغفى ، أو يسهو أو يغفل ؟ ...

صاحب المعالى : صحيح ... إنه لا يمكن أن يكون مثل أهل مصر ! ... إذن كيف دخلت ؟ ...

صاحب الدولة : وأنت كيف دخلت ؟ ... أليس لى أنا أيضاً الحق فى التساؤل والتعجب ؟! ...

صاحب المعالى : لك الحق بلا شك ... أنا نفسى عجبت لأمر نفسى ، ولكن بعد أن رأيتك هنا بعينى لم يعد شىء يدهشنى ! ...

صاحب الدولة : اسمع يا باشا ! .. ألا يكون دخولنا الجنة قد وقع على طريقة دخولنا « البرلمان » سنة « ... » ! ...

صاحب المعالى : كنت أصدّق ذلك ، لو كان انتخاب أهل الجنة قد كان بواسطة رجال إدارة ، وعمد ، وخفراء ، كالذين كانوا فى الدنيا تحت سلطة دولتك ...

صاحب الدولة : صدقت ! ... انتخابات أهل الجنة لابد أن تكون مضبوطة !! ... تكون ...

صاحب المعالى : مضبوطة !! ... وافرحتاه !! ... نحن — أول مرة — إذن ننتخب انتخاباً صحيحاً فى شىء ما ! ...

صاحب الدولة : هذا لا شك فيه !! ...

صاحب المعالى : ولكن ما السبب فى اختيارنا ؟! ... هذا ما يحيرنى دائماً ! ...

صاحب الدولة : ألا يمكن أن نكون قد صنعنا بعض الحسنات دون أن نتذكر ؟ ...

صاحب المعالى : أنا على كل حال لا أذكر لك شيئاً ! ...

صاحب الدولة : ألم أطعم مرة فقيراً ؟ ... ألم أنشىء مطاعم الفقراء[1] ؟ ...

صاحب المعالى : إنشاء مطاعم للفقراء لم يكن الغرض منه إطعام الفقراء ! ...

صاحب الدولة : سبحان الله فى طبعك ! ... وأنت ما حسناتك ؟ ...

صاحب المعالى : لقد بنيت عمارة شاهقة فى أغلى بقعة فى القاهرة !! ...

---

(١) كان صدقى باشا قد أنشأ فى القاهرة مطاعم أسماها « مطاعم الشعب » .

صاحب الدولة : أتسمى هذه حسنة ؟ ...

صاحب المعالى : لقد عملت بمبدأ « اعمل لدنياك ، كأنك تعيش أبداً ! ... »

صاحب الدولة : وأين الشطر الأخير من المبدأ ؟ ...

صاحب المعالى : هل له شطر آخر ؟ ...

صاحب الدولة : « واعمل لآخرتك ، كأنك تموت غداً ... »

صاحب المعالى : لقد عملت ما قدرت عليه وهو خمسون فى المائة من المبدأ ... أليس فى هذا القدر كفاية ؟ ... ومع ذلك لنكن عمليين كما كنا فى الدنيا ، العبرة بالنتيجة ... وها نحن أولاء الآن فى الجنة ، فما لنا وللبحث عن الأسباب ؟ ! ...

صاحب الدولة : فى الواقع ! نحن الآن فى الجنة فلماذا نستكثر على أنفسنا الخير ؟ ... أتريد الحقيقة ؟ ... إن الجنة لمن يستطيع أن يتذوق الجنة ! !

صاحب المعالى : يشهد الله ، ولتشهد دولتك أنى من خير المتذوقين للنعيم فى الدنيا والآخرة ! ! ...

صاحب الدولة : قل لى يا باشا ! ... إن الجنة بديعة ... أليس كذلك ؟ ...

صاحب المعالى : طبعاً ... أبدع من النار على كل حال ! ...

صاحب الدولة : ألا ترى مع ذلك أنها ينقصها شجرة ذات فاكهة شهية ؟!...

صاحب المعالى : شجرة « الحُــكم » ! ...

صاحب الدولة : كيف حزرت ؟ ...

صاحب المعالى : ما من فاكهة ألذ منها ! ... من ذاقها مرة فلن ينساها أبد الدهر ! ...

صاحب الدولة : ولماذا لا تكون هذه الشجرة هنا ؟

صاحب المعالي : لأنه لا يمكن أن يكون هنا حاكم ومحكوم ، كما لا يمكن أن يكون هنا ظالم ومظلوم ! ؟ ...

صاحب الدولة : أصبت ! ... وحتى لو كانت هذه الشجرة هنا لتكالب عليها الناس أجمعون، وخصوصاً كل أصحاب الدولة والمعالي السابقين من عهد « نوح » إلى « يوم الدين » ...

صاحب المعالي : مؤكد ! ... ولما تركوها غير أغصان عارية ليس فيها ثمرة واحدة ! ...

صاحب الدولة : حقاً ، إذ أن هذه الفاكهة ليس لها شوك يصد عنها الناس ! ...

صاحب المعالي : الشوك هو المسئولية ، وفاكهة الحكم كما ذقناها فى مصر لم يكن لها شوك ولا نوى ... بل كانت سهلة المأخذ ، سائغة للآكل ! ... أما فى أوروبا حيث الرأى العام المتيقظ ، يحيط هذه الفاكهة بأسلاك شائكة من المسئولية ، — فإن كثيراً من الناس يعافونها ، ويخشون أن يمدوا إليها يداً ! .

صاحب الدولة : إن وجدت هذه الفاكهة هنا فهى ولا شك من النوع المصرى السائغ اللذيذ ! ...

صاحب المعالي : كفى يادولة الباشا ! ... إنك تسيل لعابى ، فلنترك هذا الموضوع ولنقنع بما قسم لنا ! ... إن الجنة فيها ما يمكن أن يشغلنا ...

صاحب الدولة : « كالمخاطب لنفسه معزياً نفسه » ومع ذلك ... إن لذة الوزارة قد قلت منذ أن أدخل « النظام البرلمانى » ... ألا تذكر ؟ ...

صاحب المعالي : نعم ... لقد أصبح أى شخص من الممهل عليه أن يكون وزيراً بدل أن يكون موظفاً فى الدرجة الثالثة ! ...

صاحب الدولة : وا أسفاه ! ... لم تعد الكفاءة شرطاً لدخول الوزارة ؟ ...

صاحب المعالي : ومتى كانت الكفاءة يادولة الباشا فى مصر شرطاً لدخول الوزارة ؟ ...

صاحب الدولة : صدقت ! ... ولكن فى العهد القديم ، يوم كان ولى الأمر هو الذى يختار — سواء كان هذا الولى مصرياً أو أجنبياً — فهو وإن كان أيضاً يخضع لاعتبارات خاصة فى الاختيار ، إلا أنه كان دائماً يرعى توفر شروط الكفاءة فى الإدارة الحكومية على الأقل ، إلى جانب شروط اللياقة والكياسة والمقدرة على إقرار النظام وحفظ الأمن الخ الخ ... ولكن انظر إلى الاختيار وقد ترك أمره الآن فى يد الشعب ... إنه كما قال « هتلر » فى إحدى خطبه : « قد يكون من الأيسر أن نأمل فى رؤية جمل يمر من ثقب إبرة ، على أن نأمل فى رؤية رجل عظيم يكتشف عن طريق انتخاب الجماهير » ! .

صاحب المعالي : هذا يادولة الباشا قول يجوز فى ألمانيا وأوربا ، أما فى مصر ، فمن قال إن الشعب أو الجماهير تنتخب أحداً ؟ ...

صاحب الدولة : صدقت ، إن الحال فى مصر أيضاً أعجب من ذلك ، فإن الشعب لا ينتخب ، ولا يدرى ما هو الانتخاب ، ولكنه يرى معدات « الموسم » قد نصبت ، ويسمع الطبل والزمر ، ويجد أشخاصاً قد أقبلوا فى السيارات ... « يجمعون » أصواته بالنقود والوعود ، فشأنه فى « موسم الانتخاب » كشأنه فى « موسم دودة القطن » سواء بسواء ، حيث يرى سيارات مقاولى الأنفار « الترحيلة » قد أقبلت تجمع الأنفار

بالحبوب والنقود ، وهكذا يعمل جماعة من المقاولين لحساب جماعة من الممولين ، يصبحون فى الغد هم الوزراء ! …

فأين إذن الكفاءة فى كل ذلك ؟ … المسألة بسيطة : جمع « الأصوات » وجمع «الدودة » إن هما إلا عملية واحدة فى أرض مصر… عمادها النقود ومقاولوا الأنفار من جانب و« ساعد الحكومة » من جانب آخر … فمن آزره أحد العاملين ، فقد جمع « دود » أطيانه ، وجمع « أصوات » أنفاره ، وضمن « المحصولين » فى دائرته السعيدة وناحيته العامرة !! …

وبذلك ينتهى الموسم وينكشف كل فريق عن أوراقه ، فيصبح الفريق الأكثر مالا ، أو الأقوى سلطاناً ، أو الأمهر دَجَلا صيحة الانتصار ! … ويعلن أن الأمة قد أحسنت « الاختيار » ! …

صاحب المعالى : « يضحك » هذا صحيح ! … كل هذا صحيح ! … ولكنك نسيت يادولة الباشا أنك لجأت إلى كل هذه الوسائل وحذقتها أكثر من غيرك ! …

صاحب الدولة : إنى معترف بذلك ، وهل كنت تريد منى ألا أنتفع خير انتفاع بهذا الطريق الجديد السهل المختصر للوصول إلى الحكم ؟… مادامت تلك كانت « عملة » العصر التى تظفر بالغنيمة ؟ … فهل من لوم علىّ إذا حذقت التعامل بها فى تلك السوق ؟ …

«تهامس الحور الاربع ، وقد كن يسمعن
مايدور بين الوزيرين ، صامتات دهشات
وهن على مقربة منهما … … … »

حورية : «تسأل جارتها» عجباً ! ... كل حديثهما فى السوق وللوسم والوصول إلى الحكم ولذة السلطة والانتصار على الفريق الآخر والظفر بالغنيمة ؟ . ماذا كان عمل هؤلاء فى الدنيا ؟ ! ...

إحدى الحور : وزراء ! ...

الحورية : اللهم حكمتك ومشيئتك ! ... ولماذا إذن أدخل الجنة مثل هؤلاء ؟ ! ...

إحدى الحور : تقديراً لبراعتهم ! ... فقد استطاعوا الاحتفاظ بإجلال أمتهم لهم بعد كل ذلك ! ...

الحورية : أصبت ! ... حقاً إنها لبراعة ! ! ...

٢

"الزعيم الوطنى" و "كاتم السر" (*)

« يسيران فى الجنة وهما باسمان
يتبختران وحولهما وخلفهما جموع
من الحور والولدان ، تلوح ببعض
الأغصان وتهتف من أعماق
حناجرها . . . . »

* * *

الحور والولدان: فليحى الزعيم ! ... فليحى الزعيم ! ...

« يأتى بعض أتباع سيدنا رضوان . . . »

أتباع رضوان : ما هذا الهرج والمرج والصخب والشغب ؟ ... ومن الذى أذن لكم فى تكسير أغصان الجنة والتجمهر والهتاف ؟؟ ...

الزعيم[1] : دعوهم ؟ ... ما شأنكم ؟ ... ولماذا تتدخلون ؟ ... اتركوا

(*) « الزعيم الوطنى » هو مصطفى النحاس باشا (الزعيم الجليل) .
« كاتم السر » هو مكرم عبيد باشا سكرتير عام حزب الوفد . .

(١) الزعيم الجليل » كان اللقب الذى يطلق على مصطفى النحاس . ولكنى جملته فى الطبعة الأولى التى نشرتها فى الصحف (الزعيم الجليل) ... فامتعض فقط النحاس باشا كما قيل لى واعتبرها سخرية منه ، ولكنه لم يغضب ...

الجميع يظهروا شعورهم ! ... حتى هنا يمنعون المظاهرات السلمية بالقوة والعنف !

أتباع رضوان : الجنة مكان هادىء ! ... نحن الموكلين بحفظ النظام نرى فيها أول مرة عدم النظام ...

الزعيم : حفظ النظام ؟ ! ... أنتم أيضاً تعلمتم أن تحتجوا بهذه الألفاظ ! ... يظهر أن فى الأمر علة ! ...

أتباع رضوان : « يفرقون الجموع » انصرفوا إلى شأنكم ... تفرقوا فى الجنة الواسعة ! ...

« يذهب الجميع ولا يبقى غير الزعيم وكاتم السر »

الزعيم : سبحان الله ! ... أفى كل مكان ندخله يعتبروننا عنصر شغب ! ...

كاتم السر : هو كيد خصومنا ...

الزعيم : ولماذا الكيد ؟ ... هل هنا أغلبية ؟... هل هنا انتخابات حرة ؟ ... لماذا يكيدون لنا إذن ؟ ... لا ... لا شك أن فى الأمر شيئاً ... لماذا لا تقول مثلا : إنهم على حق ، وإننا فعلاً عنصر شغب دون أن نشعر ؟ ...

كاتم السر : وما الضرر ؟ لقد قيل إن أكثر الرسل كانوا كذلك !... إليك المسيح مثلا ، لقد اتهمه أهل عشيرته من اليهود بأنه يبذر بذور الشغب فى أرض « أورشليم » وأقنعوا الحاكم الرومانى بأنه خطر على الأمن والنظام ولاشىء كان يهم ذلك المندوب السامى الرومانى أيضاً غير كلمة الأمن والنظام المسئول

عنهما أمام روما ، فلما دخل فى روعه أن للمسيح عنصر شغب لم يتردد طويلا ... وأسلمه لأعدائه كى يصلب ... نحن أيضاً كنا رسل وطنية ، فلماذا لا يحق علينا بعض ما حق على رسل الأديان ؟!...

الزعيم : نعم ... كنا رسل وطنية ، لقد صدقت ، ولقد سارت خلفنا الجموع ، لأنهم وضعوا فينا الثقة واعتقدوا فينا هذا الاعتقاد ، ولكن ... وا أسفاه ! .. يخيل إلىَّ أننا ارتكبنا غلطة ! ... نحن هنا الآن فى مكان هادىء كما يقولون ولا بأس من أن نحاسب أنفسنا ؟ ... ألا ترى معى أننا لم نستطع المحافظة طويلا على قداسة نبوتنا الوطنية ! . . . إنى الآن أفكر بعيداً عن الماضى فتنجلى لى الحقيقة : لقد كان ينبغى لنا أن نقول للوطن بعد أن جئناه بوثيقة حريته[1] : « أيها الوطن ، إليك ما استطعنا أن نعطيك بعد جهادنا الطويل ، فاحكم الآن نفسك طبقاً للمبادىء التى غرسناها فيك ... أما نحن فليس لنا بعد اليوم مطمع ، وسنبقى بعيداً عن الحكم[2] وعن الخلافات والمآرب

(١) يقصد معاهدة ١٩٣٦ التى كان يسميها معاهدة الشرف والاستقلال .

(٢) فكرة البعد عن الحكم هذه كانت فكرة أحمد ماهر باشا يوم كان وفدياً مع النحاس ، وقد التقينا يوماً فى وزارة المعارف يوم كنت مديراً لإدارة التحقيقات بها ، وكان أحمد ماهر باشا قد قرأ هذا الفصل فى الصحف وقال لى : لكأنك كنت معنا على الباخرة يوم عودتنا من الخارج ؛ فقد نصحت النحاس باشا أن يبتعد عن الحكم ويكتفى بوصفه « زعيم الأمة » . .

والمنازعات ... ولن نتحرك إلا يوم تطلب أنت إلينا النصح والمشورة ، أو يوم نراك فى خطر ، أو نرى المبادىء الكبرى معرضة للإنهيار ! ... »

لو كنا قلنا ذلك وفعلنا ذلك فى تلك اللحظة لكان الوطن قد أجمع كلمته على وضعنا أحياء فوق قواعد من الرخام ...

كاتم السر : نعم ... كان الوطن قد دفننا أحياء تحت قبر من الرخام ، وكان الناس قد نسونا بعد نفض أيديهم من تراب المقبرة ! ...

الزعيم : إنهم ما كانوا يستطيعون أن ينسونا ... فنحن رمز المبادىء التى بها يعملون ، وفى ظلها يعيشون ! ... إنا لن نكون أمواتاً فوق قواعدنا الرخامية وتحت هالتنا القدسية ، ولكننا نحمل فى أيدينا مصباح المبادىء ، ونشير بأصابعنا إلى الطريق الذى يهدى الناس ! ...

كاتم السر : إن الناس لا تكلف أنفسها فى كل وقت مئونة رفع أبصارها إلى أصابع التماثيل ! ... « الحكم » هو كل قوة المبادىء ! ... خصوصاً فى مصر ! ... إن المبادىء بغير حكم كالقفاز بغير أصابع ! ... هل يستطيع القفاز أن يحرك شيئاً أو يقبض على شىء بغير أصابع فى داخله[1] ؟ ...

= ثم أكد لى أحد وزراء الوفد وقال لى إن أحمد ماهر كان يقصد بهذه النصيحة أن يحل هو محل النحاس باشا فى رياسة الوزارة الوفدية . وكان مكرم عبيد يعلم بهذه النية .

(١) بلغنى أن مكرم عبيد باشا هو الذى غضب من هذا الكلام المنسوب إليه .

الزعيم : قلت لك ما كان ينبغى لنا أن نريد تحريك شىء أو القبض على شىء ... إن مهمتنا ورسالتنا بعد تقديم وثيقة الحرية كان يجب أن تكون مقصورة على حمل المبادىء مجردة حتى يراها الناس ...

كاتم السر : الناس فى مصر قصيروا البصر ، ولن يروا المبادىء إلا إذا ارتفعت فوق الكراسى ! ...

الزعيم : لا ... لست من رأيك ... إن للمبادىء فى ذاتها نوراً يكشف عن وجودها ... وحتى القوة المسلحة ما استطاعت يوماً أن تخنق المبادىء ... هذا ما كنا على الأقل نهتف به فى أول جهادنا الوطنى ... ألا تذكر ؟ ...

كاتم السر : أذكر ... وما تقول صحيح ... ولكنى ما برحت أخالف زعيمى فى قوله إننا أخطأنا باستمرارنا فى ميدان الحكم والسياسة الحزبية ... نحن فى حقيقة الأمر ما كنا نملك أن نصنع غير ما صنعنا ، وحتى لو كنا أردنا الزهد فى الحكم لما استطعنا ... نحن إنما كنا نخضع لمقتضيات تلك المبادىء نفسها ، وهى التى أرادت ذلك ... ألم نكن نمثل الأغلبية ؟ ... ألم يكن على الأغلبية أن تحكم طبقاً لمبادىء الدستور والديمقراطية ؟ نحن كنا نحكم نزولا على حكم المبادىء ...

الزعيم : آه يا صديقى ... لا تكلمنى الآن بذلك المنطق البارع الذى حذقنا الكلام به فى الدنيا ... قاتل الله البراعة السياسية ، إنها كشكل براعة تخلط الحق بالباطل ، فلا يستطيع الإنسان

أن يميز شيئاً ... نحن لم نسكن فى الدنيا وحدنا كما نحن الآن ... بل كانت تحيط بنا ، ثورات حزبية وشهوات بشرية ، وكانت فى أيدينا تلك البراعة السياسية ... فمن يدريك أن الأمور لم تختلط علينا نحن أنفسنا ، فلم ندر أجعلنا المبادىء مطية لأشخاصنا أم أشخاصنا مطية للمبادىء ؟ ... إنى أكلمك الآن بلغة إنسان يريد أن يحاسب نفسه ، لا بلغة سياسى يريد أن يبرر عمله ... إنى عندما حاسبنى الملكان شعرت أن ضميرى يصفو كالبلور كلما أمعنت فى اتهام نفسى والقسوة عليها ... ولعل أكثر أهل الجنة فعلوا ذلك ... ألم يحدث ذلك لك ؟ ... ماذا قلت للملكين ؟ ...

كاتم السر : قلت لهما الحساب مع زعيمى ! ...

الزعيم : يالك من ماكر ! ... أرأيت ؟ ... إنك تحملنى المسئولية كلها فى آخر الأمر ، لماذا إذن تؤثر ببلاغتك وقوة عارضتك ، فيما يراه ضميرى النقى وفطرتى السليمة ... ما زلت أقول لك إن غلطتنا الكبرى هى قبولنا الحكم ... ألا تذكر أننا كنا دائماً ندخل باب الحكم متدثرين بالبياض وعلينا من الجلال هالة ، فنخرج من الباب الآخر بعد قليل ممزق الثياب ... إذا أردت الحقيقة ، فنحن لم نكن نصلح للحكم ، ولم يكن يصلح لنا ... عبقريتنا الحقيقية كانت خارج الحكم ! ...

كاتم السر : لا تقل إننا لم نكن نصلح للحكم ... لقد كنا نعمل ونتعب ونجهد ، وإنك لا شك تذكر أن وزنى كان ينقص كثيراً أيام الحكم ! ...

الزعيم : نعم ... كان وزنك ينقص ، وكذلك محبة الناس لنا كان وزنها ينقص هي الأخرى ! ...

كاتم السر : هم خصومنا الذين كانوا ينتقصون من قدر سمعتنا ! ...

الزعيم : ولماذا كان يكثر عدد خصومنا ونحن في الحكم ؟ ... لأننا كنا نرتكب أخطاء ، لقد كنا ننسى أنفسنا على الكراسي ، فنمتد أيدي المنتفعين والمستغلين إلى جيوبنا دون أن نهمر ، فكثرت المحسوبية والوصولية وكادت تتشوه تلك المبادىء التي نصبنا أنفسنا لحمايتها ونشرها ، وسقانا المريدون والمغرضون خمر الغرور ، باسم كلمة « الأغلبية المطلقة » ، فكدنا ننزلق إلى نوع من حكم الطغيان ، لا يمكن أن تقره مبادئنا ولا ماضينا الديمقراطي النزيه ، فأنت ترى حتى المبادىء العزيزة علينا فسدت في أيدينا ونحن على الكراسي ! ... فما قولك في كل هذا ؟ ...

كاتم السر : قولي في كل هذا إنه صحيح ، ولكنه لا يدل مع ذلك على فساد فينا ! ... لا ينبغي أن ندين أنفسنا إلا إذا كان الشر ناجماً منا ، ولكن الشر فيما ذكرت ناتج من النظام ، كل أغلبية مطلقة تؤدي إلى الانزلاق نحو الطغيان ... لا تنس أن « كرومويل » كان نتيجة ثورة برلمانية وأن « نابوليون » هو ابن الثورة الديمقراطية ، وأن « هتلر » نفسه هو وليد أغلبية برلمانية دستورية ، وهل تجرؤ حكومة على القبض على زمام الحكم المطلق إلا على أثر أغلبية برلمانية شبه مطلقة ؟ ... فإذا أردت أن تعيب سلوكنا فعب علينا أننا حزنا أغلبية مطلقة أو شبه مطلقة في يوم من الأيام ! ... إنه عيب

النظام لا عيبنا نحن ... نعم ، حتى الديمقراطية تحمل ضدها بين ثناياها ، ومعها فى طياتها !...

الزعيم : فليكن عيب النظام ، ولكن هـذا لا ينفى القضية ، ولا يطرح عنا مسئولية الانزلاق فى الأخطاء ، كلما امتطينا صهوة الحكم !...

كاتم السر : فى كل حكم انزلاق ... مَن ركب هـذه المطية ينزلق ... إننا لن نكون أحرص من بعض أنبياء الأديان ... إليك النبى « موسى » مثلا ... كان نبياً للإنسانية ، وكان حاكما ورئيساً لشعب وعشيرة وطائفة ، فهو — كنبى — يَبشّر بالمبادىء العليا السامية ، فجاء فى « التوراة » :

« إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً فرده إليه » ولكنه كرئيس حكومة أو شعب أو حزب أو طائفة ، — أوصى شعبه بعكس هذه المبادىء فجاء فى سفر الخروج « خروج بنى إسرائيل من مصر » فى التوراة : «وفعل بنو إسرائيل حسب قول موسى ، طلبوا من المصريين أمتعة فضة ، وأمتعة ذهب وثياب حتى أعاروهم ، فسلبوا المصريين !... » ذلك هو «الحكم» وتلك هى «السياسة» فى كل زمان ومكان ، سواء كانت فى يد نبى أو فى يد إنسان !...

الزعيم : ربما اضطر بعض الأنبياء إلى بعض الإنحراف عن مبادئهم لمصلحة اقتصادية أو اجتماعية تنفع عشائرهم ، ولكننا نحن لم نكن مصلحين اجتماعيين ولا اقتصاديين نحن لم نكن غير قادة ثورة سياسية ، وزعماء جماهير ولا شىء غير ذلك !...

ما هو الانقلاب الاجتماعي الذي أحدثناه ؟ ... وما هو الإصلاح القوي الذي شيدناه ؟ ... لقد كانت في أيدينا الجماهير ، كأنها ألعوبة في لحظة من اللحظات ، ولو كنا أردنا أن نطفر بتلك الأمة طفرة نافعة ، أو ننهضها نهضة قوية في حياتها الداخلية ، — لاستطعنا ! ... ولكنا لم نفعل لأننا لم نفكر في ذلك ، لأن التفكير في هذه المسائل يستلزم روحاً مصلحاً ، ونحن لم نكن ذلك الروح المصلح ! ...

كاتم السر : لا تبالغ في اتهام نفسك ! ... إن نظامنا السياسي لم يكن قد أحكم بعد بناؤه ، إنه كان كالبيت الجديد الذي لم يوضع في نوافذه زجاج ، فأى روح مصلح كان لابد له أن ينطفئ سريعاً ، كالشمعة تحت الريح الهابّة من كل مكان ! ... ومع ذلك من هو ذلك المصلح الذي ظهر داخل إطار ذلك النظام؟...

الزعيم : لست أدرى ... أذكر أنه ظهرت مع ذلك شبه بوادر إنشائية ونزعات إصلاحية لم تصدر من ناحيتنا على كل حال ... نحن الذين كنا نستطيع أكثر مما يستطيع غيرنا ، لأن الشعب كان في وقت ما كالعجينة في يدنا ! ...

كاتم السر : لا تنس أننا كنا رسل مبادئ قبل كل شيء ، وليس أخطر على الرسل في كل زمان ومكان من الإصلاحات الاجتماعية ... إن «النبيّ محمداً» ﷺ عندما أراد أن يبطل الخمر عالج الأمر بمنتهى الحرص والتأني ، وتدرج بالشعب خطوة خطوة ... الويل للرسول أو الزعيم الذي يطمع بالحسنى أن يغير ما بالناس طفرة واحدة !! ...

الزعيم : كان ينبغي على الأقل أن نلقى البذرة الأولى ، ولكننا لم نكن زراعاً ولا منتجين ، لقد كنا رعاة قاعدين . . . اكتفينا آخر أيامنا بالجلوس فى الظل الوارف ، نهش تارة على مبادئنا ، ونهش تارة أخرى على حزبنا وجموعنا ! ...

كاتم السر : كل الرسل كانوا رعاة وإن اختلفت الغنم ! ...

الزعيم : آه لحججك وبلاغتك[1] واطلاعك على القرآن والتوراة والأناجيل !! هذه الحجج وهذه البلاغة التى كانت تقنعنا فى الدنيا ، هل لها هذه القدرة على إقناع نفوسنا الآن ... وهى فى تجردها وارتفاعها تحب الصفاء ، ولا تعنى إلا بجواهر الأشياء ؟ ... إذن أنت ياصديقى تعتقد أننا لم نرتكب فى الدنيا أخطاء ! ...

كاتم السر : أبداً ! ...

الزعيم : وأننا لم نكن مقصرين فى شىء ...

كاتم السر : أبداً ... أبداً ...

الزعيم : ولم نكن مسرفين فى شىء ! ...

كاتم السر : أبداً ... أبداً ... أبداً ...

---

(١) عرف مكرم عبيد ببلاغته اللغوية واطلاعه الواسع فى القرآن الكريم . واسمه الكامل « وليم مكرم عبيد » ، وحذف اسم « وليم » ومصر فى ثورة ضد انجلترا بعد ١٩١٩ .

الزعيم : يقولون إن التائبين هم الذين دخلوا الجنة ، وإنى الآن أعجب وأتساءل كيف أدخلوك هنا ؟ ...

كاتم السر : المسألة بسيطة ... قلت لهم إذا كان زعيمى يستحق أن تدخلوه فأنا معه ، وإن نفسى لمستريحة ، و ... وقد كنا فى الدنيا شرفاء ، وقد صنعنا لوطننا ما استطعنا ، ولكنك إذا أردت أن تذل النفس لله ، وأن تتواضع ، فانقل هذه الحقيقة وهى : أننا لم نكن على كل حال شراً من غيرنا ! ...

٣

المليونير "رئيس الشرخ" والرياضي "رئيس الحزب" (*)

« كل منهما يتأبط ذراع حورية
ويأتي من طريق ويتقابلان فيترك كل
منهما حوريته ويتعانقان . . . . »

* * *

الأول : أهلا بالرياضي صاحب الجياد ! ...

الثاني : أهلا بالمليونير حارس التحف ! ...

حارس التحف : إني أراك هنا ضيق الصدر ضَجِراً ... إنك لا شك تذكر الدنيا وما كان لك فيها من جياد تجرى في السباق ! ...

صاحب الجياد : نعم ... في سباق « صبورتنج » و « الجزيرة » و « هليوبوليس » ! ...

(*) « المليونير » هو الثرى الفنى الكبير محمد محمود خليل بك ، وكانت هوايته اقتناء اللوحات الفنية لكبار المصورين وأصبح له متحف قيم .
الرياضى رئيس الحزب هو أحمد ماهر باشا وكانت هوايته سبق الخيل وأصبح رئيس الحزب السعدى بعد انفصاله عن حزب الوفد والنحاس .

حارس التحف : و « لاظوغلى » ! ...

صاحب الجياد : إنها كانت حياة جميلة ! ...

حارس التحف : كانت تتوفر فيها على الأقل أسباب التسلية والترفيه ! ...

صاحب الجياد : أنت أيضاً كانت لك فى الدنيا مجموعات من التحف لا تقوّم بمال ، وصناديق من النفائس الفنية ليست جديرة إلا بمتحف الموفر ! ...

حارس التحف : خيرها عندى والله صندوق « الديمقراطية » الذى قيل إنى حارسه[1] ، وواضع مفتاحه فى جيبى ! ...

صاحب الجياد : لا ... دعك من هذا التشبيه ... لست أدرى لماذا تذكرنى كلمة صندوق ومفتاح فى الجيب بالأغنية الشعبية التى مطلعها « سرقوا الصندوق يا محمد ، لكن مفتاحه فى جيبى ! ... » .

حارس التحف : ألا يعجبك أن أشبه الديمقراطية بتحفة نادرة داخل صندوق ... أو أنه لا يعجبك أن أضع أنا مفتاح الصندوق فى جيبى ؟ ! ...

صاحب الجياد : أنت حر فى تشبيه منصتك بصندوق ، ومسألة وضع للمفتاح فى الجيب أو فى مكان آخر لا تهمنى ... أنا أيضاً كانت لى منصة أو صندوق إذا شئت ، لكنى لم أفكر يوماً فى السؤال عن مفتاح هذا الصندوق ، ولم أحاول قط فتحه لأرى ما فيه ! ...

---

(١) أطلق عليه « حارس الديمقراطية » بعد جلوسه فى كرسى « رئيس مجلس الشيوخ » ، والتصق بكلمة « الديمقراطية » .

حارس التحف : ومن قال لك إنه ينبغي لنا أن نفتح صناديقنا لنرى ما فيها ؟ ... لقد كان يقال إن في هذا الصندوق جوهرة عليّ أن أحرسها ، وهذا يكفي ! ...

صاحب الجياد : وهذا يكفي ؟ ! ... لطالما كنت أشك في الدنيا في مقدار علمك الحقيقي بما كنت تقتنيه من تحف فنية ! ... هل كنت إخصائياً إلى هذا الحد ؟ ...

حارس التحف : لا أستطيع أن أجيب بإسهاب رجلا لا يفهم في الفن ، ولكني أقول لك إن الإحساس بالشيء الجميل هو المهم ، وإن كلمة إخصائي أو خبير ليس لها أهمية كبرى في الفنون ! ... ذوّاقةُ الفن ليس مثل مُرَوِّض الجياد يحتاج إلى خبرة واضحة الحدود ؛ كذلك « للمبادىء » الجميلة ؛ الديمقراطية مثلا ، الإحساس بجمالها والافتخار بحراستها ، لهما في ذاتهما كل القيمة ! ...

صاحب الجياد : أوَتظن أن من الواجب أن يكون الإنسان محباً للفنون الجميلة كي يحب الديمقراطية ؟ ...

حارس التحف : لم أقل ذلك ... أنت أيضاً تستطيع أن تحبها ، خصوصاً أنك كنت تحت رايتي تجري جيادك ! .

صاحب الجياد : إني أعتقد أن الديمقراطية هي روح الرياضة ...

حارس التحف : أنا لا أدعي أني أفهم شيئاً في الرياضة ... ولكني أعتقد أن الروح الرياضي هو أن تقف على المنصة المشرفة على السباق بمفردك ، والمنظار المكبر في يدك لتتذوق ما يجري أمامك بنظرة حرة طليقة ... كم يا ترى يكلفك اقتناء

جيادك وتضميرها وتمرينها، والمحافظة على صحتها وسلامتها، والإصغاء إلى رغبات أولياء الشأن في أمر إشراكها أو عدم إشراكها في الأشواط؟ ... كل هذه تفاهات كان أولى بك أن تتخلص منها ليكون لك الحكم المنزه الصحيح عند رؤيتك ما يحدث في الميدان! ...

صاحب الجياد: اسمح لي أن أقول لك إنك تنظر إلى المسألة نظرة هاوٍ، يمسك بالمنظار ليتأمل لوحة فنية! ... كلا يا سيدي إني لست من الهواة ... إني لم أولد صاحب «ملايين» ليحلو لي آخر الأمر أن أقتني النفائس، ولو كان من بينها السياسة والديمقراطية! ... إني رجل بدأت طريقي في الميدان، فكافحت وضحيت وعرّضت حياتي للخطر، فلماذا لا أجني اليوم — مثل غيري من أصحاب الجياد — ثمرات الكفاح ولذات الانتصار والاندحار؟ ...

إنك حقاً لا تفهم الروح الرياضي! ... إن الروح الرياضي لا يشابه الروح الفني ... إنه لا يكتفي فيه بالتأمل البعيد لما يعرض من صور فوق الحيطان ... إنما هو في النزول الفعلي إلى الميدان! ...

هناك فرق كبير بين لذة المشاهد النزيه — كما تسميه — ولذة صاحب الجياد التي تجري وتكسب وتخسر ... إنك لا يمكنك أن تدرك هذه اللذة إلا إذا اقتنيت جياداً! ...

حارس المتحف: لا يا عزيزي، إني أفضل اقتناء اللوحات الزيتية، فإن قيمتها تزداد مع الزمن، أما قيمة جيادك(*) في المستقبل ... كم أرثي

(*) جياد أحمد ماهر في السياسة.

لرأس مالك ياصديقي إذا كنت قد وضعته كله في هـذه الجياد ! ...

صاحب الجياد : رأس مال الرياضي هو الحاضر ... كلمة « المستقبل » لا وجود لها في قاموس رجل الرياضة ! ...

حارس التحف : على العكس ، « المستقبل » كل شيء عند رجل الفن ... قيم الأعمال الفنية إنما تقاس بأثمانها في المستقبل ، ورجل الفن الحاذق هو الذي يشتري لوحة زهيدة الثمن ، وهو يعلم أن قيمتها ستزداد في الغد أضعافاً مضاعفة ...

صاحب الجياد : يظهر أنك فعلت ذلك عند اقتناء تلك المنصة أو « الصندوق » كما تسميه ! ...

حارس التحف : لا تنس أن هنالك لحظات يشتري فيها الإنسان تحفة في غير اكتراث ، فإذا الظروف تجعل لها أهمية كبرى ! ...

صاحب الجياد : صدقت في ذلك ، لقد كان يحدث أحياناً أن يقتني الإنسان جياداً[1] رخيصة يعلم أنها لن تدخل أو تصلح للسباق ، فإذا ظروف تطرأ فتغير الوضع ، كأن يسحب طرف آخر جياده من بعض الأشواط لسبب من الأسباب أو أن يحجز جواد عن السبق في آخر لحظة ، فينفسح بذلك المجال أمام الجياد الرخيصة ! ...

حارس التحف : قل لي أيها الصديق : أخشى أن يؤلمك تقليب هذه الذكريات ... نحن في هـذه الجنة لا نجد تسلية غير هؤلاء

---

(١) المعروف عن أحمد ماهر باشا أنه كان يُدخل وزارته عندما يشكل الوزارة وزراء جدداً من شباب لايعرفهم الكثيرون مثل جياد السباق الجـديدة . وقيل إن أخاه الأكبر « على ماهر باشا » عندما كان رئيس الديوان الملكى ويطلع على ترشيحاته من شباب السياسة يعلق بقوله : « رح بلا لعب عيال ! ! ... »

الحور، وقد سئمناهن ... إنى فيما يتعلق بشخصى أتوق إلى ذكريات الدنيا ... لست أكتمك أنى أنفق وقتاً كبيراً هنا فى تذكرها ... على أن نظرتى إلى الماضى قد تغيرت، وينبغى لها أن تتغير ! ... لقد تركنا تلك الدنيا بحلوها ومرها، لماذا لا ننظر إليها الآن نظرة النقد المجرد النزيه !... نظرة المتأمل لوحة معلقة على جدار بعيد ! ...

صاحب الجياد : أو نظرة المتفرج على شوط لم يراهن فيه على جواد ...

حارس التحف : نعم ! ... نظرة بريئة خالصة تحيط بأعمالنا ومحاسننا وعيوبنا إحاطة شاملة ... إن روح النقد كانت تنقصنا فى الدنيا لأسباب كثيرة لاداعى لذكرها ... أما الآن فماذا يمنعنا من نقد أنفسنا بأنفسنا ؟ ! ...

صاحب الجياد : هذا الشعور قد ساورنى أنا أيضاً هنا، ولطالما ساءلت نفسى : إذا عدنا مرة أخرى إلى الدنيا، هل نتصرف عين التصرف الماضى ؟ ... أو أننا نستفيد من التجربة، فنصنع خيراً مما كنا نصنع أول مرة ! ...

حارس التحف : قل أولا، هل ننظر إلى الأشياء المهمة نظرة جدية أكثر مما كنا نفعل فى عهدنا الأول ؟ ... اعترف أننا كنا قوماً مترفين، نأخذ كل شىء على أنه جزء مكمل لحياة الترف التى وضعتنا فيها الأقدار، فالسياسة مثلاً كانت عندك نوعاً من الألعاب الرياضية، وكانت عندى نوعاً من ..

صاحب الجياد : من الفنون الجميلة ! ...

حارس التحف : لست أنكر ... ومن السخف وضعف الرأى أن يرفض الإنسان المهذب تحليل نفسه بنفسه ، خصوصاً الآن ... لست أريد أن أخفى عنك أنى لم أجد فرقاً كبيراً بين اللحظات التى كنت أجلس فيها بمنزلى أتأمل لوحات « هوجارث » الهزلية عن الأخلاق والعوائد الإنجليزية فى القرن الثامن عشر ، وبين اللحظات التى كنت أجلس فيها على منصتى أنظر إلى ما يحدث أمامى من مناظر المساجلات والمجادلات والمشاغبات ! ... ولقد كنت أتأمل إشارات الخطباء فى مواقفهم الخطابية فأتذكر نقد النقاد للوحات «جروز» فى إغراقها المسرحى ، وأشاهد الهرج والمرج الذى يقع أحياناً أمامى فأتذكر لوحة «المهرجان الفلمنكى» بريشة « روبانس » ! ... عين اللذة الفنية دائماً ، وما كان عملى الرسمى إلا حلقة من سلسلة هوايتى للفن الجميل كما تقول ! ...

صاحب الجياد : أنا أيضاً معترف بأنى كنت أحياناً أنزل من الطائرة أو قطار الإسكندرية ، بعد حضور السباق ، فأذهب تواً إلى الجلسة البرلمانية ، وكأن العمليتين شىء واحد ! ... شعورى هو عين الشعور ، ومتعتى الرياضية هى عين المتعة مستمرة فى شكل آخر ... ولكن ينبغى أن ننصف أنفسنا فنقول : إن رجال السياسة كانوا دائماً كذلك ... إن «لويد جورج» و«بلدوين» و « تشمبرلين » كانوا يأتون من حلبة « الجولف » مباشرة إلى مجلس العموم ، وكأنهم فى الحالين يلعبون لعبة واحدة ! ... إن السياسة لعبة رياضية لا أكثر ولا أقل ! ...

صاحب التحف : عدنا إلى التماس الأعذار وتبرير المواقف ؟ ... ومع ذلك من

قال لك إن « لويد جورج » و « تشمبرلين » و « بلدوين » كانوا على حق فيما كانوا يفعلون ، ولماذا لا تقول إن هذه النظرة إلى السياسة باعتبارها لعبة رياضية فى أيدى الساسة هى التى هزت صرح النظام الديمقراطى فى أوروبا ، وجعلت تلك الشعوب تلهو وقت الجد وتتثاءب حيث كان ينبغى التيقظ ؟ ! ... وإذا كانت انجلترا القوية الغنية بعد أن بلغت بأداة السياسة العتيدة أوجها قد سمحت لنفسها أن تجعل « السياسة » فى زمن السلام والرخاء فرعاً من لعبة « الجولف » فهل يحق لمصر الناشئة أن تلهو بهذه الأداة وهى لم تكن قد استخدمتها بعد فى سبيل النهوض الفعلى ؟ ...

صاحب الجياد: صدقت ، قولك هذا حق ... لا أستطيع أن أعترض على كلمة واحدة مما تقول ، وأنا رجل كما تعرف أحب الحق لذاته ، وأحب الإصغاء إلى كل كلمة صائبة ... تلك كانت إحدى للتع التى طالما لذت لى فى الدنيا إذا كنت تذكر ! ... الحق هو ما تقول ، ولقد جال بخاطرى من قبل كل ما ذكرت أنت الآن ، ولكن منطقى فى تتبع الأشياء يخالف منطقك بعض الشىء ؛ لأنى كنت رجلا مكافحاً ، أما أنت فكنت رجلا مشاهداً ! ... إنك تستطيع أن تشاهد وتحلل وتنتقد ... أما أنا فاذا كنت تريد منى أن أصنع على مائدة السياسة غير ما صنعت ؟ ... تلك كانت قواعد اللعب ، ولقد لعبت لعبتى كما ينبغى أن تلعب ، بشرف وأمانة وإخلاص ! ! ...

حارس التحف : ألن تكف عن اعتبارها لعبة ؟ ...

صاحب الجياد : لا تؤاخذني !... لا أستطيع أن أسميها غير ذلك ... ألم يكن للنظام البرلماني أصول وقواعد ؟ ... لقد أدينا واجبنا في حدود هذه القواعد والأصول ؛ فاذا تريد أكثر من ذلك ؟ إني أفهم مع ذلك مرادك ... إنك تتكلم عن أخذ الأشياء بعين الجد ! ... أو نسيت أني في يوم من الأيام عرضت حياتي للخطر[1] ؟ ... أظنك توافقني على أن تقديم العنق إلى المشنقة يعتبر على الأقل أمراً جدياً ! ... وإني حتى آخر لحظة من حياتي جاهرت باستعدادي لبذل هذه الحياة ! ...

حارس التحف : لا أشك في ذلك ... ولكني أعتقد أن الوطن كان يطلب منا أحياناً شيئاً أقل كثيراً من بذل الحياة ! ...

صاحب الجياد : أدرك قصدك ، ربما كنت مصيباً ... ولكن ، لا تنس أننا كنا نعمل داخل إطار خاص ! ! ... إن من السهل أن نخرج من الحياة كلها ، وليس من السهل أن نخرج من الإطار الذي دعتنا الظروف إلى اتخاذ مكاننا فيه ، والتحرك في حدوده ! ...

حارس التحف : إذن لقد كنا جميعاً صوراً تتحرك على القماش داخل إطار ! ... ما أبدعها لوحة لفنان عظيم ! ... ترى من هذا الفنان ؟ ! ...

---

(1) اتهم هو وزميله النقراشي باشا في قضية اغتيالات ضد الانجليز .

صاحب الجياد : ربما كان ذلك المخلوق الذى قبـــل إنه يرتدى ثوباً فضفاضا[1] !...

حارس التحف : مهما يكن من أمر ، فإنى أعتقد أنه كان يجب تصوير أنفسنا وتحليل أخطائنا حتى نستطيع الإفادة من التجربة ... لا تنس أننا كنا فى مبدإ الطريق السياسى ، وكانت كل أخطائنا نتيجة طبيعية لابد منها ! ...

صاحب الجياد : نعم .. يجب أن نتأمل أخطاءنا فى وضوح ، لـكن ... فلنعط أنفسنا الوقت للتأمل ... دعنى أفـكر أسبوعين أو ثلاثة قبل أن نتقابل مرة أخرى ها هنا لاستئناف الحديث ... حذار من الارتجال فى الحـكم على أنفسنا وعلى الأشياء ! .. حسبنا ما جرّته سياسة الارتجال التى اتبعتها أكثر حكوماتنا الغابرة ! ...

حارس التحف : إلى اللقاء إذن ... لقد جماعة السيدات ينتظرن أكـثر مما ينبغى ! ...

الحور : أما كفاكما ثرثرة ؟ ! ...

صاحب الجياد : إن الثرثرة أحياناً فيها ترويح لطيف ! ...

حارس التحف : بل قل إنها خير تراث جلبناه من الحياة الدنيا ! ...

---

(1) صاحب عبارة « الثوب الفضفاض » هو « عبد العزيز فهمى » باشا واضع دستور ١٩٢٣ ، فلما جاء بالأغلبية الشعبية لسعد زغلول الذى انفصل عنه قال عن دستوره هذا إنه ثوب فضفاض على هذه الأمة .

٤

"المهندس" و"المفتى" فى الحكم (*)

« رجلان أنيقان وسيمان يتقابلان ،
فيترك كل منهما حوريته ويتعانقان .. »

* * *

الأول : أهلا بالمفتى ! ...

الثانى : أهلا بالمهندس ! ...

المهندس : آه ... لاتذكرنى بهذه الكلمة ! ... لو كنت أعلم فى الدنيا أن السياسة والحكم هما مصيرى لما تجشمت ونلت أكبر إجازة علمية فى الهندسة ! ... أنت أيضاً يا من قضيت أكثر حياتك متفقهاً فى القانون ، وقمت آخر الأمر فيما كنت تكافح دائماً

(*) « المهندس » هو حسين سرى باشا المهندس والوزير ورئيس الوزراء أيام الحرب العالمية الثانية .

« المفتى » هو الدكتور عبد الحميد بدوى باشا الفقيه القانونى للدولة ووزير المالية فى أيام الحرب العالمية الثانية .

لتجنبيه ؟! ... وقعتَ أيها العلامة النافع وصرت سياسياً ؟!

المفتى : أنت الذى أوقعنى ! ... لكأنما عز عليك أن أنجو بنفسى دونك ! ...

المهندس : إنها كانت نهاية مؤلمة لنبوغنا العلمى ! ...

المفتى : شجرة الحكم فى الدنيا كانت هى التفاحة الملعونة فى جنة العلم والنبوغ ! ... جميعنا مع الأسف أكل منها ! ...

المهندس : ما علينا ... مضى كل ذلك ... فلنتحدث فى جنتنا الحاضرة ! ... أين كنت حتى هذه الساعة ؟ ..

المفتى : كنت فى عمل متواصل ...

المهندس : عمل ؟ ... متصل ها هنا أيضاً ؟ ...

المفتى : نعم ... لقد اختلف اثنان من أصحاب الرفعة على حورية ، فاستشارانى كى أفتى لهما ...

المهندس : الفتوى وراءك حتى فى الجنة ؟! ...

المفتى : ليس لى صناعة غيرها تلذّ لى ! ...

المهندس : إنى أغبطك ، فقد استطعت أن تباشر حتى فى هذا المكان شيئاً من أعمالك فى الدنيا ، أما أنا ... فوا أسفاه ! ... أتراهم يسمحون لى أن أبنى على نهر الكوثر خزاناً ؟ . هذا طبعاً مستحيل ! ... كذلك لن أستطيع أن أكون هنا رئيس وزارة ! ! ...

المفتى : ولا مجرد حاكم عسكرى[1] ! ... على ذكر الحاكم العسكرى يخيل إلىّ أنك فى الدنيا كنت قريب الشبه من « نابليون » ! ...

المهندس : كنت أشبه « نابليون » فى ماذا ؟ ...

المفتى : فى أنفته ، وفى غطرسته ، وفى مشيتــه العسكرية ! ! ...

المهندس : فقط ؟ ...

المفتى : على كل حال أنت كنت « نابليون » بغير عبقرية وبغير مواقع حربية ؟ ! ...

المهندس : وماقيمة « نابليون » بغير مواقع حربية ، وبغير عبقرية ؟ ! ...

المفتى : لست أدرى ! ...

المهندس : على أية حال ، كلانا كان حقيقة رجلا غير حزبى ! ...

المفتى : نعم ... لم تكن رجلا حزبيا ... غيرك كان يصنع الأحزاب ، ويشقى ويجهد فى تأليفها ، وتأتى أنت فتحكم بها ! ...

المهندس : أوَ ليس هذا خيراً من أن أغمر نفسى فى الحزبية ؟ ... إنى لست مع الماء الساخن ولا مع الماء البارد ! ... إنى ...

المفتى : أنت خلاّط « الدش » الذى يخلط الساخن بالبارد ، ويعمل بهما ، ويلائم بينهما الملاءمة التى يقتضيها الطقس السياسى ! ...

المهندس : أنا « خلاط دش » ! ...

المفتى : هذه الصورة لا تعجبك ؟ ... لا تتغطرس ولا تغضب ! ... أتعرف خزان أسوان ؟ ...

المهندس : طبعاً أعرفه ! ...

---

(١) كان حسين سرى باشا هو الحاكم العسكرى ، وذلك أيام الحرب العالمية الثانية ، بالإضافة إلى رئاسته للوزارة .

المفتى : إنك كنت تنظر إلى الأحزاب ، كأنها خزان أسوان ! … تفتح من عيونها وتغلق العدد اللازم لمقدار الحاجة ! … إنك فى عملك السياسى كنت أيضاً مهندساً دون أن تشعر ، ويشعر الجميع ! …

المهندس : يا لك من قدير أيها المفتى ! … تخرج من جرابك أشكالا من الصور وألواناً ! … أنت أيضاً كنت « خلاط دش » لا للأحزاب ولكن للمبادىء ، تخلط ساخنها وباردها ، وتلائم بين أضدادها ومتناقضاتها عند اللزوم ، لتخرج الرأى أو المبدأ أو الفتوى التى تناسب درجة الحرارة السياسية فى الظرف الطارىء …

المفتى : اتفقنا … إذن نحن من معدن واحد … ! …

المهندس : ولذلك أمكن « اللحام » ، وارتبطنا فى العمل والمسئولية على أحسن ما يكون الارتباط والانسجام ! …

المفتى : هذا صحيح ولقد اشتركنا حتى فى العيوب ! …

المهندس : العيوب ؟ …

المفتى : هدىء روعك … بالطبع كانت لنا عيوب كرجال سياسيين … أولها أننا بطبيعتنا لم نكن رجال جماهير … وتلك صفة ضرورية أحياناً لرجال السياسة ، هل تتصور أنى كنت أستطيع أنا مثلا أن أخاطب الجماهير باللغة التى تفهمها ؟ … وأواجهها بالأساليب التى يحذقها ساسة الجماهير ؟ ! … إن أشق ساعة على نفسى كانت تلك الساعة التى أضطر فيها إلى اعتلاء منصة

« البرلمان » لأواجه الناس أو أسحر الناس ! ... ماذا يكون المصير لو اضطررت أنا أو أنت إلى تأليف حزب ! ؟ ...

المهندس : لا يا صديقي العزيز ... وهل ألف « نابليون » حزباً ؟ ... نحن لا ينبغي أن نملك أحزابا ! ...

المفتي : هذا هو الرأي ... لا نملك ؛ بل نستعير ! ... بذلك لا نتكلف عبء إنشاء ولا نتحمل مسئولية صيانة أو تلف أدبي !... قانون الإعارة والتأجير » (*) ! ... هذا هو خير الحلول الفقهية في العصر الأخير ! .

المهندس : بينك وبين « روزفلت » شبه غريب ! ...

المفتي : كالشبه الذي بينك وبين « نابليون » ! ...

المهندس : لا تمزح ... إني فيما يختص بك أتكلم كلاما جدياً ...

المفتي : شكراً ! ! ..

المهندس : أما فيما يختص بي فإني أرتاب لسبب واحد : هو أني بطبعي وروحي رجل ديمقراطي ... لم أكن أعرف مدى هذه الطبيعة في نفسي حتى تسلمت مقاليد الحكم ، فإذا أنا حريص كل الحرص على عدم الأنزلاق إلى الاستبداد ، حتى في ظروف قد رُؤِيَ فيها استعمال الشدة ... لقد اجتزنا كما تذكر أزمات مخيفة هددت البلاد بالمجاعة ، وكانت موقعة المواقع هي : مكافحة الغلاء ، ومحاربة المستغلين ، وتوفير

(*) كان قد ظهر في أواخر الحرب في أوربا وأمريكا هـذا القانون : « الإعارة والتأجير » .

العَذاء !… فلم تقبل نفسى فكرة نصب المدافع فى الشوارع ، كما فعل « نابليون » فى سبيل إقرار النظام ! … كلا ! … إن سيف الحاكم العسكرى فى يدى كان يهتز خوفا … لست أريد الآن تبرير هذا الموقف ؛ فقد يرى غيرى أن إنقاذ المجموع يوجب أحياناً الشدة … ولكن تلك طبيعتى … انقدها كما شاء لك النقد ! ! …

المفتى : حقيقة مسألة تنظيم التموين(*) فى البلاد كانت أخطر المسائل، وقد عجزت أنت العجز الفاضح عن معالجتها ؛ فقد بلغ الحال حداً أصبح فيه من معه مال هو الذى يأكل ، أما الآخرون وهم الأغلبية …

المهندس : لقد أُخذت على غرة . ولم أشأ أن أستعمل القوة …

المفتى : نعم لقد كنت ديمقراطياً أكثر مما ظننا فيك وظننت فى نفسك ! … وكان سيفك سيفاً « ديمقراطياً » ؛ على الرغم من إرادتك ! … سيف لامع برّاق ، ولكن حده من المطاط ! …

المهندس : إنى لا أُبرِّئُ نفسى ! …

المفتى : لا أحد يطلب إليك أن تغير ما بنفسك ! … تلك كانت طبيعتك … وبها عالجت ما واجهك من مشكلات ! …

المهندس : وهل نجحنا ؟ …

(*) ظهرت فى تلك الفترة من أيام الحرب أزمة تموين فى مصر استلفتت الأنظار .

المفتى : ليس لنا نحن أن نجيب عن هذا السؤال ... كل ما نجيب به عن أنفسنا هو أننا عملنا وجهدنا جهد الطاقة ، وأكثر من الطاقة أحياناً ... وإنى لأذكر عدد ساعات عملك اليومى !...

المهندس : ولماذا لا تذكر ساعات عملك المرهق أنت أيضاً أيها المتواضع ؟...

المفتى : لم أعتمد الحديث عن ذلك ، ولكنى أردت أن أريح ضميرك قليلا ... على أنى من جهة أخرى لا أريد أن أنفى أننا ارتكبنا أخطاء .. كل من يعمل يخطئ ! .

المهندس : ولهذا كنت أرحب بالنقد : ألا تذكر ؟ ... لقد كنت أصغى إلى كل من يستطيع أن يبين لى الخطأ بروح مشبع بالرغبة فى الإصلاح ، والبعد عن التحامل والتجريح ! ... ذلك أن الذى يقول لى : « لقد أخطأت فى كذا وكذا » ، إنما يسدى إلىّ معونة خليقة بالتقدير ...

المفتى : لقد خالفت إذن فى هذا « نابليون » ، فقد اضطهد « مدام دى ستايل » و « بنجامان كونستان » وغيرهما من أعضاء الحزب الحر ، لأنهم سمحوا لأنفسهم بنقده ! ...

المهندس : فى هذا أنا أخالف « نابليون » من غير شك ... هل تذكر أنى اضطهدت أحداً أراد نقدى ؟...

المفتى : هنالك وجه خلاف آخر بينك وبين « نابليون » ... كان « نابليون » حقاً روح هدم ، ولم تكن أنت روح هدم . غير أنه كان إلى جانب ذلك روح خلاق ، فهو قد أنهأ كثيراً

من المؤسسات ، وقام بكثير من الإصلاحات ، حتى أيام « موسكو » العصيبة كان يفكر خلالها فى مشروعات حيوية تُنهض بلاده ؛ بل إنه فى أيام مصر الروعة بعد أن أحرق أسطوله ، وانحبس فى وادى النيل ، وانقطعت صلته بوطنه ؛ لم يقنط ولم ينم ، بل تيقظ فيه روح الخلق ، فنشط للعمل الجاد فى مصر وكان علماؤه يبحثون فى وصف مصر .

المهندس : تريد أن تقول بالاختصار : إن روح الخلق ينقصنى .. فهل عَلك أنت على الأقل هذا الروح ؟ ...

المفتى : لم أقل يوماً إنى خالق ... كل عملى وكل مهمتى كانت مجرد توقيع وتبرير ما يخلقه الآخرون ...

« الحور يقبلن صائحات ... ... »

الحور : أما فرغتما بعد ؟ ...

المفتى : نحن نتكلم فى العمل ! ...

الحور : العمل ... لماذا تفكر دائماً فى العمل ؟ ...

المفتى : لا أستطيع الحياة بغيره ! ... حبذا لو كان لديكن عمل لى ... إنكن تستطعن ذلك بغير شك ! ؟ ..

الحور : كيف ؟ ...

المفتى : اختلفن ... اختلفن فيما بينكن على مبدإ وأنا أفتى لكن ...

الحور : مبدأ من أى نوع ؟ ...

المفتى : أى مبدإ ؟ ... أى مبدإ ؟ ...

المهندس : سبحان الله أيها المفتى المتحرق على فتوى ! ... أنا أيضا ما يمنعنى من أن أجمع رهطاً من الحور وأحكمهن حكماً عسكرياً ؟ ! ...

الحور : ويلاه ! ... ويلاه ! ...

المفتى : لا تخفين ولا تنفرن ! ... إن ظاهره الشدة ، ولكنه فى الحقيقة رقيق ظريف ... اقبلن حكمه العسكرى ... إنه سيكون مبطناً بالسندس الأخضر ! ... وسيفه العسكرى ، سيكون من خشب أشجار الفردوس ! ... إنه العجز مطلياً بقشرة القوة ، والضعف لابساً فروة البطش ...

٥

"الخواجة" فى جنة عمارة (*)

« سيدنا » رضوان » عليه السلام
جالس فى قصره بالجنة ، والخواجة بين
يديه فى خشوع ... ... »

* * *

رضوان : كيف دخلت جنة المسلمين ؟ ...

الخواجة : دخلتُ مع رجال السياسة المصريين ... إنى لا أستطيع البعد عنهم ولا يستطيعون البعد عنى ... لقد تمصرت ، وسميت ابنى إسماً مصرياً ، ولو احتاج الأمر فلأقل لك إنى أسلمت ! ...

رضوان : عجباً ! ... أسلمت ؟ ! .

الخواجة : إنه الحب ! ...

رضوان : حب أولئك الساسة المصريين ! ...

(*) « الخواجة » هو المندوب السامى البريطانى صاحب الأمر والنهى فى مصر المحتلة بالانجليز ... وهو الذى بإشارة منه تؤلف الوزارات وتسقط ويعين الوزراء الخ الخ ...

الخواجة : إنهم كانوا فى الدنيا كل سلوتى وكل هوايتى ، إن صيد البط فى « أكياد »[1] هواية كنت أستطيع أن أمارسها فى أىّ مكان ... أما هؤلاء الساسة فلايوجد مثلهم إلا فى مصر ؛ لذلك لم أستطع قط مفارقة مصر ، ولقد دخلوا الجنة فدعوت الله أن يدخلنى معهم ...

رضوان : أتجد عشرتهم لذيذة إلى هذا الحد ؟ ...

الخواجة : ومسلية للغاية ... تصور ... ما إن تقابلنا هنا حتى التفوا حولى ، وأقاموا لى حفلة تكريم ، اجتمعوا كلهم فيها على اختلاف نزعاتهم وهم الذين لا يجتمعون ، واتحدوا مؤقتاً ؛ وهم الذين لا يتحدون ، وشربوا جميعاً نخبى من نهر « الكوثر » ، ثم تنازعوا محبتى ، وتهافتوا على الإنفراد بى ! ... وتجاذبوا أذنى ليملئوها ...

رضوان : ماذا ؟ ...

الخواجة : نقداً ولذعاً من بعضهم لبعض ! ...

رضوان : حتى هنا ؟ ...

الخواجة : وحتى هنا يطمعون فى الحكم ! ...

رضوان : ما شاء الله ! ... ما هذا الكلام الذى تقوله يا هذا ؟ ...

الخواجة : انتظر ياسيدنا الملاك الرحيم ، أرجو منك أن تصغى إلىّ بصبر حتى أنتهى من عرض المهمة الرسمية التى أوفدونى بها ... وبعدئذ أتلقى منكم التبليغ ! ...

رضوان : أأنت الآن موفد بمهمة رسمية ؟ ...

---

(1) كانت « أكياد » المكان المفضل فى مصر لهواية صيد البط عند المندوب السامى البريطانى.

الخواجة : طبعاً ... وهل كنت أسمح لنفسى بإقلاق راحتكم ، وإضاعة وقتكم ، وصرفكم عن أعمالكم ، لو لم أكن قادماً لأعرض طلبات معينة بالذات ! ...

رضوان : طلبات ؟! ...

الخواجة : لا تخش شيئاً ... إنها عين الطلبات ... أقصد عين الطلبات التى اعتدت فى الدنيا أن أتلقاها ... لهذا فرحوا بى هنا ، ورأونى المختص بالقيام بهذه المهمة هنا أيضاً ! ...

رضوان : حتى الساعة لست أفهم شيئاً مما تريد ...

الخواجة : المسألة بسيطة ... يريدون كراسى الحكم ! ...

رضوان : أين ذلك ؟

الخواجة : هنا فى الجنة وطلباتهم متواضعة جداً ويمكن تحقيقها ؟! .

رضوان : يمكن تحقيقها ؟... كيف ؟...

الخواجة : اسمحوا لهم بركن صغير فى الجنة يلعبون فيه . . . أعنى يباشرون فيه ما يريدون من مظاهر الحكم ...

رضوان : ما هذا الهُراء يا هذا ؟ ... أليس الحكم يتطلب وجود محكومين ؟ ..

الخواجة : بالضبط ! ! ...

رضوان : وأين نجد لهم هنا المحكومين ؟ ..

الخواجة : الأمر سهل جداً ، نطلب إلى كل الموجودين بالجنة من أهل مصر الغابرين أن ينتقلوا إلى ذلك الركن ، ليكونوا هم الشعب الذى يحكمه هؤلاء ؟ ...

رضوان : وأين هو المجنون — من المصريين الغابرين — الذى يقبل

فى الجنة أن يحكمه هؤلاء ، بعد أن أنقذه الله منهم فى الدنيا ! ..

الخواجة : الحقيقة ، هنا المعضلة ! ...

رضوان : وإذا فرضنا جدلا أنكم وجدتم عدداً كافياً من المجانين الذين يقبلون أن يعيشوا فى الجنة أيضاً تحت حكم من ذكرت ، فما هو نوع الحكومة التى ستؤلف ، وما هو برنامجها ؟ ...

الخواجة : نوع الحكومة ؟ ... ديمقراطية طبعاً ...

رضوان : ديمقراطية على طريقة مصر ؟ !

الخواجة : طبعاً ...

رضوان : وبرنامجها ؟ ...

الخواجة : برنامجها ؟ ! ... آه ... هذا ما كنت أخشى أن تسألونى عنه ... لقد قلت لك يا سيدنا « رضوان » إن المطلوب هو أن يصلوا إلى الحكم ...

رضوان : مفهوم ... قلت لى هذا ألف مرة ... يصلون إلى الحكم لماذا ؟ ... لماذا ؟ ...

الخواجة : لم يقل لى أحد منهم قط لماذا ؟ ... لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ! ... طول عشرتى لهم هناك أو هنا ، وما سمعت إلا قول كل منهم إنه الأحق من غيره دائماً بالوصول إلى الحكم ! ...

رضوان : نعم ... نعم ... ولكنى أسألك لماذا يريد كل منهم الوصول إلى هذا الشىء ؟ ...

الخواجة : لا يوجد لماذا ؟ ... ليصل إليه ... هذا كل ما فى الأمر ..

إنها البداهة ... إنه شيء طبيعي جداً ... وإنهم يطلبونه بمنتهى البساطة ... إلى حد لم يخطر لى معه أن أسألهم هذا السؤال الذى تسألنى عنه الآن ! ...

رضوان : ألم يقل لك أحدهم مثلا إنه يريد الحكم ليجعل المحكومين أحسن حالا مما كانوا عليه ... وإنه وضع لذلك الغرض خطة مفصلة محكمة ، أنفق فى وضعها جهداً ووقتاً وثمرة تجارب وخبرة خبراء ، مما يجعلها يسيرة التنفيذ ، وإن الشيء الوحيد الذى ينقصه لتحقيقها هو السلطة ؟ ...

الخواجة : أظن لم يقل ذلك أحد ! ...

رضوان : وما السبب ؟ ...

الخواجة : السبب ؟ ... لعله عدم وجود الوقت الذى يضعون فيه هذه الخطط أو البرامج الإصلاحية ! ...

رضوان : عجباً ! ... وماذا كانوا يصنعون طول الوقت الذى ينتظرون فيه الكراسى ؟ ...

الخواجة : كانوا ينفقون هذا الوقت فى الشيء المعقول ، وهو العمل على إسقاط مَن فى الكراسى ليجلسوا مكانهم ! ...

رضوان : أتسمى هذا شيئاً معقولا ؟ ...

الخواجة : طبعاً ... إذا كان هدفى مثلا الوصول إلى مقعد مشغول ، ألا ينبغى أن أنفق وقتى فى إخلاء هذا المقعد ؟ إنهم كما ترى لم يشذوا عن المنطق ! ...

رضوان : ذلك حقاً هو المنطق إذا كان الأمر يتعلق بأطفال يتزاحمون

على مقعد، فهم عندئذ يمضون حقيقة وقتهم كله فى دفع بعضهم بعضاً بالمناكب والصياح والتطاحن والتشاجر ... ولكنى كنت أفهم أن تكون المنافسة على الحكم بين رجال السياسة وسائل غير هذه الوسائل ... كنت أفهم أن يكون تدافعهم بالبرامج والخطط ... لا بالطعن والسباب ... هل كانت المنازعات خاصة بالبرامج والخطط التى وضعها كل فريق لمصلحة المحكومين ؟ ...

الخواجة : البرامج والخطط لمصلحة المحكومين ؟ وما دخلها هنا ؟ ... هذا شىء لا علاقة له مطلقاً بمسألة الحكم ! ...

رضوان : عجباً ! تريد أن تقول إن هؤلاء الذين يطلبون الحكم ليسوا بمصلحين ؟ ...

الخواجة : حاشا لله ! ... بل إنهم لمن المصلحين ... فهم إذا جاءوا الحكم أصلحوا من الفور أحوالهم وأحوال المقربين إليهم ! ...

رضوان : فقط ؟ ...

الخواجة : إن مدة الحكم قصيرة فى الغالب ... فهى لا تكفى عادة إلا للإصلاح فى نطاق تلك الدائرة، الدائرة الخصوصية ! ...

رضوان : وبقية المحكومين من الشعب ؟ ...

الخواجة : الشعب قد اعتاد الصبر ؛ لأنه لو انتظر دوره فى الإصلاح لكان عليه ولا شك أن ينتظر عشرات الأعوام ! ...

رضوان : وهذا الشعب هو الذى كان ينتخب حكامه هؤلاء ؟ ...

الخواجة : طبعا ... وكان عليه أن ينتخب من بينهم ...

رضوان : وماذا كان الشعب يقول عنهم ؟

الخواجة : لست أدرى ... ولكنى أذكر أنى كنت أمر يوماً بجماعة من الفلاحين أثناء صيدى البط فقلت لهم : « مع أى

الأحزاب أنتم ··· فهزوا جميعاً رءوسهم ، وأشاروا إشارة معناها : « لا مع هـذا ولا مع ذاك » ، وتشجع أحدهم وقال « إحنا مع حزب رغيف العيش » فقلت لهم باسماً : إن « رغيف العيش » لم يؤلف بعد حزباً ! لأن الذين يؤلفون الأحزاب هم الباشوات ! ···

رضوان : ولماذا لم تنصح لأصدقائك هؤلاء أن يفكروا قليلا فى ناخبيهم المساكين ، قبل أن يفكروا فى أنفسهم ، أو على الأقل مثلما يفكرون فى صالحهم ومصالح ذويهم ! ···

الخواجة : ليس من حقى أن أنصح لهم ··· ولا يجوز لى التدخل فى شئونهم الداخلية ! ···

رضوان : ولكنك كنت تفعل أحيانا ! ··

الخواجة : إذا كان الأمر يعنينى ، ويعنى دولتى ، ويمس مصلحتنا الخاصة ··· أنا كذلك ، ولا تؤاخذنى كان علىّ أن أفكر فى مصالحى الخصوصية قبل كل شىء ···

رضوان : أنت أيضاً ؟ ···

الخواجة : طبعاً ··· لست أنا الذى كان يتقدم إلى الانتخابات ، ولا أنا الذى كان يخطب فى الجموع ، ليظفر بالأصوات ، ولا أنا على كل حال المنوط به إصلاح أحوال الحكام والمحكومين بهذا البلد ··· لقد كنت قرأت فى القرآن آية بليغة طالما تدبرتها ملياً ، وأنا أنظر إلى كل هذا :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ! »

رضوان : وهل غيروا ما بأنفسهم ؟ ···

الخواجة : لست أدرى ··· يخيل إلىّ أن الداء القديم مازال فيهم كامناً ، فهم يريدون كلهم أن يكونوا زعماء ، ويقولون كلهم إنهم

عظماء ... وكل منهم كان يقول : أنا فقط وليغرق الباقون ... وكان الاتحاد بينهم كالاتحاد بين النار والماء والهواء ! ... فإذا خجلوا من الظروف التى تقضى أحياناً باتحادهم ، أصر كل منهم على الاتحاد بشروطه هو ! ! ... أى لا اتحاد على الإطلاق ! ... ولو احترق الشعب أمام أعينهم لما ضحى أحدهم بشرط واحد من شروطه أبداً ، فالتضحية كلمة يستعملونها فقط للتمثيل والغناء فى المواقف الحماسية ، يوم يريدون التأثير على عقل الشعب الساذج ، ولكنهم فى أعماق نفوسهم لا يقبلون أن يضحوا من أجله بشىء يسير من كبريائهم وأنانيتهم وعظمتهم الجوفاء ! ...

رضوان : اللهم لقد استحق الجنة ذلك الشعب المسكين ! ...

الخواجة : من غير شك ! ...

رضوان : ومع ذلك تأتى إلىّ لتطلب أن نرده اليوم من جديد إلى حكم هؤلاء ! ...

الخواجة : لعلهم هنا يصلحون ... إنها على كل حال تجربة ! ...

رضوان : تجربة ؟ ... إنى لا أقبل أن يُجرب فى هذا الشعب حكم هؤلاء مرة أخرى ، بعد أن جربوا فى الدنيا مرات ! ...

الخواجة : بالله لا تجعلنى أفشل فى مهمتى ، فإنى أريد أن أبقى بينهم دائماً ! ...

رضوان : من أجل تسليتك أنت تريد منى أن ...

الخواجة : استبق على الأقل باب المفاوضات مفتوحا ! ...

رضوان : لن أقول لك لا ولا نعم ...

الخواجة : فلنتبع سياسة كسب الوقت ... إنها دائماً خير سياسة لبريطانيا ... شكراً لك ياسيدنا رضوان ! ... شكراً لك ! ...

شجرة الحكم السياسى (*)
فى الدنيا

« القطر المصرى ، بخصبه الذهبى ،
ونيله الفضى ، وميدان لاظوغلى ... »

(*) وهى هنا قصة واقعية وطنية سياسية على أساس من الواقع السياسى والاجتماعى لمصر فى ذلك العهد من الثلاثينات والأربعينات .

١

أوى إلى فراشه البارحة مبكراً ، فلقد شعر بيأس شديد بعد قراءة صحف الصباح والمساء وما فيها من ترشيحات مختلفة للوزارة الجديدة التي يسعون في تأليفها ... إنهم لم يذكروا اسمه مرة واحدة ... إن الذي يؤلمه في الأمر هو في الحقيقة وجه ابنته « شوشو » ، وهي تقلب صفحات الجرائد للبحث عبثاً عن إسمه ، ثم كآبة زوجته وهي جالسة كالصنم ، واضعة كفها على خدها ... وإنه ليفهم ما يجول في خاطر كل منهما ... فزوجته خائفة من شماتة الأعادي ، و « شوشو » حزينة على خطيبها الذي انقطع عن البيت بانقطاع دابر الوزارة التي كان أبوها عضواً فيها ... زاد على كل ذلك رائحة للمغات ، والبخور الذي يتسرب إلى أنفه من حجرة امرأة الطباخ التي على وشك الوضع ... جو خانق ، ونهض « متولي باشا » ، ليفتح النافذة ويملأ رئتيه من ذلك الهواء الرطب في تلك الليلة من ليالي الخريف القاتم ، ولم يفده ذلك كثيراً ، ووجد الخلاص في النوم في تلك الساعات الساكنة الهادئة التي لا يرجو فيها شيئاً ، ولا ينتظر شيئاً ، ولا يفكر في شيء ! ... وذهب إلى سريره ، تحت نظرات زوجته الصامتة ، وأغمض عينيه وراح في سبات عميق ! ! ...

لم يطل نومه كثيراً ، فقد هبّ مذعوراً على رنين جرس التليفون ، فأسرع ووضع السماعة على أذنه التي تغطيها « طاقية » النوم ، فسمع من يقول :

بنسوار يا باشا ... أنا « ... » تقبل الاشتراك معنا في الوزارة ؟ ...

فما تمالك أن صاح :

الوزارة ! ... بكل سرور يا دولة الباشا ! ...

وانقطع الحديث بعد ذلك ، فقد دوت خلفه أصوات « الزغاريت » ، فالتفت فإذا زوجته و « شوشو » خلفه قـــد نشرتا الخبر همساً بين الدادة والخدامات ، فانطلقن يزغردن فى جوف هذا الليل الساكن ، وصادف ذلك عودة الطباخ ، فظن أن زوجته قد وضعت ، فصاح مهللا هو الآخر ، وأقبل على الخدم يسألهن فى لهفة :

جابت إيه ؟ ... وضعت إيه ؟ ...

فأدركت الدادة مراده ، فبادرت إليه تقول :

مش هى ... مش هى ... دا الباشا ! ...

لحملق الرجل فيها كمن فقد صوابه :

— الباشا ؟ ... الباشا وضع ؟

فأسرعت الدادة تدفع الطباخ إلى السلم ، خشية أن يسمع الباشا قوله ، ولكنه سمعه كما سمعته زوجته وابنته ، فضحكوا ، وكان الوزير قد ترك الفراش بغير « روب دى شامبر » فعطس ، فأشفقت زوجته فأمرته أن يلزم سريره ، ثم اختفت لحظة عادت بعدها حاملة فنجاناً من «للفات» للعد للحامل، فسقته إياه حاراً وقاية من البرد ... ثم تركته وأبطأت لحظة ثم عادت بالمبخرة يتصاعد منها الدخان ورائحة البخور ، وصاحت بسرعة قبل أن يصيح بها معترضاً :

بتى اسمع يا باشا ... ضرورى الليلة من إنك تتبخر بالفسوخ والمتزروت وعين العفريت ... إنت عارف إن حسادنا وأعادينا كتير ... وكفاية ما جرى لنا يوم بعيد عنك ما سقطنا ...

ولم تنتظر منه جواباً ... واقتربت منه وجعلت تمر بالمبخرة سبع مرات فوق رأسه ، وجعدت عين الوزير على المبخرة النحاسية . فتذكر وزارة

الأوقاف ... كلا لا يمكن أن تكون هى الوزارة التى سيتقلدها ، وتذكر أن حديث التليفون لم يعرف منه نوع الوزارة التى أسندت إليه ، وقد نسى من دهشته وذهوله وفرحته أن يسأل عن ذلك ... وماذا يهم ! ... أية وزارة مقبولة على العين والرأس ... وانتهت زوجته من عملية تبخيره ؛ كما تبخر الأشجار ذات الثمار « المندية » ، وهنا خطرت له أيضاً وزارة الزراعة ... لا ... لا ... ينبغى أن يكف عن التفكير فى أنواع الوزارات ... إنه وزير وكفى ... وافرحتاه ... وابتعد عن المبخرة ... وإذا صوت الحبلى يرتفع وقد جاءها الوجع ... فقال لزوجته فى لهجة الأسف :

مسكينة ... شربنا « مغاتها » وتبخرنا ببخورها ... أنا خايف عليها تسقط ...

فقالت زوجته وهى خارجة من الحجرة :

تسقط هى أحسن ما تسقط انت ...

فابتسم ... ثم قال همساً كالمخاطب لنفسه :

لا ... الحمد لله ... ربنا نتعنا بالسلامة ...

لم ينم « متولى باشا » هادئاً تلك الليلة ، وما أوشك الديك أن يصيح حتى كان واثباً على قدميه ، وسمع أهل البيت صوته وفتحه وإغلاقه الأبواب فقاموا لقيامه ، ودخل الحمام يحلق ذقنه ، ويخضب شاربه الذى شاب من طول القعود والانتظار ، فأحضر الصبغة المضمونة التى يحتفظ بها فصبغ ... ويظهر أنه أكثر ... فإنه ما كاد يخرج إلى القاعة وتراه ابنته حتى استغرقت فى الضحك ، فانتهرها برفق وأفهمها أن الآنية المهملة فوق « الرف » ، ينبغى إذا أعيدت إلى العمل أن ينفض عنها على الأقل الغبار ، حتى تبدو فى مظهر الجدة والصلاحية للاستعمال ، ونظر فى الساعة بصبر نافد فإذا هى لم تتجاوز السابعة ... لا ... لا يمكن أن يذهب الآن ... إن الوزير فى أول يوم ينبغى

أن يتباطأ إلى العاشرة على الأقل حتى لا يقال إنه « ممروع » على الكرسى ، ثم لا بد أنهم سيتشرفون قبل ذلك بالذهاب إلى السراى ... ثم قد يعقد الرئيس مجلس الوزراء بصفة مستعجلة لوضع الخطة التى تسير عليها سياسة الوزراء ، ولا ينبغى أن يغتر كما سبق أول مرة ، فإن هذه الجلسة كما هى العادة لن تستغرق وقتاً طويلا ، فلن يتكلموا فى برامج ولا إصلاحات ولا انقلابات اجتماعية أو اقتصادية ، ولا عن أسس الحكم والإدارة المنتجة ... إنما سيدور البحث فى وسائل منع اضطرابات الطلبة واكتسابهم بالمغريات والتلويح بتيسير الامتحانات والتساهل فى الدرجات ، فالحكومة على النظام البرلمانى الحديث ، فى مصر الآن ، ترتكز على قوتين : «البرلمان» للاستواء فى الكراسى ، « والطلبة » للاستقرار الهادىء فى الكراسى ! ... وكلاهما لا يكتسب إلا بوعود ومنح ، إن أعطيت فملا فقد حلت الفوضى وفسدت الأخلاق ، وإن لم تعط فلا حكم ولا اطمئنان على حكم ! ...

ما علينا . . . ليس من شأنه هو الاعتراض على شىء ، ولا مانع عنده من الإعطاء والمنح ، ما دام غيره يمنحه ويعطيه ، ولا حياء فى هذا ما دام هو اليوم دستور الجميع ! ...

وما كاد يرتدى ثيابه حتى دق جرس التليفون ينبئه بما توقع من عقد مجلس الوزراء جلسة سريعة فى الساعة الحادية عشرة ، بعد العودة من « السراى » مباشرة ، ونظرت إليه زوجته مستفهمة قائلة :

يا ترى « النهاردة » مجلس الوزراء فيه تعيينات وترقيات ؟ ...

فقال لها وهو يلقى نظرة أخيرة فى المرآة على شاربه الأسود الحالك :

ما فيش مانع ، جايز دوله « الرئيس » يربط ابن أخته على الدرجة الرابعة ! ...

فتنهدت زوجته وقالت ، وهى تبحث عن « شوشو » بطرف عينها :

عقبى لك لما تربط انت كان « عريس » بنتك ! ...

٢

ما قاربت الساعة منتصف الثانية عشرة حتى كانت الإجراءات المتقدم ذكرها قد تمت وانتهى الوزراء من فض المجلس وانتفش كل وزير فى صدر سيارته الحكومية إلى وزارته ، ولم يمض قليلى حتى وقفت سيارة « متولى باشا » أمام وزارة « ... » ، وهجم السعاة والحجاب يفتحون باب السيارة ، ونزل الوزير بين جموع من صغار الموظفين المنتظرين ... مشى الوزير فى طريقه إلى حجرته مشية أراد أن تكون متزنة طبيعية ! ... نعم ... فلا شىء أصعب على الوزير فى اليوم الأول من الصعود على سلم وزارته أو السير فى ردهتها أمام فيالق السعاة والحجاب والموظفين المتهامسين : « معالى الوزير » ... إنه يسمع هذا الهمس ويرى هذا الاحترام هو الذى كان بالأمس فقط مخلوقاً عادياً كسائر الناس ، فيرتبك فى حركاته ، ويرتج عليه فى إشاراته ، ولا يدرى كيف يمشى ولا كيف يفعل حتى يكون حقيقة « معالى الوزير » ! ...

أيضع يده فى جيبه أثناء سيره ، أم يرسلها إلى جانبه ؟... وهل يسرع فى الخطى أو يتثاقل ويتهادى ؟ ... إن « متولى باشا » لن ينسى تلك الكلمة التى سمعها من أحد إخوانه الموظفين ، يوم كان موظفاً : « الوزير يعرف فى الحال ، من طلعته على السلم أول يوم ، ومشيته فى الردهة » ! ... على أن الذى هون على « متولى باشا » الأمر أنه كان قبل اليوم وزيراً فلم تحيره المشكلة كثيراً ... كان الله فى عون الوزير الجديد الذى لم يتقلد وزارة من قبل ! ... وبالأخص

ذلك النوع من وزراء النظام البرلمانى الذين لم يسبق لهم مران فى المناصب الحكومية ، ولم يدخلوا الحكومة إلا وزراء ، ولم يعرفوا القيادة والإدارة إلا كلاماً فى الكتب والصحف والخطب فإذا هم فى اليوم التالى يجدون أنفسهم أصحاب أدوار عظمى على مسرح الحكم ، وهم مرتدون ثياب السلطان الموشاة ، وقد سلطت على وجوههم الأنوار ، واتجهت إليهم الأنظار ، فإذا بهم ينبهرون من الأضواء ، ويتعثرون « فوق الخشبة » وإذا كل همهم منصرف إلى إتقان الحركات والإشارات ، وكل التفاتهم متجه إلى صندوق « الملقن » ، وهو هنا : إما سعادة وكيل الوزارة المتوغل فى الشئون ، وإما دولة رئيسها الذى لا راد لمشيئته فى كل الأمور ! ...

ودخل « متولى باشا » حجرته المفروشة بأفخر الرياش ، وقد زينوها ذلك اليوم بأزهار جميلة فى أوان أنيقة ، وجلس الوزير إلى مكتبه اللامع الضخم الفخم ، وكل شىء فوقه نظيف جديد ، حتى الحبر وورق النشاف وأسنان الأقلام ، إلى جانب التحف الصغيرة اللطيفة ! ...

وجاء وكيل الوزارة النشيط فى الأثر يقدم إلى معاليه كبار موظفى الوزارة ومديرى إداراتها ، فجعل « الباشا » يصافحهم واحداً واحداً : تارة فى تواضع ظاهر ، مقبلا على بعضهم كل الإقبال ، وتارة فى ترفع واضح ماداً إلى بعضهم أطراف أنامله ... دون أن يكون لهذا أو لذاك سبب معقول ، ولكنه الارتباك ! ... وانصرف الموظفون ، وهجم المهنئون من أعضاء النواب لحزب الأكثرية الوزارية ، فاحتلوا المقاعد القطيفة والكراسى الجلد ، وأفنوا صناديق « السجاير » الموجودة ، ودخلت فناجين القهوة على الصوانى بالعشرات ، كأنهم فى « سرادق » عرس ! ...

واختلطت الأحاديث بالقهقهات . وإذا الجميع على الأرائك ، وعلى بعضهم العمائم البيض للزهرة المكوية كأنها « الفيشار » الناصع الجميل خارجاً من

للقلاة ! ... فأدرك الوزير أنهم لن ينصرفوا سريعاً ، فالحكومة حكومتهم ، وهم في بيتهم ومطرحهم ! ! ... إلى أن أنقذه مدير مكتبه ، بحمل ثقيل من الملفات ، تستوجب الختم والتوقيع ... فأبدى الباشا بيده إشارة تدل على رغبته في بدء العمل ، ففهم حضرات الزوار ... ونهضوا معتذرين بكثرة مشاغلهم ، وضيق وقتهم ، ورغبتهم في المرور على بقية الوزارات ... وتنفس الوزير ... ولكنه لم يكد يخلو إلى نفسه حتى سمع في الردهة ضجيجاً وهتافاً ... فلتحى الوزارة الجديدة ! ... فلتحى الوزارة المحبوبة ! ... نريد مقابلة الوزير ! ... »

وجاء مدير مكتبه يجرى ويقول : « الطلبة » ! ... فقال الوزير في نفسه : « آه ... نسيت القوة الأخرى » ولم يستطع الامتناع عن مقابلتهم ... ولم يستطع الحجّاب منع تيارهم ، فقد لمح الوزير بابه يهتز ويضطرب تحت ضغطهم ... فأذن مرغماً بفتح الباب ، فتدفقت الجموع كالسيل الجارف ... وإذا هو غريق بين طرابيش الطلبة الحمراء ، كالجريح في بركة من الدماء ، لا يكاد يتنفس ، وإذا بهذه الألوف قد احتلت كل شيء في المكان ... وتزاحموا حتى وقفوا على المقاعد القطيفة بأحذيتهم ، بعضهم فوق بعض وإذا مكتب « الباشا » قد جلس عليه بعض الطلبة ، وإذا أكتافه تكاد تقع تحت وقر كواهلهم ، وإذا الحابل قد اختلط بالنابل ، وهو لا يستطيع اعتراضاً ، فالحكومة حكومتهم هم أيضاً ، وقامت وتقوم بمؤازرتهم وهتافهم وإضرابهم « والبيت بيتهم هم أيضاً ومطرحهم ... ولفظ الوزير كلمتين أو ثلاثاً ترحيباً بهم ، وتأكيداً لحسن ظنهم في الوزارة الجديدة ، وتأميناً لهم على أن هذه الوزارة ستكون دائماً في خدمتهم وخدمة مطالبهم ! ...

وانصرف الطلبة أخيراً ، وانحسروا عن الحجرة كما ينحسر البحر عن جزر شديد ، تاركين المكان بعدهم وقد أصبح عجباً من العجب ... نعم ، حجرة

الوزير الأنيقة التي كانت هيئت وجاءت لاستقباله ، قد أضحت كميدان الحرب إذا ارتفعت عنه الجيوش المحتلة ، فقد انقلبت الكراسي ، وتمزقت القطيفة ، وتحطمت الموائد ، وسقطت الأزهار ، ولطخ وحل الشوارع الأبسطة والسجاجيد ، ودخل الخدم والفراشون وعلى وجوههم الاشمئزاز والامتعاض يصلحون ما أفسده الأنصار والأعوان ، ومع ذلك ليس هذا كل ما حدث ؛ فلقد تفقد الخدم الأواني الصغيرة الأنيقة ، والزهريات اللطيفة ، و «طقاطيق السجاير » البديعة فوق الموائد ، فلم يعثروا لها على أثر ...

ونظر الوزير إلى أقلام الحبر الجميلة والتحف الخفيفة فوق مكتبه فلم يجد لها هو أيضاً أثراً ، فتبادل الخدم نظرات الألم ، ثم التفتوا إلى معالي الوزير في خجل وأسف ، ولكنه نظر إليهم بابتسامة فيها بعض السخرية ، تخفيها وتغطيها نبرة التسامح الكريم ...

— ديمقراطيتنا ! ... ديمقراطيتنا ! ...

٣

كان منزل « متولى باشا » فى ذلك اليوم هو الآخر ، كالبحر المائج المائج ، فقد اصطخبت فيه حركة الزائرات الوافدات لتهنئة زوجة الوزير ، وهن من طبقات مختلفة ، ولكن أكثرهن كن من زوجات للوظفين ، أو من التابعين والمتزلفين ، أو ممن يدعون « الألاضيش » ، وقد ارتفعت الأصوات والضحكات واختلطت الأحاديث برنين أكواب « الشربات » وعبق المكان برائحة العطور الغالية والرخيصة ، وتلبد الجو بدخان « السجاير » ، وأحاطت الحاضرات « بخديجة هانم » زوجة « الباشا » يقمن لقيامها ، ويقعدن لقعودها … وهى من فرحتها لا تصغى إليهن ، ولاندرى ماذا يقلن … ولاتكاد تستقر فى مكانها ، لكثرة دق جرس التليفون ، ومحادثات الصديقات والزميلات ، وهى فى كل مرة تكاد تردد عين العبارات ، وتلفظ ذات الكلمات :

« الله يبارك فيك يا اختى ! … » « إن شاء الله عقبى لكم فى الأفراح ! … » الخ …

وتحدثت الحاضرات عن زوجة « رجب أفندى » محسوب « الباشا » فى الوزرات السابقة ، وتفقدنها ، فقد كانت لا تفارق هذا البيت ، لتقدم خدماتها ، وتسلى « الست » وتفصل « لفوشو » الثياب المنزلية البسيطة ، — لماذا لم تحضر هذه المرأة اليوم ، ولماذا لا تُرى بين الزائرات ؟ … سؤال أجابت عنه أخيراً زائرة كانت منذ قليل بمنزل حرم رئيس الوزراء ، وأبصرت « رجب أفندى » بالباب يتلقى بطاقات المهنئين ، كما أبصرت زوجته

عند أقدام « الرئيسة » فأدركت أنهما قد ترقيا وأصبحا الآن من « محاسيب » الرياسة ، على أن « خديجة هانم » لم تمتعض كثيراً لذلك ، فإن مكان « رجب أفندى » وزوجته لن يبقى شاغراً مدة طويلة ، فها هى ذى امرأة نشيطة تجرى هنا وهناك ، تمين على عمل القهوة وصنع الشربات ! ...

إنها زوجة موظف صغير فى وزارة « متولى باشا » ، ومع ذلك لم يخل انصراف المحسوبين السابقين على هذا النحو من أثر ، أرادت « خديجة هانم » إخفاءه بقولها : إنه لا فرق بين منزلها ومنزل حرم الرئيس ، وإن الذى يعنيها مصلحة « رجب افندى » وزوجته ... ودق عندئذ جرس التلفون من جديد، فنهضت ربة البيت إليه ، ودار بينها وبين مخاطبتها هذا الحديث :

— مبارك عليكم الوزارة انتم « كان » يا اختى ! ...

— مش حانروح كلنا نزور حرم الرئيس ؟ ...

— طبعاً يا اختى ضرورى ! ...

— وناوية تلبسى إيه يا « خديجة هانم » ! ...

— قولى لى إنت الأول رايحه تلبسى إيه ؟ إنت عارفة بسلامتها حرم الرئيس شاطره فى الانتقاد ! ...

— عارفاها بعيد عنك لسانها سايب ! ...

* * *

فى تلك الأثناء كانت « شوشو » ابنة « متولى باشا » مع خطيبها « مراد عبد الله » الموظف فى وزارة أبيها ، راكبين سيارة معالى الوزير الرسمية فى طريقهما إلى حوانيت شارع « فؤاد » ، فقد طلبت الفتاة السيارة الوزارية بالتليفون ، وذهبت بها إلى الوزارة ، فأخرجت خطيبها من عمله ليذهب معها لانتقاء حذاء جديد ... ولم يعترض هذا الإجراء أى صعوبة ، فقد بقيت هى فى

السيارة وأوفدت سائق الوزير يطلب للوظف « مراد بك عبد الله »... وإذ ظهور سائق الوزير أمام رئيس من رؤساء الإدارات كافٍ لإجابة الطلب ، وأنزلت السيارة الخطيبين أمام الحانوت . وعادت سريعة إلى الوزارة لتقل الوزير إلى مجلس الوزارة ... وسارت « شوشو » متأبطة ذراع خطيبها ، تنظر في واجهات الحوانيت ، ولسانها لا يقف لحظة عن الثرثرة ! ...

لقد كان من السهل على الناظر إليهما أن يتبين مقدار تعلق الفتاة بالفتى! ... لقد كانت تسير به من شارع إلى شارع لا لمجرد السير ، بل لمجرد المباهاة بأن في ذراعها فتاها ... إن تأثير السينما في أمثال « شوشو » من الفتيات لأعمق من تأثير الدراسة النظرية التي خرجت بها في مراحل التعليم ! ... لقد قابلت « مراد » أول مرة في « بلاج ستانلي » ذات صيف ... وكانت قد أمضت عامها الدراسي النهائي ... ومنذ ذلك اليوم وهي ترى في « مراد » أكثر من خطيب ... إنه الفتى الذي تمثل وإياه الدور الذي تحلم كل فتاة غريرة بتمثيله ! ...

هذا الدور الذي تلقته لا من الكتب ولا من المربين والمربيات ! ... ولكن مما رأته على الستار الفضي ... أما « مراد » — وهو خريج الجامعة منذ ثلاثة أعوام — فقد كان يلوح عليه أنه فرغ من لعب هذا الدور ، وأنه الآن متهيىء لدور آخر فيه من الجد ما يناسب نظرته الجديدة إلى الحياة ... لعل هذا هو السبب في رزانة « مراد » وهو يسير متباطئاً تاركاً ذراعه لخطيبته بغير تحمس بالغ ! لقد كان حريصاً على إرضائها ... ساعياً إلى اكتساب قلبها ... ولكن قلبه هو ... إن من الخطإ القول بأنه لا يحب « شوشو » ! ... إنها تعجبه من غير شك ... تعجبه لأنها يجب أن تعجبه ، ويجب أن يحبها ... إن عقله كان يحتم عليه ذلك ، وكان يقنعه بذلك ! ... ولقد ارتفع صوت عقله ، حتى طغى على صوت قلبه الهامس بذكريات عزيزة ! ...

٤

فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى كان « متولى باشا » جالساً إلى مكتبه بالوزارة ، يرشف فنجان القهوة ، ويصغى إلى عرض سريع لشئون العمل ونظامه ، يلقيه على مسامعه وكيل الوزارة بناء على طلبه ، وكان بين الفترة والفترة يوجه سؤالا ، أو يبدى ملاحظة ، أحس هو نفسه أحياناً أنها تافهة أو سخيفة ! ... ولكن وكيل الوزارة يسرع قائلاً :

نظر معاليك فى محله ..

ولو أن هذا الوكيل كان يسخر من نظر الوزير فى أعماق نفسه لاستحق بعض الاحترام ؛ ولكن المصيبة أنه جادّ فيما يقول ... أو كان يقنع نفسه بأنه جادُ . وانتهى من عرضه ، وكان على « الباشا » الوزير بعد ذلك أن يتكلم أو يقول شيئاً ، ويبين عن وجهة نظره أو سياسته التى سيسير عليها ، لو أن له ما يصح أن يدعى سياسة ؛ ولكنه ما كاد يلفظ جملة أو جملتين حتى رأى فى شفتى الوكيل وعينيه ما يدل على أنه موافق سلفاً ، ومتحمس مقدماً على ما قال الوزير وما لم يقل بعد من الكلام ! ..

وفطن الوزير إلى ذلك واطمأن إليه ، فهذا من غير ريب شىء مريح ... ولكنه لم يلبث أن أحس أنه من جهة أخرى أمر متعب أن يحمل هو وحده مسئولية ما يقول ... على أنه كإنسان فيه ضعفه ، — لا يكره كثيراً هذا النوع من الأشخاص الذين يقولون له دائماً : آمين ...

وذكره هذا الخاطر بمسألة خطيب بنته « شوشو » فلم يدر كيف عرج بموضوع الحديث إلى ناحية أخرى قائلاً للوكيل :

على فكرة ... انتم عندكم درجات خامسة خالية ؟ ...

فسأل الوكيل :

فنية والا إدارية يا معالى الوزير ؟ ...

فقال وقد لمس هذه الفروق :

أظن فنية ...

فانطلق الجواب من فم الوكيل ، وقد تنمم بذكائه وخبرته الربح للوحية بالسؤال :

من غير شك ... لو سمحت معاليك أطلب مدير المستخدمين ...

ووثب من فوق كرسيه إلى الجرس ، وطلب إلى « السكرتير » أن ينادى مدير المستخدمين حالا ... ولم يمض قليل حتى جاء هذا المدير ، ففتح له الباب ذو « المراوح » ، وماكاد يخطو فى الحجرة خطوة حتى ابتدره وكيل الوزارة قائلا :

— انت طبعا عندك درجات خامسة خالية ؟ ...

فجعل مدير المستخدمين ينقّل نظره فى صمت وحيرة ، بين الوزير وبين وكيل الوزارة ، ثم قال فى شبه همس موجهاً كلامه إلى الوكيل :

سعادتك عارف إن ما عندناش دلوقت درجات فنية خالية ...

فقال الوكيل :

بقى ما تعرفش تدبر درجة خامسة بسرعة ؟ ...

فقال المدير فى صوت خافت :

تدبرها ازاى ؟ ...

وكاد « متولى باشا » يعتقد أن الباب قد أغلق ، وأن لا سبيل إلى الكلام فى هذا الموضوع بعد ذلك ، ولكن وكيل الوزارة — حلال للمعضلات — أسرع يقول فى ثقة بنفسه واطمئنان إلى قدرته :

أنا أقول لك تدبرها ازاى ... انت طبعاً عندك درجة خامسة إدارية ... انقلها فنية ... والغيها من الكادر الإدارى ؟ .. مفهوم ؟ ... دبرنا المسألة والا لأ ؟ ... رح بسرعة اعمل مذكرة بالحل ده ! ...

فوقف مدير المستخدمين فى مكانه بلا حراك ، ونظر إلى الوكيل ، كأنه يريد أن يكلمه سراً ، فقال له الوكيل :

منتظر إيه ؟ ...

فقال المدير همساً :

سعادتك مش فاكر ... نلغيها من الكادر الإدارى إزاى ، دى مستحقة لسيد أفندى !! ...

— سيد افندى مين ؟ ...

— سيد افندى عبد الباقى رئيس قلم العلاوات ... الراجل طالع على المعاش آخر الشهر ... ومنتظر الدرجة اليومين دول لتحسين معاشه ! ...

— انزل بسرعة اعمل المذكرة ... « سيد أفندى عبد الباقى » نبقى نبحث موضوعه فى المستقبل ! ..

وخرج مدير المستخدمين صادعاً بالأمر ، وأطرق الوزير لحظة يفكر ثم رفع رأسه ، وقال للوكيل :

المسألة يظهر فيها صعوبة .

فقال الوكيل من فوره :

أبداً ... أبداً ، يا معالى الوزير ! ... المسألة فى منتهى البساطة ! ...

ولم يكد يتم عبارته حتى دق جرس التليفون ، على يسار الباشا ، فتناول الباشا السماعة ، فإذا سكرتيره الخاص يقول :

البيت ! ...

ثم حول إليه « السكة » ... فإذا صوت « شوشو » يصيح فى أذنه :

بابا مسألة « مراد » إياك تنساها ! ...

فقال لها فى الحال :

أدحنا بنحل فيها ...

— إياك تيجى النهارده من غير ما تتم ! ...

— اطمئنى ! ...

— يعنى تبقى ماهيته كم ؟ ...

— وبعدين بقى يا « شوشو » ؟ ! ... مش وقته اعملى معروف . احنا قدامنا أعمال أهم من كده كتير ..

— مهام الدولة ؟ ...

— طبعاً ... طبعاً ...

ووضع الوزير السماعة ، والتفت إلى وكيل الوزارة فوجد فى وجهه ما ينم عن أنه اعتاد مثل هذا الموقف ، فاطمأن قلبه ، وأراد أن يصل الكلام الذى

انقطع بحديث « التليفون » وأن يعود إلى الكلام فى مهام « ... » فنظر إلى وكيله قائلا :

نعم ... كنا بنتكلم فى إيه ؟ ...

فقال الوكيل اليقظ :

معاليك كنت مستصعب مسألة الدرجة ...

فقال الوزير متذكراً :

آه ... ما دام بقى الدرجة موجودة ..

فأسرع الوكيل النشيط يقول :

اطمئن معاليك ... معاليك ما تشغلش بالك بالمسألة دى ... اترك لى الموضوع !

ووقف الأمر عند هذا الحد ، ولم يجد الوزير سبيلاً إلى استمرار الكلام فيه ، فسكت وفكره ما زال مشغولا ، يسائل نفسه فى عجب : ترى ماذا سيصنع هذا الوكيل وهو لم يذكر له اسم الشخص المراد ترقيته ؟ ... أترى من شأن الوكيل الفطن أيضاً أن يتكفل بشم رائحته ، واستخراجه من بين موظفى الوزارة ؟!...

٥

ما هى تلك الهمسات المكتومة فى قلب « مراد » خطيب « شوشو » ؟... ماهى تلك الذكريات المدفونة فى طيات نفسه المتهيئة لحياة جديدة ؟ ... الجواب عن هذا فى منزل بحى الروضة ، تقطنه أسرة صغيرة متوسطة الحال ، قوامها « سيد أفندى عبد الباقى » رئيس قلم العلاوات وزوجته العجوز ، وابنتهما « سميرة » خريجة الجامعة ... لقد كانت « سميرة » زميلة مراد فى جميع سنوات الدراسة الجامعية ، وتخرجا معاً فى كلية الآداب ! ... واستطاع مراد أن يجد وظيفة فى وزارة « . . . » أما هى فلم تستطع ، لأن أباها رجل طيب لا يعرف أساليب الحياة الحديثة ، ولا يستسيغ طريق الوساطة ، فهو يؤثر أن يُحرم حقه الذى استحقه بعمله وكدّه على أن يناله بالسؤال والمذلة والإلحاح... وهو يقول لابنته دائماً ما يحسبه خلاصة فلسفته فى الحياة :

« حسبنا أن نعمل بإخلاص ... هذا كل المطلوب منا ، ولا خير فى الدنيا بعد ذلك ، إن لم يسكن فيها من يجزينا على عملنا ويمنحنا حقنا ! ... »

ولو علم هذا الفيلسوف السليم النية أن حقه الساعة تعبث به المقادير ، وأنه سينتزع من فمه ، ليمنح ذلك الشاب زميل ابنته لكان له رأى آخر فى مثل هذه الدنيا أقسى مما تصور ! ... إنه بالطبع لم يكن يعلم ما يدبره القدر ، أو على الأصح الوزير مع وكيل الوزارة ... ولا كانت « سميرة » تدرى شيئاً ، فهى فى ذلك اليوم ما كانت تفكر إلا فى شطر من حياتها ، توشك أن تهيل عليه

التراب ! ... لقد أغلقت فى ذلك المساء عليها باب حجرتها بالمفتاح ... وأضاءت على رأس سريرها المصباح ، وأخرجت مجموعة من الرسائل كانت تخفيها وتعتز بها ، وطفقت تقرأها القراءة الأخيرة ، وعبراتها تنهمر ، قبل أن تردها إلى صاحبها ... نعم ... لقد حادثها « مراد » صباح اليوم بالتليفون ، بعد قطيعة دامت شهوراً ! ... لا ليصالحها ، ولكن ليسألها أن تعيد إليه خطاباته ، لأنه أزمع الزواج من ابنة الوزير ...

إنها كانت تلمح من ثنايا حديثه فى لقائهما الأخير منذ شهور أنه مقبل على مثل هذا العمل ... فلقد رأت منه تغيراً هالها .. لقد نسى المبادىء التى تعاهدا على احترامها .. وسخر بالمثل العليا التى أقسما أن يعيشا بها ... ولهذا افترقا متخاصمين ... ولكنها لم تكن تظن أنه يقدم بهذه السرعة على اختيار الطريق الذى سار فيه أهذا هو مراد حقاً ؟ ... أهذا هو مراد الذى كان يكتب إليها هذه الخطابات ؟ ... وأمسكت « سميرة » بخطاب من بين المجموعة، وجعلت تقرأ بصوت خافت مرتجف هذه السطور :

سمر العزيزة ! ...

« حبنا الخالد يجب أن يبقى ما بقيت مصر الخالدة ... إياك أن تنسى هذه الكلمة التى هتفنا بها أمس أول مرة ، وقد اجتزنا منفردين حديقة الأورمان، بعد عودتنا من الاحتفال بذكرى شهداء الجامعة ، لقد كانت أول مرة نلفظ فيها كلمة الحب .. لطالما أردت أن نسمى علاقتنا صداقة وإخاء روحياً ... ولقد كنت أجاريك فى تلك التسمية ، لأنى كنت أرضى منك بأى شىء ، ولا أجرؤ أن أصارحك بحقيقة العاطفة التى أشعر بها نحوك ... كلا يا « سمر » ... إنها كانت شيئاً أقوى من الصداقة ، لأنى ما كنت أطيق أن أرى أى صداقة أخرى ، تنشأ بينك وبين زميل آخر من الطلبة ... لقد كدت أضمر الشر وأتأهب لصفع صديقى « فهيم » ، لأنى رأيته يسير إلى جانبك ذات عصر ،

يحادثك طويلا حتى محطة الترام ... إن فهيم – هو زعيم الطلبة الذى أضرب عن الدراسة إذا أضرب ، ونهتف وراءه إذا هتف ... وكنت أخشى أن يكون لهذا المظهر المغرى أثر فى نفسك ...

لكم قضيت يا « سمر » الليالى الطوال ساهراً ، تعض قلبى الغيرة عضاً ، كلما حادثك « فهيم » يخيل إلىّ أنه معجب بك ، وأنه يخصك بالتفاته دون بقية الطالبات ... لقد انقلبت مودتى له كراهية ... وإعجابى به عداوة ... منذ تلك الساعة وأنا أوقن أن الذى أحمل لك هو الحب ... الحب القوى العاصف ... الحب الذى يعرف التضحية ! ...

نعم يا « سميرة » ! لقد تكلمنا أمس كثيراً عن التضحية بمناسبة الشهداء ، وقلنا إن قلوبهم كانت لاشك عظيمة ، وإن حبهم لبلادهم كان عميقاً ، فضحّوا بأرواحهم من أجله ، فتشجعت وقلت لك عندئذ : إنى أحس هذا الإحساس نحوك ، وإنى مستعد أن أضحّى حياتى من أجلك ... فالتفت إلىّ وقد احمر وجهك احمراراً شديداً ، فشعرت بسعادة لا توصف ، ولم يكتم أحدنا الآخر بعد ذلك حقيقة عواطفه ...

إنى أكتب إليك كل هذا يا « سميرة » فى وقت أنا أحوج فيه إلى دقيقة المذاكرة ... وأنت مثلى ... فامتحان الليسانس بعد شهرين ، ولكنى أريد أن أسجل على الورق كلماتنا حتى لا تنسيها ! ...

أما أنا فثقى أنى لن أنسى ما حييت كلمة تخرج من فمك ! ... إنك إيمانى يا « سمر » ، إيمانى بنفسى ، وبالحياة ! ... إيمانى برسالتنا فى الحيـــاة ، يوم نخرج إلى معتركها ! ...

لقد تحدثنا فى ذلك طويلاً أمس ، وقبل الأمس ، لقد قلنا إن حياتنا هى لمصر ، ويجب أن تكون لمصر ، لا لأنفسنا ! ... وبذلك نكون جديرين بأولئك الزملاء الذين منحوا مصر أرواحهم ! ...

لن أنسى دموعك وأنت تنثرين على نصبهم التـذكارى باقة أزهارك ، التى قلت لى إنك حرمت نفسك مشاهدة السينما شهوراً لتقتصدى ثمنها . أنا أيضـاً فعلت ذلك فى العام الماضى ؛ لهذا التقت روحانا سريعاً ... يجب أن نضع راحتنا بل حياتنا فى خدمة مثل أعلى ... ذلك كان موضوع حديثنا الدائم فى غدواتنا وروحاتنا ...

ألا تذكرين ؟ ... لقد تحدثنا عن المستقبل ... وسألتـك عن حلمك فى الحياة ، وعما تفعلين إذا تقدم إليـك خاطب من أصحاب الثروة والجاه ؟ ... لقد كان هذا فى الحقيقة حلمى أنا المزعج ... أن أراك يوما بعد تخرجك وقد اختطفك منى أحد هؤلاء ! ... ولـكنك زجرتنى زجراً سرنى ، وقلت لى إن هذا عار على شبيبتنا الحاضرة أن تفـكر هذا التفـكير ، فنحن يجب أن نخرج إلى المجتمع ، لا لنمد أيدينا للاغتراف من ترفه ومتعه ؛ بل نمدها باللبنات والأحجار ، لشتيد مستقبل بلادنا على أسس المثل العليا والأخلاق العظمى ...

حقاً يا سميرتى ... نحن الشباب ... لسنا سوى مصر الغد ، فإيانا أن نشوه صورة مصر الغد ! ... إن رسالتنا هى الخروج إلى المجتمع لإصلاح ما أفسدته المطامع المادية والمنافع الشخصية ، لا أن نجرف فى تيار النفعية والوصولية ... واجبنا أن تنتشل بلادنا من الأدران بسواعدنا المفتولة الفتية ! ...

لقد سألتنى أنت أيضـاً عين سؤالى ، وقلت لى : ماذا أنا فاعل لو عرضت علىَّ زوجة تحقق لى كل مطمع مادى ! ... وإنك لتذكرين أنى لم أجبك بغير ابتسامة هادئة ، فأنا لم أكن محتاجاً إلى إقناعك طويلا بأنى لست هذا الشاب !... كلا يا عزيزتى « مصر » ، لا يجدر بنا أن نسىء الظن لحظـة بأنفسنا ، أو نفقد الثقة لحظة بمبادئنا ! ...

إيماننا بخلقنا نحن شبيبة اليوم ، هو إيمان بمستقبل بلادنا ، وإنما الجريمـة

أن نشك فى هذا المستقبل ! ... حذار أن ترتابى فىّ يوما يا « سميرة » ، ومعاذ الله أن أرتاب فيك ... إنك إيمانى كما قلت لك ... وإنى لأكررها لك حتى لا تمحوها الأيام من ذاكرتك : أنت إيمانى بنفسى ، وبالحياة ، وبرسالتنا إلى الوطن العزيز ! ... أنتِ لى إلى الأبد ! ... وأنا لك ... أنت زوجتى التى لن أحيا بدونها ، ولن أتصور لى زوجة غيرها ... إياك أن تنسى أننا تعاهدنا البارحة على الزواج ، عقب نجاحنا فى الليسانس ، وأشهدنا الهلال الصغير الطالع على هذا المعهد المقدس ، فاهتفى معى مرة أخرى : حبنا الخالد يجب أن يبقى ما بقيت مصر الخالدة ! ... « مراد »

طوت « سميرة » الرسالة ودستها بين غيرها من رسائل المجموعة ، ولم تحاول أن تقرأ سواها ؛ فإن ما ورد فى كل الرسائل لم يخرج عن نطاق هذه الكلمات والمعانى ، ومسحت الفتاة دموعها ، ووضعت المجموعة فى غلاف كبير أبيض ، كأنه كفن يضم رفات عزيزة ، على أن شعور الحزن والأسى فيها لم يلبث أن تحول إلى عاطفة حقد وغيظ ... ذلك أن إحساس الأنثى فيها تغلب على كل ما عداه ! ... لولا هذا لكان الأحرى بها أن تضحك ، والأنسب لها أن تسخر ، وقد رأت مصير ذلك الحب الخالد ، ومآل تلك المثل العليا ! ! ...

ولكن صدمة القلب عند المرأة أقوى من كل شىء ، لذلك لم تفكر « سميرة » فى أى شىء آخر ، سوى الثأر ، والرد العاجل على تلك الصفعة القاسية ، وهذا الرد لا يكلفها غير لفظة واحدة من شفتيها : إن « فهيم » زعيم الطلبة السابق والمحامى الآن قد طلبها إلى والدها وما زال ينتظر الجواب وهى تماطله وتماطل والدها ، زاعمة أنها تريد حياة العمل ، وأنها إنما خلقت للكفاح والجهاد ... وهى فى حقيقة الأمر ما كانت تريد بذلك غير كسب الوقت ، وإفساح الأجل لحبيبها لعله يعود إليها بعد القطيعة ، إنها لم تكن قد فقدت الأمل ، لأنه لم يكن قد أعلن خطبته لابنة الوزير ... ولم يكن قد فاتحها بعد فى أمر رد

رسائله ؛ أما اليوم وقد قضى الأمر … وحنث « مراد » بعهوده ، فلا بد لها هي أيضاً من أن تحنث ، وما دامت وجهته في الحياة قد وضحت ، وظهر أنه قد آثر عليها ابنة رجل ذي سلطان ، ليرقى به سريعاً درجات المجتمع ، فإن من الذلة لها أن تبقى هي في أسفل الدرج ، تنظر إليه في ارتفاعه ! … لا بد لها هي أيضاً من أن ترتفع ، لو كان باستطاعتها أن تظفر هي أيضاً بابن وزير ! … ولكن أين لها ذلك ؟ … إن « مراد » حقق هذا لأنه شاب وسيم ذكي ، وقد أراد ذلك واستطاعه ، وأمكنه أن يلتمس الأسباب التي ينال بها قلب « شوشو » ، ولكن هي المرأة كيف تغزو هي قلب رجل يحقق لها مطامعها … كان هذا هو تفكير « سميرة » منذ علمت بسكارتها … لم يكن شيء يعذبها إلا هذه الرغبة المحرقة في الرد على عمل « مراد » بمثله … إن أخشى ما كانت تخشاه أن تتزوج رجلاً أقل من « مراد » مركزاً … إن تلك الفكرة كانت تقتلها قتلاً… وإن خير ما كانت تتمناه هو أن تستطيع أن تقول لمراد :

أنا أيضاً قد تزوجت شاباً لا يقل عنك ، بل هو خير منك طبقة ودرجة ونفوذاً … وهذا هو ميدان التنافس الجديد بين الحبيبين السابقين !! … ولم يكن في أفق « سميرة » ما يبشر بفوز قريب ، ولم يكن لها مندوحة آخر الأمر عن أن ترضى بالمحامي زعيم الطلبة … فمن يدري ، ربما استطاع أن ينجح في تسلق الذرا هو الآخر ! … إنه يؤكد لها ذلك ، ويحدثها كلما زارهم من آماله … ويغريها بأنه سوف يصبح في عهد هذه الوزارة شيئاً مذكوراً … فهو ذو صلة وثيقة بالوزير « زيد باشا » صاحب الحول والطول في الوزارة… وإن هذا الوزير الخطير يعلم كل العلم ما قام به « فهيم » من خدمات للوزارة قبل تبوئها كراسي الحكم … فنظم لها حركات الإضراب خير تنظيم بناء على تعليمات الحزب ! … وأغرى الطلبة بالانضمام إلى الحزب ، تارة بالوعود ، مؤكداً أن هذه الوزارة سوف تنقص درجات النجاح في الامتحانات ، وتارة

بالمال الذى كان يتلقاه من الحزب لهذا الغرض ! ... حتى الهتافات فى المظاهرات هو الذى كان يدبر لها من أصحاب الحناجر القوية ، ويوم تولت الوزارة الحكم كان هو الذى أوعز إلى الطلبة أن يتدفقوا على كل وزارة ووزير للهتاف بالتحية، وإظهار العاطفة الوطنية ، وإقناع الخصوم بأن هذه الوزارة هى وزارة الأمة المحبوبة دون سواها ! ...

كل هذا يعرفه الذهن المفكر لهذه الوزارة ، وهو « زيد باشا » ... وقد وعد زعيم الطلبة « فهيم » بحظ من الغنم وقسط من النعيم . لا يدرى بعد ما هو : أهى وظيفة طيبة ، أم كرسى فى مجلس النواب ؟ ...

كانت « سميرة » تصغى إلى هذا الكلام دون غضب ، ودون ابتسامة ازدراء ، ودون أن يجتاحها شعور بخيبة أمل فى هذا الشاب الذى كانت تظنه متحمساً للوطن من أجل الوطنية ' ...

وهو من غير شك كان كذلك يوماً من الأيام قبل أن تصبح زعامة الطلبة عملا يتصل مباشرة بسياسة الأحزاب ، وشغلا يكاد يكون مهنة أو وظيفة ، يرصد لها المال ، وترسم لها الخطط ، وأداة تعبث بها أصابع الزعماء ! ...

نعم ... لم تسخط « سميرة » لكل هذا ، ولم تفكر فى مداه وخطورته وبعده عن مثلها العليا القديمة ؛ بل إنها سرّت به ورأت فيه الفرج ، وأيقنت بأن حلمها الجديد موشك أن يتحقق ، فبادرت تبدى لفهيم — عندما عرض عليها ذلك — رأيها قائلة فى حزم وتحمس :

« أنا أفضل لك مجلس النواب » ! ...

٦

جعلت الساعة السادسة من مساء الجمعة موعداً يلتقى فيه « مراد » بـ « سميرة » ، لرد مجموعات الرسائل التى تبودلت بينهما ... واتفق على أن يكون اللقاء أمام النصب التذكارى بالجامعة ! ... فما كادت تدق ساعة الجامعة دقاتها الست ، حتى كان « مراد » يمشى حول النصب منتظراً نافد الصبر ... إنه عين الانتظار السابق ، وعين الصبر النافد ، ولكن شتان بين الباعث والباعث ، والعاطفة والعاطفة ، والأفكار والأفكار ! ... إنه الآن يخشى أن تبطىء فضتيع عليه موعداً آخر فى بيت الوزير ، ويخشى أن يطرأ تغيير على عزمها ، فلا تأتى فيظل واقعاً تحت تهديد تلك الرسائل اللعينة ... ثم هو يخشى أيضاً عاطفته ... لقد انطفأت جذوة ذلك الحب الصبيانى ، ولكن لماذا النبش عاجلا فى رماده ؟ ... يجب أن يشغل شعوره وفكره بالمستقبل لا بالماضى ...

ثم يا لها من مواجهة مربكة محيرة ! ... ماذا هو قائل لها فى أمر زواجه ؟ ... هل يسكت ويتهرب ، أو يعلل ويبرر ؟ ... لعل خير الأمور اختصار الاجتماع فى مثل هذه المواقف ، واختزال الكلام فى مثل هذه الظروف ...

نعم ! ... هذا ما يجب أن يلجأ إليه ... سرعة إنهاء المقابلة ! ...

وجهز فى يده الغلاف الذى يضم الرسائل القليلة التى كانت قد كتبتها

إليه ، وعوّل على أن يبادرها بتقديم الغلاف ، متحاشياً فتح حديث طويل ،
ومضت دقائق خمس بعد السادسة ، وإذا هو يسمع صوت خطوات خلفه علم أنها خطواتها ... فإن أذنه كانت ولم تزلْ تعرف وقع هذه الخطوات ، وتستطيع تمييزها من بين ألوف ... فاستدار يقابلها ، ووقعت العينُ في العين ، فألقى نظرة جامدة ... هي الأخرى كانت فيما يبدو قد أعدت نفسها لهذا اللقاء . لولا شحوب قليل خانها ، وأفصح عما بها لأيقن أنه أمام فتاة غريبة ، لم يسبق لها أن رآته ...

وحيت برأسها تحية مختصرة رداً على تحيته ، وقدمت من فورها يدها بغلاف رسائله الذى تحمله ، وكل شيء فيها يدل على أنها نوَتْ هى أيضاً أن تتجنب كل ما يشعر بضعف ، أو يومىء إلى رغبة فى استجرار حديث أو استدرار عتاب ! ...

وقدم لها هو كذلك غلاف رسائلها ، فتناولته شاكرة ، وهمت بالإنصراف ، فتناولَ يدها فى يده وقال :

تنصرف أصدقاء ؟ ...

فتمهلت فى الإجابة ، إذ من المؤلم للمرأة أن تضطر إلى استبدال الحب بالصداقة ، وأن ترغم على قبول رجُـلها صديقاً لا حبيباً ... ولكن كبرياءها حتم عليها أن تقول له :

ولِمَ لا ؟ ...

ولم يكن صوتها كالماء النمير النابع من الصدق ، بل كانت تخالطه نبرة التحدى ، وكيف فات « مراداً » أنه قد مس كبرياءها بهذه الكلمة ؟ ... إنها كانت تغتفر له هذه الإهانة لو أنه قال لها :

« فلننصرف بعد أن أهَـلنا التراب على حبنا » ! ...

فالمرأة تستطيع أن تعيش مع الحب ميتاً دفيناً ... ولكنها لا تستطيع أن تراه قد مسخ مخلوقاً آخر، حتى ولو كان هذا المخلوق أنبل العواطف ... ما دام ليس هو الحب ...

إنها تعيش مع الحب الميت، لأنها تستطيع أن تضع عليه فى كل يوم زهرة من دموع الذكرى! ... ولكن ماذا تُراها تستطيع أن تصنع مع ذلك المسخ الجديد ؟! ...

ومضى «مراد» فيما تورط فيه، قاصداً إظهار صداقته فقال :

ثقى أنى سأهتم دائماً بخطواتك فى الحياة ...

وكانت تنتظر هذه الفرصة لتعلنه شامخة متحدية :

ثق أن خطواتى فى الحياة لا تقل ثباتاً عن خطواتك ! ...

— أنا كما تعلمين أول من يهنئك ! ...

— نعم ... تستطيع أن تهنئنى بخطوبتى إلى «فهيم»، ولعلك تعلم أنه مرشح لعضوية مجلس النواب... وليس من الصعب على مثله أن يصير وزيراً ! ...

قالت كل ذلك بسرعة، وكأنها كانت تحرص على أن تقول له ما قالت ؛ كأنها خافت فوات الفرصة التى تمكنها من الإفضاء بهذا ... فلما أفضت به استراحت ! ...

أما «مراد» فكل ما استرعى التفاته من هذا كله ... هو أمر واحد وقع فى نفسه، وحمله على التفكير والهمس والترديد :

«مجلس النواب» ! ...

فى الواقع أن هذا الطريق أيسر وأقصر من طريق الوظائف، وأدركت «سميرة» أنها قد سددت ورمت وأصابت، وأنها قد حققت ما أرادت،

وأشعرته بأنه ليس وحده الناجح فى حياته ، وأحست أنها تستطيع أن تغادره الآن ، وهى رافعة الرأس ، فصافحته مودعة ، فصافحها …

وعندئذ حانت منهما فى ذات الوقت التفاتة إلى النصب التذكارى ، وفى عين الوقت أضاءت فى رأسيهما بحروف مرتعشة تلك العبارة النارية :

« حبنا الخالد يجب أن يبقى ما بقيت مصر الخالدة ! … » .

أما الشطر الأول وهو حبهما الخالد ، فقد ظهر لها مقدار خلوده … وأما الشطر الثانى … وهنا شعرا — لأول مرة عن وعى ظاهر — أنهما أخذا يشكان قليلا فى حقيقة تلك للبادىء وللمثل العليا التى كانت عندهما وعند زملائهما بمثابة إيمان … أتراه كان عبث صغار ؟ …

أتراها مشاعر شباب غير مسئول كما يقال ؟ … ولكنهم مع ذلك اعتقدوا بهذه المثل وآمنوا بحقيقتها فى وقت من الأوقات ، ومات بعضهم مضحياً بدمه فى سبيلها ، وها هو ذا « النصب » يشهد به ! … أتراها كلمات جميلة تحلو للترديد داخل المدارس والجامعات ؟… ولا تصلح للعمل بها خارج المعاهد ؟!… أترى مصر الخالدة ، والوطن الخالد ، والتضحية ، والنفع العام… إلخ … أشياء من قبيل الأوهام …

نعم … هذه هى الحياة بحقائقها قد تكشفت لهم عن مصالح خاصة ، ومنافع شخصية ، ومجالس نيابية ، ووظائف ودرجات ومرتبات ، وعضوية شركات ، ومناصب حكومية ، وأبهة وزارية … أليست هذه هى الحياة ؟… وما خلاها عبث صغار وخيالات صبا وأحلام شباب ؟ …

من الذى أفهمهم أن هـذه هى الحياة ! … أليسوا قادة الرأى ، وزعماء الحكم ، ورؤساء الأحزاب ؟… أليسوا كلهم يعيشون على مذهب آخر قوامه « أبهة الحكم ومتعة الحياة » ؟ … أليس ذلك هو « نصبهم » التذكارى ؟ ! …

للشبيبة داخل جدران جامعتهم « نصب تذكارى » يقطر دماً ... ويقول لهم كل صباح : «أنا التضحية فى سبيل مصر الخالدة» ! ... فيصدقونه ويظلون يؤمنون به حتى يتخرجوا ، ويجدوا أنفسهم خارج الجدران ... فإذا هم يرون الحياة وفى وسطها « نصب تذكارى آخر » أقامه الزعماء والعظماء ! ... أقاموه من الذهب الإبريز يقطر ترفاً وكسلاً ونعيما ... ويهمس لهم كل صباح ومساء : أنا الحياة فى سبيل شخصى ! ...

أيهما يصدقون ؟ ... أى النصبين يتبعون ، وإلى أى الصيحتين يسمعون ؟... وليت « النصب » الخارجى تركهم مع ذلك حتى يخرجوا وأمهلهم ليعيشوا قليلا فى وهم حجرهم الداخلى ... فقد دلف إليهم فى حرمهم واقتحم عليهم أسوارهم وهو يرن لهم بقطع الذهب ... ويعلمهم قبل الأوان ، كيف تباع المبادىء وتشترى فى سوق النضار ... ولعله درس « توجيهى » رُئىَ من الضرورى أن يلقن داخل الجامعات حتى يخرج الشباب إلى الحياة فى شىء من الدُّربة على الواقع ، والدراية بالحقيقة فلا تقتلهم الصدمة إذا بقى لبعضهم شىء من ضمير ...

لم يكن فى مقدور « مراد » أو « سميرة » أن يفكرا فى كل ذلك ، أو أن يعيراه اهتماماً ... فإن القلب النقى فيهما كان قد مات ، والضمير الفتىّ قد شاخ ... كل ما دار فى خلدهما وهما يتطلعان إلى الحجر التذكارى : هو أنه كان شاهداً على مهزلة حبهما ... ومهزلة هتافهم وإضرابهم وتحمسهم الفارغ ، وأنهما حرما نفسيهما متعة السينما شهوراً ، ليقتصدا من أجله ثمن طاقة زهور ! ... ليتهما لم يفعلا ... ولكن أنىّ لهما أن يعرفا تفاهة هذا الحجر إلى جانب ذلك « النّصب » الذهبى القائم فى الخارج شامخاً ، للشرف مزهواً على خضم الحياة المصرية ؟ ! ...

مساجلات سياسية

الحكم فى مصر خلال فترة الثلاثينيات ظهرت آثاره على المجتمع المصرى مما تناوله حوار ومساجلات نشر بعضها فى الصفحة الأولى من جريدة « الأهرام » عام ١٩٣٨ بين « توفيق الحكيم » وبين الدكتور « منصور فهمى » عميد كلية الآداب بالجامعة وأستاذ كرسى الفلسفة بها …

وفيما يلى أمثلة منها :

جموح الديموقراطية

ما تقول هو الواقع ! ... إن تفشى المادية وجموح الديموقراطية لمن أظهر الأمراض الاجتماعية اليوم ! ... ولعل الأولى نتيجة الثانية فقد فهمت الديموقراطية فهماً غريباً ، فهى اليوم مطية ذلول لمن يريد سرعة الوصول !... لقد تزاحم الناس فملأ على ركوبها فجمحت بهم وانطلقت تهدم الأخلاق وتحطم المثل العليا !... إنك لن تجد اليوم كثيراً من طراز أولئك الرجال الذين عاشوا متعففين ... لا مطمع لهم غير تلبية نداء الحق والواجب فى صوت جهير وخلوص ضمير ! ...

لقد مضى ذلك الزمن الذى كان يجلس فيه العالم قابعاً فى أطماره ، يلقى الحكمة على سامعيه ويجرى عليه الخير ليعيش ثم يموت ولم تعرف يده ثقل الجنيهات ، فقد كفاها أن عرفت ثقل القبلات ، يضعها عليها رجال الحكم والسلطان ، مضى ذلك الزمن الذى كنا نرى فيه الجاه والمال عاجزين عن انتزاع الطبيب من واجبه الإنسانى ، والقاضى من عدله المنزه ، ورجل الفقه من فتاواه المجردة ، والأستاذ من بين تلاميذه ودرسه ، ورجل الدين من بين تابعيه وزهده ! ... الآن نستطيع بترقية أو بعلاوة لا تعدو جنيهات أن نذهب بلب أكثر هؤلاء ، وأن نصرفهم عن ميادين نشاطهم الطبيعى ، وأن نغريهم بمناصب لا صلة لها بعلمهم ولا بفضلهم ، وهذا ما يحدث كل يوم ، فقد ماتت المثل العليا ! ... وهذا ما أفقر دور العلم والفكر ، ودور الدين والزهد ،

ودور العدل والفقه ، ودور الفن والأدب من أربابها ، وزج بهم إلى التطاحن والتسابق فى ميادين المادة والوصول !...

هنا أيها الصديق كل الخطر ، فإن تفشى المادية والوصولية فى جسم الأمة لا يخيفنى بقدر ما يخيفنى دنو الداء من رأس الأمة ، أى خاصتها وقادة الرأى فيها ! ... إن هذا الرأس هو المحتاج الآن إلى العلاج ، ولـكن كيف ؟... ماهى تلك العملية الجراحية التى تخرج من هذا الرأس صديد المـادية ، وتطهره بماء القناعة والروحانية ؟ ... كيف نستطيع أن نذكّر الناس اليوم أن أقوى إمبراطورية على الأرض وقفت ذات يوم — وخلفها أساطيل البحر والجو — مكتوفة اليدين حائرة أمام رجل هندى خلفه عنزة ... ثق أن فى الإمكان صنع الأعاجيب ، لو استطعنا أن نعيد إلى الخاصة حسن ظنهم بـ « الأخلاق » ، وصدق تقديرهم « للمثل العليا » ! ينبغى أن يؤمن الناس بألا أحد أعظم ولا أقوى من الرجل الذى لا يشترى بمال ولا بجاه . نعم إن من ملك قلباً حاراً ولساناً حراً ، ولم يكن له فى زينة الحياة مطمع ، — هو وحده الذى يستطيع أن يسود العالم ! ... ألا ترى معى أن « المثل العليا » المحطمة فى حاجة إلى أن توضع من جديد شامخة فوق عروشها الرخامية الجميلة ...

من مساجلات مع «منصور فهمى »
عميد كلية الآداب بالقاهرة عام ١٩٣٨

الإيمان بالمثل العليا

تسألنى عن أقرب الأسباب لإعادة حسن الظن بالأخلاق، وتقوية الإيمان بالمثل العليا ... هنا كل المسألة ... ولست أدرى من يبدأ بالعمل ومن يعطينى المثل؟ ... أهم الأفراد أم هم أصحاب السلطان؟ ... ولقد ذكرت «عمر بن الخطاب» وزهده فى متع الدنيا، وفى يده مفاتيح الكنوز وتحت قدميه دول وعروش! ... هذا حقيقة خير مثل لصاحب السلطان، ينبغى أن يضرب للأفراد والمحكومين كى يقتدوا به ويؤمنوا بأن العظمة الحقيقية لا تعرف الحرص على المادة، ولكن الدرس والمثل قد يأتى أيضاً من الفرد المحكوم! ...

وما اخالك تنسى موقف ذلك العالم الفاضل «الشيخ الطويل» يوم دعاه «الخديو» فأبى إلا أن يذهب إليه بعباءته البالية الممزقة التى عليه، فلما ألح عليه الناصحون أن يرتدى عباءة جديدة صاح فيهم: أهو يريد رؤيتى أنا أم رؤية العباءة؟ إن أراد العباءة فها هى ذى احملوها إليه، وإن أرادنى أنا فإنى أذهب إليه كما أنا!. وما إخالك تنسى كذلك موقف علماء الأزهر يوم دعاهم «نابليون» الظافر وأراد أن يزين صدورهم بالنياشين، فراعه أن رأى أيديهم الغاضبة قد انتزعت نياشينه، وألقت بها إلى الأرض فى حضرته، فلم يغضب وابتسم، وعلم أنه أمام رجال يحترمون أنفسهم! ... وهو أول من يدرك أن الانتصارات والجيوش لا قوة لها ولا حيلة أمام رجل يحترم نفسه! ... فأنت ترى معى أن الدرس الخلقى قد يأتى من صاحب السلطان، كما يأتى من الفرد

المحكوم!... المهم فى الأمر أن يوجد المثل الحى للأخلاق الحرة النزيهة العظيمة، فى أى طبقة وأى بيئة، وأى زمان!...

وأعود فأجيبك على سؤالك الآن، فى غير تردد:

إن أقرب السُّبُـل إلى إعادة حسن الظن بالأخلاق والمثل العليا هو وجود المثل بالفعل!... هو ظهور رجل واحد ومثل واحد حى نراه بأعيننا، ونسمع صوته بآذاننا، ونلمسه بأيدينا، ونتبعه بأفئدتنا!... ولكن هل كل مجتمع قدير على إخراج مثل هؤلاء الرجال، أو أن أولئك لا يظهرون إلا فى مجتمع يهيئهم للظهور؟...

(من مساجلات مع «منصور فهمى» عام ١٩٣٨ م)

داء الكلام

هنالك أمر آخر يدعو إلى قلقي على مستقبل نهضتنا .. إن أول شيء يحزنني حقيقة... وأرجو أن يكون قد استرعى نظرك على الأقل - هو أن «الكلام» له عندنا دائماً كل القيمة ، أما «العمل» فلا يسأل أحد عنه ! ... إن «الشكل» هو الذي يعنينا ويخلب منا اللب ... أما «الجوهر» فلا نكاد نلتفت إليه ! ... إن «الوسيلة» تنقلب عندنا دائماً إلى «غاية» ... لعلك قرأت في كتابي «يوميات نائب في الأرياف» كيف يهتم رجال الضبط أحياناً بتنميق تحرير المحاضر ، وملء القسائم أكثر من اهتمامهم بالقبض الفعلي على الجناة ... ولعلك رأيت في محيط حياتنا العام كيف أن عشرين عاماً قد مضت على مصر ، ونحن لا عمل لنا إلا الصياح بملء أفواهنا هاتفين بكلمات الحرية والاستقلال ! ... ولقد نبذنا كل شيء ، وتركنا كل عمل من أعمال النهضة الحقيقية ، جلسنا نتقاذف أقوالا ونردد كلمات ... إلى أن شاء القدر آخر الأمر أن ينقذنا من هذا التكاسل والقعود ، فقال :

« هاكم الاستقلال ! ... »

فقلنـا :

« هات » ! ... ثم أخذنا هذه الكلمة ، وجلسنا كما كنا ، لا ندرى ماذا نصنع بها ؟... نحن نقع دائماً في الحيرة كلما تركتنا الظروف وجهاً لوجه أمام العمل المنتج ، وكأننا لا نجد فرجاً ولا مخرجاً إلا في الصياح والجدل ! ... إلى

لأخشى أن تظهر فى الأفق كلمات أخرى ، أو أن نخترع موضوعاً جديداً للتصايح ، يشغلنا من جديد عن المضى الجدى فى حركة النهوض المنشود ! ...

آه ... العلة كلها هاهنا ... إن روح العمل وعبقرية الخلق ثمار لم تلق بعد بذورها فى أرض مصر ! ... حاجتنا شديدة إلى هذا الصنف من رجال العمل ، الذين لا يصرفهم عن الخلق والبناء شىء فى الوجود ! ... إنك ولا ريب تذكر « نابليون » فى غزوته لروسيا ، وكيف خذله البرد والجليد ، غير أنى أريد منك أن تذكر ماذا فعل هذا الرجل ، عندما وجد نفسه محصوراً فى تلك الأصقاع ، لا يدرى ماذا يفعل ! ... أستغفر الله ! ... إن الرجل العظيم يعرف دائماً ماذا يصنع ، ولا يطيق مطلقاً أن يقعد دون أن يخلق شيئاً ، فهو لم ينفق وقته فى صياح ، ولم ينتظر الغد مستلقياً على ظهره ، ولكنه شمر فى الحال عن ساعديه للعمل ، وجعل وهو فى كربه وضيقه يفكر فى إصلاح بلاده ، ويضع بالفعل وهو بعيد عنها ، الأسس اللازمة لتنظيم الحركة الفكرية والاجتماعية فيها ، وكان من بين تلك المنشآت مشروع « الكوميدى فرانسيز » ، إحدى منائر الثقافة الفرنسية فى العالم ، وكذلك فعل هذا الرجل فى « مصر » ، يوم حطم خصومه أسطوله وانقطعت صلته بوطنه ، فلم يضعف عزمه ، ولم تفتر روح العمل فيه ، وقال وحوله علماء فرنسا الذين أحضرهم معه « لوصف مصر » والبحث فى أصل حضارتها القديمة :

لم لا أصنع فى « مصر » حضارة أخرى ؟ ...

وشرع من فوره يبنى دعائم المعاهد العلمية ، ويضع أحجار النظام والاستقرار لطرائق الحكم وأسباب العمران ! ... ولكن ، من المسئول عن موت روح العمل المنتج فى هذه الأمة ؟ ... أهم رؤوسها الذين عودوها سياسة الكلام ؟ ... أم هى الأمة نفسها التى لا تحب ولا تحتمل بعد غير هذا الصنف من الطعام ؟ ! ...

(من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٩٣٨)

الحرب بكل الأسلحة

كارثة أخرى من الكوارث التى نكبت بها مصر : هذا الغلو والإغراق فى الخصومات ، فإذا اختلفنا على رأى فنحن أقيال هائجة تدوس كل شىء وتحطم كل شىء ، إن فى كل بلد راق حدوداً مقدسة تقف عندها الخصومة ، وأسلحة لا يلجأ إليها أبناء الوطن الواحد ، فإقحام الدين مثلا فى ميادين الخلاف السياسى أمر لا يمكن أن يحدث اليوم فى أى شعب ديمقراطى متحضر ! ...

فالديموقراطية ليست كلمة تقال فى الخطب ، لأنها جميلة ذات رنين ، ولا هى بناء شامخ يسمونه « البرلمان » ، لكن الديمقراطية هى روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع ! ... وإن كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف إنما هى طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديمقراطية ، كذلك ينبغى أن نتذكر دائماً أن الخصم فى المبدأ هو مواطن مصرى قبل كل شىء ، وأن خصومة المبادىء ليست معناها القضاء المبرم على الأشخاص بكل الأسلحة ، وتعطيل كل أدوات المنفعة التى ترجى منهم فى وقت من الأوقات ، فليس من حق مواطن أن يقضى على مواطن آخر قضاء يخرجه إلى الأبد من ميدان النفع العام ، وإنما الغرض الذى يسعى إليه الجميع هو خدمة الوطن وحده ! ... فلتكن الخصومة فى حدود التنافس

على القيام بخدمة المجموع ، وليعتقد كلٌّ في خصمه أن عجزه يوما عن خدمة بلاده على الوجه المطلوب لا يمنع من استطاعته ذلك في يوم آخر ؛ فلتكن إذن السهام المصوبة من طرف إلى طرف في غير مقتل من الشخصية والآدمية والشرف ، فليس من مصلحة الوطن أن تفرش أرضه بصرعى وقتلى من أبنائه العاملين ، إنما المصلحة هي في أن تتداول السواعد إدارة العجلة ، وأن تتهيأ لكل يد الفرصة لخدمة البلاد ! ...

(من مساجلات مع « منصور فهمي » عام ١٩٣٨)

المقال الذى أغضب الحكومة لنقده النظام البرلمانى
والذى أدى إلى العقوبة ...

نص وثيقة

مقال ٢٠ أكتوبر ١٩٣٨

(العدد ٢٢٩ آخر ساعة المصورة)

أنا عدو المرأة ... والنظام البرلمانى !

لأن طبيعة الاثنين فى الغالب واحدة ... الثرثرة !

(بقلم الأستاذ توفيق الحكيم)

إذا أردتم أن تأخذوا رأيى فى مشكلة الحكم فى مصر فخذوه على أنه رأى رجل بعيد عن المعمعة يشرف عليها من أعلى البرج دون أن يكون له فيها عنزة ولا خروف . وقديماً كانت الأساطير تروى أن أهل البلد إذا تنازعوا على أمر اجتمعوا عند الأسوار ليأخذوا رأى أول غريب يدخل باب المدينة . فلأكن أنا إذن هذا الغريب الهابط عليكم لأقول لكم فى صراحة إن هذه الديموقراطية كما تفهمونها وتزاولونها فى مصر هى أصلح أداة لتوليد الحكم غير الصالح !

انه ينبغي لكم ألا تنبهروا بالألفاظ الأوربية ولاتتقيدوا بالنظم الأجنبية . وألا تترددوا في اتباع ما فيه النفع الحقيقي وترك مافيه الغرم وضياع الوقت .

فإذا اتضح لكم يوما أن « البرلمان » وما ينفق عليه من آلاف الجنيهات سنويا هو غرم لا غنم فيه ، فحولوه في الحال إلى « مصنع » طائرات تحتشد فيه — بدل جموع الأعيان الموسرين — أفواج العمال المصريين من أولئك المساكين والمتسكعين العاطلين الذين يلتقطون فتات المقاهي والبارات ، حتى يعملوا عملا شريفا ويشيدوا مجدا خالدا .

نعم ، فلئن كان قد كتب على « القبة الذهبية » أن تخرج شيئا طائرا في الهواء فلا ينبغي أن يكون دائما الصياح والخطب !! فإذا شعرتم أنكم في حاجة إلى معمل « إنتاج » لا إلى معمل « كلام » فانهضوا في الحال إلى تنفيذ ذلك واضعين أيديكم لتغلقوا قليلا هذا « الفم » الواسع الكبير الصاخب حينا ، المتثائب أحيانا ! ... لتسكتوه الأعوام التي ترونها لازمة كي يتسنى للأيدي وحدها أن تنطلق عاملة في هدوء ونشاط . فالفم إذا سكت واليد إذا عملت استطاع الإنسان أن يتقدم ركضا . وهنا تتلاشى الأحزاب والأحقاد والأغراض . وتصبح العيون كلها متجهة إلى الرجل المنتج حقيقة . وعند ذاك تلزم لكم حكومة لا بد أن تتوافر فيها هذه الشروط :

أولا : أن يكون أعضاؤها من أولئك الرجال الذين اشتهروا بقلة الكلام وسرعة العمل ...

ثانيا : ألا يكون لأعضائها لون حزبي واضح .

ثالثا : أن يكون عدد أعضائها قليلا ، فإن خير إدارة هي الموضوعة في الأيدي القليلة الخبيرة ، كما أن في ذلك تحديداً للمسئولية ، واختصاراً للمرتبات الوزارية ! ...

فإذا طلبتم إليّ بعد ذلك أن أعين أشخاصا بالذات تنطبق عليهم اليوم فى مصر هذه الشروط فإنى أقف حائراً متردداً ، ولكنكم مع ذلك تستطيعون أن تعقدوا الآمال على هذه الأسماء :

علي ماهر : للرياسة والمعارف والفنون
حافظ عفيفى : للمالية
عبد الحميد بدوى : للحقانية والتشريع
أمين عثمان : للخارجية
عبد السلام الشاذلى : للداخلية والمواصلات
عبد الرحمن عزام : للتربية الوطنية والدعاية والصحافة
عزيز المصرى : للدفاع الوطنى
حبيب حنين المصرى : للتجارة والصناعة
عبد القوى أحمد : للأشغال والزراعة
عبد الواحد الوكيل : للصحة والأوقاف والحياة الاجتماعية

(ويلاحظ أن تسعة من عشرة تبتدىء أسماؤهم الأولى أو الثانية بحرف عين ولاعجب فهى الوزارة التى عليها العين !) وحبذا لو سميتم وزارة الأوقاف منذ اليوم « وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية » حتى يتسنى لوزيرها تحويل ثروتها « المرصودة » إلى وجوه المنافع الاجتماعية المثمرة كالملاجىء والمستشفيات والنوادى الرياضية ، وإن فى وضعها تحت إشراف وزير الصحة العمومية لتسهيل لهذا الغرض . ولا أحسبنى قد أخطأت كثيرا فى الاختيار لكم . فهؤلاء « العشرة الطيبة » هم من شهدتم لهم فى جميع المناسبات بالعمل الصامت وقلة الميل إلى الحزبية العمياء والخطب العصماء ، مع نشاط ملحوظ فى طبيعتهم وجلد على الإنتاج يطمئننا إلى إلقاء مصير البلاد على كواهلهم لمدة خمسة أعوام على الأقل .

وإنى واثق أن مثل هؤلاء الرجال البعيدين عن الأحزاب إذا تسلموا العمل تحت نظام لا يعرف « الحزبية » فإنهم سينهضون فى الحال هم أصحاب الكفايات على اختلاف ألوانهم . فإن الذى طالما أفسد بلادنا إنما هو تعطيل ذوى المواهب بجهد بعضهم ضد بعض فى قتال عنيف مستمر ، لم تكن له نتيجة غير تحطيم الجميع ، مع أن السر فى تقدم الدول التى نبذت النظام البرلمانى هذا التقدم العجيب الذى يشبه الوثب هو أنها بقضائها على التطاحن الداخلى بين الكفاءات ، وإلغائها احتراف السياسة والكلام قد جندت جميع الكفاءات للعمل الحقيقى فى خدمة البلاد .

وبعد ... فيا أهل البلد هل ترونى قد أخلصت لكم النصح ؟ أن كان الجواب : لا ، فأنتم فى حل أن تقولوا لى : « اطلع من البلد » ، وسوف يأتى اليوم القريب الذى أذكركم فيه بنصيحتى صائحا : قلنا لكم كده قلتم اطلع من البلد ... !

توفيق الحكيم

أيضاح مقال ٢٠ أكتوبر ١٩٣٨

هذا المقال الذى أحدث ضجة فى ذلك العهد كان وليد شعور عندى بأن الديمقراطية عندنا قد انقلبت إلى معممة ومعركة على كراسى الحكم بين رجال الأحزاب . وأن الكلام قد شل العمل . ولم أكن من الذين انخرطوا فى سلك حزب أو كتلة أو هيئة . كنت شديد الحرص على التمسك باستقلالى فى الرأى والنظر إلى الأمور التى تجرى من حولى . لم تكن لى مصلحة خاصة شأن المتصايحين فى المعممة الحزبية . إنى أردت أن أتكلم لوجه الله والحق والمصلحة العامة وحدها كما أراها من أعلى البرج الذى كان يعصمنى من تيارات المصالح الشخصية التى كانت توجه كل مسار وقتذاك . ولذلك أطلقت على نفسى أننى ساكن البرج العاجى . ولم يكن بالطبع مفهوم ذلك أنى غير مبال بما يحدث فى بلادى . على العكس . كان معنى برجى هو الارتفاع به عن أمواج المصالح الخاصة ، ورؤية الأشياء بعيدا عن المنافع والأغراض . وقبل أن أغضب رجال السياسة بهذا المقال كنت قد أغضبت المرأة بنقدى الحرية الزائفة التى فهمت خطأ هى الأخرى . ففى جانب وقفت ضدى زعيمات النهضة النسوية وعلى رأسهن زعيمتهن هدى شعراوى وفى جانب آخر وقف زعماء الديمقراطية المزيفة كما كنت أصفها . ولم يكن غرضى فى الحالتين سوى أن يكون الهدف الحقيقى هو العمل المنتج وليس الثرثرة الفارغة وهكذا صرت عدواً للمرأة والنظام البرلمانى فى ذلك الوقت . . وهى عداوة موقوتة طبعا بأسبابها وتزول بزوالها .

ولكى لا يكون رأيى أيضا من قبيل الكلام حاولت أن أجد حلا عمليا فكان أن اقترحت الحل الذى أثار ثائرة جميع الأحزاب . وهو تجنيد كفاءات

تعمل تحت نظام لا يعرف الحزبية لوقت معلوم . وكانت الغضبة أشد عندما اخترت أشخاصا كانوا فى ذلك العهد ممن لم ينخرطوا فى سلك أحزاب . وكان كل ما نعرفه عنهم أنهم ظهروا بأعمالهم وليس بحزبيتهم . فاختيارى لعلى ماهر وقتئذ راجع إلى أنه لم يكن ينتمى إلى حزب ، ولم يكن بعد قد ظهرت مساوئه، وكان رصيده عندى أنه كان ناظرا لمدرسة الحقوق وأستاذا للقانون الدولى فيها يوم كنت أنا فى السنة النهائية . جاء بعد أن أطاحت ثورة ١٩١٩ بناظرها السابق مستر والتون . وكان على ماهر أيام هـذه الثورة أنشط العاملين فيها . كان موظفا كبيرا فى وزارة الحقانية (العدل) فكان هو منظم إضراب الموظفين عند قيام الثورة . ثم كان هو وزير المعارف الذى أنشئت فى عهده رسميا الجامعة ، وعلى هذا الأساس وحده رشحته . والعجيب أنى جددت لأول مرة فى مهام رئيس الوزراء بجملته الرياسة والمعارف والفنون ... فى حين أن رؤساء الوزارات كانوا دائما يضمون فى أيديهم الرياسة والداخلية أى مصادر القوة والضبط والربط . أما أن يتخلى رئيس الحكومة عن هذه القوة ليضع فى يده مصابيح المعارف والفنون فهذا ما لم يسمع به أحد . وكذلك لأول مرة جعلت « الحياة الاجتماعية » مهمة رسمية فى يد وزير مسئول ، إلى جانب الصحة والأوقاف . وأنقصت عدد الوزارات ودمجت الوزارات المتشابهة تحت وزير واحد . أما أشخاص المرشحين فلم يكن على أحد منهم غبار فى ذلك الوقت بالذات أى فى عام ١٩٣٨ . حتى أمين عثمان الذى كان فى ذلك الحين أمين بك عثمان الموظف المشهود له بالكفاءة والوطنية من الزعيم مصطفى النحاس دون أن يكون عضوا فى الحزب . لم يكن بعد هو أمين باشا عثمان الذى أثير حول اسمه الغبار وقتل بعد ذلك . إذ من غير المعقول إطلاقا أن أرشح شخصا مكروها من الرأى العام ، فالمنطق هو أن أرشح أشخاصا مقبولين من الناس وأنا أدعو إلى الإصلاح ... وكنت أعرف شخصيا من أولئك العشرة المرشحين ثمانية . ولم أعرف الاثنين الباقيين — وهما على ماهر وأمين عثمان — لم أرهما قط

إلا فى الصور المنشورة لها فى الصحف . فعلى الرغم من أن على ماهر كان أستاذا وناظراً لمدرسة الحقوق يوم كنت طالبا بها إلا أنى لم أحضر قط محاضرة له . فقد عين فى المدرسة وأنا طالب فى السنة النهائية سنة الليسانس. وفى ذلك العام كنت طول يومى فى تياترو حديقة الأزبكية أحضر مسرحياتى التى تمثلها فرقة عكاشة وأخالط الممثلين والملحنين وأجالس داود حسنى وكامل الخلعى طوال الوقت . أما مدرسة الحقوق فلم أضع فيها قدمى ... ولست أدرى كيف نجحت مع ذلك فى الليسانس . حبست نفسى شهرين أذاكر الكتب آخر السنة . وهذا كان كل شىء كل معلوماتى إذن عن على ماهر هى التى استقيتها على البعد . وكذلك الحال مع أمين بك عثمان الذى كنت أسمع عن كفاءته على البعد أيضا . أما الآخرون فقد قابلتهم فى وزارة المعارف عندما كانوا يجيئون لبعض الأعمال عند وكيل الوزارة محمد العشماوى بك الذى كان صديقا لى يوم كنت مديراً لإدارة التحقيقات ، وكنت كثير الجلوس فى مكتبه أرى الداخل عنده والخارج وأحادث منهم من أحادث . ومرت الأعوام ودخلنا فى الأربعينات ، وتغيرت الظروف وتبدلت المواقف . وإذا ببعض هذه الأسماء قد تلوثت ... وكان أشدهم تلوثا أمين باشا عثمان ، ثم على باشا ماهر . ومع أنى رشحته لرياسة الوزارة فى مقالى هذا إلا أنه ما كادت تمضى شهور حتى كان بالفعل رئيسا للحكومة وحقق بعض مقترحاتى مع التعديل فلم يدمج الوزارات بل عددها وجعل للحياة الاجتماعية وزارة مستقلة باسم « الشئون الاجتماعية » وكذلك الصحة جعلها وزارة مستقلة ، وكذلك الأوقاف . وجاء ببعض من رشحت وزراء لأول مرة . وكان من بينهم عبد السلام الشاذلى وعبد الرحمن عزام وعبد القوى أحمد وحبيب حنين المصرى . ولم يأخذ بالطبع باقتراحى أن يكون رئيس الوزراء مختصا بالرياسة والمعارف والفنون . وكذلك لم يأخذ باقتراحى إنشاء وزارة للتربية الوطنية والصحافة .

نص وثيقة
قرار العقوبة

وزارة المعارف ٢٦ أكتوبر ١٩٣٨
إدارة المستخدمين

أمر وزارى

نشرت مجلة آخر ساعة بعددها نمرة ٢٢٩ مقالا عنوانه :

(أنا عدو المرأة … والنظام البرلمانى … لأن طبيعة الاثنين واحدة … الثرثرة) وذكرت تحت العنوان أنه (بقلم الأستاذ توفيق الحكيم) وذيلت المقال بهذا الامضاء وقد ورد فى المقال تعريض بالحياة النيابية فى مصر باعتبار أنها (قد كتب على القبة الذهبية أن تخرج شيئا طائرا فى الهواء ، وأنها معمل كلام وأن الخير فى أن يسكت القائمون بالعمل العام وأن يعملوا من غير كلام) . وقد أشار الكاتب إلى ضرورة تأليف وزارة ذكر أسماء أصحابها باعتبار أنهم ليس لهم لون حزبى واضح وأنهم اشتهروا بقلة الكلام وسرعة العمل .

ولما كان كاتب المقال هو مدير إدارة التحقيقات فى الوزارة فقد سألناه فلم ينكر نسبة المقال إليه وكتب لنا خطابا يؤكد ذلك وقد ذكر فيه أن قصده لم ينصرف إلى إهانة هيئة أو أعضاء هيئة من الهيئات النظامية بمصر أو خارجها ولا إلى الغض من اعتبار أشخاص يعنيهم ، ويذكر لذلك أنه حسن القصد فيما كتب .

ولما كانت المادة ١٤٤ من القانون المالى معدلة بقرار مجلس الوزراء الذى صدر فى ٣٠ يناير ١٩٢٩ تحظر على الموظفين أن يبدوا علانية ملاحظات أو آراء أو نزعات سياسية . ولما كان المقال المذكور يتناول إبداء رأى الكاتب بما يخالف النظام القائم فى مصر فضلا عما فيه من تعريض بالأشخاص الذين اقترح تأليف الوزارة منهم مؤداه أنهم يشاركونه رأيه فى خصومة الحياة النيابية .

ولما كان تصرفه هذا يخالف المادة ١٤٤ من القانون المالى مخالفة صريحة ربما خفف منها أن الكاتب أبدى من مناقشته بحضور حضرة صاحب العزة المستشار الملكى لوزارة المعارف أنه لا يدرك بالضبط مدى ما تتسع له هذه المادة . ولما كان ذلك مما يشفع دون توقيع عقوبة العزل على حسب نص المادة المذكورة .

لذلك

قررنا خصم خمسة عشر يوما من مرتبه .

وزير المعارف
التوقيع (محمد حسين هيكل)
(توقيع)

صورة طبق الأصل .

المسطر بعاليه صورة القرار الوزارى نبلغه للأستاذ توفيق الحكيم مدير إدارة التحقيقات بالوزارة .

وكيل المعارف
محمد العشماوى

• • •

ايضاح لوثيقة

الأمر الوزارى ٢٦ أكتوبر ١٩٣٨

كان من نتائج الغضب على المقال المذكور أن قرر رئيس الحكومة فى ذلك الوقت وهو رئيس الأحرار الدستوريين محمد محمود باشا أن يفصلنى من وظيفتى بقرار من مجلس الوزراء المزمع عقده بعد أيام · ولكن بعض أعضاء وزارته من الأدباء والمفكرين من أمثال الدكتور هيكل باشا والشيخ مصطفى عبد الرازق استمهلوه رغبة فى معالجة الأمر بوسيلة أخرى . فصاح فيهم « أنتم أدباء مع بعض وتريدون المماطلة . ولكن إذا أنتم لم تنهوا الموضوع بعقاب رادع سريع فى ظرف أسبوع فلابد من إجراء حاسم بواسطة مجلس الوزراء القادم » . وكان الدكتور هيكل هو وزير المعارف · فأحضر المستشار الملكى للوزارة فناقشنى فى أمر المقال . كما هو واضح فى صورة الأمر الوزارى · وبعد ذلك حادث الوزير وكيل وزارته العشماوى بك فى أمر العقوبة . حتى يستطيع أن يقابل رئيس الحكومة ويخبره أن العقوبة وقعت وانتهى الموضوع . واقترح أن تكون العقوبة الرادعة وقف مرتبى لمدة عام أو نصف عام فقال له العشماوى بك أن هذا ليس من حق الوزير بل من حق مجلس التأديب . فلما تقرر إحالتى إلى مجلس التأديب بلغهم أن هذا المجلس قد يقوم فيه دفاع ومرافعة وقد ينقلب الأمر إلى مظاهرة وروح المجلس متجهة إلى البراءة . وعند ذلك

تكون صفعة للحكومة . فطرحوا جانبا فكرة مجلس التأديب واتجهوا إلى فكرة الخصم المباشر من الوزير ، فقيل للوزير إن كل سلطته لا تتجاوز الخصم خمسة عشر يوما من المرتب . فاضطر فى النهاية إيثاراً للسلامة أن يلجأ إلى هذا الحل . ويحاول أن يقنع به رئيس الحكومة بمعاونة الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وقد كان . وتوقع بالفعل هذا الخصم بهذا الأمر الوزارى ... وبعد توقيع هذه العقوبة قررت أن أقدم استقالتى من الحكومة . وقلت كيف توقع عقوبة على مدير التحقيقات الذى من اختصاصه أن يوقع هو العقوبات على المذنبين لا أن توقع عليه هو العقوبات . ولكن بعض أصدقائى رأوا أن استمر فى وظيفتى مع استمرارى فى مواقفى وفى تمسكى بآرائى ، لأن استقالتى تريحهم أما بقائى مع أرائى فهو الذى يتعبهم . وبقيت فى وظيفتى أواصل الكتابة بنفس الروح والاتجاه . وأتصرف فيما يعرض علىّ من قضايا برأيى نفسه . فما أن يقع فى يدى موظف اتهم فى قضية رأى سياسى حتى أبرئه وأحفظ قضيته . إلى أن ضجت الوزارة منى . ولم تعرف كيف تتخلص من هذا الوضع . وهداهم تفكيرهم أخيرا إلى وسيلة بارعة . فقد انتهزوا فرصة سفرى بالاجازة فى الصيف كان صيف عام ١٩٣٩ إلى خارج القطر . وإذا بهم ينشئون إدارة جديدة إنشاء مفتعلا صوريا أسموها : «إدارة التمثيل والموسيقى» ونقلونى من إدارة التحقيقات إلى هذه الإدارة ... وما أشعر إلا وبرقية من من موظفى إدارتى القديمة يخبروننى فيها بهذا النقل ويطلبون منى الحضور بسرعة . فحضرت ووجدتنى أمام الأمر الواقع . فقد نفذ الأمر وصرت مديرا لإدارة « التمثيل والموسيقى » التى لا اختصاص لها ولا وجود إلا على الورق ... وجاء أول سبتمبر من ١٩٣٩ وإذا بالحرب العالمية تقوم وتسقط وزارة محمد محمود باشا وتأتى وزارة على ماهر باشا على الوضع الذى سبق ذكره . وتنشأ وزارة الشئون الاجتماعية وتقسم إلى إدارات تضم إليها أشتات الإدارات

المشابهة فى الاختصاص والموجودة فى الوزارات الأخرى القديمة . وكان من بين إدارات وزارة الشئون الاجتماعية الجديدة إدارة سميت إدارة الدعاية والارشاد كان من اختصاصها المسرح والموسيقى والسينما والاذاعة والموالد ونحو ذلك . وكان بالطبع اختصاص إدارتى الجديدة فى وزارة المعارف أى إدارة التمثيل والموسيقى مما يقع فى اختصاص إدارة الدعاية والارشاد فى وزارة الشئون . ولذلك نقلونى فى الحال من وزارة المعارف إلى وزارة الشئون . وتخلصت منى وزارة المعارف بهذه الطريقة . وكان النقل إلى وزارة الشئون الجديدة بالدرجة نفسها والمرتب وبطريق الانتداب مؤقتا لأن هذه الوزارة كلها أنشئت بدون ميزانية على طريقة على ماهر للظهورية ولم يكد على ماهر يستقر فى وزارته شهرين أو ثلاثة حتى فسكر فى فصلى من الحكومة هو الآخر بقرار من مجلس الوزراء . ذلك أنى كتبت مقالا عن المرأة رأى فيه القصر الملكى ، وعلى الأخص الملكة نازلى فيما يقال مساساً بها . فكان كلما دخل القصر ابتدرته الملكة سائلة فى غضب عما إذا كان فصلنى أو لم يفصلنى بعد . فكان يعود بدوره يسأل وزيرى المختص وكان « عبد السلام الشاذلى باشا » عما صنع فى أمرى . وعبد السلام الشاذلى فى حرج شديد لا يدرى ماذا يفعل وكان يلمح لى من طرف خفى بحرجه إلى أن استطاع أن يسوى المسألة بدون أن يخبرنى وقد علمت تفصيلات هذا الموضوع من حديث أدلى به عبد السلام الشاذلى إلى جريدة المصور حوالى عام ١٩٤٦ فيما أذكر أى بعد أعوام من هذا الموضوع .

نص وثيقة

مقال ٣ نوفمبر ١٩٣٨

العدد ٢٣١ ، آخر ساعة للمصورة

غضب الديمقراطية

بقلم حفنى محمود بك عضو مجلس النواب

أصيبت الديمقراطية فى هذه الأيام بتوتر أعصاب وعسر هضم أفضيا إلى الاضطراب ! وتطور هذا الاضطراب إلى غضب متفجر وغيظ غير مكظوم !

فالديمقراطية اليوم حانقة على كل شىء ، ثرتاب من لاشىء ، وتنزعج من أى شىء ! أزعجها توفيق الحكيم عندما كتب مقالا بمجلة آخر ساعة ، داعب الديمقراطية فى أشخاص نوابها المحترمين ، أو نواب الشعب كما يحبون أن يسميهم الناس ، وفى قول آخر نواب العهد الحاضر ، وفى رواية أخرى نواب الحكم الصالح ! ...

أقول ذلك وأنا فى غاية الاضطراب فقد يعرضنى هذا الكلام لغضب الديمقراطية فأفاجأ باحتجاج صاخب شديد من سعادة محمد محمود خليل بك قطب الديمقراطية فى هذا الزمان ... إذ أن الطريقة الديموقراطية كالطريقة الصوفية لا تستغنى فى كل وقت عن « قطب الوقت » !

وقد يطلب سعادة قطب الديمقراطية — أى محمد محمود خليل بك —

التحقيق معى كما فعل مع توفيق الحكيم ، بل قد يذهب إلى أبعد من ذلك فيرسل إلى الصحف أنباء هذا الاحتجاج كما فعل مع معالى كبير الأمناء فى حادث التشريفات !

* * *

ولكن لماذا غضبت الديمقراطية على توفيق الحكيم ؟ إن مقاله ينقسم إلى قسمين أحدهما تعرض للديموقراطية كمبدأ عام والآخر تناول أشخاص رجال الحكم أنفسهم .

أما تناول المبادىء العامة فلا أظن أن الحكام — الأحرار الدستوريين — الذين غضبوا لحرية الرأى فى عام ١٩٢٥ حين أخرج الأستاذ على عبد الرازق كتاب « الإسلام وأصول الحكم » ورغب البعض فى معاقبته ، والذين ثاروا عندما نشر الدكتور طه حسين كتابه « الشعر الجاهلى » وأراد أعضاء البرلمان تقييد حرية الكاتب ، لا أظن أن هؤلاء الأحرار الدستوريين يحاولون اليوم نقيض ما حرموا بالأمس خصوصا أن الأستاذ عبد الرازق كان موظفا ، والدكتور طه حسين كان موظفا أيضا مثل توفيق الحكيم .

* * *

أما فيما يتعلق بذكر توفيق الحكيم لأشخاص بالذات ، فإنه إذا كانت فى هذا العمل مجافاة للذوق السليم فليس على كل حال أبعد عن الذوق من موقف سعادة قطب الديموقراطية حينما نشرت الصحف احتجاجه على معالى كبير الأمناء ... وقد عودتنا الديمقراطية — فيما عودتنا — أنها لا تهتم كثيراً بمسائل الذوق وخفة الروح بدليل أن الحكومة القائمة نفسها — وهى حكومة الديمقراطية — تخلصت من رياسة صديق الجميع الأستاذ محمود بسيونى فى مجلس الشيوخ ، وهو أخف الناس دما ، وأبعدهم عن الأحقاد الحزبية ،

وأكثر المصريين قاطبة ديمقراطية ، وهو الذي تستظرفه الأحزاب كلها ، ويبذل معروفه لكل الطبقات ، ولكن ذلك ، وهو كثير لم يشفع له واستبدلته الحكومة الديمقراطية بالرئيس الحاضر ، ولعل نزعة الرئيس الحالى المالية الفرنسية[1] ، وما يبذل من «كرم» أرستقراطى غربى لا يمت إلى الشرق بسبب ، لعل هذا يجعل مناحة الديمقراطية فى مصر تظل قائمة عدة سنوات ! ...

* * *

ولعل مما يقلق الديمقراطية عندنا ، ويثير غضبها ، هو كثرة عشاقها ... فكل حزب يتغنى بها ويدعى الذود عنها ، ويتظاهر بالتفانى فى هواها والتدله فى غرامها ، حتى تسابق الجميع فى «المزايدة» فأقلقها «كثرة المتصابين واحتشاد الطالبين فأصبحت تريد أن تعرف ما وراء هذا الكلام المعسول وما تكنه لها القلوب !

ترى ماذا يكون شأنها ، وأية خيبة تصيبها ، لو تكشفت لها قلوب أولئك المحبين يوماً فوجدت منقوشاً عليها : «فلتحيا الدكتاتورية !» ويومئذ تعلن الديمقراطية إعجابها بصراحة شخصين أولهما توفيق الحكيم ، والآخر ...

حفنى محمود

(١) أشيع عن محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ آنذاك أنه ينوى إهداء تحفه الفنية النفيسة إلى فرنسا ...

إيضاح لمقال ٣ نوفمبر ١٩٣٨

كان من الطبيعي أن تقف جميع الصحف الحزبية ضدي لأن موقفي كان ضد الأحزاب جميعا . إذ أن أي نقد أو طعن في الأساس الذي يقوم عليه حكم الأحزاب وهو الحياة النيابية معناه توقف النشاط الحزبي .

وما كان يهمني وقتذاك ليس هو النشاط الحزبي . بل الذي كان يهمني وقتئذ هو النشاط الانتاجي . ولذلك دهشت عندما وجدت واحداً من أقطاب حزب الأحرار الدستوريين وهو في الوقت نفسه شقيق محمد محمود باشا رئيس هذا الحزب ورئيس الحكومة للوجود في السلطة والمطالب بفصلي هو المنفرد بالدفاع عن موقفي ضد شقيقه وضد حزبه : إنه حفني محمود . وكان معروفا عند الجميع بهذه الروح الاستقلالية في النظرة والرأي .

بعد العقوبة

قلت فيما سبق من هذه الصفحات إنى قررت بعد توقيع العقوبة أن أقدم استقالتى من الحكومة قائلا إنه : كيف توقع عقوبة على « مدير التحقيقات » الذى من اختصاصه أن يوقع هو العقوبات على الآخرين ، لا أن توقع عليه هو العقوبات . ولكن بعض الأصدقاء رأوا أن أستمر فى وظيفتى مع استمرارى فى مواقفى ومع تمسكى بآرائى . لأن استقالتى تريحهم وتحقق رغبتهم فى التخلص منى . أما بقائى مع استمرارى فيما أنا فيه فهو الذى يتعبهم ويحرجهم ... لذلك بقيت فى وظيفتى أواصل الكتابة والنشر فى نفس الاتجاه ...

وها هى ذى نماذج من هذه الكتابة... اتخذت فيها روح السخرية بالحوار مع الحمار :

حمارى يشتغل بالسياسة

جاءنى حمارى أخيراً ثائراً يزبد وينهق ويرعد ويقول :

— اسمع ، أنى مصمم هذه المرة تصميما أكيدا ، ومصر إصراراً تاماً ، فإياك أن تثبط عزيمتى أو تحاول منعى ، أو تتدخل فى شئونى ، أو تعرقل مشروعاتى ، أو تفسد تفكيرى ، أو تبرد حماستى أو تكتم شعورى أو تخمد نشاطى ، أو تطفىء لهيبى ، أو …

— مهلا … مهلا … ما هو الموضوع أولا ؟

— الموضوع يا سيدى أنى قررت نهائياً الاشتغال بالسياسة .

— على الرحب والسعة ، ومن قال لك أنى معارض ؟ …

— أنت موافق إذن على دخولى معترك السياسة ؟ …

— موافق جدا …

— هذا عين العقل ، الواقع أنها كانت سبة أن يجلس أمثالنا هكذا ينظرون إلى أحداث بلادهم ولا يحركون رأسا ولا ذنبا … نحن الذين نشأنا فى هذا البلد ، ونعمنا بخيره وخميره ، ورعينا برسيمه ونجيله ، وشربنا ماء نيله ، كان حتما علينا أن يكون لنا يد فى مصيره … لا سيما ونحن من أصحاب الفكر الراجح ، ومن قادة الرأى الناضج …

فنظرت إلى حمارى مليا وقلت :

— أنت تتحدث عن نفسك بالطبع ...

فلم يحفل بالالتفات إلى ملاحظتى ، ومضى يقول :

إنها لضريبة يجب أن يؤديها أمثالنا ، فالضرائب الواجب أداؤها للدولة ليست مجرد المال الذى يدفع للمحصلين . ولكنها المواهب وثمراتها ، والقرائح وآثارها ، إن نتاج الأذهان لايقل عن نتاج الألبان ثروة للأمة ، وأنا كما تعلم لست من فصيلة البقر ولا الجاموس حتى أؤدى ضريبتى لبلدى من نتاج ضرعى ...

— مفهوم ...

— إذن كان يجب أن أساهم فى الحركة السياسية بنصيب ، لذلك قررت الانضمام إلى حزب من الأحزاب ...

— هل وقع اختيارك على حزب بالذات ؟ ..

— لا لم يحدث بعد ، وهذا بالضبط ما جئت أستشيرك فيه ، على أنه توجد صعوبة قد تقف فى سبيلى ، يحسن بى أن أذكرك بها حتى تكون على بينة من الأمر قبل الإدلاء بمشورتك ، تلك الصعوبة التى تخيفنى تتعلق بشخصى ، أعنى ... هل تظن أنى سأجد حزبا يقبل أن تنضم إليه حمير ؟ ...

— اطمئن من هذه الجهة ... ولا يكن عندك خوف ! ...

فلمع الفرح والأمل فى عينى حمارى وقال :

— إذن قد ذللت الصعوبة ، ولندخل فى جوهر الموضوع ، ما هو فى نظرك الحزب الذى يتفق مع مبادئى ؟ ...

— أحب أولا أن أتشرف بمعرفة مبادئك .

— مبادئى معروفة : العمل لمصلحة الغير وإنكار المصلحة الشخصية ، ذلك هو المأثور عن جنسنا وفصيلتنا منذ ظهرنا على الأرض ، لقد حملنا

وكدحنا وجهدنا لما فيه خير الآخرين ، ولم نسأل لأنفسنا أكثر مما نستحق بعرق الجبين ، فلم يعرف عنا أننا سرقنا كما تسرق القطط ، ولا نعمنا بالترف والدلال كما تنعم الخيول ، ولا طمعنا فى أن نعزز ونكرم ونلقم السكر فى أفواهنا ولا نعمل شيئا ... ولا شيء غير ذلك ... حتى لقد جرى الناس على أن ينعتوا كل من يكد ويجد بأنه « حمار شغل » فبادئنا هى ، كما ترى ، أن ننتج وننتج ، ولا نبغى من وراء إنتاجنا منفعة لذاتنا ...

— تلك بالطبع مبادؤك باعتبارك حمارا ، ولكنك تريد ، على ما فهمت ، الانضمام إلى حزب من أحزاب البشر .

— نعم ، وهل يقتضى ذلك أن أغير هذه المبادىء ؟...

— تغيير طفيف ، كلمة واحدة صغيرة ضعها خلف عبارتك ، ليكون مبدؤك ساميا فى عرف البشر ، ضع كلمة « لا » أى لا إنتاج للغير ، ولا إنكار للذات .

— عجبا ! ... وما فائدة الحزب السياسى إذن ؟ ...

— فائدته نفع ذاته ، أليست هذه فائدة ؟ ...

— والآخرين ؟...

— أى آخرين ؟ ...

— الفصيلة أو الجنس أو الأمة أو الدولة أو غير ذلك من الأسماء التى تطلق على المجموع ؟...

— لا تنس أننا نتكلم الآن فى محيط السياسة ، والسياسة فى كل زمان هى اللباقة أو المهارة أو الخفة أو البراعة أو الكياسة التى تستطيع بها أن تسحب خاتم السلطة من أصبع منافسك وتضعه فى أصبعك ... إلى أن يغافلك المنافس وينتهز منك فرصة فيسحب بدوره الخاتم من أصبعك ويضعه

فى أصبعه ... وهكذا دواليك ... حتى يتعب أحدكما من هذه اللعبة وقلما يتعب ... فالمسألة إذن لا علاقة لها بإنتاج ولا عدم إنتاج ...

— والشعب ؟ ... أهو قانع بمجرد المشاهدة ؟ ...

— ومن قال لك إنه قانع ؟ لقد دخل هو أيضاً حلبة اللعب ، إن ساسة الماضى علموه كيف يتذوق هذه اللعبة ، فأصبح أكثر منهم تهافتاً عليها واهتماماً بها ، وأشد شوقاً إلى رؤية الخاتم ينتقل من يد إلى يد ، ولا يطيق أن يصبر طويلا عليه وهو فى أصبع واحدة ... شأن المقامرين الذين لا يطيقون رؤية كرة « الروليت » تقف دائماً على رقم واحد بلا تغيير ، فهم يهللون ويهتفون للكرة كلما وقفت على رقم جديد ... ويفرح الرابح ويحزن الخاسر ، ثم تدور الدورة ويتغير الوضع ، ويتبدل أصحاب الفرح والترح بالتناوب ، وهكذا دواليك ...

— والشعب مسرور بذلك ؟ ...

— كل السرور ، ولقد أنست ، منذ زمن ، الحكومات هذا الميل فيه ، فعملت على تعميم هذه المتعة بين كل الطبقات ، وتيسير اشتراك كل فرد فيها ، فجرت على سنة لطيفة : وهى أن تأتى كل حكومة ومعها برلمانها وانتخاباتها ، أى « عدة الروليت » الخاصة بها ، فينصب « المولد » وتزدحم الجموع ، وتنتقل النقود من جيب إلى جيب ، ويعلو الصياح من فم إلى فم ، وتمد الموائد وتقام الولائم ويكثر الطعام والشراب والبذل والعطاء ، ويغمر الشعب فى جو صاخب كجو الأعياد ردحاً من الزمن ينسيه شقاءه ، ويلهيه عن مصيره .

— هذا شيء جميل ! ...

— جدا ... على أن هذا كله كان يحدث فى الماضى ، أما الآن فنحن أمام ظاهرة جديدة ، إن ثراء الحرب قد غير عقلية الناس فيما يظهر ، ما من أحد

يريد أن يخسر ، لذلك كثر اللعب فى عين الوقت على رقين أو أكثر ، وجعل الشعب مبدأه ذلك المثل الشعبي القديم :

« من تزوج أمى قلت له يا عمى » والأم هنا هى السلطة ، فلا غرابة فى خروج الناس أفواجاً من الحزب الذى خلا من السلطان ليدخلوا أفواجاً فى الحزب الذى لمح فيه الصولجان ، كأنهم يخرجون من دار سينما تعطلت فيها الرواية ، ليدخلوا المسرح الآخر الذى أضىء بأنوار الرواية الجديدة ... ما دام هذا هو الاتجاه العام فنحن سائرون بدون أى مجهود نحو توحيد الأحزاب ...

— إذن فأنت لا ترى لى أن أنضم إلى حزب بالذات ؟ ...

— انضم كما تشاء على المبدأ الشعبى ...

— « من تزوج أمى ... » ؟

— بالضبط ...

— ولكن ...

— لا تقل ولكن ... ولا تكن حماراً ... إن عناد الحمير وصلابة رؤوسها لا تنفع فى السياسة ، اليوم كل شىء لين مرن ... لا فى المبادىء وحدها ... بل فى كل شىء ... وعند كل الناس ... حتى بين الموظفين المسئولين عن تنفيذ القوانين ، ألم تسمع بذلك المأمور الذى حجز مجرماً من مجرمى التموين تطبيقاً للقانون ، فاتصل به أحد ذوى النفوذ وأمره أن يفرج عنه فوراً ، فأخرجه من الحبس بعد الصفع والإهانة وأجلسه فى مكتبه ووقف بين يديه قائلا : « والله لا يصح أن تنصرف عنا قبل أن تشرب القهوة » ! ...

— يا للعجب ! ...

— لباقة ، أليست لباقة ؟! ...

— وا أسفاه !... إنى لا أملك هذه اللباقة !...

— إذن إجلس حيث أنت ، ولا تطمع فى سياسة أو إدارة ...

— بينى وبينك ... ألا تظن أن هذه الحال فى مجتمعكم يجب أن تصاح ؟...

— أظن أن هناك تفكيراً يتجه اليوم نحو الإصلاح ...

— ومن الذى يصلح ؟ أهى الحكومة التى تصلح المجتمع ؟ أم المجتمع هو الذى يصلح الحكومة ؟...

— أجيبك عن هذا إذا أجبتنى أنت :

هل البيضة من الفرخة ، أو الفرخة من البيضة ؟...

— دعك من السفسطة ، إن اشتغالى بالسياسة على مبادئى قد يعطى على كل حال خير مثل من أمثلة ...

— من أمثلة الحمق والقناعة والغفلة ... الجديرة بحمار ... هذا ما سيقال عنك وعن مبادئك ...

— فليقولوا ما شاؤوا ...

— إنى أعلم منذ الآن ما سوف يحدث ، فاجلس حيث أنت واسمع نصيحتى ! إنك لن تؤثر فيهم بمبادئك ... ولكنهم هم الذين سيؤثرون فيك بمبادئهم ... ولن يمضى وقت طويل حتى ترى أنك أنت لم تعد حمارا ...

حمارى ... وحزبه

دار بينى وبين حمارى يوماً هذا الحوار :

الحمار : أريد أن ألقى عليك سؤالا شخصياً ، أتأذن لى ؟ .

الحكيم : تفضل ! ...

الحمار : ألم تفكر أنت فى الانضمام إلى حزب من الأحزاب ؟ .

الحكيم : لماذا ؟ ... القهوة التى أجلس فيها الآن مريحة جداً وتعجبنى للغاية ... ولا أريد بها بديلا ...

الحمار : خطرت لى فكرة جديدة طريفة ...

الحكيم : خيراً ...

الحمار : ما رأيك لو ألفنا نحن حزباً ؟ ...

الحكيم : سياسياً ؟ ...

الحمار : طبعا ... إنك تعلن إلىّ فى كل مناسبة إعجابك بى وبفصيلتى من الحمير ... لقوة مراسنا ، وطول صبرنا ، وشدة جلدنا على العمل ... فما قولك لو شرعنا فى انتخاب نحو ثلاثين حماراً من الطراز الأول ، نؤلف منها الحزب ؟ ..

الحكيم : حزب من الحمير ؟ ! ...

الحمار : ولم لا ؟ ...

الحكيم : أوَتظن أنك أحدثت جديداً فى السياسة ؟ ...

الحمار : على كل حال الجديد هو رئيس الحزب الذى يلون الأعضاء بلونه...

الحكيم : ومن ترشح للرياسة ؟ ...

الحمار : أرشحك أنت بالطبع ...

الحكيم : أتظن أنه سيوجد انسجام بينى وبين الأعضاء ؟ .

الحمار : لا شك عندى فى ذلك . إنك خير من ينسجم مع هؤلاء الأعضاء ...

الحكيم : أهذا مدح لى أم ذم ؟! ماعلينا ... أنا أتشرف بإسناد هذه الرياسة إلى شخصى للتواضع ، ولكنى لا يسعنى إلا الاعتذار ... فالمسئولية جسيمة ... وأنا أفضل أن أكون عضواً بسيطا فى هذا الحزب ... من رأيى ترشيحك أنت للرياسة ...

الحمار : أنا ... لا أصلح ...

الحكيم : لم لا ؟ ... الانسجام مفقود بينك وبين الحمير ؟ ...

الحمار : بالضبط ...

الحكيم : وغير مفقود بينى وبين « حضراتهم » ؟ ! ...

الحمار : بالضبط ، لأن مسألة الرياسة — كما لا يخفى — دقيقة جداً ، توجد دائماً مشكلات وعقبات وخصومات . وإنك لتعلم أن كل مشروع نافع لا يفسده ... غير التنافس على الرياسة ... وكل اتفاق لا يقف فى سبيله إلا الخلاف على الرياسة ... فإذا أردت نجاحاً لمشروعنا هذا فليكن الرئيس من الخارج ...

الحكيم : فهمت ... والمبادىء ؟ ...

الحمار : المبادىء ؟! ليس الآن وقت البحث فيها ... المهم هو تشكيل الحزب، وانتخاب الرئيس ، واختيار المكان المناسب أو النادى الملائم ...

الحكيم : عجبا حتى أنت يا ...

الحمار : ألست معى ؟ ...

الحكيم : أبداً ... أبداً ... ما الذى صنعناه إذن ؟ ...

الحمار : ماذا كنت تريد أن تصنع أكثر من ذلك ؟ ...

الحكيم : أشخاص ومكان وناد . إنى ياسيدى — كما تعلم — لا أعرف لعب الطاولة ولا الشطرنج . ولست ساحر الحديث ولا ظريف المجلس ولا أحب أن أكون من ذوى الجاه . كل ما عندى قلم لا أرضى أن أسخره فى هدم الأشخاص لمجرد الهدم ، ولا أن أستخدمه فى بناء أشخاص طمعا فى الغنم . إنما هو خادم بالمجان لأى فكرة كبيرة أدافع عنها ... تلك هى كل مهمتى ... وكل مطامى والباق لا وزن له عندى ...

الحمار : ما هذا الكلام ؟ ... تريد فكرة كبيرة وفلسفة عظيمة ... ولا تريد الهدم ولا الغنم ولا المال ولا الجاه ولا ... الخ . تريد أن تعلن ذلك حتى يقولوا عنا أنه حقيقة حزب حمير ؟ ! ...

الحكيم : وأسفاه ! ... كنت أحسن الظن بآرائك ...

الحمار : آرائى كلها صائبة ، ما من مرة أوحيت إليك برأى خاطىء ... أنسيت يوم جعلنا نحصى ما نشرت من أفكار فوجدنا أن كل آرائك السليمة الحصيفة خرجت من رأسى أنا ... وكل آرائك السقيمة السخيفة صدرت من رأسك أنت ؟ ...

الحكيم : هس ... لئلا يسمعك أحد ...

الحمار : لا تخف . إنى أخفض صوتى . ولكن اعترف أن آرائى التى أوحيت بها إليك ثبت صلاحها فى كل حين ! ...

الحكيم : لا أذكر أنه ثبت صلاح أى رأى من آرائنا — أى آرائك — اضرب لى مثلا واحدا ...

الحمار : ما أضعف ذاكرتك ... خذ مثلا رأيى الأخير الخاص بتعدد الزوجات ..

الحكيم : « يا ساتر ! ... » ألم تر كيف قامت قيامة النساء فى كل مكان على هذا الرأى .. وقلن إنه لا يصدر حقاً إلا عن حمار ؟ ! ...

الحمار : الحمد لله ! ... أرأيت ؟ إن آرائى لها طابع خاص لا يمكن أن يخفى ...

الحكيم : لهفى على ذلك الفيلسوف الانجليزى الذى قرأت خبره أخيراً فى الصحف ! ..

الحمار : حقا ... ماذا ترى نساء مصر قائلات عنه ؟ إنه أعلن أن عدد النساء فى انجلترا يزيد مليونين على عدد الرجال .. ونادى هو الآخر بضرورة التعدد ... وأبدى استعداده هو بالذات للاقتران بست زوجات ؟ ! ...

الحكيم : الحق أن رأى الانجليزى أدهشنى ... وأعاد إلى نفسى بعض الثقة فى حصافة رأيك ورجاحة عقلك ...

الحمار : من يدرى ... ربما كان لى ابن عم نشيط نزح إلى بلاد الانجليز هو الذى أوحى بهذا الرأى إلى ذلك الفيلسوف ؟ !

الحكيم : لا أظن الحمير تستطيع أن تعيش فى جو انجلترا ...

الحمار : وكيف إذن يفكر الفلاسفة هناك هذا التفكير السليم ؟ ! ...

الحكيم : لست أدرى ...

الحمار : يسرنى على كل حال أن نكون متفقين فى الرأى ، أنا وهذا الفيلسوف الانجليزى ...

الحكيم : وأنا يدهشنى أنى لم أسمع حتى الآن أن نساء انجلترا أقمن القيامة على زميلك الفيلسوف هذا ... المطالب بست زوجات ؟ ! ...

الحمار : إنى لم أذهب إلى انجلترا ولا أعرف عنها شيئا ، ولكن ربما كانت النساء هناك غير مثقفات ...

الحكيم : غير مثقفات ؟ نساء انجلترا ... وفيهن أعضاء فى البرلمان ! ...

الحمار : عجبا ... إذن لماذا لم ينهضن على الأقل فى البرلمان صائحات ضد هذا الرجل ؟ ! ...

الحكيم : أظن أن النساء هناك لا يصحن لأنهن يعملن ...

الحمار : أوتركن إذن زميلى الفيلسوف يقول ما يريد ؟ ...

الحكيم : طبعا ... وهل كنت تنتظر أن يضعن فى فمه اللجام ، كما يشتهى نساؤنا أن يفعلن بك وبى ؟ ...

الحمار : أريد أن أسألك سؤالا محيراً : بماذا تفسر سعة صدر المرأة الانجليزية وضيق صدر المرأة المصرية ؟ ... ما السر فى أن نساء انجلترا لم يغضبن عندما قال ذلك الكاتب إنه يريد التزوج بست زوجات ، وغضب نساؤنا مما قلنا بزواج أربعة فقط ؟ هل المصرية تقدس حقوق المرأة وتحرص على حريتها أكثر من أختها الانجليزية ؟...

الحكيم : سعة الصدر وضيقه ليست ظاهرة مقصورة على المرأة وحدها... ولكنها ظاهرة شاملة تلاحظ فى حياة كل شعب تبعا لدرجة عراقته فى الحرية والحضارة والقوة . فالشعوب الحرة القوية هى

فى الغالب أوسع الشعوب صدراً وعقلا . إن مسألة الزى الأوربى مثلا أو لباس الرأس لم تصادف فى اليابان أى صعوبة أو إشكال ... وعلى الرغم من التقاليد اليابانية القديمة والوطنية اليابانية العريقة لم نسمع يابانيا ذكر كلمة « القومية » أو « الوطنية » وهو يرتدى الزى الأوربى ، لأنه لم يخطر قط بباله وهو يلبس « القبعة » أنه سيخلع « قوميته » . أما الشعوب الضعيفة فتتوهم دائما أن حريتها أو قوميتها أو عقيدتها ستخلع منها وتذهب عنها بلفظ أو بكلمة أو برداء . فهى تنفعل وترتعد وترتاع لمجرد المظاهر والألفاظ والكلمات ...

الحمار : لابد لهذا من علاج ... ما علاج ذلك ؟ ...

الحكيم : حرية الكلام ... حتى يألف الناس الألفاظ ... ولا يرتاعوا من الكلمات ... وحرية الفكر والعمل والتصرفات ... حتى يعتاد كل فرد احترام رأى الآخر وعمله وتصرفه ... دون أن يكون مضطراً إلى اتباعه . الحرية هى المنبع الصافى لسعة الصدر والعقل ... الحرية هى الطريق نحو القوة ... الحرية هى انتصـــار الانسان على نفسه ، وعلى كل سخافة إنسانية . الحرية هى دواء كل شىء ...

الحمار : إذن فواجبنا أن نتكلم ...

الحكيم : دائما ... حتى يسقط القلم من بين أصابعنا الميتة .

الحمار : لا تقل إذن أن آرائى دائما خرقاء ! ...

الحكيم : إن الخرق أو الهراء الذى يخرج من أفواهنا فيه أيضا بعض النفع للناس . إنه يجعلهم يبتسمون سخرية منا على الأقل . وإذا

استطاعوا أن يسخروا فى ابتسامة جميلة لا يعلوها زبد الغضب .
فقد ساروا خطوة نحو الحرية ...

الحمار : كنت تريد لحزبنا مبادىء ها هو ذا مبدأ عظيم ! ...

الحكيم : الحرية الاجتماعية ؟ ...

الحمار : نعم ، ما قولك ؟ ...

الحكيم : لا مانع عندى الآن من تأليف الحزب ... اجمع الحمير ! ...

الحمار : هنا صعوبة بدت الآن ! ...

الحكيم : ما هى ؟ ...

الحمار : هل تظن من السهل أن نجد الحمار الذى يعترف بأنه حمار ؟ ...

الحكيم : إذن لم يأن الأوان لتأليف هذا الحزب ...

المذاهب السياسية

سألنى حمارى :

— حدثنى عن المذاهب السياسية التى تعرفها ؟ ...

قلت له :

— عندما التحقت بالسلك القضائى فى أول الشباب ، دعيت إلى مقابلة النائب العام ، فجعلنا نتبادل الحديث فى شتى الشؤون إلى أن عرجنا على موضوع دراساتى فى جامعة باريس ... فاندفعت أقول له بغير تحفظ :

— كنا ندرس هناك تعاليم كارل ماركس ... وكنت من المهتمين بدراسة الشيوعية ! .

فصاح النائب العام فزعاً :

- شيوعية ! ... وكيل نيابة شيوعى ! ... يا للمصيبة ! ...

فهدأت من روعه . ووضحت له أنها كانت دراسة نظرية فى الكتب . لأن برنامج الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى كان فى جامعة باريس ذلك العام (١٩٢٤ — ١٩٢٥) يبحث تاريخ المبادىء الاقتصادية من أرسطو إلى كارل ماركس ... وهو يتطلب منا بحث النظريات الاقتصادية على اختلاف مذاهبها ومراميها ، وما الجامعة إلا ميدان حر تتصارع فيه الآراء ... ولقد بنى « ماركس » مذهبه على أساس علمى ، معارضاً مذهب « أدم سميث » ... فكان لا بد لأساتذة الاقتصاد من عرض المذهبين .

فسألني : وأنت ما رأيك وما موقفك من هذه الآراء ؟ ! …

– اطمئن يا سيدى النائب ! إنى باعتبارى وكيلا للنيابة لن يكون لى غير واجب واحد : أن لا أحنث باليمين التى حلفتها للدولة … وأن أقوم بواجبى وأطبق القانون بالأمانة والصدق ! …

* * *

ومرت السنون … وانتقلت بعد ذلك من وظائف الدولة إلى ميدان القلم … وانتقلت تلك الآراء من قاعات الجامعات إلى ميادين الصراع بين الأمم … وانقلب الجدل العلمى بين « ماركس » و « سميث » إلى نزاع سياسى بين كتلة شرقية وكتلة غربية … وبعد أن كان ميدان العلم منقسما إلى معسكرين لعالمين « بكسر اللام » أصبح ميدان الدنيا مقسما إلى معسكرين لعالمين « بفتح اللام » .

إنى الآن حر … غير مقيد بيمين، فلو أتيح لأحد أن يعيد علىّ طرح السؤال القديم :

« وأنت ما رأيك وما هو موقفك من هذه الآراء » ؟! …

ترى بماذا أجيب اليوم !! …

* * *

أجيب بشيء واحد : إن عهد الإيمان بالنظريات قد ولى من حياتى ، وأنا لم أعد أذكر الآن تفاصيل تلك الآراء التى كنا نتحمس لتنفيذها أو اعتناقها ، ولكن التقدير الشخصى للأشياء قد حل فى نفسى محل التأمين الشامل على كل ما كان يهز مشاعرنا من أفكار …

لا أستطيع اليوم أن أنضم إلى « ماركس » أو إلى « سميث » فكلاهما

صادق وكلاهما كاذب ، ولا أستطيع أن أنضوى تحت لواء « الشيوعية » أو « الرأسمالية » ، فكلاهما مصيب وكلاهما مخطىء ...

كل ما أستطيعه هو أن استخلص من تاريخ البشرية ومن تجارب هذين للذهبين واصطدامهما بطباع الناس وظروف الحيـاة ، حقائق ثابتة ، أو قل عقائد شخصية ، ليس من المهل على أحد أن يزحزحها من نفسى ...

أولى هذه الحقائق أو العقائد أن الثورة الروسية ليست سوى الشطر الآخر المكمل للثورة الفرنسية ..

ثورتان دمويتان ارتكب فيهما كثير من الجرائم باسم الحرية . حرية الشعب ضد طغيان النبلاء فى الأولى ... وحرية العمل ضد طغيان رأس المال فى الثانية ... وقد استخدم فى سبيل هذه الأغراض من وسائل العنف ما نفر النفوس واقشعرت له الأبدان ... وتطرف رقاص ساعة الزمان من نهاية إلى نهاية .. باحثا عن وضعه الصحيح الذى فيه يستقر استقرار الحقيقة المعقولة المقبولة ...

وهدأ رقاص الساعة فى الثورة الفرنسية بعد أن قطع كثيرا من الأعناق وأسال كثيرا من الدماء ، وانكشف للأعين بعد ذهاب العاصفة هذه الحقيقة :

ليس المقصود محو طائفة أو إلغاء طبقة ... بل المقصود إزالة فوارق وإلغاء امتيازات ... فليبق النبلاء إذا شاؤوا ، ولكن ليس لهم اليوم أن يقولوا لغيرهم من أبناء الوطن : دمنا أزرق ودمكم أحمر ، ولا نقف معكم أمام محكمة ولا نخضع معكم لقانون ، ولا نجلس إلى جانبكم تحت قبة مجلس ...

كانت الحقيقة الثابتة التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية هى :

حقوق الانسان ... ذلك الانسان الواحد الذى لا تمييز فيه بين دم ودم ...

حقوق للمواطن، ذلك الفرد الذى يتمتع بعين الحقوق المدنية والسياسية ويخضع لما تفرضه من واجبات دون تفريق بين مولد أو منبت أو مرتبة ... وسرى هذا المبدأ فى الأرض وجعل أساسا لأكثر الأمم ... ولم يعد من الضرورى لتطبيقه إقامة نظام خاص من الحكم ... فالملكية والجمهورية تصلحان على السواء إطارا للمحافظة على حقوق الانسان والمواطن ! ...

ثم جاءت الثورة الروسية فقالت : نعم ... لقد زال امتياز النبلاء ... ولكن ظهرت طبقة أخرى ذات امتياز وطغيان ... هى طبقة أهل المال ... يجب إلغاء هذه الطبقة ... فلا يوجد فى الدولة غير أهل العمل ... ويجب أن يكد العامل للمجموع ... فلا قيمة لحقوق الانسان ، بل القيمة الأولى لحقوق الجماعة ... ولا اعتبار لحقوق المواطن ... بل الاعتبار الأول لحقوق الوطن... وقامت الثورة كالرياح الهوج فعصفت بالنظم السياسية والاجتماعية والدينية... وسالت الدماء أنهارا ... وتطرف رقاص ساعة الزمان من نهاية إلى نهاية ، باحثا عن وضعه الصحيح الذى فيه يستقر استقرار الحقيقة المعقولة المقبولة ...

ولم يهدأ بعد رقاص الساعة الروسية... فإن هذه الثورة لم يمض عليها أكثر من نيف وربع قرن ... وقت قصير بالقياس إلى الثورة الفرنسية التى مضى عليها نحو قرن ونصف قرن ! ... ولكن من المستطاع بعد ذلك أن نستخلص منها الحقائق التى يمكن أن تتبلور وتثبت وتمكث فى الأرض ...

من هذه الحقائق الثابتة فى رأيى : حق الجماعة وحق الوطن ، فهى تكمل الشطر الذى بدأته الثورة الفرنسية : حق الانسان وحق المواطن ، أما نظام الحكم فسوف تثبت الأيام — إن لم تكن قد أثبتت بالفعل — بما يحدث فى انجلترا اليوم — إنه ليس من الضرورى أن يتخذ الشكل الذى ارتآه الروس ، ولا أى شكل خاص من الأشكال ... فالملكية والجمهورية أيضا سواء فى صلاحيتهما إطارا للمحافظة على حقوق الجماعة والوطن ...

حمارى والبردعة

سألنى حمارى يوماً قائلا :

— يتحدثون عن العمال وعن أصحاب رءوس الأموال ، فمن هو العامل ؟...

فقلت له :

هو أنت ...

— هذا صحيح ... ليس فى يدى غير العمل ولا أملك غير جهدى وكدى ، فمن الرأسمالى إذن ؟ ...

فقلت له :

— هو الذى يملك ذهبا يصنع منه بردعة يركبك بها إلى مأربه ، ثم ينزعها عنك آخر النهار ولا يعطيك سوى ما يمنعك من أن تموت جوعا .

— ولماذا يفعل بى ذلك ؟ ...

— لأنه يعتقد أن الذهب هو كل شىء ، وأن عملك ليس شيئا ، وأن الذى حمله البردعة لا ظهرك ! ...

حمارى والذهب . .

رأيت حمارى ذات يوم مهموما ... فجلست بجواره صامتا محترما ما هو فيه... إلى أن أحس وجودى... فرفع رأسه نحوى... وجرى بيننا هذا الحديث :

الحمار : وأخيراً ؟ ...

الحكيم : وأخيراً ماذا ؟

الحمار : مستقبلى ... ألم تفكر فى مستقبلى ؟ ...

الحكيم : عجبا ! ... لأول مرة أسمع حمارا يتحدث عن مستقبله ! ...

الحمار : ما وجه العجب ؟ ألست مخلوقا حياً يعيش خاضعاً لقانون الزمن ؟ أليس لى ماض وحاضر ومستقبل مثل جميع المخلوقات والكائنات ؟ لقد عشت معك حتى الآن عاريا لا سرج ذهب ... ولا « رشمة » فضة ... ولا بردعة مرصعة ... ولا ...

الحكيم : شىء جميل ! ... أهذا ما يشغلك الآن ؟ ! ...

الحمار : هذا ما يشغل كل إنسان . إن الناس كلها من حولنا تفكر فى الذهب ... وتعيش للذهب وتتنفس بالذهب... وأنا وأنت قاعدان ننظر إلى القوم من عل متدثرين فى أسمال أفكارنا ، وأطمار فلسفتنا...

الحكيم : اسمع أيها الحمار ... فرغنا من آرائك الفلسفية ... ومن مبادىء حزب الحمير الذى أشرت بتأليفه ... واليوم تريد أن تفتح لى باب أطماع جديدة ؟ ! ...

الحمار : إنى أفتح لك باب أعمال ... وما دمت أنا الذى يفكر لك ...

الحكيم : فكر لى فى شىء نافع من فضلك ! ...

الحمار : أنفع من الذهب ؟ يا للعجب ! هنالك لحظات أتساءل فيها أأنا الحمار أم ...

الحكيم : إلزم أدبك . لقد بدأت أضيق بك ذرعا ... وأشعر أننا أصبحنا غير متفقين فى كثير من الأفكار والمشارب والميول .

الحمار : بل أنا الذى ضقت وضجرت و « فلبت » ! ...

الحكيم : فلنفترق إذن ! ... ما الذى يرغمنا على هذه الحياة المشتركة ؟ ... وعلى هذه الصحبة التى لا أجنى منها غير سوء السمعة ! ... اذهب إذا شئت ، وابحث لك عن صاحب من ذوى المال — وما أكثرهم اليوم — يغطى عريك المزعوم بالذهب والفضة . وسنرى بعد ذلك هل شعرت بالدفء حقاً وعلى ظهرك ذلك الغطاء الثمين ؟ ! ...

الحمار : وهل أنا شاعر بالدفء الآن وأنا عارى الظهر ؟ ! .

الحكيم : بالطبع ... لو كان لك قلب يعرف حرارة الإيمان .

الحمار : يا لهذه الكلمات ! ... إنك تكسونى بالكلمات ... وتغذونى بالكلمات ... ولا أجد شيئاً عندك غير كلمات ...

الحكيم : ولن تجد عندى شيئاً غيرها .

الحمار : من سوء حظى ! ...

الحكيم : حقاً ... ربما كان ذلك من سوء حظك لأنك حمار ...

الحمار : الزم أدبك ... يكفى أنى تحملت عشرتك طول هذا الزمن ، وأنت لا يتحملك أحد ... ولكن آن الأوان أن أتركك لوحدتك ... لتأكل وتشرب كما تشاء من أفكارك وكلماتك ...

الحكيم : اسمع ... إني لا أطيق أحدا يحقر الأفكار والكلمات ! إن الكلمات هي التي شيدت العالم ، إن محمدا لم ينشر الإسلام بالذهب بل بالكلمات ، وأن عيسى لم ينشئ المسيحية بالمال بل بالكلمات . الكلمات الصادقة والأفكار العالية والمبادئ العظيمة هي وحدها التي قادت الناس في كل أطوار وجودهم... وبنت الأمم والشعوب في كل أدوار تاريخها . ما من حركة وطنية أو قومية أو إنسانية قامت أول أمرها على شيء غير المبادئ والكلمات... وعندما يظهر الذهب آخر الأمر ببريقه ورنينه ... فاعلم أن أوان الانهيار قد آن ... وأن هذا البريق سوف يذيب المبادئ بأشعته الساحرة ... وأن هذا الرنين سوف يصم الآذان بجرسه الفاتن عن سماع الكلمات...

الحمار : تريد من ذلك أن تقول إن الذهب عدو المبادئ ...

الحكيم : بلا شك ... لأنه هو ذاته ينقلب إلى مبدأ ، مبدأ خطر ، طاغ ، متأله ... يُنسى الناس كل المبادئ الأخرى الحقيقية السامية النبيلة ... أنظر إلى مجتمعنا اليوم ، وقل لي ما هو المبدأ الغالب المسيطر على كل النفوس ؟ لقد قلتها أنت نفسك الساعة : إنه الذهب . لقد تحكم حتى أصبح هو المقياس لقيم الرجال . ألا تسمع أن كل رجل كفء يتباهى بأن دخله من الشركات كذا ألف ... فإذا طُلب لواجب قومي وازن في الحال بين خسارته المالية هنا وربحه المالي هناك . وجاراه المجتمع في حسابه المادي صائحا : « لا مصلحة لفلان في أداء هذا العمل لأنه سوف يخسر بعض موارده من كيت وكيت » ... أما أن يقام وزن للواجب المعنوي في ذاته ، فهو أمر لم يعد في بال أحد ، للمعنويات والمثل العليا فقدت قيمتها في سوق الذهب . حتى الأطباء نسوا أحيانا

واجبهم الحقيق . فأصبح أغلبهم صيارف نقود . يفخر كل منهم بدخله السنوى ، ولا يفخر بعمله الإنسانى . والزواج أصبح هو الآخر علاقة مكسب وخسارة فى ميدان المال ، فإذا تزوج أحدهم تساءل المجتمع على الفور عما تملك العروس . لأن هذا هو المبدأ الذى تقوم عليه الآن هذه الشركة « المقدسة » ! ورجال العلم تركوا علمهم ونظروا إلى الدرجات والمرتبات . فلن تجد فى بلادنا عالما منكبا على عمله تحت « مكرسكوب» ليل نهار ليستكشف جديدا دون أن يكون له مطمع غير أفكاره العلمية ومجاحها ، وخدمة الانسانية لذاتها لأن هذه الأفكار والمبادىء ذابت فى جو هذا المجتمع الذهبى... وانصهرت هذه الكلمة من جديد فى قالب من ذهب ... فإذا الناس ينقلبون تجارا ، كل فرد فى الأمة يريد أن يكون تاجرا ... بل إن لكل شخص اليوم عملين : التجارة وعمل آخر . كل إنسان الآن تاجر إلى جانب عمله الظاهر ... لأن الذهب أعمى بصائر الناس ولعب بعقولهم وقلوبهم إلى حد أنسام أنفسهم ومدلول لغتهم ... فغدا للناس قاموس جديد كل كلماته : الربح ... الربح ... والمال ... المال ... المال ... والثراء ... الثراء ... الثراء ... الثراء .

الحمار : إذا كان هو هذا قانون العصر ، فلماذا تريد منى أن أخرج على القانون؟ إنى كائن عصرى من واجبى أن أنضوى تحت لواء « المثل الأعلى » المسيطر فى زمانى . وما دامت الأفكار والكلمات قد ذهبت بدعتها من عصرنا العملى ، فأنا كذلك أخلع عن نفسى تلك البدع القديمة ...

الحكيم : أيها الحمار العصرى ... إن الأفكار والمبادىء ليست من البدع القديمة فى كافة الشعوب ... أنظر حولك تجد شعوبا لم تزل تبذل

دماءها سخية من أجل أفكار ومبادىء ... ما هو الدافع الذى يدفع هؤلاء الملايين من الشباب الناضر إلى الجود بأرواحه ودمائه ؟ أهنالك دافع آخر غير بضع كلمات ؟! نعم ... بضع كلمات آمن بها فدفع فيها دمه الغالى . كلا ... إن الأفكار والمبادىء ليست من البدع القديمة إلا فى نظرنا نحن ... إن الكلمات الصادقة العظيمة بخير ... وهى لم تزل حافظة قوتها فى كثير من الأمم والشعوب ... وهى ما برحت جديرة أن تبذل فى سبيلها المهج والأرواح ... قديرة على أن تثير فى القلوب حب التضحية بغير ثمن ...

الحمار : إنك لتدهشنى ... كيف استطاع عصر واحد أن يجمع هذا التناقض ؟ دماء تسيل فى مجرى ... وذهب يجرى فى مجرى آخر ؟! ...

الحكيم : لقد اجتمع الضدان فى كل زمان ... منذ فجر الخليقة والعظمة تسير إلى جانب الحقارة . والسمو إلى جانب التدهور ... والعلو إلى جانب الحضيض ... ولكن العبرة أى الطريقين تختار لنفسك ولأمتك ؟ ...

الحمار : إذا سألتنى أن أختار لنفسى فإنى ...

الحكيم : انطق ...

الحمار : دعنى أفكر ... فإنك تعلم أنى لا أعطيك ثمرة تفكيرى إلا بعد ترو وتأمل ...

الحكيم : مجرد التردد فى الاختيار يجعلنى أحكم عليك بأنك حمار ...

الحمار : أتظن أنى وحدى ؟! اطرح سؤالك على الناس وخيرهم بين المال والمبادىء ... ثم احص بنفسك عدد المترددين :

الحكيم : آه ... والله « غاب حمارى » ! ...

حماري والكفاح

قال لي حماري وقد ذهبنا نمضي الشطر الأخير من الصيف في الاسكندرية ، وتنم ساعة الأصيل بالسير الهوينا على « الكورنيش » :

— الحق أني مغتبط ها هنا ... أين المشي المريح فوق هذا الأسفلت الناعم من المشي في رأس البر فوق الرمال التي كانت تغوص فيها حوافري؟ ...

— صدقت ...

— إني أراك لا تكره المشي هنا ...

— أصبت ...

— عجباً ! ما بالك ساهماً مطرقاً ؟ ...

— اسكت ! إنك تحرجني مع أصدقائي . كلما مشيت مع صديق في الطريق ظن الناس أنه حماري ! ...

— وما ذنبي أنا إذا كان الناس يريدون أن يتملقوا أصدقاءك ؟ ...

— اغلق فمك من فضلك ، ودعني أنسى وجودك إلى جانبي لحظة ! ...

— سبحان الله في طبعك ! ما هذا المزاج العكر والهواء جميل خال من الرطوبة هذا العام ، والبحر صاف ، والغيد في الاسكندرية حسان ... والنساء في السراويل والبيجامات بأحمرهن وأبيضهن كأنهن جوقة « بلياتشو » في « سيرك » متنقل ! ...

— صه ... لا تُحدثنى عن النساء ! ...

— ألست أنت الذى دعاهن إلى ارتداء هذه السراويل ؟ ! ...

— تلك فكرتك أنت أيها الحمار ! ...

— أيعقل أن تخطر ببالى أنا فكرة حمقى مثل هذه الأجسام البضة المائعة فى هذا النوع من الثياب ؟ أنظر إلى هذه المرأة البدينة وقد صرّت لحمها المترهل صرا فى البنطلون ، وهو يأبى أن يتماسك فصارت كأنها طبق « الماظية » متفكك سائل ! ...

— لا تبالغ ...

— أنظر بعينيك ... ما عليك إلا أن تنظر إلى هذا السرب السمين ...

— أنا لا أنظر إليهن على الإطلاق ...

— يا للعجب ! ما من مرة خطرت قربنا حسناء إلا ورأيت عينك تكاد تأكلها أكلا بلحمها وعظمها وثوبها ! ...

— كذاب ! ...

— أتقسم ؟ ...

— أقسم أنى لا أنظر غير نظرة خاطفة ، وهذا حق شرعا كما هو وارد فى كتب الفقه والدين . فقد جاء فيها : « لك فى الشرع نظرة واحدة لاحتمال أن يكون القادم أسدا » .

— وهل من المحتمل أن يقبل علينا أسد فى هذا السكورنيش ؟ !

— اخرس يا حمار ولا تجادلنى ! ...

— هذا ليس جوابا مقنعا .

— افهم أن لكل زمان مخاوفه ، ولكل مكان مخاطره ، وتلك كانت

المخاوف فى عهد العرب والبادية والصحراء . أما فى عصرنا الحاضر فقد تغير نوع الخطر ، وإن لم يتغير المبدأ . فبدل الوحش الهاجم أصبحت السيارة المسرعة ...

— لست أرى سيارة أمامنا ، ولكن أرى دبابة ...

— دبابة ؟ ! أين هى ؟ ...

— تلك المرأة المقبلة . فلنخلها الرصيف ولنهبط إلى الطريق ، إذا أردنا لأنفسنا السلامة ! ...

— هذا أيضا كما ترى نوع من مخاطر العصر الحديث ! ...

— والكواعب الفاتنات ، كأنهن نسيم البحر ، أعارته يد السحر أردية من أجساد الحور الخالدات ! ...

— ما شاء الله ! ... الحمار انقلب شاعرا ! ...

— أجب ولا تراوغ ... ما تقول فى هذه الباقة المقتربة من الفتيات ، ذوات المناديل الدمسقية المختلفة الألوان فوق شعورهن ، من هو البستانى العبقرى الذى نسق هذا البهاء ! أهى المصادفة التى جمعت بينهن على هذا النحو ؟ أم هو التدبير السابق فيما بينهن ، والاتفاق المبيت على أن يصحبن على الناس متفتحات فى هذه الألوان الزاهيات ؟ ! ... انطق ! ما هذا السكوت ؟

— هذا كذلك خطر من صنف آخر ...

— بل هى متعة ... بل هى فتنة ... بل هو النعيم ...

— عجبا ! ... ماذا جرى لك أيها الحمار ؟ .

— يا إلهى ... ما الذى صنعت فى ماضى من جلائل الأعمال لأستحق هذا « التصييف » البديع ! ...

— ما هذا القول السخيف ؟ أوَكل هؤلاء « المصيفين » قاموا فى عامهم بأعمال يستحقون من أجلها هذه الراحة الناعمة ؟ .

— لست أتكلم عن هؤلاء المصيفين ، إنما أتكلم عن نفسى ، بصفتى حمارا من أسرة الحمير .

— أنعم وأكرم !...

— لاتهزأ بى ، ولا بجنسى ، بل اهزأ أولا بنفسك وبجنسك ! فنحن فصيلة قد اشتهرت بالكد والجد . لقد عرفت ظهورنا أشق الأعمال ، ولم تأنف من حمل أخس الأحمال . ما من ظهر فينا رفض « غبيط السماد » ، وما من واحد بيننا تذمر من كثرة العمل وطول ساعاته . أو رداءة العلف وقلة دسمه . ما نحن إلا الجلد والعزم والصبر قد صورت مخلوقا حياً ، لنكون قدوة لأمثالكم من الكسالى والمترفين ، ولكنكم لا تبصرون ولا تريدون أن تفتحوا أعينكم حتى على خيبتكم المائلة ! ما من واحد فيكم يريد أن يعرق ليستحق لقمته . موظفكم ينظر إلى ساعة الانصراف ولما يبدأ فى العمل ، ويهمه المرتب والترقية ولا يعنيه الإنتاج ، فإذا نقل إلى « الصعيد » هاج وماج . وطلابكم يريدون أن يجتازوا الامتحانات بغير درس ، ولا يعنيهم العلم فى ذاته . بل يطلبون شهادة تفطى فيهم الجهل وتفتح لهم الخزائن وتصعد بهم الدرجات وعمالكم يفكرون فى زيادة الأجور وإنقاص العمل ولا يهتمون بالإتقان ولا بمصالح الزبون . ورؤساؤكم يعنيهم أن ينشر عنهم أنهم قاموا بكذا ونهضوا بكذا ولا يهمهم بعد ذلك قيام حقيقى أو نهوض . وشبابكم أصبح مثله الأعلى يتلخص فى كلمتين : « سيارة وفتاة » ولا يعنيه كيف يحصل عليهما ، بل كل أمله وهدفه أن يظفر بهما من غير جهد ولا جهاد . إن شعار الكثيرين فيكم اليوم هو : « إن السماء يجب عليها أن تمطر ذهبا وفضة ونحن قعود ! »... الحلم الذهبى للجميع الآن هو الثراء والإثراء بغير مجهود إن الحرب قد حققت بالفعل لبعضكم

هذا الحلم ولكن ... ماذا أنتم صانعون فى زمن السلم ؟ بأى سلاح تواجهون التنافس العظيم على الإنتاج والصراع الشديد على الأرزاق ! أبمبدأ « الجهد الأدنى والغنم الأسنى » الذى اعتنقه الكل فيكم من شبابكم إلى شيبكم ؟! .

— حقا تلك مشكلة لا أدرى لها حلا ! ...

— حلها بسيط ... أن تعتنقوا مبدأ فصيلتى : « لا راحة بغير عمل ، ولا لقمة بغير عرق ، ولا ثروة بغير إنتاج ! ...

— نعتنق مبدأ الحمير ؟ » ! ...

— ولم لا ؟ ...

— فى الحق أن التطاحن فى الغد هائل ، وأن حرب السلام ستكون علينا أشق وأعنف من حرب الدماء . ولقد أردنا أن نجنب أنفسنا الويلات فى كل ميدان ، وأن نهرب بجلدنا من وخزة الدبوس ولذعة « الناموس » ولكن ...

— ولكن آن الأوان لتعرفوا معنى الصبر والجلد والعمل .

— سنعرف ، وترغمنا الحياة غدا على أن نعرف .

— اليوم خمر وغدا أمر . هلم بنا إلى ستانلى وسيدى بشر وجليم ! ...

— مهلا ... ضميرى غير مستريح . وأنت المسئول . ماذا قدمنا من عمل فى عامنا لنكون جديرين بهذا اللهو والمرح ؟ .

— قدمنا ...

— كم « غبيط » من السماد حمل ظهرك ؟ ...

— أنت لا تعرف أنى لا أحمل اليوم سماداً بل أفكاراً .

— يا له من تدهور ! ...

— لا تدهور ولا تقدم ولا تأخر . ما الأفكار سوى نوع من السماد . وحامل الأفكار كحامل السماد وما أنت فى الحقيقة غير نوع من ... الحمير ! ...

— أشكرك ! ...

حماري والنفاق

قال لي حماري ، وقد رآني أتهيأ للسفر ذلك الصيف إلى رأس البر : أتذهب وحدك ؟ فخجلت منه ودعوته . لأن الوفاء يأبى أن أتركه يصلى حر القاهرة وأمضى أنا بدونه إلى المصايف ... ولقد نزل مثلي ضيفا معززا مكرما على « عشة » أحد الأصدقاء ، وأفرد له مكان بجواري . وأصبح ينعم بهواء البحر مثلنا . ويذهب معنا كل صباح إلى « خيمتنا » التي نصبت على الشاطىء . وينظر كما ننظر إلى أفواج المصيفين والمصيفات تغدو وتروح بألوان ثيابها الزاهية المختلفة ، كأنها معروضات الفترينات قد وضعت فيها محركات تسيرها أمام أعيننا فوق الرمال ... وكان يحلو لي أن أغرق صامتا في مقعد بحرى طويل مريح . وكنت قد أوصيت حماري بالسكوت ، فنحن هنا للراحة لا للكلام وقد أذعن لرجائي فلم ينبس بحرف . إلى أن جاء ذات يوم إلى « البلاج » رجل من معارفنا له جسم قد ترهل وكرش قد برز كأنه « قنطاس » غاز وهو يرتدى « الشورت » مع قميص قصير الأكمام ، فقلت له :

يا لك من رشيق ! يا لها من رشاقة ! ...

وهنا لم يتمالك الحمار وهمس قائلا :

— أحقا تراه كذلك ؟ ...

فقلت بصوت مرتفع سمعه الرجل مغتبطا :

— طبعا أراه كذلك ... ولماذا لا أراه كذلك ؟ ! .

فهمس الحمار لى وهو يتأمل قوام الصديق وقده من رأسه إلى قدمه :

— كيف لا أرى أنا ما تراه أنت ؟ ...

فقلت له مغتبطا :

— لأنك أنت حمار ...

فأجابنى هامسا :

— ولماذا لا تقول لأنك أنت منافق ؟ ! ...

وكان الصديق قد ابتعد ولحق بضيفى ، ولقد اطمأن إلى حسن منظره ، وسارا معا على الشاطىء ، بعد أن يئسا من ذهابى معها ، فأنا لا أحب للشىء . وانفردت بحمارى أصيح فيه :

— أنا منافق ! ؟

— مهلا ... مهلا ... أنا لم أقصد إهانتك ...

— افهم أيها الحمار أن هذا ليس نفاقا ولكنها مجاملة .

— مفهوم ... إنها مجاملة ... والمجاملة هى النفاق الصغير ... هى كالجحش بالنسبة إلى الحمار ، ومع ذلك فأنا لا أستهجن النفاق على الاطلاق . إنى تأملت نفسى ذات يوم وتأملت وقلت : ما الفرق بيننا معشر الحمير وبينكم معشر الآدميين ؟ ! نحن نأكل الفول ، وأنتم تأكلون الفول ... وإذا كنا نحن نحبه ممزوجا بالتبن أو النخالة وأنتم تحبونه بالزيت أو بالزبدة . فتلك مسألة مزاج ... ولا يجب أن نسميه فرقا جوهريا إنما الفرق الأساسى حقا بيننا وبينكم : هو أنكم تعرفون « النفاق » ونحن لا نعرفه . وقد علت نفسى ومنيتها بحلم جميل هو أن تتاح لى الفرصة أن أرجوك يوما وأتوسل إليك أن تعلمنى النفاق ...

— عجبا ... من علمك هذا الأسلوب الهازىء ؟ ! ..

— إنى لست أهزأ . إنى أقول الجد . تلك عقيدتى : لو أمكننى تعلم النفاق وإدخاله فى فصيلة الحمير لانقلبنا مخلوقات مثلكم . إنى مؤمن كل الإيمان بهذا المبدأ ، وإنى أحمل سراً على تنفيذه منذ زمن ، فلا تقف فى وجه مطامعى وأمالى ... خذ منى كل شىء وأعطنى النفاق ! ...

— ماذا جرى لك ؟ هل جننت ؟ هل أثر فى رأسك هواء البحر النقى وطعام مضيفنا الشهى ؟! ...

— رأسى بخير ... ولقد سألتك شيئاً سوف يحدث انقلاباً فى تاريخ بنى جنسى ، ولكنك تبخل به علينا وتضن . فلن ألح أو أثقل عليك بعد الآن فى الطلب ! .

— أمرك غريب ... أبخل عليك بماذا ؟ أهو شىء عزيز نفيس أستكثره على مثلك ؟ ... هذه أول مرة أسمع فيها أن للنفاق قيمة يحرص عليها الإنسان ! ...

— أما أنا فقد سمعت أن « النفاق » له قيمة كبرى فى الأسواق العالمية . وأن أجود أنواعه فى مصر ، كما يوجد فيها أجود أنواع القطن .

— يظهر أنك استقيت معلوماتك من مصادر خبيرة .

— لقد قيل لى إن « النفاق الطويل التيلة » ...

— ماذا تقول ؟! ...

— نعم ... إنه كالقطن ، ألا ترى هذا ؟ ! ولعل السبب فى تفوقه وتميزه بطول تيلته أنه يمتد إلى الطرفين : الفرد والمجتمع . فمثلا من الجائز أن يعتنق الفرد رأياً مخالفاً للجماعة فتنهض ضده الجماعة فيقبع فى داره صامتاً ... وهذا ما يحدث فى كل بلد آخر ... أما هنا فيحدث غير ذلك . فقد أخبرونى أن أفراداً قاموا ينادون بأفكار حرة فاتهمهم الناس بالإلحاد . فلم يكتفوا بالصمت،

بل قاموا فى اليوم التالى يحملون المسابح الكهرمان ، ويرتدون العمائم الخضر ،
وآخرون عرفهم المجتمع من أهل الخمر والسكر فلم يكتفوا بالتوبة الصامتة بل
راحوا يتزعمون حركات الحض على الورع . ونساء يرتكبن فى السر الفجور
وينادين فى العلن بالفضيلة . وسياسيون قد خلق الله لكل منهم وجهاً واحداً
فصنعوا هم لأنفسهم وجوها عدة يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة
وزارية تطرأ : وأسر وعائلات توزع فيما بين أعضائها المبادىء والأحزاب ،
كما يوزع الله بين عباده القسم والأرزاق . ومرؤوسون يداهنون الرؤساء على
حساب الدولة ، ورؤساء يراؤون الشعب على حساب المصلحة وسيدات يردن
العبث واللهو فيقلن للناس إنه البر والخير . وأهل دين يملؤون الصحف ضجيجاً
حول الأخلاق ويدقون طبلا ضد الرزيلة وما يقصدون فى سريرتهم غير
التظاهر والإعلان . ورجال تقوى يأمرون الناس بالعفة ويستثنون أنفسهم
وذويهم . هذا بعض ما يتعلق بالطرف الأول وهو الفرد ... أما الطرف الثانى
وهو المجتمع فله نفاقه أيضا ... فقد بلغنى فى ذلك أنه ما من مجتمع فى غير
مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج
القادم من الحجاز ! . وهذا المجتمع يشمئز من اللص والآثم والشرير والفاجر ،
ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من هؤلاء فنال سلطة ، أو أصاب ثروة ،
فسرعان ما يبتسم له المجتمع أيضاً ويستقبله استقبال الأمجاد الأبطال ،
بل إن المجتمع ليعرف التاريخ المخجل لهذا المليونير والماضى المزرى لذاك
السياسى فلا يمنعه ذلك من حملهما على الأعناق ، هكذا يرائى المجتمع الفرد ،
ويداهن الفرد المجتمع . ولا يدرى أحد أيهما مصدر « النفاق » . لذلك
قيل إن النفاق يصل أحدهما بالآخر ، فلا نعرف أى الطرفين مصدر
الآخر ... وكل الذى نعرفه أن النفاق ممتد بينهما يربطهما بخيوطه المتينة .
وهذا سر وصفه بالتيلة الطويلة . فما قولك فى هذا ؟ وهل ترانى ألممت
بالموضوع ؟ ...

— إنى أراك بحرا فياضاً ، وأدهش كيف تسألنى أن أعلمك النفاق وأنت واسع الاطلاع فيه على هذا النحو ؟! ...

— لا موجب للدهشة . فأنت تعرف أن العلم النظرى شيء ووسائل التنفيذ شيء آخر . فكل بلد يدرس تاريخ الثورة الفرنسية ، ولكن ليس من السهل أن تحدث ثورة فرنسية فى أى بلد ؟! وأنا كذلك درست تاريخ نفاقكم ولكن ليس من اليسير أن أحدث مثله فى مجتمع بنى جنسى ! ...

— لست أرى فى الأمر صعوبة ، إنه فى غاية البساطة ... أنا مثلا صاحبك الذى تخافه وتهابه ولك عنده مصالح ومآرب ... أنظر إلى وجهى ... ألا ترانى جميل الصورة ؟ .

— أبدا ...

— لا تنظر بعين رأسك ، أنظر بعين مصلحتك ! ...

— لست أعرف لى سوى العين التى فى رأسى ...

— هذه العين افقأها إذا كنت تريد أن تتعلم النفاق ! ...

— أفقأ عينى وأصير أعمى ؟! ...

— هذا هو الشرط .

— وبماذا أرى الأشياء ؟ ...

— بعينك الأخرى ... عين مآربك ...

— إذن لو أردت إدخال النفاق فى مجتمع بنى جنسى ، ينبغى لى أن آمر جميع الحمير أن تفقأ عيونها التى فى رؤوسها ؟ .

— فى الحال ...

— وأن تحول مجتمعها إلى مجتمع من العميان ؟! ...

— بالضبط ...

— وهل تظن دولة الحبر تقبل ذلك ؟ ...

— ولِمَ لا ؟ ... إذا كنا نحن قد قبلناه ...

— اسمح لى أن أقول لك ...

— صه ... أعرف ما ستقول ... لا داعى للاهانة ...

وهنا كان الصديقان قد أقبلا عائدين . فأومأت إلى حمارى بالصمت وغمزت له بعينى رأسى وأنا أقول مشيراً إلى صاحبنا المترهل منشداً :

أهلا وسهلا بالرشاقة كلها ، و« بالشورت» والأكمام فوق الكرش ! ...

كل عام والحمار بخير !

تلقيت من « حماري » التهنئة التالية :

زميلي توفيق الحكيم ...

واجب الصداقة ، والزمالة والعيش والملح ، ولو أني لا آكل الملح — يدعوني إلى أن أتقدم إليك ، قبل جميع الناس ، مهنئاً بالعيد !... ولا تظن أني طامع في أن تمنحني « العيدية » ... فأنا كما تعلم لا أنتظر منك منفعة ولا مصلحة ... إنما أعرفك لوجه الله ... وهذا نادر اليوم في بلدك ، وعند أبناء جنسك ! ... بل إنك لتعلم أني أنا الذي يوحي إليك بالأفكار ، وأنت الذي تقبض الأجور ! ...

ولم يخطر ببالي أن أطالبك يوماً بنصيب ... لأني « حمار » ! فليكن عزائي على الأقل حسن ظنك بي ، وبأخلاقي ، وثقتك ببعدي عن الغايات والأغراض ! ...

فتهنئتي إليك إذن ليست من طراز تلك التهاني ، التي تمطر اليوم سيولا على أبواب ذوي السلطان ، وتمنياتي لك ليست من قبيل الزلفى والرياء ! بل هي شيء خالص صادق لشخصك المكتوب على أن أصاحبه في الأيام السود والبيض ! ...

وإذا سألتني ماذا أتمنى لك في حقيقة الأمر ، لقلت لك بكل بساطة :

أن تكون مثلى ! ! ...

إياك أن تغير مبادئك فى الحياة ! إياك أن تطيش بلبك الأطماع الزائفة ، ويبهر بصرك الجاه الكاذب ! ...

اثبت على مبدئى الذى ألقنه لك صباح مساء : عش لأداء الواجب ، ولا تهدر الواجب لتعيش ...

وسوف أذكرك بهذه الكلمة فى كل عيد ما حييت ! أنت وأنا ...

« حمارك »

فكتبت إليه :

عزيزى الحمار ...

أنت دائماً لا فائدة منك إلا الثرثرة ووجع الدماغ ... لو كنت خروفاً على الأقل لذبحتك ، وأكلتك ، وتظاهرنا بتوزيع لحمك على الفقراء ، ولكنك حمار ...

حمارى والقومية ...

سألنى حمارى :

— أنت تنادى بإيجاد « الطابع » والشخصية القومية لرجالنا ونسائنا . فلماذا اتخذت « البيريه » لباساً للرأس إذن ؟ ...

فقلت له :

— إنك تتكلم مثل كثير من أمثالك فى بلادنا ، أولئك الذين لا يفهمون أن المقصود بالطابع والشخصية والقومية هو جوهر التكوين الذاتى لا عرض الرداء الخارجى . ولو أخذنا برأيك ورأى أمثالك لكان على رجالنا أن يظلوا دائماً بالجلباب والطاقية واللاسة . وعلى نسائنا أن يحتفظن بالملاية اللف والبرقع ... ولكن الرداء الخارجى لا علاقة له بالشخصية والقومية . وإلا جاز لنا أن نقول إن اليابانى والتركى والإيرانى والصينى لا شخصية لهم ولا قومية لأنهم يرتدون القبعات . وأن لورنس وفيلبى فقدا شخصيتهما الإنجليزية لأنهما لبسا أردية البدو ... إن المرأة الإنجليزية والتونسية والروسية يشتركن جميعاً فى عين « الموضة » للرداء الخارجى وعين آخر طراز للزينة دون أن يمنع ذلك من اختلافهن الواحدة عن الأخرى فى الشخصية والطابع والقومية ...

فى المحيط الدولى لعصرنا الحديث لا يوجد شىء اسمه : « رداء قومى » ولكن يوجد شىء اسمه : « تفكير قومى » و « شخصية قومية » ...

حمارى والطوفان

جلس حمارى إلى جوارى كما اعتاد وقال :

— أخشى أن تثور كبرياؤك ذات يوم فتترفع عن مجالسة مثلى ! ...

قالها بنبرة أعرفها فى صوته ، إنه مخلوق يجيد نوعا من السخرية ، ليس من الهين أن يلمح فى كل الأحيان ... لأنه مغلف فى طيات التواضع والتسامح والإذعان ، ولكن أعرف فيه أيضا قوة المقاومة وصلابة الراس ... وشيئا من الاعتداد بالذات لا يظهر إلا إذا وخز وخزة تجرح نفسه ... لذلك ألجأ معه إلى المزاح فى القول والإغلاظ فى التهكم حتى أرغمه على مصارحتى بكل مشاعره ... فأجبته :

وأنا أخشى أن يركبك الوهم فتحسب أن لا فرق بينى وبينك ! ...

— لا تخف ... إن الوهم لا يركبنى أبدا ... لم يركبنى غير الواهمون ! ...

— من أمثالنا معشر البشر ! ... أليس هذا ما تعنى ؟ ...

— ما أردت أن أمس كرامتك ، إن بيننا وبينكم صلات ود من قديم ، لقد زاملناكم وركبنا معكم سفينة نوح فى عهد الطوفان .

فأدركت غرضه الخفى من الإشارة إلى هذا المستند التاريخى ... وبادرت أقول :

— ليس هذا بدليل على الزمالة ... لقد ركبت معنا كل الحيوانات مما

يؤكل وما لا يؤكل ... من الأسد والفيل إلى الفأر والخنزير ... واقرأ تاريخ أبي الفدا تجد فيه أنه كانت للسفينة ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير ، ولقد فكرنا نحن الإنس فيك وخفنا على أمثالك من الدواب أن يفترسها الأسد . فدعا نوح ربه فسلط على السبع الحمى ، فكانت أول حمى نزلت فى الأرض ... ثم شكوا الفأرة لإفسادها الطعام والمتاع فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها ... وكثر أرواث مثلك من الدواب ، فأوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ... إلى غير ذلك مما حدث فى السفينة وتدبرناه نحن معشر الإنس بفكرنا الناضج حيث لم نجد منكم معشر الحيوان والدواب غير المشاكل التى تقتضى الحل وتستوجب التدبير ... ولم نر منكم معونة ولا زمالة تهون علينا محرجات ذلك الموقف الخطير ...

— لا تتكلم عن فصيلتى ... لقد كان لنا رأى فى السفينة والطوفان ... وما دمت تذكر التاريخ والمؤرخين ، فارجع إليهم ينبئوك أن آخر ما دخل السفينة من الحيوانات كان الحمار ! ...

— وما هو ، من فضلك ، رأيكم فى السفينة والطوفان ؟ .

— لا تسألنى رأيى ... بل أجبنى أنت بفكرك الناضج ، لماذا كان الطوفان ؟ وكانت السفينة ؟ ...

— لماذا ؟ ... للظلم والفساد اللذين كانا قد عما الأرض . وللضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ...

— من أجل ذلك أغرق الله الأرض بما فيها من شرور وآثام ، وبمن عليها من طغاة وأصنام ، إلا تلك النخبة الصالحة المنتقاة التى وضعت فى السفينة ، لتبدأ بعد ذلك حياة أخرى يسودها الخير ، وأجيال جديدة يقودها الخير ...

— هو ذاك ...

— وهل ساد بعد ذلك الخير ، وانتصر الحق ؟! ...

— ماذا تعنى ؟ ...

— ألم يقل لك مؤرخوك إن قوم «عاد» كانوا أول من عبد الأوثان بعد الطوفان ؟! ... كل شيء رجع فنبت من جديد ... بعد أن غيض الماء ، وبلعت الأرض ماءها ، ورجعت الحمامة إلى نوح وفى منقارها ورقة الزيتون وفى رجلها الطين ... واخضر وجه الأرض ونبت فيها الزرع والضرع والخير والشر ، أقوى مما كان وأخصب ...

— نعم ... نبت الشر من جديد ... أتدرى لماذا ؟ لأن إبليس كان قد دخل السفينة مع من دخل ولم يغرقه الطوفان مع من أغرق . أتدرى كيف تسلل إبليس إلى السفينة ؟ ...

— لا ... كيف تسلل ؟ ...

— يروى عن المؤرخ ابن عباس أن إبليس دخل متعلقا بذنب الحمار ! ...

— لست أدرى ... إنما أحدثك بما جاء فى بطون الكتب .

— خير لك أن تحدثنى برأيك أنت فى نتيجة كل ذلك ؟ .

— نتيجته أن نوحا خرج بعد ذلك إلى الأرض هو ومن معه من إنس ودواب ... وابتنى مذبحاً لله ، وأخذ من الطير والدواب الحلال فذبحها قربانا إلى الله سائلا إياه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض . فعهد الله إليه أن لا يعيده ، وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذى فى الغمام ، وهو قوس قزح الذى قال ابن عباس إنه أمان من الغرق ، وقال آخرون إنه قوس بلا وتر ، أى أن الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة .

— الواقع أن الطوفان لم يحدث غير مرة ، بعد أن ثبتت قلة جدواه فى المرة الأولى ! ...

— أنت تقصد ولاشك طوفان الماء ... هذا حقيقة لم يحدث غير مرة . وقد وعد الله بأن لا يعيده ... ولـكن طوفان الماء استعيض عنه بطوفان من نوع آخر يحدث في كل جيل مرة أو أكثر ... ذلك طوفان الدماء ! ...

— حتى طوفان الدماء ماذا صنع ؟ وماذا أجدى ؟ ألم تـكن الحرب الـكبرى الماضية طوفان دماء ؟ ...

— طبعا ...

— لقد انتهت النازلة وختمت المجزرة ، وشربت الأرض دماءها وابتلعت آثامها ... وظن العالم أن أصنام القوة المادية قد حطمت . وأوثان الطغيان قد هدمت . وأن الحق وحده هو المسيطر . وأن الخير هو المنتصر ... وأن الدول الصغيرة والدول الـكبيرة سواء أمام سلطان الحق وحده ... وأن الشعوب القوية والشعوب الضعيفة متساوية أمام سيد واحد هو : النفع العام لبنى الإنسان دون أثرة أو نعرة ... ونهض الناس ينظرون في كل أمة إلى قوس النصر وقبر الجندى المجهول . كما نظروا إلى قوس قزح ... سائلين الله أن لا يعيد الحرب مرة أخرى ... فما الذى حدث بعد ذلك ؟...

— حدث الذى حدث في الطوفان الأول بلا زيادة ولا نقصان . حدث أن تعلق إبليس بذيل ...

— بذيل من ؟ ...

— بذيل الرئيس ولسن ! ... صاحب المبادىء الأربعة عشرة المشهورة التى كانت ستكفل للعالم سيادة الحق والعدل والخير والسلام ...

— إذاً لقد خاب ذلك الطوفان هو الآخر ؟ ...

— بالطبع ... وها نحن أولاء فى طوفان جديد ... لم تبتلع الأرض بعد ماءه ، بل لو ذهبت الحمامة لما وجدت ورقة زيتون تلتقطها ولا عشاً تأوى

إليه ... لقد ضربت القنابل كل بناء وهدمت كل جدار ... ولكن الناس يحتملون ذلك صابرين ، وينظرون إلى الغد مستبشرين . ويمللون أنفسهم بأن هذا آخر طوفان ...

— كما قالوا في كل مرة ...

— أظن أنه قد آن للبشرية أن تعقل وأن تبلغ رشدها . وأن تتحرر نهائياً من طغيان الغرائز الدنيا ... وأن تسكف عن تمزيق بعضها بعضا ، وأن ترتفع إلى حيث تعمل متكاتفة لمصلحة الإنسانية كلها جماء ، دون ضغائن ولا سخائم ولا بغضاء ودون تمسك بغرور كاذب وعظمة زائفة وحب تسلط وشهوة سيطرة ...

— قل بالاختصار دون عبادة لأصنام السكبرياء الذاتي .

— هو ذاك ...

— اسمح لي أن قول إن هذا شيء عسير على الإنسان . لا بد للإنسان من عبادة الأصنام ... لم يستطع طوفان الماء ولا طوفان الدماء أن يغرق الأصنام التي يصنعها الإنسان لنفسه ! ... إن الإنسان غير قدير ولا جدير بعبادة الله ... لأن الله لا يميز في « الإنسان » بين جنس وجنس ، ولا فصيلة وفصيلة ... هو النور العام الذي يضيء كل الكائنات ... وهو الحب العام الذي يربط كل شيء بكل شيء ... ولكن الإنسان لا يفهم ذلك ... إنه لا يرى إلا ذاته المحدودة ، ولا يعبد إلا ما تصنع له يده من صور نفسه الجشعة الأثرة المتعجرفة العمياء ... كلا ... إن الله بعيد عن الإنسان ... ربما كنت أنا وفصيلتي أقدر على حبه . هل سمعت منذ بدء التاريخ أن فصيلة الحمير عبدت أصناما ؟ ! ...

— إني معك ... مع الأسف ...

— أجبني إذن : ما فائدة الطوفان إذا كان ...

— إذا كان لا يستطيع أن يغرق إبليس ؟ !

— أرجو قبل كل شيء أن لا تصدق أن إبليس دخل السفينة متعلقاً بذيل الحمار ...

— بل هذا أصدقه ...

— تصدق هذا ؟ ...

— بالتأكيد ... لأن الحمار يحمل نفسا صافية ، ومبادىء مثالية ... وإبليس خبيث يحب العبث والسخرية ، ولا يحلو له أن يعبث ويسخر إلا من أصحاب النفوس الخيرة والمثل العليا ! . فلا عجب إذا دخل مكاناً أن يتعلق بتلابيب أطيب القوم قلبا . وأسماهم فكراً ... لأنه لا يلازم التافهين ، ولكنه يتمسح بذوى الشأن ... إنه يحب الدخول من الباب الكبير ... لذلك ترانى أنظر إلى هذا الطوفان الأخير بعين القلق ... أبحث عن الرجل المثالى الذى سيدخل فى أذياله إبليس ! ...

— أكتب عليكم هكذا معشر البشر أن تعيشوا فى سفينة ضالة فى بحر الظلمات ... بغير المثل الأعلى تحيون كالديدان فى الحمأة يأكل بعضكم بعضا... فإذا وجد فيكم من يحمل مشعل المثل العليا انقلب سخرية للساخرين ولعبة فى أيدى العابثين ! .

— تلك هى المشكلة ...

— حتى الطوفان لم يحلها ...

— لم يجعل الطوفان ليحل شيئا ... ولكن ليلطف من وقع الأشياء . إنه حمـّام يهدىء أعصاب البشرية كلما احتاج الأمر ... لقد فقدت الأمل فى وجود العلاج الحاسم ... فلم يعد حتى طوفان الدماء فى نظرى غير نوع من الحجامة أو الفصد يلجأ إليه الإنسان كلما ازداد الضغط ...

— أتدرى أين العلاج ؟ ...

— أين ؟ ...

— عندي ...

— عندك ؟ ...

— نعم ... عندي العلاج ... وإذا قلت لك عندي فإنما أقصد فصيلتي... فنحن نفكر جميعا تفكيراً واحداً . فليس عندنا حمار مثالي وآخر مادي ... وليس عندنا زعماء ولا قادة ولا أوثان ولا أوطان ... بل يوجد حمير على أرض الله وكفى ... شعورها واحد وقلوبها واحدة ...

— هذا جميل ...

— نعم . ولذلك أستطيع ، إذا سمحت لى أن أجد العلاج لكم معشر الإنسان ! ...

— حقاً ... هذا هو الذى ينقصنا ! ... يا للمجد الإنسانية المنهار ... أبلغنا القدر هذا الإذلال ، فلا نجد من يهدينا إلى علاج أمرنا غير حمار ؟ ! .

— كبرياؤكم ... كبرياؤكم ... كبرياؤكم الزائل ... إنه في دمكم ! دمكم الذى فسد ... لا أمل فيكم ولا علاج لكم إلا بعملية نقل الدم ... نقل دم جديد ...

— أظنك ستقترح أن ينقل إلينا دم حمير ؟ ! ...

— لا ... إنها لتضحية كبرى من فصيلة الحمير ، لا أنصح لها أن تتحملها من أجلكم ! ...

حمارى وحزب النساء

قال لى حمارى وهو يلمح بعينه فى إحدى الصحف خبر تأليف حزب نسائى:
— ما رأيك فى الحزب النسائى ؟ ... طبعاً لا بد أن يكون لك فيه رأى ... أليس كذلك ؟ ...

فأجبته قائلا :

— أمِنَ الطبيعى فى نظرك أن يكون لى فيه رأى ؟ لا بأس ، ليكن الأمر كذلك وأظنه طبيعياً أن يكون هذا الرأى فى جانب حزب النساء ... ولمَ لا ؟ ... إنى رجل مظلوم ، ولسوف يؤلف عنى كتاب بعد موتى : « توفيق المفترى عليه » ... الواقع أنى دائماً أعنى المرأة تقدماً ... ولا أختلف معها إلا فى معنى كلمة « التقدم » فهى تفهمها على أنها الجرى فى أثر الرجل واللحاق به . وأنا على العكس أرى الرجل هو الذى يجرى وراء المرأة ... فالمسألة فيما يظهر لا تعدو مجرد خلاف فى الرؤية والنظر ... وحتى الآن لم يفتح الله على الجنس البشرى بواحد ذى عينين سليمتين ، ليبصر لنا أيهما هو الذى يسير خلف الآخر ؟! ..

ولأسلم على كل حال بنظرية المرأة إثباتاً لحسن نيتى . ولنقل إن الرجل هو المتقدم وإنها هى المتخلفة . وتفانياً منى فى إرضائها أقول إن هذا التخلف يبدأ منذ نصف مليون سنة ، أى من عصر الكهوف ، يوم كان الإنسان الأول يعيش حياة الصيد فى الغابات ، تاركاً أنثاه فى كهفها تعنى بصغارها

وشيء مما صاد لها ولأطفاله طعامهم وطعامها ... لقد كان هـذا التوزيع في العمل بأمر الطبيعة التي زودت الرجل بعضـلات قوية للـكفاح خارج الـكهف، وحبت الأنثى بالوداعة والرحمة والحنان اللازم للأمومة داخل العش.

ومرت آلاف الأعوام، وهذا التقسيم في أعمـال الجنسين قائم، وإن كان الصـيد قد تغير حتى اتخـذ اليوم ألواناً جديدة مثل: للمـال والجاه والمنصب والنفوذ . . . الخ . وتبدلت كذلك الأسـلحة، فذهبت القوس والنشاب وحل محلها سلاح آخر معنوي اجتماعي ذهني تصاد به كل الأغراض، ممـا اصطلحنا على تسميته بالعلم والخبرة والقدرة والسياسة الخ ... كذلك تغير كهف المرأة فأصبح « شقة » أنظيفة أو « فيلا » مريحة، تخطر فيها بأثوابها الأنيقة وزينتها البديعة، وتعنى بتنشئة أولادها على قواعد الصحة الجثمانية والخلقية ...

لم تستطع إذن خمسمائة ألف من الأعوام أن تحدث من التغيير في أوضاع الجنسين أكثر من ذلك ولقد لبث لـكل منهما عالمه المنفصل ومجال نشاطه المستقل طوال هذا القدر الهائل من الأحقاب. الرجل له الخارج والمرأة لها الداخل. وأظن أن نصف مليون سنة مدة كافية لأن تـكيف طبيعة الإنسان فإذا راق للمرأة اليوم أن تغير طبيعتها. وحلا في عينهـا أن تعمل ما يعمله الرجل، فتشتغل بأعمال الخـارج وتخوض بنفسها غمار الـكفاح في ميادين السياسة والجاه والسلطان، فذلك موكول إليها، وكلنا نرحب به، بل إني أناشدها أن تسرع منذ الآن. ولتبدأ من البداية في الحـال، حتى لا تضيع وقتاً على من سوف يأتي في المستقبل من أجيال ...

والاقتراح العملي لتحقيق ذلك، هو أن نبادر من فورنا فنرسل حضرات سيدات الحزب النسائي إلى مجتمع فطري يشابه مجتمع الإنسان الأول. وأظننا نجد مثل هـذا المجتمع الآن في غابات أواسط أفريقيا. هناك نترك البعثة

الكريمة لتضع أساس الحياة المنشودة ... وعليها أن تعيد توزيع العمل من جديد على الوضع المكسى ، فتتولى هى القيام بأعمال الصيد فى الغابات ، وتدع الرجل العمل داخل الكهوف ... ولننتظر نصف مليون سنة أخرى ، وهذا ليس بكثير حتى تتوالد أجيال جديدة من النساء المكافحات ، يرفعن رؤوس أجدادهن ، ويسطرن بمداد الفخار مبادىء الحزب النسائى الموقر ! ...

* * *

على أنى أخشى أن يرى الحزب النسائى أن اقتراحى هذا غير عملى ، فمن الواجب إذن أن نفكر فى حل آخر ...

قد تقول لى بعض النساء المحترمات : لماذا لم نجرب ونسمح لهن منذ الآن بمقاعد فى البرلمان ؟ ... أنا شخصياً لا أرى مانعا من إعطاء المرأة حق التمثيل السياسى فى مجلس النواب (بالطبع جميع النساء متنازلات مقدما عن حقهن فى مجلس الشيوخ) وزيادة فى تسهيل الأمر على إخواننا المحافظين المتعنتين من الرجال أقترح الأخذ بمبدأ أن « للذكر مثل حظ الانثيين » ، فيكون لكل امرأتين صوت واحد ... وأرجو من السيدات أن يتساهلن فيقبلن هذا الشرط مؤقتا إرضاء لغرور الرجال . وإنى على أتم استعداد لمعاونة المرأة والمطالبة معها بهذا الحق على هذا الأساس ... إلا إذا اعترض حزبهن الموقر بأن هذا الرأى أيضا غير عملى ، بحجة أن اشتراط صوت لكل امرأتين يتطلب وجود امرأتين فى البرلمان يمكن أن تتفقا على رأى واحد . وهذا بعيد الاحتمال ...

* * *

مهما يكن من أمر ، فإنى راغب من كل قلبى فى منح المرأة حقوقاً سياسية مساوية لحقوق الرجل ، وأرجو أن أعيش حتى أرى اليوم الذى تتبوأ فيه نساؤنا مقاعدهن تحت القبة .

وهنا فليسمح لى بسؤال : هل ستكون لهن مقاعد خاصة باعتبارهن حزبا منفصلا قائما بذاته ، أو أنهن سيدخلن على مبادىء أحزاب الرجال المعروفة ، ويمتزجن بها ، كل واحدة ضمن الحزب الذى يرشحها ؟ ...

إذا كان الأمر الأول ، فلاشك أن حزبهن المستقل سوف يكون فى الشؤون النسوية صاحب الكلمة التى لا تعصى ولا ترد . فإذا اقترح الحزب النسائى مثلا إعفاء « البودرة » و « الروج » و « الجوارب » من كل ضريبة جمركية أو تجارية ، فإن هـــذا الإعفاء نافذ بدون كلام ، والرجل الذى يجرؤ على المعارضة يكون مستعداً لنكد الدنيا يهبط على أم رأسه ، لا فى البرلمان وحده ، بل فى بيته من زوجته أو أخته أو ابنته ... أما إذا كان الأمر الثانى ، فإنى لا أرى فائدة كبرى تعود على المرأة منه . وأخشى مخلصا أن تطويهن مطامع الأحزاب الأخرى ، فلا ينتفعن لأنفسهن بشىء ...

* * *

لى بعد ذلك ملاحظة شكلية يجب أن توضع موضع الاعتبار : لقد عاب أحد الشيوخ المحترمين على النساء الموظفات حرصهن على زينتهن . وأنا لست من رأيه . إذ ما دمنا قد سلمنا للمرأة بحقوقها فى الوظائف العامة ، فلا بد لنا من السماح لها باستعمال حقها الطبيعى فى « الأحمر والأبيض » ... وما أحسب أحدا من زملائها فى البرلمان يثير هذا الاعتراض يوم تتخذ مكانها فيه ، فإن الوجه النظيف والتزين اللطيف من أبلغ حجج المرأة . وليس من الإنصاف أن نحرمها سلاحا من أسلحة بلاغتها المأثورة فى ساحة يتذرع فيها كل عضو بكل أدوات الفصاحة والإقناع .

* * *

وأخيرا ، يا حمارى العزيز فإنى ألخص لك رأيى فى كلمة واحدة هى موافقتى

التامة على وجود المرأة فى البرلمان وفى كل مكان إلى جانب الرجل لأن مجرد وجودها يحدث نشاطاً فى الهمم وتألقاً فى الأفكار .

لقد قلت ذات مرة : « إن المرأة مثل القمر (أقصد معناه الفلكى لا الشعرى) فهى لا تشع ضوءا من داخل نفسها ، بل تعكس الضوء الآتى إليها من شمس عقل الرجل . هى مثل القمر كائن سلبى ، وسطح معتم فى ذاته لا تسطع إلا بما ينعكس على قلبها ورأسها من تفكير الرجل وإحساسه ... فدنوها منه فى مجال العمل المنتج ، له من الفائدة مايعادل فائدة المرآة إلى جانب المصباح ... إنها تضاعف نوره ، وتزيد إشعاعه .

أما أن ننتظر منها أكثر من ذلك فهو انتظار المستحيل . لن يكون للنساء فى مجالسنا النيابية والاجتماعية أكثر مما للمرايا بجوار المصابيح فى القاعات والصالات ... ولقد بلغنا ولا شك فى الحضارة حدا يقتضى أن نزين جدراننا بالبللور !! ...

ومع ذلك فالمرأة موجودة والانتخابات موجودة ... فمن يدرى فى المستقبل ؟ ...

١٩٤٥

نعيم الانتخابات

معذرة ياصديقى إذ أقطع اليوم سلسلة مناقشاتنا الإصلاحية ، لأتحدث فى خاطرة مرت بى ، ولعلها مرت بك ، فالأفكار الآن لا يشغلها غير أمر واحد : الإنتخابات ... يخيـل إلىّ أن موسم الانتخابات نعيم لـكل الناس إلا المتقدم إلى الانتخابات : وبل لهذا المتقدم ! ... إن كل خطوة يخطوها إلى الميدان نفقة وغرامة ، فهو لا يحرك رجليه قبـل أن يدفع مائة وخمسين جنيها « رسوم الامتحان » ثم يسير فاتحاً جيوبه بالمـال ، وعيونه بالحرص والحذر ، وفمه بالكلام والخطب والوعود .

أما نحن — معشر النظارة والمتفرجين المحايدين — فهو لنا تسلية أمتع من سباق « الدربى » ! ... وإنى لأرى الناس حولى مبتسمين يتحدثون فى أخبار هذه « الملهاة » بلذة واهتمام ، وأرى فئة العارفين والحذاق يستعرضون المرشـحين ، ويوازنون بينهم كما يوازن أهل الخبرة بين كرام الجياد ، وهى تتبختر فى المضمار فوق العشب الأخضر قبل بدء السباق ! ... على أن النعيم الحقيقى فيما أرى هو من نصيب الفلاح المسكين ... هذا المخلوق العارى القدمين الذى يجوع أكثر الأسبوع ، ولا يرى وجه القرش إلا مصادفة كما نرى نحن وجه الحظ عابراً فى طريق الحياة . هذا الذى يسمونه إنساناً بحكم النوع وهو فى الحقيقة لا يحترمى التفات إنسان ! ... هـذا الآدمى المهمل الذليل لا يرد اعتباره ولا تعود إليه آدميته إلا فى أيام الانتخابات ، فإن «صوته»

الضائع مع الريح كأنه صوت كلب ضال ، هو اليوم (صوت) له خطره ، وله سعره ، وله طلابه ، وله من يجرى خلفه ، ويقدره ، ويدفع فيه نقوداً ، وهذه المدة الخاوية التى لم يدخلها غير الفجل والجبن ذى الدود ، تنتظرها اليوم الولائم ، وتذبح من أجلها ذوات الأجنحة والقرون !...

وتلك الأقدام الحافية التى لم تعرف غير المشى خلف حمير « السباخ » توضع اليوم تحت تصرفها السيارات و « التاكسيات » تنقلها من حفلة إلى حفلة ... نعم ... إنها فترة لا تحسب من عمر الفلاح ، وهو بذكائه يعرف أنها لا تدوم ، فهو يستمتع بها من غير غرور ، ويراها تزول فما يأسف ولا يزيد على أن يقول :

كانت أيام « انتخاب » ركبنا فيها « كنابيل » ، وأكلنا « زفر » ودخلت جيوبنا « نقدية » !...

من يدرى لعل فريضة « الزكاة » التى ذهبت مع الزمن قد عادت اليوم فى ثوب جديد !... نعم إن لم يكن من فضيلة الانتخابات إلا أن تشترى صوت الفقير بالذهب ، وتسد فمه بالطعام ، وتركبه ما لم يركب ، وتريه ما لم ير ، وتحيطه بمظاهر العناية والاحترام ولو إلى وقت قصير ـ لكفى بها فضيلة ...

إن الانتخابات فى نظرى ليست — حتى الساعة فى هذا البلد — مظهراً من مظاهر الديموقراطية ، ولكنها أول معلم يفهم الفلاح أولاً معنى الحياة الإنسانية ويذيقه طعم الآدمية !...

من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٩٣٨م

شركة مقاولات الانتخابات

نعم يا صديقي ! ... لقد خطر لى أن فى الإمكان إنشاء مثل هذه الشركة تسهيلا للعمل ، فإن من المرشحين من قد يكون مثلى ومثلك فى براءة الحمل الوديع ، لا يعرف كيف ينال من خصومه ، ولا كيف يمدح نفسه ، ولا كيف يضحك على ذقون الناخبين ! ... فما أحسن لمثلنا من أن يتوجه إلى مثل هذه الشركة ، ويتفق معها على « المقاولة » ، ويدفع « العربون » ، ويذهب إلى منزله فينام ملء عينيه ، وتقوم هى بكل ما يجب من إقامة السرادق ، وتأجير الخطباء ، وإعداد الولائم ، وجمع المعلومات عن فضائح الخصم ومثالبه الشخصية ... إلخ ... إلخ !

وما على مثلى ومثلك بعد ذلك ، إلا أن يذهب إذا شاء خفية على سبيل حب الاستطلاع ، ويجلس فى سرادق الاحتفال الذى تقيمه الشركة ، فيرى ويسمع اللذيذ الطريف ، يرى خطباء الشركة قد قاموا ، أو اعتلوا المنصة واحداً تلو واحد، يوسعونه مدحاً ، ويسردون تاريخ حياته الحافل بكل جليل ومجيد ، ويتكلمون فى ذمته وطهره وكفايته ونزاهته ، وهو لم يرهم ولم يروه مرة قط ! ... ثم يعرجون على خصمه فيطعنون فيه الطعن المر ، ويذكرون من خصاله الذميمة وأعماله الخبيثة وخياناته وسفالاته ما تشمئز منه النفوس ، وما تكاد تختم هذه الحفلات على خير أو شر حتى تقدم الشركة « فاتورة » الحساب فإذا استكثرت المبلغ أقسموا لك أن الشركة قامت بنفقات باهظة ،

وأن خصمك وحده كلف الشركة « شتائم » بما يساوى مائة جنيه ... إلى هذا لا بأس ... لكن لو خطر لك أن تسير قليلا فى البلدة لوجدت عجباً ، فإن سرادقاً آخر قد نصبته عين الشركة لخصمك هو هو أيضاً ، وقد قام فيه خطباء آخرون من الشركة يمدحون الخصم ، ويغسلون عنه ما لحقه فى السرادق الأول ، وينزلون بك أنت كل تهمة وكل عيب ، ويلصقون بك من « الشتائم » ما يساوى مائتى جنيه ، فإذا ذهبت غاضباً إلى الشركة قالوا لك :

يا حبيبى حضرتك « زبون » وحضرته « زبون » ! ! ...

فإذا صحت محتجاً ، ابتسموا لك فى أدب بما معناه أن « لا فضل لزبون على زبون إلا بالمال ! ... » .

هذه الشركة الخيالية غير موجودة عندنا الآن لحسن الحظ على هذا الوضع ، ولكن من يدرى ! ... لعل الحال فى جوهره يجرى أحياناً على هذا المنوال ، فإن ما يسمونه حفلات الانتخاب يؤدى غالباً إلى مثل ذلك بدون أن نقصد ، وإن يد « التنظيم » هذه إذا دخلت فى مسائل الواجب والضمير فإنها تتجه غالباً إلى فم الساذجين ، فتزحمه بألوان من الطعام ، يضيع معها صوت الواجب والضمير ! ! ...

من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٩٣٨

العرائس

ترى ونحن على هذه الحال من البراءة والسذاجة . لوحدثتنا النفس للمعونة بالنزول من أبراج فكرنا العاجية ، والجلوس تحت قبة البرلمان الذهبية ، ماذا كنا نخطب قائلين للناخبين ؟ ...

أما أنا فإني كنت أقول هكذا :

سادتي الناخبين ! ...

باسم « الديمقراطية » أتقدم إليكم ملتمساً عطفكم ! ... إني أحب الديمقراطية ، ومن ذا الذي لا يحب الديموقراطية ؟ ... تسألونني ما معنى هذه الكلمة التي تسمعونها هذه الأيام كثيراً ؟ ... تعريفها بسيط : إن « الديموقراطية » هي أن رهطا من الجياع الحفاة يمنحون مرتباً شهرياً قدره أربعون جنيها لرهط آخر من الثراة والعتاة ! ...

لعل هذا المنطق يدهشكم ، ولكن تلك هي الحقيقة ! ... هنالك أعجب من ذلك ، فإن جوف الحقيقة مملوء دائماً بالغرائب لمن أراد الغوص فيها ! ... إن بيننا — معشر المرشحين ، وبينكم معشر الناخبين — سوء تفاهم كبير ، فإننا نطلب إليكم أن تخدمونا ، وأنتم تحسبون أننا وُجدنا كي نخدمكم ، أنتم تظنون « البرلمان » هو المكان الذي نتكلم فيه عنكم طول الوقت ، وعن جوعكم وفقركم وجهلكم ، ونبحث تحت قبته كل يوم عن وسائل رخائكم ورقيكم ،

ونحن نرى فى تلك القبة الذهبية شرفا رفيعاً ، لمن استطاع أن يقتنص له تحتها مقعداً ، ونرى فى عضوية المجلس لقباً نتوج به أسماءنا ، ونزين به « بطاقاتنا » ! …

إن عضوية البرلمان فى نظرنا ليست إلا عربة « الرولزرويس » التى نرفع بها مركزنا الاجتماعى فى أعين الشعب ، ونحن إذ ننفق المال فى هذا السبيل إنما ننفقه ونحن معتقدون أننا نشترى به وظيفة أو لقباً أو مقاماً ، فإذا ما ظفرنا بما نريد بفضل أصواتكم ووجدنا أيديكم العارية السمراء تحملنا إلى داخل ذلك المكان ، فإننا نتربع فيه كالعرائس فى « الفترينات » ، ومهما صحتم وناديتم وصرختم بعد ذلك فإننا لن نسمع أصواتكم ، لأن بيننا وبينكم حاجزاً من زجاج ، ولن تستطيعوا أن تلمسونا أو تقربونا ، ولكنكم تستطيعون أن تشيروا بأصابعكم من خلف البلّور ، فنحسب ذلك منكم إعجاباً فنزداد صلفاً وتيها ! …

أيها الناخبون ! … عجباً ، إنى حقاً لعلى غاية السذاجة إذ أفضى إليكم بكل هذا فى خطبتى التى على أساسها أنتخب … ما العمل الآن ؟ …

أتنتخبوننى برغم ذلك ؟ … لعل صراحتى على الأقل تشفع لى ! …

(من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٩٣٨ م)

الشحاذون

إن تعاقب الوزارات السريع في مصر ، يقذف اليوم على أفاريز الفراغ بعدد وافر من أصحاب « المعالي » لا يصنعون شيئاً غير الانتظار في « ميادين » السياسة ممدودي الأكف . ماذا ينتظر هؤلاء المتعطلون ؟... ينتظرون دورهم في العودة إلى الركوب ؟ ...

نعم ... إن « الحكم » أصبح الآن مثل أرجوحة « الخيول الخشبية الدائرة » التي يركبها الأطفال في مقابل مليمات ، ولو أعطى طفل ألف مليم لأنفقها كلها في هذه العبة اللذيذة ، فهو يحب الركوب لمجرد الركوب فوق هذا الحصان الخشبي المطلي بالذهب ، الملون بأزهى الألوان الخادعة ، وإن دوره ينتهي ورأسه يميل من الدوران ، فلا يفيق إلا وقد أنزله صاحب الأرجوحة على الأرض ، فيظل واقفاً بلا حراك ينظر إلى حصانه يدور بغيره ، وفي قلبه الصغير حسرة ، وفي عينيه الزائغتين علامات الصبر النافد ، إلى أن تنتهي الدورة فيخفق قلبه أملا في أن يعود إلى الركوب ، وهكذا دواليك ! ...

أما الفائدة من ذلك فلا شيء غير اللهو والسرور ، فهو متى امتطى صهوة الحصان الخشبي تملكه الغرور ، وظن أن هذا غاية الأمل ، وأنه قد وصل ... ويلعب برأسه دوار « الأرجوحة » ، أو دوار السلطة الباطلة و « الفروسية » الكاذبة ، فيقنع بذلك ، ولا يفعل شيئاً غير ازدراء الواقفين في الانتظار ، وهو يمر بهم مر البرق متعالياً متصايحاً صياح اللذة والظفر ! ...

فالحياة فى مصر لهو فى لهو ، وتعطل إلى جانب تعطل ، وفراغ إلى جانب فراغ... الجميع من شبان وسياسيين ، وقادة ومقودين ، لا عمل لهم غير التطلع إلى خيول « المناصب الحكومية » الخشبية ، وهى تدور !... وهذا الروح العام قد أثر فى روح الشعب كله ، فنحن لا نكاد نرى طرقات مصر خالية من أناس أشداء يتطلعون إلى موائد المقاهى ، ويمدون أيديهم يطلبون شيئاً ، لقد سرت روح البطالة والسؤال فى كل طبقات الشعب : الجاهل منها والمتعلم ! وكدنا نعتقد أن مصر قد نسيت أن فى الوجود شيئاً يسمى العمل والكدح والاعتماد على النفس ، إن مصر قد أصبحت بلداً تخفق عليه راية « التسول العام » وهنا الخطر الداهم ، ولا أبالغ إذا قلت : إن روح « الشحاذة » موجود فى كل نفس مصرية فى الوقت الحاضر ، فالوزير الذى تسول طويلا فى انتظار منصبه ، لا يكاد يدخل مكتبه كل صباح ، حتى يرى هو الآخر أفواج المنتظرين من أصحاب السؤال يمدون أيديهم ليعطيهم مما أعطاه الله ، فيثقلون كاهله بطلبات النقل أو التعيين أو الترقية أو العلاوة أو إلغاء عقوبة أو التماس منحة ، ويضيع الجزء الأكبر من عمل الوزير اليومى فى التخلص من هؤلاء السائلين .

وتمكنت هذه العادة المرزولة إلى حد نرى معه بعض الناس ينتظرون حتى يسألوا جيرانهم الجرائد ، ليقرءوها « شحاذة » ، وإلى حد أرى معه أنا المؤلف كل يوم من يسألنى نسخة من كتبى « شحاذة » ، ولا أستطيع أن أجلس فى مكان حتى أسمع من حولى أصوات الإلحاح فى سؤال شىء من الأشياء !...

حقيقة أن الحياة فى مصر أصبحت لا تطاق ، فإما أن يتغير هذا الروح العام ، وإما أن نيأس ونحكم على هذا الشعب أقسى الأحكام !...

على أنى أعود فأقول دائماً إن الذنب فى كل هذا واقع على كاهل القادة وحدهم من رجال الحكم والسياسة ، فهم الذين علموا الشعب كله ، وغرسوا فيه روح البطالة والتسول والصياح ، ولو أن الشعب رأى رءوسه ورجالاته يعملون

فى سكون ، لخجل وعمل هو أيضاً بغير صخب ، ولأصبحنا حقيقة شعباً متحضراً يعمل ولا يقول ! ...

أريد أن أضع تحت أنظار وزرائنا مَثل أبى بكر ، يوم وُلى الخلافة ، فقد واصل عمله فى بناء الدولة الفتية حتى رضى واطمأن ، فجهز إبله ذات صباح ، وأراد أن يخرج فى تجارة له ، فاعترضه الناس دهشين :

كيف تخرج فى تجارتك وأنت الخليفة ؟ ..

— وكيف أعيش وتلك صناعتى ! ...

نعم ... هذا الرجل العظيم لم يكن يعتقد قط حتى ذلك الوقت ، أن سياسة الدولة عمل يرتزق منه ، إنما هو فى نظره واجب محتوم عليه ، كعضو من أعضاء الأمة . أما الارتزاق وأسباب العيش فينبغى أن يكفلها عمل آخر وكدح آخر ! ...

فى الزفة .. (الانتخابات)

لماذا لم تتقدم إلى الانتخابات ؟...

سألنى أحدهم ، وأنا جالس على افريز قهوتى ، هذا السؤال الذى ألقى علىّ مراراً ... وقد هممت بالرد المعتاد ! ... « على أى المبادىء أتقدم وأى البرامج أتخير وأنا رجل بعيد عن الأشخاص والشخصيات ؟! » ولكنى قبل أن أفتح فى بهذا الجواب ، سمعت ضجيج موسيقى مقبلة ، وأبصرت جماً من الناس يحملون صورة إنسان ، ورهطاً من الصبيان يوزعون اعلانات مطبوعة ، فحسبتها دعاية لرواية تعرض فى أحد المسارح ... وتفرست فى الصورة المحمولة ، فلم أجدها صورة شارلى شابلن ولا أحد إخوان ماركس ولا نجيب الريحانى ولا على الكسار ، إذن من يكون هذا البطل المغوار ؟!... ومددت يدى ألتمس إعلانا من تلك الاعلانات التى ينثرها علينا الموزعون ، وأنا أسأل أحدهم :

— اللعب يا ولد الليلة ؟! ...

فحملق فى وجهى قائلا : « اللعب » ؟! ...

وكنت عندئذ قد نشرت الاعلان فى يدى وقرأت :

« إلى الأهل والعشيرة ... إلى العمال والصناع والفقراء والمساكين ، انتخبونى وأنا أقلب لكم خيشكم إلى حرير وشقائكم إلى نعيم ، ونحاسكم إلى ذهب ... » .

ولم تغير هذه القراءة من موقفي شيئاً ، فقد قلت للموزع :

— وهذا الحاوي متى يحدث هذه « المعجزات » ؟! ...

ولم يرد عليّ الرجل لأن الموكب كان قد ابتعد بموسيقاه الصاخبة بألحان : « ياعروسة يازاينه الزفة ... الخ » ... تزف صورة المرشح وهي تهتز وتتمايل فوق الأكتاف والرؤوس ...

وكان الصديق الذي يسألني : « لماذا لم تتقدم إلى الانتخابات ؟ » لم يزل إلى جواري ينتظر جوابي ، فالتفت إليه قائلا :

— الموضوع كما ترى أصعب مما كنا نظن ، فلا بد لي قبل كل شيء من إحضار موسيقى وصورة وإعلانات ، ثم بعد ذلك لابد لي من التلويح للعمال والصناع والفقراء والمساكين بوعود ، وبعد أن حول لهم صاحبنا هذا المرشح النحاس إلى ذهب ، لم يبق لي أنا إلا أن أحيي لهم موتاهم ! ...

فلم يبد على صديقي أنه اقتنع ، وقال لي :

— على كل حال افعل كما يفعل الآخرون من المرشحين .

— لا أستطيع ... لا أملك مواهبهم .

— المسألة لاتحتاج إلى مواهب ، أنت رجل كسول ، هذا كل ما في الأمر ، ولكن اعلم أن هنالك سماسرة يقومون عنك بأكثر الأعمال ، فمنافسك الخطير يمكن إقناعه بالمال لينزل لك عن الدائرة ، لأن مبدأ « خلو الرجل » المعمول به اليوم في أزمة المساكن معمول به أيضا في سوق المقاعد ، فإذا احتجت إلى أصوات تضارب بها خصمك ابتاعوا لك منها ما شئت . الألف صوت مقابل عشرين أو ثلاثين جنيها حسب العرض والطلب ... وإذا أردت خطباء وولائم وحفلات فهنالك من يجهزها لك ويستأجر ما يلزم لها من أدوات ورجال ... فلا مشقة عليك كما ترى غير مجرد الركض أسبوعين في أنحاء دائرتك الانتخابية من

الصباح إلى المساء ترضى الناخبين ، حتى تخور قواك... ولكن ماذا يضيرك هذا الجرى مادمت تظفر آخر الأمر بمقعد مريح تجلس عليه طويلا فى أهنأ حال...

— كل هذا حسن ولكن الوعود ...

— عد بما شئت ... ما الذى يخيفك ؟ هل أحد سيطيح عنقك بالسيف إذا لم تنفذ ؟ ...

— أقصد بماذا أعد ؟ ...

— بكل مايحلو لك ويخطر ببالك ... على شرط أن يكون كل شىء لمصلحة العامل والصانع والفلاح ، تلك هى النغمة المحبوبة الآن ... « موضة » اليوم هى اجتذاب هؤلاء بالوعود ، اعطهم من طرف اللسان ما استطعت من شهد وعسل وحلاوة طحينية ، ولا تهتم بالباقى ... المهم هو أن تدخل البرلمان ...

— دخلت البرلمان ...

— انتهينا ...

— وبعد ؟ ...

— لا يوجد بعد ، لقد صرت نائبا محترما ودخلت تحت « قبة » البرلمان بالطبل والزمر والموسيقى ... وهل يسأل العريس بعد الزفة والدخلة قائلا : « وبعد » ؟ لا يوجد « وبعد » غير الزغاريد والتهليل والتصفيق والهناء بعد العناء ...

وسكت الصديق ، ولم أرد عليه ، واكتفيت بالإصغاء إلى صوت الموسيقى فى الموكب المبتعد يحملها النسيم خافتة إلى أذنى بلحن :

« عروستنا يا زاينة الزفة ... » .

وهكذا « الديموقراطية » كما نراها فى مصر ...

(١٣ يناير ١٩٤٥)

قيام الحرب العالمية الثانية

وتعرض الديموقراطية لهجوم الدكتاتورية

« قبل قيام الحرب العالمية الثانية ...
وقبـل اجتياح « هتلر » بجيوشـه
أراضى « روسـيا » . . . نشرت عام
١٩٣٨ فى كتابى « عصفور من
الشرق » الآتى :

« ... إنى لأتنبأ لك منذ الآن ،
بوقوع نوع من الحروب الصليبية ،
بين «الماركسية» وبين «الفاشستية»...
(النازية) ... » .

١٩٣٨
« عصفور من الشرق »

تأملات حول مصير الانسانية

هذه الصفحات ليست سوى صيحات، لا أملك غير إطلاقها فى هذه الساعات التى لا يستطيع أحد أن يتنبأ فيها بمصير الإنسان الحر ...

* * *

إن الظلام الزاحف على الإنسانية يخيفنى ... إنى لم أزل أتأمل تلك الكلمة التى قالها وكيل خارجية أمريكا « سمنر ويلز » منذ نحو عام :

« ليس فى مقدورنا أن نتكهن بشىء عن احتمال العودة مرة أخرى إلى ظلام القرون الوسطى، على الأقل فيما يتعلق بشئون الفكر والروح... إلخ... »

إنى لم أزل أطرح على نفسى هذا السؤال :

هل فى الإمكان حقاً أن يحق الإنسانية ظلام بعد هذا الشوط الذى قطعته فى سبيل النور !...

* * *

هل أصدق قول المفكر الألمانى « كيسر لينج » :

« ما الإنسان إلا مخلوق تتركز فيه قوى روحية وقوى أرضية ... جوهره العميق ذلك الذى قد يعد خالداً، هو روح خالص ... ولكن هنالك حقيقة

أسترعى النظر ، هى أنه منذ ليل الأزمان ، والأديان ما برحت تحض على اتباع تعاليم الروح ، فهل صادفت فى ذلك غير نجاح قليل ؟ ... بينما كانت نوازع الأرض والدم لا تفرض فقط سلطانها فرضاً ، بل تقبل أيسر القبول فى شىء من الخضوع الطبيعى ... هذه الحقيقة وحدها تثبت لنا أن ثمانين فى المائة من المخلوق البشرى تتألف من العناصر الأرضية التى تدخل فى نطاق العالم الحيوانى والنباتى » ...

* * *

ما أقسى هـذا الـكلام على من يؤمن بالتقدم الإنسانى ... ينبغى — مع الأسف — أن نتوقع إذن فى كل حين ثورة هذه الثمانين فى المائة على العشرين الباقية ...

* * *

تتمثل لذهنى أيضاً صورة رسمها « جيمس روبنسون » للفـكر الأمريكى ، لتطور البشرية ومدى انتقالها من عهد إلى عهد ... فقد افترض أن حياة الإنسانية منذ عصورها الأولى إلى اليوم — وهى التى تقدر أحياناً بخمسمائة ألف سنة — تبلغ خمسين عاماً فقط رغبـة فى التبسيط ... فماذا وجد ؟ . وجد أن تسعاً وأربعين سنة من هذه الخمسين قضتها البشرية فى حياة الصيد الأولى ، ولم تبلغ فى نهايتها من حيث المعرفة والإدراك إلا درجة مـكنتها من استئناس بعض الحيوان ، ونسج بعض الخشن من الثياب ... أما فى السنة الأخيرة الباقية من عمر الإنسانية ، فقد كان ينبغى أن تمضى منها أيضاً ستة شهور قبل أن تخترع الـكتابة التى تم باختراعها وضع أساس من أسس الحضارة ... ثم ثلاثة شهور أخرى للوصول بالأدب والفن والفلسفة إلى تلك القمم التى بلغناها ... ثم شهران للحياة فى ظل المسيحية ... ولم يتطلب ظهور الطباعة غير ليلة

واحدة ... وآلة البخار غير أسبوع ... ويومان أو ثلاثة لتخوض البواخر عرض البحار وتقطع القُطُر شاسع البقاع ... ولم يبق بعد ذلك غير يوم واحد استكشفت فى ليلته البارحة أعاجيب الكهرباء ... وأخيراً لم تبق غير ساعات معدودات ، كانت كافية لحذق الملاحة فى الجو وتحت الماء واستخدام أحدث المخترعات لإثارة حروب عظمى تتسكافأ مع تلك الوسائل الجديدة الهائلة » ...

لأتم قول هذا العالم الأمريكى قائلا :

حروب عظمى قديرة أن تدمر الإنسانية وتعيدها من جديد إلى حيث كانت منذ عام ... (أى منذ خمسمائة الف سنة ! ...) .

* * *

هذا التقدير العجيب لعمر المدنية الحقيقية فى حياة الإنسانية ينبغى أن يملأنا قلقاً على مصير الحضارة ... إنها إذن ليست تراثاً أصيلا كما نظن ... إنها ليست ملكة متأصلة فينا كما نحب أن نتصور ... إنما هى حدث جديد لم يقع فى حياتنا البالغة الخمسين إلا منذ ستة شهور ؛ أفيستغرب إذن إذا عصف القدر بهذا الحدث الجديد وأرجعنا إلى حيث كنا منذ عام على الأقل ! ؟ ...

* * *

نعم ... حتى حياتنا اللامعة خلال هذه الشهور الستة الأخيرة ليست فى مأمن من طغيان ذلك الخضم الهائل من عشرات الأعوام السابقة ... إن ريح تلك الأعوام المظلمة ما تفتأ فى كل لحظة تهب على هذه الشمعة الضئيلة التى تنمو فى ضوئها المرتجف حضاراتنا الناشئة ... آه ... إن قوة الأرض والدم لمخيفة حقاً ... إنها لتستطيع أن تجذبنا إليها فى كل حين ... كلما أردنا ارتفاعاً ... !

* * *

يحلم العلم الحديث أحيانا بذلك الاختراع الذى يخرجنا عن جاذبية الأرض لنلحق بالكواكب الأخرى ... أما ينبغى له أن يفكر قبل ذلك فى اختراع آخر أعظم وأجدى على الإنسان ؟ ... ذلك الذى يخرجنا عن جاذبية الأرض والدم فى عالم تركيبنا الحيوانى ، لنلحق بالإنسانية العليا التى يتصورها الفكر المجرد ويحسها الروح الطليق .

* * *

مادمنا نعيش هكذا تحت سلطان جاذبية الماضى الهائل : جاذبية تسع وأربعين سنة أو (٩٠٠٠٠ ، ٤٩ سنة بالحساب شبه الحقيقى) حياة حيوانية تعيش على الفتك والصيد وشريعة الغاب ، فكيف نأمل بهذه السرعة فى حياة أرقى لا تسودها شريعة الغاب ؟ ...

* * *

يقول الدس هكسلى :

« لا أحد يطلب إليك أن تكون شيئاً آخر غير مجرد إنسان — أى لا ملاك ولا شيطان — إنسان ... أى ذلك المخلوق الذى يمشى بمهارة على حبل مشدود ، عن يمينه العقل والفكر والضمير وكل ما دخل فى نطاق العالم الروحى ، وعن يساره الجسد والغريزة والدم وكل ما دخل فى نطاق العالم الحيوانى ... التوازن هو كل المطلوب ، وهو أمر عسير المنال ...

* * *

حقاً ... هذا التوازن عسير المنال .. وكم من الملايين ، وكم من الأجيال تسقط فى الهاوية اليسرى ... أما الهاوية اليمنى فلم يقع فيها غير قليل من الأنبياء والقديسين والفلاسفة والشعراء ...

* * *

فى تاريخ الإنسانية عهد صغير مزدهر ، هو حقاً من مفاخر الإنسان ... ذلك هو عهد الإغريق ... أترى الإغريق هم الذين استطاعوا أن يمشوا فى توازن عجيب فوق الحبل المشدود ؟ ! ...

* * *

ربما كانت فكرة التوازن لا يتميز بها العهد الإغريقى وحده فالحضارة الإسلامية فى عصورها الزاهرة هى خير مثال يقدم للتوازن العجيب فوق هذا الصراط المستقيم ...

* * *

إن معجزة الإغريق فى الواقع هى أنهم — لأول مرة فى تاريخ البشرية — حاولوا التخلص من جاذبية الماضى ... إذا ذكر الإغريق ذكر عهد ظهور التفكير الحر والتأمل ، أى ذلك التفكير الذى لا تحده تقاليد ، ولا سلطات ، ولا حتى لغات قديمة .

كان « بيرون » يقول عن الإغريق :

لم تكن لديهم عصور قديمة للمعرفة ، ولا معرفة للعصور القديمة .

* * *

إن النوع البشرى محافظ بطبعه كما يرى روبنسون :

« فهو لا يفتأ يضع لنفسه قيوداً ، هى التى أقعدته فى طور البربرية كل هذه الأجيال الساحقة التى عاشها على الأرض ، بل هى التى ما تزال تعمل على استمرار بعض مظاهر البربرية ، حتى فى مجتمعنا الحديث فالرجل المحافظ هو على وجه عام رجل أدنى من غيره إلى الحالة البربرية الأولى » ...

إذا كان فى التاريخ إذن شعب « غير محافظ » فهم الإغريق ... إنهم شعب « الحرية » المختار ! ...

إن العقل البشرى بلغ فى عهد الإغريق اكتمال تألقه ، لأنه تفتح لهواء « الشك » ... إن « الشك » هو هواء العقل الذى يتنفس به ... لأول مرة استطاع الإنسان حقاً أن يدع هذا الهواء يعبث قليلا برفات تقاليده المقدسة... ولأول مرة استطاع الإنسان حقاً أن يخرج بتفكيره قليلا عن نطاق جاذبية الماضى ليتأمل ويحلق بعيداً عن سيطرة الإيمان بالماضى .

* * *

على أن العجب فى الأمر ، هو أن البشرية التى عرفت هذا التألق الفكرى استطاعت أن ترجع بعد ذلك إلى ظلام القرون الوسطى ، وتركت فضاء الشك لتدخل من جديد حظيرة الإيمان ... أترى حياة الإنسانية كحياة الإنسان ؟... أتراها مثله تخرج من النهار إلى الليل ، ثم تعود إلى النهار من جديد ، ثم تدخل فى الليل مرة أخرى ، وهكذا إلى نهاية الدهور ؟ .

* * *

نعم ... بعد نهار الإغريق جاء ليل القرون الوسطى ... لكن ... ليس كل ليل ظلاماً ... فقد يخيم الظلام على أول الليل ثم يطلع القمر ، وتتصاعد الأحلام من جوف القلب ، فتملأ الوجود جمالا ونوراً من نوع آخر ... كذلك القرون الوسطى ، لم تعرف الظلام الحالك إلا فى أول عهودها ... ثم تأججت العقيدة الدينية فى النفوس واستيقظ القلب فأبدع جمالا وشعراً له مكانه إلى جانب الجمال الذى أبدعه العقل فى نهار الإغريق ...

* * *

وقبل نهار الإغريق ماذا كان ؟ ... كان ليل مصر القديمة للقمر الجميل ... كانت حضارة عجيبة كأنها أحلام العمالقة ، خرجت هى الأخرى من وحي القلب وحرارة العقيدة والإيمان ...

وبعد ليل القرون الوسطى ، ماذا حدث ؟ ... ظهر من جديد فجر عصر النهضة ، وأخذ يتألق بضوء العقل ... إنها شمس الإغريق طلعت مرة أخرى فى عصر النهضة ، فما عهد إحياء العلوم وبعث التفكير الإغريقى إلا نهار جديد طلع بعد انصرام الهزيع الأخير للقمر من ليلة القرون الوسطى ...

أهى أستار تتعاقب على مسرح الوجود الدائر ، تلك القوى الخفية التى نسميها الغريزة ، والقلب والعقل ؟ ... أتراها تلعب فى حياة الإنسانية الدور الذى يلعبه الظلام والقمر والشمس فى حياة الإنسان اليومية ؟ ...

* * *

هؤلاء هم بالضبط أبطال مسرحيتى « شهر زاد » : فالظلام هو « العبد » والقلب هو « قمر » والعقل هو « شهريار » ... وإن حركتهم حول « شهرزاد » ، لهى حركة الإنسانية كلها حول الطبيعة ...

* * *

هل الإنسانية إذن تدور دوران الفصول ؟ ...

لقد أجاب شهريار :

« كل شىء يدور ... تلك هى الأبدية ... يالها من خدعة ! ... نسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا باللف والدوران ! ... » .

نعم : إنها تدور اليوم الكامل : ظلام ، وقمر ، ونهار ، ثم ظـــلام وقمر ونهار ... وهكذا دواليك إلى نهاية الدهور .

إن فكرة التقدم العقلى المطرد هى من أوهام العقل ... إنها سراب شمس العقل فى صحراء آمالنا الواسعة ... إن الخط المستقيم لا يعرفه غير العقل ... أما الطبيعة فلا تعرف غير محيط الدائرة .

لو عرف الإنسان نهاراً لا ليل له يمتد بضعة أعوام ، لعرفت الإنسانية مثل هذا النهار فى صورة حضارة فكرية ممتدة إلى آلاف الأعوام ، لا يعترضها ظلام الغرائز ولا أحلام الإيمان .

* * *

هذا النهار الطويل للإنسانية ، لو وجد لكان محرقاً لكثير من فضائل الإنسان .

حضارة اليوم الحديثة هى من غير شك نهار للإنسانية ... نهار بزغ فى عصر النهضة وإحياء العلوم ، واستمر متألقاً بكل أشعة العقل الإنسانى ... إنه النهار الثانى بعد نهار الإغريق الأول .

* * *

من العجيب أنه فى كلا النهارين بدا مظهران من مظاهر التحرر ، لا للفكر وحده ، بل للمجتمع ... ففى نهار الإغريق عرفت الإنسانية الديمقراطية ... وفى نهار العصور الحديثة عرفت الإنسانية حقوق الإنسان .

فى ليل الإنسانية — للظلم أو للقمر — لم يعرف قط مثل هذا التحرر الذاتى والتيقظ الاجتماعى ... أليس أن الليل مقترن بالنوم والأحلام والاستسلام ، والنهار مقترن باليقظة والشعور بحقوق الذات ؟ ...

* * *

ما بعد حضارة اليوم الحديثة ؟ ... ما مصير هذا النهار ؟ ... أترى مصيره مصير كل نهار ؟ ...

* * *

هل نستطيع أن نتبين فى الأفق جحافل الظلام المغيرة على هذا النهار ؟...

أولئك الشعراء الذين قرنوا الظلام بالجحافل لا شك مصيبون ... لا شيء يستطيع إطفاء مصباح الفكر غير يد القوة المادية ... هكذا بدأ النور في الفتور منذ اقتربت من مصباح أثينا كف « فيليب » ...

* * *

يقول الباحث الفرنسي « جان روستان » :

إذا قدر لهذه الحضارة أن تتحطم غداً عن آخرها ، لكان على الإنسان أن يعيد بناء كل شيء من جديد ، مبتدئاً بما بدأ به منذ نيف ومائة أو مائتي ألف من الأعوام ... فكل ما قام به على مر الدهور من أعمال ، وما عاناه من جهود ، وما قاساه من آلام ، لا نفع فيه ولا غنى ... وهنا الفرق الهائل بين حضارة الإنسان وحضارة الحيوان ... إن شرذمة من النمل المنعزل عن العشيرة ، في إمكانها أن تنشيء عشيرة أخرى تامة التكوين ... لكن شرذمة من الآدميين انعزلوا عن البشرية ، لا يستطيعون أن ينشئوا مجتمعاً بشرياً إلا في صورته البربرية الأولى ... إن حضارة النمل منطبعة في صميم خواص الحشرة ... أما حضارة الإنسان فهي ليست مستقرة في صميم طبيعة الإنسان ، بل هي مستقرة في خزائن المكتبات العامة ، وقاعات المتاحف ونصوص الشرائع ...

* * *

من المحتمل إذن أن تدك القنابل هذه المتاحف والمكتبات ، وأن تعبث يد القوة المادية بالشرائع ، وأن تضع كفها على أفواه الناطقين بالعلم ، وعلى أبصار الباحثين عن الحقيقة ... فإذا حضارة الإنسان قد تلاشت ، وإذا البشرية تعود سيرتها البربرية الأولى... أولم يحدث بالفعل منذ قليل أن حرقت الكتب والمؤلفات ، وطرد في عهد هتلر العلماء والمفكرون : « اينشتين » ، و« فرويد » ، و« مان » ... الخ ... ؟ .

مهما تمكن الأسباب والظروف ، فإن مجرد إمكان حدوث ذلك فى هذا العصر ، لمما يعتبر نذيراً وإشعاراً بإمكان عودة الظلام .

* * *

الإنسان مخلوق مؤمن بالطبع ... فى كل مراحله برى حب التقديس ... فالوثنية تقديس للقوى المادية ... والأديان السماوية تقديس للقوى الروحية ... والعلم الحديث تقديس للقوى الفكرية .

* * *

والإسراف فى الإيمان يؤدى إلى الطغيان ، والطغيان إلى الانهيار ... لقد زلزل العهد الوثنى طغيان الكهنة والتيجان ... والعهد المسيحى طغيان الكنيسة ... والعهد العلمى الحديث طغيان الصناعة الكبرى .

* * *

إن « الصناعة الكبرى » هى « كنيسة » العلم الحديث ...

* * *

لقد أرانا التاريخ كيف أن طغيان الكهنة والتيجان فى الأرض ، جعل الإنسانية تلتمس الخلاص والحرية فى السماء ... وكيف أن طغيان الكنيسة باسم السماء قد جعل الإنسانية تلجأ إلى الخلاص والحرية فى نور العقل والعلم البشرى ... بقى أن نعرف أين الخلاص من طغيان كنيسة العلم الحديث : « الصناعة الكبرى ؟ » .

* * *

إن كنيسة العلم الحديث والصناعة الكبرى بكرادلتها الرأسماليين لتنفتح

أبوابها على جهنم الغرائز الأولى ... نعم ... نحن في نهاية الدائرة ... أسوف ندور دورة أخرى من جديد ؟...

* * *

يقول العالم الاقتصادى « د . ه . تونى » :

إن كارثة حضارتنا اليوم ليس مرجعها — كما يظن الكثيرون — سوء توزيع الإنتاج الصناعى ، بل مرجعها الصناعة نفسها ... الصناعة التى تبوأت مركزاً يطغى على كل شأن من شئون البشر ... إن هذه الحمى الاقتصادية سوف تبدو للأجيال القادمة خليقة بالرثاء كما تبدو لنا اليوم حمى المعارك الدينية فى القرن السابع عشر ...

* * *

إنه لمن المخجل كما يقول — « جيمس روبنسون » — « أن تخضع الحياة كلها لمقاصدها المادية على النحو الذى كان عليه أجدادنا المتوحشون ، يوم عاشوا فى طور التكالب على ثمار الأشجار ، وجلود الحيوان » .

* * *

حقاً ... لم يعد المكان الأول فى حياة البشرية للقيم الروحية بل لم تعد للقيم الفكرية ذاتها ذلك المكان ... إنما القيم الاقتصادية هى اليوم كل شىء ... القيم الاقتصادية كانت هى أيضاً كل شىء فى حياة القبيلة الأولى المتوحشة .

* * *

فلنستمع كذلك إلى قول « كيسر لنج » :

« الخط البارز والمظهر الغالب للعصر الحاضر هو « الاقتصاد » أى « الغذاء » أى مطالب الأرض ، والدم ، والجنس والبيئة » .

أى أن كل شىء اليوم خاضع للشطر « غير الروحى » للكائن البشرى . هذه الحضارة ماكانت تستطيع أن تنتهى إلا إلى هذه النهاية « غير الانسانية » ما دامت تؤدى على هذه الصورة المخيفة إلى سيادة الآلة على الحياة ، وإلى طغيان الحساب والأرقام ، وإلى تفويض كل سلطان إلى سلطان الكم والعدد ... إن روح هذا العصر « الصناعى الاقتصادى » هى روح الكتل من الدهماء والسواد ... وعصر السواد والدهماء هو فى الحقيقة عصر الزعماء ... فالكتل لا تعمل أبداً بذاتها إذ كلما كثر العدد احتاج الأمر إلى تنظيم ومنظمين ، وأصبح للمنظم أو الزعيم هو القابض على زمام القطيع ، وهكذا تنمو السلطات شبه المطلقة لمن ينظم للملايين ، وهؤلاء الزعماء المنظمون هم دائماً من طراز « المروِّضين » لا من طراز « القادة الروحيين » ، والمروِّض هو من يؤثر فى تابعه عن طريق « الإيحاء » مجبراً إياه على طاعته دون أن يشعره أنه قد سلب إرادته ...

* * *

نحن إذن فى طريق العودة إلى المجتمع البشرى الأول الوثنى ، حيث كانت الجموع تخضع لسلطان الرجل القوى الذى يستطيع تخدير أحلامها والتأثير فى أعصابها .

ما دمنا فى عصر الزعماء (المروضين) فلن يكون هناك محل للكلام فى الحرية ، لأن المروض سجان قبل كل شىء .

* * *

هنا السر فى أن الزعماء المروضين يضطهدون « الأديان السماوية » لأنهم يريدون حبس جموعهم داخل تلك الحظيرة التى يسهل فيها التأثير فى أعصاب القطعان : حظيرة الغرائز بسياجها المفتول من الوطنية والجنس والدم » ...

ولما كانت الأديان تحارب الغرائز ، وتسعى إلى إطلاق الناس من هذه الحظيرة ، إلى فضاء الإنسانية والإخاء الآدمى ، فقد عدها الروتّضون أخطر خصم لمآربهم .

* * *

هناك سبب آخر لرغبة الزعماء الروضين فى صد جموعهم عن الأديان ، إنهم لا يريدون لجموعهم أن تقدس شيئاً آخر غير الزعيم ... إن شخص الزعيم هو الذى حل ، وينبغى أن يحل محل الدين فى قلوب التابعين ... وتلك هى العودة إلى الوثنية ...

كذلك يمقت الزعماء الروضون العلماء والأساتذة والفلاسفة وأصحاب التأمل الطليق والفكر الحر ، ممن يدينون بمبدأ « العلم للعلم » أو « العلم للإنسانية » ، ويرونهم غير جديرين بالبقاء إلا إذا خضعوا لمبدأ « العلم للوطن » أى العلم فى خدمة الجيش ، والعسكرية ، والاستعباد ، وسيادة الجنس والدم » ...

* * *

لقد سألنى سائل ذات مرة عن مبدأ « العلم للوطن » فقلت :

« لا يمكن أن يكون العلم للوطن ، ولا لشىء آخر فى هذا الوجود ... إنما العلم لنفسه ... فهو المعرفة الخالصة والرغبة المحرقة فى استجلاء كنه الأشياء ... وإن العلم إذا اتخذ له غرضاً غير نفسه تغيرت فى الحال صفته ولم يعد يسمى علماً ، مهما يكن الغرض الذى يتجه إليه نبيلا ، فالعلم قبس من نور الله ... وليس لله غرض إلا ذاته المطلقة ...

ولكن تطبيق العلم ، أو العلم التطبيقى شىء آخر . فإن للوطن والصناعة والتجارة ... إلخ ... أن تستفيد من نتائج العلم ، وتستخرج منها المنفعة التى

تريدها ... فالعلماء الحقيقيون لا يطلبون العلم ، إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة ، لا يبتغون من ورائها غير مجرد الدنو منها ... تلك لذتهم الكبرى... أما رجال الأعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم ، فليسوا من العلماء ، وإن درسوا العلم دراسة عميقة ... وإن للعلم — ككل شيء في هذا الوجود — أوقات علو وأوقات انحطاط ... ولا ينحط العلم إلا في وقت ترغمه فيه قوة غاشمة على السير في طريق مرسوم ، لمصلحة وطنية أو مالية ... فالعلم طائر حر ، كالشعر ... ومن قرأ تعريف (أينشتين) للعالم الحقيقي أدرك تمام الإدراك أن حياة العلم لا تكون إلا بإطلاقه في جو الحرية المطلقة ... والعلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا ، لأن الوطنية هي الأنانية في المجموع ... والأنانية عمياء ... والعلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء ... فمن أراد من العلم أن يعيش بنصف عين كي لا يرى غير مصلحة دولة واحدة وجنس واحد ، فهو من غير شك قد مسخ « العلم قرداً » يمشي ويرقص تحت عصا مروضه ...

* * *

كل فكرة متصلة بفكرة « الدولية » متجهة إلى « الإنسانية » مبشرة بالسلام ، حاضة على « اللاعسكرية » هي خطيئة الخطايا في أعين الزعماء المروضين .

* * *

تلك هي أعنف صدمة هزت نفسي في السنوات القلائل التي تلت الحرب الكبرى الأخرى ... لقد كنت ممن يؤمنون باطراد التقدم الإنساني ... لقد كنت أتابع وقتذاك آمال الساسة والكتاب في جمعية الأمم والسلام ، وأطالع آراء « ماركس » وتلاميذه في « الدولية » و « اللاعسكرية » ... لقد كنت غارقاً أنا أيضاً في تلك الأحلام التي نسجها لنا هداة البشر وقادته الروحيون من الرسل والشعراء والمفكرين ... لقد كنت موقناً بأن الأوان قد آن —

عقب تلك الحرب — لزوال الحواجز بين الأمم ، وانقضاء عهد القبائل الوحشية المتنافرة التي يسمونها اليوم « دولا » تغير إحداها على الأخرى ، مدفوعة بمطالب الأرض والدم والجنس ، واتجاه البشرية أخيراً إلى تحقيق ذلك المجتمع الإنساني الأعلى الذي يجعل من سكان هذا الكوكب أخوة أحراراً ... لقد ظننت أن تلك الحرب العظمى بفظائعها ومخازيها قد ردعت البشر ... لكن ... وا أسفاه ... فوجئت بما هالني : لقد ارتدّت البشرية بغتة إلى الوراء . وإذا من كنا نحسبه إنساناً متحضراً آخذاً بأسباب السمو ، قد عاد يصيح صيحات الغابة ، معلناً العودة إلى غرائز الدم والجنس ... وخفت صوت القائلين « بالدولية » و « اللاعسكرية » ، وارتفع صوت الناعقين بشريعة القوة المادية وحق الأقوى في سحق الآخرين وسيادة العالمين

• • •

عجباً ! ... أترى الإنسانية لا تتقدم في حقيقة الأمر ولا تتأخر ؟ ... أتراها حقاً تدور في تلك الحلقة المفرغة ... « غريزة وقلب وعقل » ثم « غريزة وقلب وعقل » ... إلخ ، وهكذا في حركة دائمة كحركة الكواكب في مجموعاتها الشمسية ؟ ... في ذلك الوقت تيقظت في نفسي فكرة قصتي « شهرزاد » ... شهرزاد هي مأساة الشك في اطراد التقدم الإنساني في خط مستقيم ...

إذا كنت أشك في التقدم الإنساني ، وأرى أن دورة الإنسانية تسير بمقتضى قانون شبه فلكي لا ينحرف قيد شعرة كقانون الشمس والقمر والظلام ، فأي جدوى في نشر هذه الصفحات وفي إطلاق الصيحات ؟! ...

• • •

الحقيقة أن عقلي يشك ، ولكن قلبي يؤمن ... إن قوة العقل « الشك » وقوة القلب « الإيمان » ... والإنسان هو الفريسة التي تتصارع فوق جسدها

هاتان القوتان ... إن روح المأساة هي الصراع ... ولقد أدرك شعراء المآسي الإغريقية أن أروع صراع هو ذلك الصراع القائم دائما بين الانسان وتلك القوى العليا الخارجية التي يسمونها : « القدر » و « الآلهة » . أما أنا فقد رأيت مأساة الانسان والانسانية هي في ذلك الصراع الدائم بين تلك القوى الداخلية : « العقل والقلب » لذلك كتبت قصتي « أهل الكهف » ... «أهل الكهف » هي مأساة الصراع بين العقل الذي يشك ، والقلب الذي يؤمن ...

* * *

نعم ... إن عقلي يشك ، ولكن قلبي يؤمن ... مامن رجل أحب الانسانية استطاع لحظة أن يشك في إمكان تقدمها وسموها ... إني أعتقد أنها تتقدم ... ولكن مثل تقدم المجموعة الشمسية في الفضاء ... كل كوكب فيها يدور حول نفسه وحول الشمس ، ولكن المجموعة كلها تسير مع ذلك في فضاء اللانهاية .

* * *

نعم ... لقد لبثنا حقيقة في حياة الصيد ٤٩٠٠٠٠ سنة ، ولكن أي خطوات هرقلية خطوناها بعد ذلك في القرون القليلة الأخيرة ! ... إن سلطان الظلام يهددنا من آن لآن ، ولكن القيم التي كسبناها قد كسبناها ... إن الحرية والجمال الروحي والفني ، والفكر الطليق وحقوق الإنسان ، كل أولئك أشياء لا يمكن للإنسانية أن تنزل عنها أو تنساها ... قد تعصف بها حيناً بعد حين عواصف القوى الأرضية ... ولكنها لن تستأصل جذورها التي تنمو وتمتد في أعماق النفس البشرية ...

* * *

علينا إذن نحن جنود القوى الروحية والفكرية أن ننشر الصفحات ، وأن نطلق الصيحات ، كلما شنت علينا الغارات جيوش القوى الأرضية والحيوانية ...

دفاع القوى الروحية والفكرية

منذ أدركت أن الحرب حرب القوى الأرضية ، وأن السلطان سلطان الظلام ، وأن الأمر للزعماء المروضين ، رأيت الدفاع منوطا بالقوى الروحية والفكرية وسلطان النور والقادة الروحيين ...

* * *

على أن الذى هالنى حقاً ، هو ذلك الأثر الذى أحدثه طغيان القوى الأرضية فى بعض رجال الروح والفكر أنفسهم ... عند ذلك بادرت بنشر تلك الكلمة التى عنوانها « فيران السفينة »[1] موجهة إلى أولئك الذين كانوا البارحة يتشدقون بذكر النور والحرية والفكر والمدنية ... إلخ ... فلما هزت يد القوة البربرية هذه الهياكل ، هبوا مذعورين إلى الجانب الآخر ، يمجدون القوة الغاشمة ويعبدون الطغيان ... هؤلاء الذين خدعونا وخدعوا أنفسهم يوم لبسوا مسوح المؤمنين بالقيم العليا للإنسانية ، فإذا هم فيران فى سفينة الحضارة والحرية ، يمرحون فى أرجائها وهى بخير ... فلما شموا ريح الخطر انسلوا يبتغون الفرار منها ولو على ظهر حطامها ... ثم ها هم أولاء يقفزون إلى

(١) جريدة الأهرام ١٩٤٠

سفينة القرصان ، يتخذونهم آلهة ومثلا عليا ، ويضعون تحت أقدامهم عين الأزهار التى جعلوها من قبل على هام تماثيل الحرية المجيدة ... إلى أولئك الخارجين على قوى الروح والفكر أؤكد عقيدتى الدائمة فى هذه الكلمات :

إنى أزدرى ، وسأزدرى دائماً القوة الوحشية فى ذاتها ... وإنى أدعو ، وسأدعو دائماً إلى القوة الفكرية والمعنوية ، التى تنتج القوة المادية الخصبة الخيرة الكفيلة بتنمية مواهب الإنسان ونضاله ، وضمان حرياته وحقوقه ، وتمكين النوع البشرى من الاستمرار فى الرقى ! ... فى سبيل هذا وحده أعيش وأعمل كما يعيش جنود الفكر والروح ويعملون ... وإنى أعلن هذه العقيدة ولى الشرف العظيم أن أموت يوماً من أجلها ، وأن أغرق معها إذا غرقت ... فلا خير فى صاحب فكرة أو عقيدة لا يموت بموتها .

لقد تمنيت فى نفسى لو أن فى المقدور توحيد صفوف رجال الفكر والروح فى كل شعب وأمة ... فأمام كتل الظلام يجب أن تقف كتل النور ... من أجل ذلك نشرت نداءاً إلى رجال الفكر(١) أقول فيه :

لا ريب أن رجال الفكر فى مصر قد تأملوا ملياً تلك الخطبة التى ألقاها «ممنر ويلز» عند انتهاء المؤتمر العلمى للأمم الأمريكية مشيراً فيها إلى ليل العصور الوسطى وفجر عصر النهضة ، وما تبعه من حركة إحياء العلوم ... إلى أن قال :

ليس فى مقدورنا أن نتمكن بشىء عن احتمال العودة مرة أخرى إلى ظلام القرون الوسطى ، على الأقل فيما يتعلق بشئون الفكر والروح ، فى بلاد أصبح البحث الحر فيها مستحيلا ... إلخ .

ثم تمنى أن يزول شبح هذا الخطر الدائم على الحضارة ، ودعا الولايات المتحدة إلى واجب الذود عن مدنية تدين لها بخير ما عندها ... هذه الصيحة

---

(١) جريدة الأهرام ٢٠ مايو ١٩٤٠

القلقة على مصير الفكر المطلق ، لابد أن يكون لها صدى عميق فى نفوس مفكرينا ومفكرى الشرق الباعث لحضارة البحر الأبيض ... ولئن كان صوت أقدام القسوة الوحشية وهى تسحق الأمم الحرة لم يزعج بعد رجالنا السياسيين المتنابذين ؛ فإن نذير الدمار المسلط على شئون الفكر والروح كفيل أن يوحد جهود رجال الفكر ، وأن ينهضهم متساندين للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم فى وضع أحجارها الأولى ... فإلى إخوانى المفكرين والأدباء أوجه هذا النداء ، وإن العبرة التى تستخلص من قيامهم الآن قومة رجل واحد ، وارتفاع أصواتهم فى صيحة واحدة ؛ قد يكون لها أعظم الأثر فى توحيد صفوف أخرى طالما انتظرتها البلاد ...

* * *

فى اليوم التالى نشرت إحدى الصحف اليومية(1) مقالا طويلا جاء فيه :

« ... ونحسب دعوة الكاتب جماعة المفكرين إلى الدفاع عن الحرية الفكرية ضد الدكتاتورية ؛ قد جاءت ممن كان آخر الذين ينتظر منهم الحماسة للديمقراطية والحريات المقررة فى الدساتير ؛ لأنه سبق أن طعن فيها وتحامل عليها... إلخ »

وهذا صحيح ... على أنى بعثت إلى هذه الجريدة أقول(1) :

« إنى يوم انتقدت الديموقراطية ، لم أفعل أكثر من أولئك الكتاب الديموقراطيين الذين هبوا فى فرنسا وانجلترا يحملون على بعض مثالب هذا النظام ، مشبعين بروح الرغبة فى علاج الداء وتقوية الضعف ... على أن كل طعن وكل نقد لأى مقصد من المقاصد ينبغى أن يزول فى الحال ... وقد زال فعلا عندما بدا للجميع أن الديموقراطية - باعتبارها مبدأ إنسانياً - مهددة فى صميمها بالزوال ، وأن شبح الطغيان القاتم بدا فى الأفق ؛ ينذر الناس بأن أفواههم ستكم ، وأن حق تفكيرهم سيلغى بعد

(1) جريدة المصرى ٢١ مايو ١٩٤٠

اليوم ، وأنهم محكوم عليهم أن يعيشوا طول الحياة آلات وأدوات تتحرك بمشيئة طاغية ... هنا تتلاشى الخلافات والانتقادات ... ولا يبقى لكل رجل حر صاحب قلم وفكر إلا أن ينهض ذائداً عن الديموقراطية ، ناسياً إلى حين مآخذها ، فهي النظام الوحيد الذي يستطيع في ظله أن يعيش فرد ذو كرامة ...

وإذا ذهبت الحرية فأجدر بالحر أن يموت » .

* * *

هل أنا كاتب ديموقراطي؟ ... الحقيقة أني لست ديموقراطياً بالمعنى السياسي لهذه الكلمة ... إني لا أستطيع أن أنتمي إلى الديموقراطية باعتبارها نظاماً سياسياً أو حزبياً ، لأن الحرية الفكرية والروحية — التي هي كل ممسوح للفكر الحر الحقيقي — تمنع من الانخراط في سلك حزب أو نظام قد يضطر إلى الدفاع عنه بالحق وبالباطل ... إني لا أستطيع أن أدافع مطلقاً عما أعتقد أنه الباطل، ولا أستطيع أن أخدم شيئاً غير ما أعتقد أنه الحق ... وهو لن يكون إلا في المبادىء : المبادىء العليا الخالدة البعيدة عن الأشخاص الزائلين .. إن الذي أومن به إذن ، وأدافع عنه دائماً هو الديموقراطية باعتبارها مبدأ إنسانياً ، لا نظاماً سياسياً ... الديموقراطية الموجودة في قلب كل إنسان يقدر معنى « حقوق الإنسان » ومعنى « الحرية » و « الكرامة الآدمية » .

* * *

الكاتب الحر الحق ، هو الذي يبقى بعيداً عن الحركات الحزبية والسياسية كي يستطيع في كل وقت أن يدافع بمطلق الحرية عن المثل العليا الإنسانية ... ولا يؤازر المذاهب والأشخاص إلا على قدر احتفاظها بروح هذه المثل ...

* * *

لذلك لم أستطع أن أغمض عينى عن بعض النظم السياسية المنتمية إلى الديموقراطية يوم تطرق إليها الفساد وعبث بها الساسة المحترفون ...

* * *

فى قصتى « براكسا أو مشكلة الحكم » سخرية ببعض مظاهر الحكم الديموقراطى وسخرية ببعض مظاهر الحكم الدكتاتورى ، وليس فيها حل لمشكلة الحكم . لماذا ؟ ... لأن هذا ليس من مهمة الكاتب الحر ...

* * *

إن الكاتب الذى ينشىء مذهباً سياسياً يتمسك به ويكبل فكره بنصوصه، مثله مثل الكاتب الذى ينضم إلى مذهب سياسى قائم ... كلاهما قد فقد النظر الحر إلى بقية المذاهب والأشياء ، وقص أجنحته التى يحلق بها فوق الكائنات ؛ ليقع محصوراً فى حظيرة فضيلة من الفضائل أو نوع من الأنواع ...

* * *

الكاتب الحر — فى نظرى — هو الحكم النزيه فى حلبة اللاعبين ... إنه هو الذى يحصى الأخطاء بغير تمييز ولا تحامل ... وهو الذى يفضح ستر الخارجين على أصول اللعب القويم ... وهو الذى ينبه الغافلين إلى كل خطر يدنو من قواعد المثل العليا .

* * *

الكاتب الحر هو الحارس الأمين لجواهر الفضائل الإنسانية .

الكاتب الحر مهمة إيجابية أيضا ... فهو قد يستطيع أن ينشىء للإنسانية نظما وعوالم مثالية ، وأن يرسل فى الأجيال أفكاراً ومبادىء تصلح أساساً لمذاهب عملية فى السياسة والاجتماع ؛ ولكنه لن يكون مسئولا عن كيفية

استخدام أفكاره ، ولا عن الأشخاص الذين وضعوها موضع التنفيذ .

* * *

التفكير الحر هو التحرر من كل القيود ، إذ بمجرد التقييد تتعطل في الحال آلة التفكير الحر ...

* * *

المفكر الحر قد يستطيع أن يتحرر من كل مبدأ ... إلا من مبدأ حرية التفكير .

* * *

لذلك كان النضال بين أحرار المفكرين وبين الزعماء المروّضين هو نضال حياة أو موت .

فى طريق التحرر من سلطان الظلام

أول خطوة فى طريق التحرر من سلطان الظلام هى القضاء النهائى على رغبة القوى فى الوثوب على الضعيف ...

* * *

قانون الغابة الذى لم يزل يسيطر على المجتمع الدولى، يجب أن تحل محله القوانين الخلقية والوضعية التى تنظم كل مجتمع متحضر لأمة متحضرة ...

* * *

ترتفع اليوم أصوات جميلة كأنها أهازيج الطير قبيل الفجر الجميل ... لقد سرنى قول « روزفلت » فى إحدى خطبه :

« لم يكن فى العالم، ولن يكون فيه عنصر يصلح أن يسود غيره من العناصر الأخرى، وليس فى العالم مكان لأمة تزعم لنفسها حق السيطرة على بقية الأمم والأجناس، لا لشىء إلا لضخامة حجمها وقوة جيوشها ... إن لكل شعب مهما يكن صغيراً حقاً موروثاً فى التمتع باستقلاله كما يشتهى ويريد » ...

* * *

سرتنى أيضاً آراء «ويلز» فى حقوق الإنسان كما عددها وثمناها، ونظراته فى مستقبل الإنسانية، وتصوراته فيما ينبغى أن يكون عليه عالم الغد ...

* * *

على أن الذى سرنى أكثر من ذلك، هو أن قادة العسكر والروح قد أدركوا أن عدوهم الحقيقى ليس فقط هؤلاء المهرجين من الزعماء المروضين ... أمر هؤلاء هين ميسور، والقضاء عليهم مرهون بوقت يسير ... إنما العدو الأكبر هو «دين العصر» الرابض وراء الجميع: «الاقتصاد الحديث».

* * *

لا أمل فى إصلاح العالم إلا إذا عولج شقاء الملايين فى كل أمة من الأمم... من أجل ذلك لم يستطع حتى الزعماء المروضون أنفسهم أن يعتمدوا على كلمة «الوطنية» وحدها فى التأثير على الجموع، فقرنوها بكلمة «الاشتراكية» ...

* * *

إن الصائغ الذى يريد أن «يلحم» ذهباً بنحاس ليس أقل تزييفاً من أولئك الذين أرادوا أن يلحموا «الاشتراكية» «بالوطنية» ...

* * *

إن جوهر «الإشتراكية» السليم لا يمكن أن يقترن إلا بفكرة «الدولية» ...

* * *

إن العالم يتجه الآن من غير شك إلى الاشتراكية .. بل إنه قد خطا إليها بالفعل خطوة واسعة، منذ قام فى بريطانيا ذلك الإنقلاب الحديث فى نظام العمل ... هذا الإنقلاب الذى بمقتضاه يصبح العمال «خدام الدولة» فلا

يستطيع صاحب العمل فصلهم بمحض إرادته، ولا يستطيعون هم أن يتركوا أعمالهم بدون إذنه كما أنه يستطاع نقلهم من مصنع إلى آخر... وتحدد الحكومة الأجور وساعات العمل، وتشرف على أرباح رأس المال ... إلخ؛ بل لقد قيدت الحكومة أرباح رأس المال إلى حد المصادرة إذا تعدى الربح رقماً مقدراً ...

* * *

إنى لست أرى رأى القائلين إن تلك أنظمة استثنائية تزول بزوال الحرب، بل إنى أرى رأى القائلين: إن كل ذلك نواة لعالم جديد يتكون منذ الآن ليولد صحيح البنيان بعد الحرب ...

* * *

يقول « مستر أتلى » زعيم العمال وأحد وزراء بريطانيا اليوم :

« انطوى العالم الذى كان قبل الحرب وسوف تكون الإنقلابات التى تجلبها هذه الحرب مثل الانقلابات التى جلبتها الحرب الماضية فى عظم شأنها وسعة نطاقها ... أما الخطط التى يراد بها إنشاء عالم جديد أقرب إلى الإنصاف من العالم الذى انقضى؛ فلا يصح تركها إلى زمان السلم، بل يجب الشروع فى رسمها منذ الآن ... إنى لأرجو بعد الحرب أن يكون تقديم الطعام الملائم لجميع أفراد الأمة جزءاً ثابتاً من برنامج السياسة « القومية » وإنى لأرجو أن لا يسمح بعد اليوم ببقاء صنف « الأغنياء المتعطلين » ولا أن ينكر حق العمل على الذين يريدون العمل ويقدرون عليه ... وأن يقضى على البطالة القضاء الأخير ... »

* * *

لا ريب إذن فى أن الإشتراكية هى جوهر لا بد أن يدخل فى تركيب

كل نظام سياسي حديث، وكما استطاعت الدكتاتورية اختراع «الوطنية الاشتراكية» فما أيسر على الديمقراطيات إنشاء «الديمقراطية الاشتراكية»...

* * *

ما أسميه هنا «الديمقراطية الاشتراكية» إن هو إلا هذه النظم الاشتراكية التي قامت اليوم داخل إطار الديمقراطية ... كما ظهرت من قبل بعض مظاهر تلك النظم داخل إطار الوطنية الدكتاتورية ...

نحن اليوم إذن أمام حرب «الوطنية الاشتراكية» و «الديمقراطية الاشتراكية» ...

* * *

«الديمقراطية الاشتراكية» هي من غير شك صياغة مقبولة لجوهرين متلائمين ... لكن «الديمقراطية شيء، والدولية شيء آخر» ...

* * *

إذا كانت كل ثمرات العالم الجديد بعد إبادة الدكتاتوريات هي تعميم الديمقراطيات الاشتراكية، لكان هذا جميلا ... لكنه ليس هذا كل مايصبو إليه التقدم الإنساني ... ذلك أن «الديمقراطية الاشتراكية» هي أيضاً ليست أكثر من «نظام داخلي لكل دولة من الدول» وإن كل دولة ديمقراطية اشتراكية، تستطيع أن تنشيء لنفسها مطامع استعمارية وسياسية قومية، تقوم على السيادة الخارجية، وبهذا تستأنف الحروب الاقتصادية والدموية بين الدول الديمقراطية الاشتراكية بعضها ضد البعض ...

* * *

كانت فكرتي منذ أعوام أن «الاشتراكية» ينبغي أن تأتي

من الخارج إلى الداخل ... أى أن تسود بين الدول قبل أن تقر بين الأفراد ...

* * *

الاشتراكية بين الدول فى الإنتاج والتوزيع والقانون والنظام ... إذا تم ذلك فقد تم كل شىء تبعاً لذلك ...

* * *

أهذا حلم بعيد التحقيق، لا يراه غير خيال «ويلز» و «برناردشو» ... كنت أظن ذلك قبل أن أقرأ خطبة رجل رسمى مسئول من أقطاب الحكومة البريطانية الحاضرة هو «هربرت موريسون»، فقد تحدث عن عالم الغد قائلا:

«إن الهدف الذى نرمى إليه هو نظام تعاونى دولى، يدعمه بوليس وطيران دوليان ... تعيش الدول فى رحابه، مضحية — عن طيب خاطر — ببعض حقوق استقلالها، لتتضافر جميعها فى إخلاص على خلق حياة أرقى وأصلح ... ينبغى أن نعيش فى ذلك النظام الذى يمنح فيه كل إنسان؛ لا فقط حرية القول والفعل، بل حرية العمل لإبداع كل ما هو خصب منتج ... ينبغى أن نسير نحو ذلك المجتمع الذى برىء من ذلك الطاعون المزدوج:

«الغنى المتطرف والفقر المتطرف» ...

نريد مجتمعاً يقبل فيه عن طيب خاطر مبدأ المحافظة على مستوى معقول للصحة، والراحة، والطمأنينة، والأمن والتهذيب لكل إنسان ...

* * *

وبعد ... أترى الإنسانية قد فهمت أخيراً وتعلمت ؟! ... هل آن الأوان للإنسانية التى عرفت كيف تنفق ملايين الملايين فى التدمير والاستعباد ، أن تعرف بعد الآن كيف تنفقها فى التعمير والإسعاد ؟... هل آن لأعيننا أن نرى الطائرات فى أحدث أنواعها الضخمة كالقلاع ، تنقل بدل أثقال المفرقعات والمهلكات أحمال الخيرات والمنتجات ، ليعم خيرها البشر والسكائنات ، دون أن تعترضها جارك أو حدود ؟! ... أترى أساطيل الهواء اليوم ذات المظلات البيضاء هى ملائكة السلام غداً ، تهبط كى تمحو الفواصل التى وضعتها يد البربرية على الأرض منذ القدم ، لتحول بين الإنسان وأخيه الإنسان ؟ ...

* * *

إلى كل من يحمل قلباً نابضاً بالأمل فى سمو البشرية ، فياضاً بالحب للإنسان والإنسانية أوجه هذه الصيحات ، وأهدى هذه الصفحات .

ت . ا

القاهرة : مارس ١٩٤١

فى الطغيان

جعل الفكر يحدثني ذات مساء فى الطغيان والطغاة ، ويسترسل فى الحديث ... وأنا عنه لاه كالنائم ، وما أنا بنائم ، فلقد انتزعني خيالي وطار بي وألقاني فى أساطير الماضى : بين يدى « شهرزاد » ... وأنا أعرف شهرزاد كل المعرفة ... وقد أبرزتها فى كتاب ... آه ! ... يا لها من امرأة ! ...

شهرزاد ! ... إذا انفرجت شفتاك عن هذا الإسم ، فاعلم أنك لفظت باسم عظيم ، فهو إسم تلك التى استطاعت أن تجعل من شهريار ، سافك الدماء ، رجلا مهذبا محبا للخير مترفعا عن العدوان . لقد دخلت حياة ذلك الملك الطاغية كما تدخل الروح الطيبة جسدا أصم ، أو الريح الخصبة واحة مقفرة . واهتدى شهريار بهديها ، وتمت بذلك معجزتها ، فانزوت فى بطون الأساطير ...

ولكن فى هذا العصر عاد شهريار جديد إلى الظهور ، لا فى صورة ملك بل فى صورة « فوهرر » يقطن قصرا لا فى بغداد ، بل فى برختسجادن . وهو لا يكتفى بذبح عذراء فى كل صباح ، كما كان يفعل شهريار الأول ...

بل إن « حمام الدم » الذى لديه أرهب وأروع ! ...

وشرد بى الخيال فتصورت شهرزاد تستشيرنى بصفتى مؤلفها فى أن تذهب إلى الزعيم العصرى كما ذهبت من قبل إلى ملك الزمان الغابر لعلها تظفر بهدايته . كما ظفرت بهداية سلفه ، ولعلها تنقذه من الطغيان ، وتربحه لخير بنى الإنسان .

لحمدت لها عواطفها الرقيقة ومشاعرها النبيلة ، ولكنى ترددت إشفاقا عليها وقلت :

— أيتها العزيزة شهرزاد ! جعلت فداك ، لقد خطر ببالى كل ما خطر لك . ولقد رأيت من واجب الكاتب أن يجهر بما يعتقد ، فرسمت « لصاحبنا » من الصور ما سوف يعرض عنق لمديته ، ولسوف أدعى إلى حمام الدم وأنا لا أعرف السباحة . فيكون هذا حمامى الأول والأخير ، أما أنت يا ذات الجمال . يا من اعتدت السباحة بجسمك العاجى فى ذلك الحوض من المرمر القائم فى قصرك العجيب ! …

فقاطعتنى شهر زاد قائلة :

— أتخشى علىّ وأنا الخالدة ؟ ! خف على جلدك أنت أيها المخلوق الهالك ! أكبر ظنى أن إشفاقك هذا ليس على شخصى بالذات ، إنما هو على كتابك عنى الحامل إسمى الذى سوف يحرق ويباد إذا فشلت فى مهمتى ووقع بينى وبين هتلر العداء . يا لهؤلاء الأدباء والكتاب ! إنهم يخافون على جلد كتبهم أكثر مما يخافون على جلد أجسامهم ! …

وتركتنى بلا تحية ولا وداع ، واختفت عن بصرى ، وارتفعت فى الفضاء ومضت إلى قصر « برختسجادن » .

* * *

كان هتلر فى ذلك المساء منفردا فى قاعة كبيرة من قاعات القصر ، يطيل التأمل أمام خريطة حربية ، وقد شرد ذهنه واتجهت عيناه إلى نافذة بلورية تشرف على الوديان الخضراء المحيطة بذلك الجبل الذى يقوم عليه قصره المنيع . وإذا هو فجأة يسمع خلفه حفيف ثوب وحفيف غلالة حريرية . ويشم عطرا شرقيا ملأ جو المكان ، فاستدار . فألفى نفسه وجها لوجه أمام امرأة لم يقع

بصره قط على أجل منها ... فمقد لسانه وجمد فى مكانه ، ومرت لحظة أو لحظات ... ثم أفاق قليلا وقال لها كالهامس :

من أنت ؟ ...

فقالت الجميلة :

— أنا شهرزاد جئت إليك من الشرق .

وكأنما غمر هتلر فى حلم ، فإذا هو لساعته يحس الأشياء من حوله تخف وترتفع قليلا فى الهواء . وحلت عقدة لسانه . وتحرك من مكانه ، وخف لاستقبال شهرزاد وكأنه يعرفها معرفة الأصدقاء منذ أعوام ، وأجلسها فى صدر القاعة ، وأراد أن يقدم إليها من الطعام والشراب ما يقدم إلى الأضياف الكرام . فأبت وشكرت ، وأشارت إليه بالجلوس والاصغاء ، قائلة :

— فلأخبرك أولا سريعا ، لماذا جئت إليك ، إن مقابلتنا الساعة قد يتوقف عليها مصير العالم .

فقطب هتلر جبينه وزالت عنه قليلا غمرة الحلم وقال :

— جئت فى مهمة سياسية؟ فهمت... ما أجملك رسولا من الدول الديموقراطية ! إنها لشجاعة منك أن تقودى طائرة بمفردك ! أين هبطت يا سيدتى الطائرة التى جئت بها ؟ ...

— أية طائرة ؟ ...

— عجبا ! كيف جئت إذن ؟ ...

— قلت لك أنا شهر زاد . شهر زاد الأساطير ، شهر زاد التى طالعت خبرها ، ولا ريب ، وأنت صغير . وأنا بالطبع لا صلة لى بالديموقراطية أو الفاشستية ، لأنى كما تعلم أنتمى إلى زمان لا يعرف هاتين الكلمتين . إنما أجىء إليك اليوم بصفتى الشخصية ، كما جئت من قديم إلى الملك شهريار ، فلبثت عنده

ألف ليلة وليلة ، أقص عليه من ألوان القصص ما غير نظره إلى الحياة .

فقاطعها هتلر قائلا وهو ينظر إلى خريطته الحربية :

— ليس لدى وقت للاصغاء إلى القصص .

— هذا من سوء الحظ ...

قالتها شهرزاد بنظرة لم تصمد لها عيناه ، فأطرق قائلا :

— ربما كان هذا من سوء حظى حقا ، فأنت امرأة جديرة أن يجلس إليك رجل أكثر من ألف ليلة وليلة . ولكنى ... مشغول كما ترين . ولا أحسبنى أملك الإصغاء إليك أكثر من ليلة . إن المصور قد تغير أحيانا فى جلسة واحدة بقاعة مؤتمر أو مقصورة قطار ... اطرقى ياسيدتى الموضوع من بابه ... وأوجزى ! ...

لم تيأس شهرزاد من هذه اللهجة الجافة . وقالت مترفقة :

— اطمئن ! إنى لا أجاس إلى أحد رغما عن إرادته ، وإنى لمقدرة قيمة وقتك الثمين الذى تنفقه فى ... فى ... هدف لا أقرك عليه ، وقد أكون مخطئة ... ثق أنى غير مقيدة برأى ... غير متعصبة لمبدأ ... إنى حرة حتى الآن مثل هذا الهواء ، وقد جئتك لأقنعك بما أرى ، أو لتقنعنى بما ترى ... فليكن بيننا الساعة صراع هادىء بين روح المبادىء ... هل قبلت ؟ ...

— قبلت ...

قالها هتلر مبتسما وقد طمع فى إقناع شهرزاد ، وأمل أن يربحها هو إلى جانبه . ومن يدرى ؟ لعله يستطيع أيضا بعد ذلك أن يلحقها بوزارة دعايته تحت إدارة الهر جوبلز . ليس بينه إذن وبين تحقيق هذا الأمل سوى أن يقنع شهرزاد بآرائه . هنا رفع رأسه مستبشرا ، ومر بيده على خصلة شعره المتهدلة على جبينه كأنها جناح غراب وقال :

— سوف أقنعك بمبادئى ...

— بغير عنف ؟ ...

— بغير عنف ...

— إنه ربح لا يستهان به أن تسمح بحرية الرأى والكلام والمناقشة ! ولو إلى أجل قصير ! ...

قالتها شهرزاد بابتسامة ذات مغزى . فأدرك هتلر لساعته أنه يكاد يقع فى فخ هذه الشرقية الجميلة ، فليس هو الذى قد يسكبها ويجذبها إلى النازية . ولكن الخوف أن تجذبه هى بغير أن يشعر إلى روح الديمقراطية ! فتجهم وجهه ، وعادت إليه من الفور طبيعة الجبروت ، فضرب المائدة بقبضته وصاح :

— كلا ... لست أسمح هنا على الإطلاق بحرية الرأى أو روح الديمقراطية ، وأرجو منك أن تكفى عن ذكر مثل هذه الألفاظ إذا أردت أن نتفاهم ! .

فابتسمت شهر زاد وقالت متلطفة :

— وكيف نتفاهم بغير حرية التفاهم ؟ ماذا تخشى منى وأنا أحادثك على انفراد . والأبواب مغلقة ، ولا يسمع أحاديثنا أحد من شعبك ، إذا لم تطلق لى الحرية الساعة فى محادثتك ، فمعنى هذا أنك تخشى أن أقنعك .

— كلا ، لست أخشى شيئاً ، تحدثى بكل ما تريدين .

قالها وهو يتلفت يمنة ويسرة ليتأكد من أن الحيطان ليس لها آذان . واعتدلت شهر زاد فى جلستها وقالت :

— إنى لا أحب العنف فى الإقناع ، لا لأنى ديمقراطية النزعة ، فأنا كما قلت لك لست أنضوى تحت حزب من الأحزاب ، ولكن تلك طبيعتى

منذ القدم ، إنك ولا شك تعرف قصتى مع شهريار ، هل تذكر أنى لجأت إلى العنف فى إقناعه ؟ .

— أشهد أنك كنت بارعة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول إنك كنت امرأة خطرة ، لقد كنت أنت — ولا تؤاخذينى — الخليقة دون غيرك بمهام الدم ، فإن المرأة التى تستطيع أن تحول ملكها عن سياسته ، وأن تغير نظام حكمه فى دولة ولو إلى الأصلح ، لهى على كل حال امرأة ثائرة على النظم …

— إنى لم أكن ثائرة ، ولم أتدخل يوما فى سياسة شهريار ، ولم أنصحه يوما بإبرام أمر أو الاقلاع عن فعل ، إنما دخلت حياته كبصيص النور الضئيل للدخل من خصاص الأبواب . فإذا هو يرى ما لم يكن يرى ، وإذا هو يعالج نفسه بنفسه ، ويتحول من حال إلى حال ، ومن سياسة إلى سياسة من تلقاء ذاته …

ففكر هتلر لحظة ثم قال :

— ألم تكن هناك مؤامرة من الشعب ؟ إذ شهريار كان يدخل كل ليلة بعذراء يقتلها فى الصباح حتى كادت تنقرض من بلاده العذارى ، فلا بد أن الشعب ضج وغضب وتهامس وتآمر … اعترفى … ألم تكونى موفدة من قبل الجماهير ؟ …

— كلا ! …

— من يدرى . لو كان لشهريار (جستابو) فى ذلك الحين لتدارك الخطر قبل وقوعه …

— الحمد لله إذ لم يكن لديه ذلك … لو أن هذا حدث لما كان …

— لما كان اسم شهرزاد ظهر فى سماء التاريخ ، ولما عرفت الأجيال غير اسم شهريار وحده ! …

— دعنا من التاريخ . إنما الذي يجب أن نحفل به هو الانقلاب الطيب الذي حدث لذلك الملك ، إنه ولاشك قد رضى عن نفسه كل الرضا يوم رأى الأشياء كما ينبغي أن ترى ...

سكتت شهرزاد وحدجت الفوهرر بنظرة طويلة ... فخفض بصره قليلا وأطرق ، ثم قال :

— إن لك يا شهرزاد أسلوبا عجيبا في الكلام . إنك تريدين أن تلقى في روعى أن هنالك أشياء عظيمة ترينها أنت ولا أراها أنا ... وتحاولين أن تدخلي في نفسي الشك في مبادئي ... ولكن فاتك أني أضع العقل دائما في المحل الثاني ، والفكر في المقام الثالث . أما المكان الأول عندى فهو للإيمان ... إني أؤمن وأنا مغمض العينين موصد الأذنين مغلق العقل . أومن بمبادئي وحدها ، أومن وأومن ثم أومن . تكلمى بعد ذلك بما شئت ...

فابتسمت شهرزاد ، ثم قالت في دهاء :

— من قال لك إني أريد أن أهز إيمانك بمبادئك . إني جئت لأقنعك أو لتقنعني . وقد أفشل أنا معك ، وقد تفشل أنت معى . أني تواقة إلى الحرية ، حرية البشر أجمعين ، ولقد ذهبت الى شهريار عندما رأيت حرية الشعب وبنات الشعب في خطر . مبدئي هو الحرية لكل إنسان ، ولا استعباد لأى إنسان . فمن كان يعمل لهذا المبدأ فأنا معه ، سواء كان أنت أو خصومك ، هذا قولى فأغمض عينيك عنه ، صم أذنيك إذا شئت وأغلق فكرك ، ولكنى أنا فاتحة عينى وأذنى لأتلقى عنك ماتقول ، وأزن ما تدلى به ، وأتقبل الطيب من حديثك إذا وجد . ولا أكره أن أقتنع بمبادئك إذا كانت نافعة للناس . فإن المكان الأول عندى دائما هو للفكر الحر ، والاقتناع المطلق ، ثم الإيمان بعد ذلك . تكلم فأنا مصغية إليك .

واتكأت شهرزاد بساعدها على حافة المقعد ، وغرقت فيه ، ورنت إلى هتلر بعينيها الصافيتين العميقتين . فاختلج قلبه قليلا ، ولكنه تماسك وقال :

— اعلمى أولا أنى ذو قلب ... حذار أن تقارنى بينى وبين شهريارك ، إنه كان يسفك دماء العذارى ولم يكن يعرف الحب . أما أنا فقد أذنت بحمام الدم لأنى أحب ...

فقالت شهرزاد فى سخرية :

— امرأة ؟ ...

فأجاب هتلر فى لهجة مثل لهجتها :

— انى لست همجيا حتى أقوم بمثل هذا العمل ...

— أنت حقا رقيق الشعور ...

— لقد قلت لك إنى ذو قلب ، وأى قلب ... إنه أكبر من أن يحوى امرأة ... انه يحوى ألمانيا ...

وصمت ... فابتسمت شهرزاد وقالت فى هدوء :

كنت أحسبه أرحب من ذلك ، وأنه يحوى شيئا أكبر من ألمانيا ...

— ماذا ؟ ...

— الانسانية ...

لفظتها شهرزاد فى همسة عميقة ، فوجم هتلر لحظة ثم قال :

— ماذا تعنين ؟ ...

— أعنى أنك لو أحببت الجنس البشرى كله ، لا الجنس الآرى وحده ... لكنت أعظم ألف مرة مما أنت الآن ، ومما تريد أن تكون . اصغ إلىّ مليا . لماذا لم تفكر فى هذا المجد ؟ يدهشنى حقا أن مثلك لم تخطر له هذه الفكرة !

إن حياتك معجزة لا ريب فيها، فلماذا لم تستخدم هـذه المعجزة لغاية أعظم وغرض أسمى ؟! لماذا لم توجه قوتك وثورتك للارتفاع بالإنسانية كلها ... فيسطر التاريخ لك صفحة لا يسطر مثلها لغير الرسل والأنبياء؟

إن الصفحة التى يعدها التاريخ لأعمالك اليوم ليست بذات شأن عظيم، وقد كتب مثلها لكثيرين من قادة الجيوش الذين فتحوا العالم معتمدين على القوة العسكرية ... ففرحوا بأكاليل النصر الحربى الذى زان جباههم، ولم يفطنوا إلى أنها أكاليل من الزهر الذى يذبل بعد حين. ولقد ذبلت فعلا، وهوت وذرتها الرياح ... كل تلك الفتوح التى تفاخر بها أولئك القواد العسكريون، ذلك أن لا شىء يثبت فى الأرض وينبت الثمار الصالحة غير البذرة الطيبة التى يلقيها فى نفوس البشر رجل يحب الإنسانية كافة. هذا هو المجد الذى ليس بعده مجد لإنسان! ...

— انك امرأة ... ولا يدهشنى من امرأة أن تبخس قدر النصر الحربى! ...

— النصر الحقيقى هو ذلك الذى يستطيع أن يسير بالبشرية ولو خطوة، ويسعدها ولو لحظة ... إن كلمة نبى، أو ترنيمة شاعر، أو تغريدة موسيقى، لأبقى على الدهر من صيحات الظفر وطبول النصر فى أكبر معركة حربية! ...

— عجبا! ...

— فيم العجب؟ إن ذلك الذى يستند إلى قوة الله، وهو النبى والرسول. وذلك الذى يستند إلى قوة الفكر وهو العالم والفنان، لأبقى وأخلد من ذلك الذى يستند إلى قوة الجيش!!

شرد هتلر بخياله لحظة، وقال كالمخاطب نفسه:

— وا أسفاه! ... لطالما تقت لأن أكون نبيا! ...

— من أجل ذلك هاجت الله والكنيسة ؟! ...

— ولطالما تقت إلى العلم والفن ! ...

— ولهذا نفيت العلماء والفنانين ؟! ...

— عبقرية بلادي هي عبقرية عسكرية قبل كل شيء ... لم أفطن إلى ذلك يوم قامت في نفسي تلك القوى الحائرة تدفعني أن أفعل شيئا للتاريخ ... لا تنكري يا شهرزاد أن للمعجزة تتخذ لون الأرض التي تظهر عليها ، وأن العظيم يتغذى ككل نبات بعناصر التربة التي ينبت فيها ! ... لا تحسبي عبقرية ألمانيا أو أوروبا تصلح لابراز نبي من أنبياء الشرق ! ...

— هذا صحيح ، ولكن العظيم يجب أن يثور على أوضاع بيئته وأمته وعصره ، لينشر تعاليمه التي تنفع الإنسانية كافة ، هكذا فعل المسيح ومحمد ، لقد كان كل منهما يجاهد وحده ضد وطنه وزمانه ، ليبذر فيهما المثل الأعلى الإنساني ... وقد اضطهدا وعذبا في سبيل ذلك ، وقد انتصرا آخر الأمر ذلك الانتصار الخالد على الزمان وما بعد الزمان . ثق أني لا أخدعك . إن الخلود هو لمن يعمل لخير الإنسانية كلها ، ولرفعة الجنس البشري كله ... لهذا كانت غلطتك الكبرى أنك أحببت جنسا واحدا ، وكرهت بقية الأجناس ! وعملت لرفعة شعب واحد ليستعبد بقية الشعوب ! ...

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام « المباح » — المباح مؤقتا بإذن خاص من هتلر — وسكت « الفوهرر » ولا يدري أحد أكان سكوته لاقتناعه بحديث شهرزاد ، أم للتفكير في طريقة للتخلص من هذه المرأة الخطرة ؟! ...

مؤتمر الصلح

قال لى خيالى : « صف لى مؤتمر الصلح لهذه الحرب ؟ » .

فقلت له ، وقد راقنى سؤاله ، وودت لو استطعت الجواب : كيف أصفه ؟ إنه لم ينعقد بعد بالطبع هذا المؤتمر ، ولا يدرى آدمى متى ينعقد ... إذا شئت ، فلنلجأ إلى عين الخيال ، نرى بها ما يجرى فيه وما يفضى إليه . وعين الخيال هذه كعين الماء فى الصحراء تستمد مادتها من أغوار الرمال ... رمال الزمن والماضى ... لذلك أتصور أن يعقد مؤتمر الصلح القادم فى « فرساى » مرة أخرى ، وفى قاعة « المرايا » الشهيرة بالذات . ولكن للمبادىء التى ستطرح كأساس للسلام سوف تكون جديدة الوجه . والرجال المجتمعون حول مائدة المفاوضة سوف ينتخبون طبقاً لفكرة خاصة ، وفى الحق أنه عقب انتهاء الحرب سيشتد الرأى العام فى كافة الشعوب المحاربة حول هذا السؤال : من الذى يصنع السلام ؟ أهم أولئك الرجال أنفسهم الذين جاءوا بالنصر ؟ ألا يخشى أن يكون العمل المنهك والجهد المضنى الذى قام به هؤلاء الأبطال يجعلهم فى حاجة أن ينالوا قسطهم من الراحة ، فيتولى عبء الجهاد الجديد رجال جدد ممن كانوا أثناء الحرب يدرسون مشاكل الغد ، ويعدون العدة فى صمت لبناء صرح السلام العالمى ؟ ثم ألا يخشى من الرجال المنتصرين إذا انتصروا وتسلموا قيادة الصلح أن تنسيهم حرارة الظفر أنفسهم ، وعندئذ يحسبون أن واجبهم على مائدة السلم أن يحرزوا لأوطانهم انتصارات أخرى ، وبهذا

يضيع معنى الفكرة العظمى التى من أجلها بذلت الأرواح وسفكت الدماء وهى : التعاون الدولى على أساس المساواة والإخاء بين الأمم جماء ؟ ! كل هذه الاعتبارات قد تجعل من المحتمل أن توفد الديمقراطيات المنتصرة إلى المؤتمر رجالا مهيمين بهذه الفكرة العليا . فمثلا قد توفد حكومة تشرشل رجلا مثل « بيفردج » ، وحكومة روزفلت رجلا مثل « ديوى » ، وحكومة ستالين رجلا مثل « لتفينوف » ، وحكومة برلين رجلا مثل « أوتو شتراسر » الخ … وهكذا تفعل كل حكومات الدول المجتمعة حول مائدة الصلح ، ولما كانت مصر مدعوة بطبيعة الحال إلى أن تتبوأ مركزها من هذه المائدة ، فقد حق لك يا خيالى أن تسأل عمن سوف تندبه حكومة القاهرة لهذه المهمة الخطيرة …

وهنا اسمح لخيالى أن يخلع عنه الآن رداء الرزانة ويقفز قفزة جريئة ، فيتصور أن مندوب مصر هو : العبد الفقير « كاتب هذه السطور » ولا تسأل عن السبب ، بل تعال معى نشاهد ما الذى سيحدث : لا شك أن خبر تعيينى سيقابل كعادتنا فى مصر بالهجوم العنيف من الحساد . فيمعنون فى تجريدى من الصفات الآدمية التى يتمتع بها كل من خلقه الله من ماء وتراب .

فيرد على ذلك الأنصار بما يعرفونه عنى من الصفات الحسنة مبالغين فيها … ويأتى يوم السفر فتحتشد الجموع فى مطار ألماظة حيث تقرر أن أذهب طائراً إلى فرساى . ويعلو هتاف الجماهير مذكراً إياى بمطالب البلاد . فألوح إليهم بالحفظة التى تحوى الوثائق الرسمية والمذكرات التفسيرية التى عليها تقوم المفاوضات ، ثم تتحرك بى الطائرة مرتفعة فى الجو وقد تبعتها بعض الطائرات الخاصة مزينة بالأعلام الخضراء تودعنى حتى شاطىء البحر ، ثم حطت الطائرات فى الدخيلة . وعبرت طائرتى وحدها إلى أوروبا وأنا داخلها أفكر فى سر اختيارى للمؤتمر … وماذا أنا قائل فيه … وأنا لم أدرس بعد أية وثيقة من الوثائق التى بالحفظة . فقد ضاع وقتى فى مصر بين مطالعة شتائم الحساد فى النهار وأقوال الأنصار فى المساء .

لكن لماذا لا أنتهز هذه الخلوة فى الطائرة وأطالع هذه الأوراق الهامة ؟ ومددت يدى نحوها ولكن ذهنى شرد ... وتلك ولا شك صفة فات حسادى أن يذكروها ضمن ما ذكروه عنى من صفات ... شرد ذهنى فى أمر وصولى إلى فرنسا ... وأين يكون مقامى ؟ أفى فندق فرساى مع بقية أعضاء مؤتمر الصلح ... ولماذا لا أنزل كما يحلو لى فى مونمارتر مثلا .. بذلك الفندق الذى نزلته منذ نحو عشرين عاما ولى فيه ذكريات ؟ وجعلت أستعرض فى رأسى ذكرياتى يوم كنت أقطن أمام مرقص « الكوليزيوم » المشهور . وأمضى ليلى أكتب شعرا فرنسيا منثورا فى الحانة المجاورة لملهى «الطاحونة الحمراء» وأنا أحتسى بيرة ستراسبورج وآكل « الكرنب بالسجق » ... وأرمق بنات الهوى الجائعات الجالسات على الموائد حولى ينتظرن الدعوات وأنا أقول لهن : « يا عرائس الشعر ابعدن عنى ساعة الأكل ، فما فى جيبى غير فرنكات معدودات ثمن طبقى وحق جهلكن ! »

فى اليوم التالى لوصول طائرتى إلى فرنسا ، افتتحت أول جلسة من جلسات مؤتمر السلام فى قصر فرساى ، بحديقته الخضراء ذات النافورات العجيبة ينبثق منها الماء فى أشكال وألوان ، كأنه ماسة ملقاة فوق العشب تشع بالأضواء .. واجتمع الأعضاء من مختلف الدول حول مائدة كبرى مستديرة فى قاعة المرايا » ... وقد وضع كل عضو محفظة وثائقه أمامه وجعل يخرج منها الأوراق ... واتخذت مكانى بالطبع بين الجالسين ... وأردت أن أصنع مثل ما صنعوا ... وإذا لدهشتى ومصيبتى وطامتى أتذكر أنى نسيت محفظة وثائقى بالطائرة ... والنسيان قاتله الله صفة أخرى من صفاتى الممتازة ... ما العمل الآن وقد ضيعت أول ما ضيعت المحفظة التى فيها مطالب بلادى ! ...

لم تدم ورطتى طويلا ، فقد عزيت نفسى بقولى إن المؤتمر فى يومه الأول

لن يبحث أعلى أي حال في المسألة المصرية ... ومن هنا إلى أن يجيء دورها يكون الله تعالى قد فتح عليّ بالحل الموفق السعيد ...

وغرقت في مقعدي الوثير مطمئنا ، أستمع إلى المناقشات التمهيدية الأولى بين « بيفردج » و « ديوى » و « لتفينوف » و « شانج كاي شيك » وكلما أوغلوا في المناقشات فترت قوّتي على الاصغاء وتهيأ ذهني كالعادة إلى الانصراف والانطلاق في أجواء أخرى . وبالفعل لم يمض قليل حتى ألفيت نفسي منهمكا في حصر عدد المرايا التي في القاعة وملاحظة حركات ممثل الصين وهي تنعكس على كل مرآة ... ثم طفقت أقول في نفسي : ليس أنسب من هذه القاعة لاجتماع نسوى ... فكثرة المرايا تسر المرأة وتملؤها زهوا وخيلاء . لكن لماذا تجتمع الدول هنا أيضا في قاعة المرايا ؟ ... أخشى أن يكون هذا سببا من أسباب الزهو والخيلاء الذي كاد يذهب برؤوس بعض ممثلي معاهدة « فرساي » السابقة ! ...

مضيت في هذه الخواطر دون أن ألتفت إلى ما يجرى حولي ، وإذا أنا أتنبه على صوت المجتمعين يقررون أن يبدأ المؤتمر بسماع رأى الأمم الصغيرة واتجهت العيون نحوى . وأعطى الكلام لمندوب مصر .. يا للكارثة ! جاءك الموت يا تارك ... (المحفظة) ، وأصبحت في موقف لا يحسدني عليه حساد ولاعذال ... أين محفظتي أين ورقي ؟ ماذا أصنع أيها الناس وماذا أقول ؟ ... ولكني وقفت على كل حال رغما عنى وقد مدني اليأس والحرج باتقاد ذهن ليس من شيمتى فانطلق لساني يقول :

— أيها السادة الأجلاء ... ليس هنا اليوم أمم صغيرة ولا أمم كبيرة إنما نحن أمة واحدة وعالم واحد يجتمع حول هذه المائدة كما يجتمع أفراد الأسرة الواحدة على مائدة العشاء . عالم واحد وحريات أربع . أليس هذا هو الدستور الجديد لدنيانا الجديدة كما جئنا لنشيد بناءها ؟ ... ولاريب أننا جميعا متفقون

على تلك المبادىء التى أذاعتها الديموقراطيات قبيل انتهاء الحرب وجعلتها بمثابة الأركان الأربعة لعالمنا الجديد . إنها كما تعلمون : حرية القول والرأى ، حرية العبادة ، والتحرر من العوز والفقر ، والتحرر من الظلم والاستعباد . إذا تم تحقيق هذه الحريات لكل أمة من الأمم ، فقد استغنت بها عن مطلب خاص تتقدم به إلى هذا المؤتمر الموقر . إلا ما تعلق بالتفاصيل ووسائل التنفيذ فهذا بالضرورة يحتاج إلى البحوث الخاصة التى تعرض على هذه المائدة . على أنى حتى فى هذه المباحث والطلبات والتفصيلات التى تتعلق بكل دولة على انفراد ، أرى رأيا وأقترح اقتراحا أرجو أن يحوز موافقة المؤتمر ... ذلك الاقتراح هو أن لايتولى الدفاع عن مطالب أمة مندوب هذه الأمة ، بل مندوب أمة أخرى .. وذلك منعا من طغيان عاطفة القومية والوطنية على الشعور بالمصلحة الإنسانية والعالمية . فمثلا يتولى الدفاع عن مصالح أمريكا مندوب الصين وعلى العكس ، وتقوم تركيا بالدفاع عن مطالب الروسيا . وفرنسا عن ألمانيا ... ومصر عن انجلترا ... وهكذا ...

وسكت لحظة أمام نظرات مستر « بيفردج » وزير خارجية انجلترا وهو يفحصنى بعينيه متعجبا .. ولكنه عاد فأخذ الأمر على وجهه الحسن ، فارتسم التفاؤل على شفتيه فى صورة ابتسامة رضا ، شجعتنى وشجعت جميع الأعضاء فهتفوا معا موافقين على الاقتراح ... ونهض « ديوى » فصافح « شانج كاى شيك » وقام « سراج أوغلو » فسلم على « ليتفينوف » . وانحنى « ستراسر » يحيى « ديجول » . ودعانى المؤتمر إلى المضى فى الكلام فقلت :

— أرجو أن يكون مستر « بيفردج » مطمئنا إلى وضع مصير بلاده بين يدى ، كما أطمئن أنا إلى وضع مصير بلادى فى يده ، ويسمح لى أن أوجه التفاته إلى مشاكلنا الاجتماعية التى تحتاج إلى علمه وخبرته وفطنته : فرفع مستوى الفلاحين يتطلب مشروعا ضخما يماثل مشروع التأمين الاجتماعى بالنسبة إلى

إنجلترا ، وتوطيد مركزنا الاقتصادى وزيادة الثروة الأهلية والمحافظة على مستواها سواء بإدخال وسائل إنتاج جديدة أو بتحسين الانتاج الزراعى والصناعى القائم ... كل ذلك موكول إلى بحثك المستفيض وهمتك العالية ، أما مسائلنا الخارجية فإنها ستوضع ولا ريب على الأسس العامة التى تقوم عليها العلاقات الخارجية لكافة الدول ، فإنه تحت ضوء هذا المبدأ : «عالم واحد وحريات أربع » سوف تحل كثير من المشاكل ، وإن فى صيحة الديموقراطيات المدوية بأن « فى الامكان القضاء على القوة كوسيلة للأعمال السياسية ، إذا قوبلت ووجهت بقوة أخرى أعظم منها تقوم على دعائم اقتصادية وخلقية ، ويعززها بوليس مشترك يمنع أية دولة أو مجموعة من الدول أن تجد الفرصة التى تمكنها من الاعتداء على أية دولة مجاورة لها فى أى مكان فى العالم » ... الخ . هذه الصيحة ستمحو ولا شك كل الصعوبات التى وقفت فى سبيل الصداقة بين الشعوب القوية والضعيفة ، هذا فيما يختص ببلادك فأمره سهل ، ولا شك أنك قد وضعت فيه البحوث والدراسات وملأت مذكراتك ووثائقك مشروعات . وليس لى إلا أن أمد يدى وأقول لك يامستر « بيفردج » : سلمنى محفظتك !! ...

صفحة من مذكرات تشرشل

دوننج ستريت رقم ١٠ فى ...

الريخ الثالث محى اليوم من الوجود ، هكذا حطمت المانيا وتمزق كيانها وتناثرت أشلاؤها ، ولم يعد لهـا حساب فى سجل أوربا إلى ما لا ندرى من الأزمان ، إنه النصر ، ويا له من نصر ! ... هنالك مع ذلك سحابة تغيم فى نفسى ، وسؤال مريب يعبر خاطرى : لمن هذا النصر !؟ لقد نفخت هذا الصباح دخان سيجارى الكبير شارد اللب وأنا ألقى من الشرفة نظرة على جماهير لندن الراقصة الصاخبة من الفرح . ترى ماذا تفعل جماهير موسكو الآن ؟ ... إن الفرح الحقيقى يجب أن يكون هناك ، فالحرب قد انتهت فى أوربا كما أراد ستالين بالضبط ، لا كما أردت أنا ، يقولون إنى قدت بريطانيا إلى النصر ... هذا صحيح ، إلى النصر الروسى ... لا أخجل إلا من شبح رجل واحد ! هو لويد جورج . هو وحده الذى يفهم حقيقة انتصارى ويستطيع أن يسخر منى ، لقد قاد ذلك الرجل الحرب الأوروبية الأولى ، فلم يفعل شيئا ، بل من الزيف والخطأ أن نزعم أنه قاد أحدا أو أمر بشىء ، لقد قبع فى انجلترا يشاهد عن بعد كيف يقود المارشال « فوش » جيوشه الفرنسية ، وكيف دارت معركة المارن ومعركة فردان ، كأنه أحد أرستقراطية اللوردات يراقب بمنظاره الكبير حركات الجياد فى سباق الدربى . وانتهت الحرب بانكسار الألمان ، وبسطت مائدة الصلح فى فرساى ، فخرج لويد جورج من مكمنه ووضع يده على المائدة الخضراء

يغترف ما عليها من أرباح ... وأراد النمر الفرنسي أن ينشب أظفاره في الفريسة ، تخلصها منه بلباقة وأبقى على أنفاسها الأخيرة لتكون في المستقبل شوكة تحد من طغيان النمر وانفراده بالسلطان في غابة أوربا . وأراد الفيلسوف الأمريكي « ولسن » أن يطرح أفكاره ليوزع الثمرات بالعدل بين أهلها ، وينصف المظلومين ويحرر المستعبدين، ويبدد المغانم من مخالب الأسد البريطاني ، فتناوله لويد جورج بلطف ووضعه في جيبه برفق . وأعاده إلى بلاده كما يعاد الخطاب المغرم إلى مرسله ... هذا حقا هو النصر : النصر الأنجليزي ! ... من الانصاف لي أن أقول إني أردت الانتفاع بدروس لويد جورج ، وأردت أن أنهي الحرب في الظروف المناسبة لنا ، وتحاشيت تمكين الدب الروسي من البطش بفريسته والقضاء عليها القضاء التام . وسافرت إلى كندا لإبرام صلح مع ألمانيا وهي لم تزل على قيد الحياة ، وإن كانت قد زال خطرها العسكري ، فإن وجودها في قوة فرنسا الحالية على الأقل ، بل مجرد وجودها على أي شكل من الأشكال خليق أن يشغل الدب بها طويلا ويشغله عنا ... ولا يتيح له ذلك التفرد في القارة ، والسيطرة عليها بتلك الصورة نفسها التي خفناها من هتلر وحزبه . لو أن الصلح تم في ذلك الوقت لكان التوازن أيضا في أوربا قد تم . ولكان النصر حقا نصرنا . فالجيش الأحمر كسب المعارك كما كسبها الجيش الفرنسي عام ١٩١٨ ، وبريطانيا هي التي تتزعم الموائد وتتحكم في المغانم ، ولكن ستالين ذلك الداهية ... أدرك هذه النية ... لعنة الله على الروس ، لكأنهم يقرأون أفكارنا ... ولم لا ، إنهم ولا شك يدرسون تاريخنا وسياستنا وأساليبنا ...

نهض الروس يعارضون في الصلح ويهددون ، وجاءني زميلي إيدن من موسكو طائرا يفضي إلي بأن هذه الخطة مستحيلة . وأن الروس في أيديهم ورقة أخيرة هي : اليابان ، ولم تكد شقيقتنا وولية نعمتنا أمريكا تسمع كلمة « اليابان » حتى ارتعدت فرائصها . لا ... لا ... لا يجب إغضاب الروس ،

لأن أمريكا تطمع فى انضمام روسيا إليها ضد اليابان ، وهكذا قادنا ستالين إلى أهدافه ، وسرنا كلنا خلفه ننتظر الساعة التى يرى فيها هو إنهاء القتال ...

* * *

دوتنج ستريت رقم ١٠ فى ...

تم الأمر وجربت القنبلة الذرية فى هيروشيما وناجازاكى واستسلمت اليابان ...

يا للقدر ! ... لو أن القنبلة الذرية تمت تجاربها قبل ذلك ببضعة شهور ، لتم كل شىء طبق أغراضنا ، ولأبرمنا الصلح فى الوقت الذى نريد نحن الإنجليز وبالشروط التى نراها متفقة مع مصالحنا .

لم يشأ لى الحظ توفيقا كتوفيق لويد جورج ، هذا ما لا ينبغى إنكاره ، سيكتب التاريخ عنا غدا هذه العبارة : « كان لويد جورج فى حربه سياسيا لا مجاهدا . وكان تشرشل فى حربه مجاهدا لا سياسيا » ، الواقع أن كل فضلى كان الجهاد ... الجهاد المعنوى على الأخص . ماذا كان ينتظر لأمة وحيدة تدكها القنابل دكا وقد انهار حلفاؤها وسقطوا من حولها وهى شبه عزلاء ؟ ... صمودى وصيامى وجهادى أنقذ بريطانيا من غير شك ولـكن ...

* * *

واشنجطن فى ...

تركت دفة الأمور للعمال يصنعون ما يشاءون ، ولا شك فى أنهم إنجليز قبل كل شىء ... وإن كانوا سيجنحون إلى مجاملة الروس . وتلك من كوارث ابتعادنا نحن المحافظين عن الحكم ...

أمامى بصيص أمل واحد أصلح به ما أفسد القدر ، إذا نجحت فقد حق على التاريخ أن يصحح عبارته ويقول إنى كنت مجاهدا وسياسيا معا ... أملى هو إدماج السياسة الأمريكية بالسياسة البريطانية إدماجا تاما لنواجه الخطر الروسى .

على أنه ينبغي الاحتياط في إفهام الأمريكان حقيقة « الخطر الروسي » فالمقصود به في نظرنا نحن الانجليز « توسع » الروس الذي يهدد أطراف الإمبراطورية ، وسلطانها المطلق في البحار السبعة ، ومزاحمتها لنا في النفوذ السياسي والاقتصادي ، وليس هذا مما يعني الأمريكان عنايتهم مثلا بشئون اليابان والشرق الأقصى ، ولكن يجب توحيد السياسة ليصبح ما يهمنا يهم الأمريكان ، ولهذا التوحيد أو الإدماج مزية عظيمة هي وضع السياسة الأمريكانية تحت وصاية السياسة البريطانية ، أمريكا دولة هائلة في الإنتاج ، قوية في المعدات ، غنية في الموارد ، ولكنها لم تزل صبية في السياسة ، وإن طول عزلتها عن المشكلات الدولية ، وجهلها بمسائل الاستعمار والنفوذ ، واهتمامها بشئونها الداخلية ، كل ذلك حرمها الخبرة والدهاء والمران في الميدان السياسي ، فهي لمدة أعوام أو أجيال ، شاءت أو كرهت ، ستظل معلقة بأصبع السياسة البريطانية العريقة ، وتلك هي الفرصة المواتية لنا نحن الإنجليز ، نستطيع أن نتذرع بوحدة اللغة وتقارب الجنس والميول والخصال ، لنعمل على هذا الاتحاد ، لقد كنت عرضت على فرنسا مثل هذه الفكرة أيام محنتها لنستفيد من موارد مستعمراتها ، ومن أسطولها ومن رجالها . ولكنها فطنت لخبيئة الأمر ، فهي ذات عراقة في السياسة هي الأخرى ، وقد صرح أحد ساستها بذلك قائلا إن معنى هذا الاتحاد عند الإنجليز هو ربط فرنسا في عجلة الإمبراطورية ، تسير في موكبها عضوا يأتمر بإشارة الرأس الإنجليزي المدبر ...

لا أظن أمريكا تفطن إلى ذلك ، فهي أسلم طوية وأبسط فكرا ، وسنكون معها في غاية اللباقة حتى لا تنتبه هذه الآلة الضخمة إلى أن محركها مصنوع في انجلترا ، يجب أن تكون لنا مهارة ذلك الرجل الضعيف النحيف الذي يمسك بزمام فيل هائل ، يحمل على ظهره الأعباء ، ويدوس به الأعداء ، ويقتلع به الأشجار ، ويدحرج الصخور ويستلب منه نابه وعاجه وإنتاجه ،

ويتفرج ويفرج الناس على ذنبه وأذنه وخرطومه ... والفيل راض فرح مبتهج ، يعتقد أن هذا الرجل صاحبه وحبيبه وخدينه ...

هأنذا فى واشنجطن أسعى إلى هذا ، وأقوم برحلة فى أمريكا أدعو إلى هذا ... فإذا وفقت فلن يقوم إلى جانب عملى أى عمل سياسى آخر فى تاريخ العالم الحديث .

(طبق الأصل) — ٢٢ مايو ١٩٤٦ ...

يا لها من خدعة

في عام ١٩٤٠ نشرت في الصحف بيانا بعنوان : نداء إلى رجال الفكر » .. هذا نصه :

« لا ريب أن رجال الفكر في مصر قد تأملوا مليا تلك الخطبة التي ألقاها وكيل خارجية أمريكا « مستر ممنر ويلز » عند انتهاء المؤتمر العلمي للأمم الأمريكية ، وقد أشار فيها إلى ليل العصور الوسطى وفجر عصر النهضة ، وما تبعه من حركة إحياء العلوم إلى أن قال :

« ليس في مقدورنا أن نتكهن بشيء عن احتمال العودة مرة أخرى إلى ظلام القرون الوسطى على الأقل فيما يتعلق بشئون الفكر والروح ، في بلاد أصبح البحث الحر فيها مستحيلا وأي أمل بقي للأجيال القادمة ، ما دامت هناك دكتاتوريات ترغم الناس على أن يؤمنوا بالتزويرات التي تصطنع لهم ، ويقتنعوا بالأكاذيب التي تقدم لهم على أنها حقائق ... ثم تمنى أن يزول الخطر الدائم على الحضارة ، ودعا الولايات المتحدة إلى واجب الذود عن مدنية تدين لها بخير ما عندها .

هذه الصيحة القلقة على مصير الفكر المطلق ، لا بد أن يكون لها صدى عميق في نفوس مفكرينا ومفكري الشرق الباعث لحضارة البحر الأبيض ... ولئن كان صوت أقدام القوة الوحشية وهي تسحق الأمم الحرة ، لم يزعج بعد

رجال السياسة المتنابذين عندنا ، فإن نذير الدمار المسلط على شؤون الفكر والروح كفيل أن يوحد جهود رجال الفكر ، وأن ينهضهم متساندين للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم في وضع أحجارها الأولى .

فإلى إخواني المفكرين والأدباء أوجه هذا النداء وإن العبرة التي تستخلص من قيامهم الآن قومة رجل واحد . وارتفاع أصواتهم في صيحة واحدة ، قد يكون لها أعظم الأثر في توحيد صفوف أخرى طالما انتظرتها البلاد .

* * *

أتأمل اليوم هذا الكلام وأقول لنفسي : يا لها من خدعة ! ... كيف استطاع هؤلاء الحلفاء أن يدخلوا في روعنا هذه الأوهام ؟ كيف استطاعوا أن يرغمونا على أن نؤمن بالتزويرات التي تصطنع لنا ، ويقنعونا بالأكاذيب التي تقدم لنا على أنها حقائق ... عندما أعلنوا ميثاق الاطلنطى ، وصاحوا في كل مكان هاتفين : « عالم واحد وحريات أربع » ! ...

كيف استطاعوا أن يثيرونا على القوة الوحشية التي تسحق الأمم الحرة ، فنصدقهم ونرتمي في أحضانهم كما ترتمي الحملان في أفواه الذئاب ... ونفتح عيوننا في آخر الأمر لنرى أن لا قوة وحشية غير قوتهم ، وأن لا حرية لأمم صغيرة تفلت من مخالبهم ... ويتمزق لنا الستر عن عصابة من قطاع الطرق تلبس « الفراك » ، وجماعة من اللصوص تتكلم بلغة النبلاء ! .

ثم كيف استطاعوا أن يصبغوا العالم بذلك اللون القاتم ، ويخيفوا المفكرين على مصير الحضارة ، وينذروهم بالعودة إلى القرون الوسطى بفعل الخصوم ويوهموهم بأنهم هم حماة المدنية ، وأنهم هم نبراس الحرية ، ويستنهضوهم للدفاع معهم عن حقوق الإنسان المهدرة ، ويستنفروهم للجهاد وإياهم في هذه الحرب الإنسانية المقدسة ! ...

فإذا جهادهم يتوج بمجزرة لم تر الإنسانية أحط منها يوم ألقوا القنبلة الذرية ليبيدوا بها مدينتين آمنتين بأكملهما : « هيروشيما وناجازاكى » بسكانهما الوادعين المسالمين ! ...

وإذا هم ولا حقوق للإنسان عندهم إلا إذا كان أبيض اللون ، أما السود فهم لديهم مبعدون محقرون منبوذون فى أحيائهم السوداء ... يعتبرون أمريكيين اسما ، ويخدمون أمريكا فعلا ، ولا ينالون من حقوق الحرية والمساواة البشرية ما ينال غيرهم من بقية السكان ...

يا لها من خدعة ... وقع فى شراكها كل غيور على المدنية وكل محب للفكر الحر ! ...

ولكن ... تلك مهارة الحلفاء ، وذلك سلاحهم الذى لا يفل ...

إنهم لا يحاربون قبل أن يصنعوا راية معنوية تخفى أغراضهم الحقيقية ، راية خفاقة بأسمى المبادىء يؤلبون تحتها كل نفس متحمسة للمثل العليا ...

لقد أشاعوا فى الحرب الأوربية الأولى أن خصمهم غليوم الثانى خارج على المسيحية ، وأنهم يحاربون من أجل الدين ، ومن أجل الحق ... ولقد أذاعوا فى هذه الحرب الأخيرة أن خصمهم هتلر خارج على الحضارة ... وأنهم يحاربون من أجل الحضارة ، ومن أجل القيم الإنسانية العليا ...

ولكنهم فى الباطن كانوا يعلمون أنهم إنما يحاربون من أجل غرض لا علاقة له بقيم إنسانية ، ولا صلة له بمثل عليا . غرض هو إلى الغرائز الحيوانية أقرب ، وبشرائع الغاب أوثق ...

إلى متى يبقى الفكر ألعوبة فى يد القوة ؟ ...

وإلى متى يظل الفكر أداة دعاية فى يد السلطان ؟ ...

فى النظام الدكتاتورى يصدر الأمر إلى الفكر فيطيع ...

وفى النظام الديمقراطى تنصب الخدعة للفكر فيقع ...

أول فبراير ١٩٤٧

الى ذى اللحية البيضاء ...

إليك يا برنارد شو أوجه الكلام . أنت يا من استطعت أن تكشف بطرف قلمك العابث ثوب الامبراطورية البريطانية بحواشيه المذهبة ، لتظهر من تحته حقيقتها المضحكة ! هنا كانت قوتك وهنا كان سر صفتك العالمية لأن الناس فى بقاع الأرض نسوا حافزك وسهوا عن منبتك ، ولم يدركوا إلا أنك كاتب فى الإنجليزية سما عن كل تحيز ، ليدفع الاعتداء عن العدالة ، ويحارب العدوان على الإنسانية ، وإن صدر من دولته التى بلسانها ينطق وبلغتها يكتب ... مصر لم تنس دفاعك عنها فى حادث دنشواى ... وإن كنت فى ذلك الوقت تعقد للمقارنة بينها وبين « إيرلندا » ... وطنك المهضوم ... ولكن ها أنت ذا منذ أن حلت مسألة إيرلندا تهادن الإنجليز ، فلا تسخر بهم إلا السخرية التى ترفه عنهم ولا تنال منهم ... ورضيت أن تلعب لهم وللدنيا دور « المهرج الذهنى » بدلا من المفكر الإنسانى ! ...

شد ما يحتاج العالم إليك اليوم ، لتصف صورة الإمبراطورية التى يختال بها الانجليز ... وقد أصبحت كالضياع الباهظة النفقة ، تتكلف لامتلاكها وإدارتها وصيانتها أكثر مواردها ، وصاحبها الإنجليزى بذلك راض مزهو فخور ... يلبس فى كل مساء رداء السهرة الأسود ، بقميصه المنشى الأبيض ، ويجلس إلى مائدة ، فى قاعتها الخالية من الوقود ، مرتعشا من البرد ، محاطا بتجلة الخدم والحشم فى ثيابهم الرسمية وأوضاعهم التقليدية ويتعشى « ببطاطسه » مسلوقة

فى طبق ، وماء قراح فى كأس ... ثم ينهض وهو يتضور جوعا بين مظاهر التكريم ومراسم التعظيم ! ...

هذا شأن الإنجليز ، إنهم يحبون «السيطرة» إلى حد الجوع فى سبيلها ... ويعشقون «الإمبراطورية» عشق روميو لجولييت . يخيل إليهم أنها يوم تموت يموتون ... لعل شكسبير وضع هذه «المأساة» قصة رمزية عن الإنجليز والإمبراطورية ! ولكن الختام لم يحن بعد .. ولعله يأتى قريبا ليريح العاشقين ويريح منهما الدنيا ...

بل إنهم مثل كل محب ... يرعى حياة الحب ولو فى غيره ... فيعينه على تسلق السلم إلى شرفة مطمعه ، إذا وجد فى ذراعيه خورا وفى ساقيه ضعفا ... فهم يضعون هولندا الصغيرة الخائرة على ظهر أندونيسيا الكبيرة الصابرة ، كالقرّاد الذى يضع النسناس الطليق بطرطوره وجلاجله فوق متن الحمار المقيد بلجامه وزمامه ! ...

كل ذلك تراه أنت اليوم يا برنارد شو ولا تتكلم ولا تضحك ! أترى التسعين عاما التى بلغتها قد غيرت مزاجك ! فلم يعد يضحكك منظر الإنجليز بما فطروا عليه من غباء معجون بالكبرياء ! ...

أم أن تسعين عاما فى مشاهدة هذا المنظر الواحد قد زهدتك فى الالتفات إليه ! ... فلك العذر إذا زعمت أن الإنجليز عندك لم يعودوا يصلحون حتى لمجرد الهزء بهم !

مهما يكن الأمر فأنت لا ريب تدرك فى قرارة نفسك أن هذه العجينة الإنجليزية هى دائما «خميرة» الشقاق فى العالم والشجار بين البشر ... منها يصنع خبز الشر الذى يسمم النفوس ، فتجحد العدالة والمساواة بين الأمم ، وتوقع الفرقة والتفرقة فى أسرة الإنسانية ...

فيم إذن سكوتك عن الإنجليز أيها المعمر الثرثار ؟ إنك لم تزل تملأ الدنيا كلاما ... ولكنه كلام فى الهواء ، كأنه دخان سيجار ذلك المهرج الآخر... فعلى مسرح إنجلترا اليوم ممثلان يجيدان الصخب والهذيان ... أحدهما يرتدى ثوب رجل الفكر والثانى ثوب رجل السياسة ! ...

وكأنهما الآن متفاهمان أو متآمران ! كلما مس الأمر عظمة الإمبراطورية ! ...

ما فائدة العمر الطويل ! ... كنت أحسب المعمر إنسانا انسلخ من قيود العصر والجنس ، وخرج من جاذبية الأرض والدم ، وانفلت من حلقات الأجيال المحدودة ، ليلحق بغبار الزمن الأكبر ، ويشرف من قمة أعوامه الكثيرة ، على البشرية وقد ضؤلت حدودها فى نظره ، وتكتلت فى عينه ، وأمست أسرة واحدة ! ...

يا صاحب اللحية البيضاء ! ... ارتفع عن أرض الإنجليز ، وأرسل لحيتك مع الرياح ، وصوتك مع الرعد ، وفكرك مع نور الشمس ، واغمر بوجودك العالم كله ، بسوده وبيضه ، كأنك من عناصر الطبيعة الخيرة الرحيمة ، التى لا تهادن ولا تتواطأ ، ولا تفرق ولا تميز بين شعب وشعب ، وهى تنشر ريحها وتمطر بركاتها ...

٢٢ فبراير ١٩٤٧

نسر السلام ...

للشاعر الألماني « جوته » قصيدة قصيرة يروى فيها قصة نسر صغير طار يوماً باحثاً عن الفريسة ، فأصابه سهم الصياد ، فوقع فريسة للألم في غابة من المر والريحان ... ومرت به الأيام وهو يئن صامتاً حتى أدركته رحمة الطبيعة فخففت عنه . وانطلق النسر من الغابة يصفق بجناحيه ... لكن وا أسفاه ! ... إن جناحه الأيمن مكسور ولن يستطيع بعد اليوم إلا مس وجه الأرض ناشداً الصيد الهزيل ... ووقف فوق صخرة ملقاة عند مجرى ماء ، وأرسل بصره إلى السماء فانحدرت دمعة أغلقت منه تلك العين الحادة البراقة كأنها سيف ... وهبطت قربه عندئذ حمامتان ، نظرتا إليه بعيونهما القرمزية كأنها فصوص مرجان . ولحظتا ما هو فيه من شقاء ... فقالت له إحداهما : « لم هذا الحزن أيها الصديق ، وحولك كل ما ينبغى لإفعام قلبك بالسعادة والاطمئنان ؟ ها هى ذى أغصان من ذهب تحميك من نار النهار ، وها هى ذى أزهار مغطاة بالندى تطلق بينها خطواتك الهادئة . وفى هذه الغابة تجد لك غذاء شهياً ، وطعاماً سخياً ... وفى هذا الجدول الصافى تطفىء ظمأك ، وفى زبده تغمس صدرك ، أيها الصديق ، إن السعادة الحقة هى فى الاعتدال ... الاعتدال فى المطالب ... الاعتدال فى الغايات ... فى كل مكان يستطيع الاعتدال أن يظفر بحاجته وأن يصل إلى بغيته » ...

سمع النسر ذلك القول فتحامل على جسمه الجريح وقال : « أيتها الحكمة إنك تتكلمين كأنك حمامة ! » ...

أريد أن أغير فى قصيدة جوته لفظاً واحداً : أريد أن أضع « السلام » بدل « الحكمة » ...

فيقول النسر : « أيها السلام ... إنك تتكلم كأنك حمامة ! » .

عندئذ تصلح العبارة للنقش فوق جدران المؤتمرات، وللطبع فى قراطيس المعاهدات ! ...

ولو كان للنسر أن ينطق فى عصرنا الحاضر لقال :

« أيتها الصديقة ! إن السلام لأعظم من أن تحتمله أجنحة الحمام !...» .

إنه لم يعد غصن زيتون يوضع فى منقارك الصغير ، ولكنه «قنبلة ذرية» توضع فى مخالب النسور ! » .

ما من أحد خليق الآن برفع علم السلام غير نسر ...

لأن السلام لم يعد مجرد كلام ... إن السلام والحرب جهدان متكافئان .. السلام والحرب مثل وجهى الدينار ، مَن ملك أحدهما ملك الآخر ... ومن حمل النار حمل النور ...

إن من استطاع أن يثير الحرب ، استطاع أن يصون السلام .

ليس من حق الأعزل أن يتحدث عن السلام .

تتكلمين أيتها الصديقة عن « الاعتدال » فى المطالب والغايات ، هذا كلام جيد . ولكن من الذى يصد رغبتى ويحد من شهوتى ؟ أهو غصن الزيتون الذى فى فمك ؟ أم هو السيف الذى فى يد جارى ؟! ...

تحسبين كلامك من ذهب ! ... وا أسفاه ! ... إنك لا تعلمين ما هو الذهب فى هذه الأيام ؟ الذهب اليوم ليس معدنا ذا بريق ، جميل للنظر ، خلاباً للبصر ... ما من أحد يأبه الآن للرنين البديع ، أو يحفل بالمعنى الرائع ،

إنما الذهب اليوم سبائك توضع في أقبية للصارف ، كما توضع القوات المسلحة في ثكنات الدول .

يجب أن يكون للدولة رصيد من « ذهب » لتستطيع أن تصدر « سندات السلام ! ... » .

أصغت الحمامة إلى هذا القول وطأطأت برأسها الصغير ، ثم قالت بنبرة الإذعان :

— صدقت ! ... لا تصلح الحمامة رسولا للسلام في هذا الزمان ! ... حتى هذه المهمة النبيلة الجميلة لم تعد من حقي ؟ . خذها إذن أيها النسر فريسة لك ضمن ما أخذت . وأطبق عليها برفق وحنان واحذر أن تخنقها قبضتك ... وسيان عندي ... سيان أن يؤدي هذه المهمة السامية في أو مخلبك ؟ !

هل يتحد العالم ؟

فى عام ١٩٢٧ قرأت كتابا نشره وقتئذ العلامة الإيطالى « فيريرو » بعنوان « وحدة العالم » بسط فيه المشكلات التى خلفتها الحرب العالمية الأولى ...

ولقد عدت أخيرا إلى قراءة هذا الكتاب ... فإن من أنفع الأمور فى نظرى أن يعيد الإنسان قراءة الكتب السابقة بعد فترة من الزمان ... فماذا وجدت ؟ ... فى الحق أنى وجدت صفحات خيل إلى أنها كتبت عقب هذه الحرب العالمية الأخيرة ... فلننتظر إذن طويلا ... فهذه أوروبا ليست سوى بركان يغلى بالأحقاد القومية ... تلك هى الحقيقة المرة ، كل شعب يعتقد أنه « هابيل » المهدد بالخطر من « قابيل » ... وأن جهود أصدقاء السلام ومؤتمرات السياسة ليست أكثر من هباء ضائع ... إلى أعرف ما سيحدثه هذا القول من يأس فى نفوس الكثيرين ، ممن يؤمنون بضرورة وحدة العالم ... ولكن ها هى ذى الحرب العالمية قد زلزلت سلطان أوروبا السالف على أفريقيا وآسيا ... وهددت سيطرة بريطانيا على البحار ... ولم يبق لنا إلا أن نتساءل : من الذى سيكون سيد العالم فى المستقبل ؟ ... بأى وسيلة من السلاح والمال وحيل السياسة سيقفز هذا السيد إلى عرش سلطانه ... ذلك أن العالم لا بد له من سيد آخر ... من يكون ؟ أهى أمريكا بثرائها الضخم ؟ ... لقد كانت قبل الحرب مدينة إلى أوروبا فأصبحت اليوم هى الدائنة للعالم والممولة للشعوب . أم ترى هى اليابان التى أغنتها الحرب ؟ ... إن الساسة والمفكرين

ليتساءلون عما يحدث لو أن اليابان نجحت في أن تضم إليها الصين ، وأن تجعل منها دولة حديثة كبرى تحت إدارتها ... ما من شك في أن ذلك كفيل بأن يحدث هزة في الكوكب الأرضي ... أم أن الأمل معقود على روسيا المتدثرة بالغموض ، المغلفة بالأسرار ؟ ... ما من مكان تشب فيه حرب ، أو تشتعل ثورة إلا قيل إن أصابعها هي التي أشعلت عود الثقاب ... وإن أولئك الذين ينتسبون إليها ذلك ، ليعتقدون كل الاعتقاد أن روسيا هي الأخرى تحلم بالسيطرة على العالم ، وأنها مستطيعة تحقيق ذلك الحلم على أثر انقلاب عالمي ... الخ ...

هذا الكلام الذى نشره « فيريرو » منذ عشرين سنة ، يمكن أن ينطبق على أحداث هذه الأيام ... باستثناء ما ذكر عن اليابان التى حطمها السلاح الذرى ، وهو ما لم يكن يخطر على بال إنسان ... أما إنجلترا فقد كان شبح انحلالها قد بدا لذلك المؤرخ منذ تلك الأعوام ...

العالم إذن قد صار كرة تتقاذفها يدان قويتان : أمريكا وروسيا ... وهذه المباراة لا بد أن تنتهى عاجلا أو آجلا إلى الخاتمة المحتومة ... سينقشع الغبار فى الغد عن الفائز بالكرة ... والسيد لهذا الكون !

ولكن هل بذلك يسدل الستار وينتهى الخلاف ، وتتم على هذا النحو وحدة العالم تحت راية المذهب الغالب ! ..

ما أحسب ذلك ممكن الحدوث ، إن وحدة العالم على أى صورة من صوره خرافة ... إنها وهم من الأوهام التى تقوم فى رؤوس المثاليين ... إن الدنيا لم تعرف فى تاريخها كله لحظة من اللحظات اتحدت فيها المذاهب ، واتفقت الآراء ... إن الرأى الغالب نفسه سوف ينقسم إلى أجزاء لن تلبث أن تتخاصم وتتعارض ... والمذهب الواحد لا يطيق أن يحيا طويلا دون أن يولد من صلبه مذاهب تتدافع وتتطاحن ... إن ناموس الحياة يأبى إلا ذلك الاختلاف ... ولو استطاع جسم واحد أن يحيا بكرات حمراء دون كرات

بيضاء تنافسها وتغالبها ، لأمكن للعالم أيضا أن يعيش بالمذهب الواحد والرأى الواحد ! ... ولكنه الموت إذا وقع هذا الاتحاد التام بين كرات الدم أو مذاهب العقل ! ... لأن الحياة ليست سوى حرب سجال بين عناصر متباينة ، وتوازن بين قوى مختلفة ... لا وحدة للعالم إذن ... إذا خرجنا من طبائعنا وغرائزنا وخلعنا آدميتنا ، ولم نعد نخضع للقوانين التى خلقت بمقتضاها أجسامنا وعقولنا ونفوسنا ... ما دمنا بشرا فالحرب باقية ... لأنها من مقومات حياتنا ... داخل الأبدان على صورة معارك بين الجرائيم ... وداخل العقول على صورة خلاف فى الآراء ... وداخل الشعوب على صورة صراع على التفوق ... فإذا سكنت هذه الحرب أو الحركة داخل الشعوب والأفراد ، فمعنى ذلك انحلال القوى وانهيار الصحة واقتراب من الفناء .

يجب على المفكرين إذن أن يبحثوا عن صورة أخرى للسلام غير تلك الصورة التى ألفوها واعتادوا عرضها على الناس ... وهى « منع الحرب » ... إن الحرب فظيعة حقا ، ولكنها كتبت علينا ... ولن نستطيع منها خلاصا ... إلا بأمر واحد : أن نهذب وسائلها وأن نتسامى بأساليبها ... وأن نجعلها جديرة ببشر لا بوحوش ... ولكن كيف السبيل إلى ذلك أيضا وفى داخل كل منا وحش لم نستطع بعد آلاف الأجيال أن ننتزع منه المخلب والناب ؟ ! ...

١٥ مايو ١٩٣٨ ...

إنى أتحدى

أتحدى بريطانيا العظمى أن تقدم على حرب عالمية أخرى وهى غير مستندة إلى صداقة مصر .

غدا يقول التاريخ إن السبب الأكبر فى انتصار بريطانيا فى الحرب الماضية يرجع إلى معاهدة ١٩٣٦ . وإذا كان لهذه المعاهدة عيد ذكرى واحتفال فيجب أن يقام ذلك العيد فى لندن لا فى القاهرة .

لقد أثبتت مصر أنها أمة شريفة المبدأ كريمة العنصر طاهرة الضمير · تعرف كيف تحترم كلمتها ، وتحفظ عهدها وتصون إمضاءها ، فرت أمامها الأحداث ورأت بريطانيا بجوارها تخر على الأقدام ، تنزف من جراح قتالة ، وتتلقى الضربات الأخيرة التى تقصم الظهور ، ثم شاهدتها تلم شمث متاعها ، وتجمع فلول رجالها وتتراجع أمام العدو قرب الاسكندرية ، مترنحة مذهولة ، لاهثة يائسة ، صوب مخرج لا تدرى أتلقاه أم لا تلقاه ، ومصير لا تعرف أهو الأسر أم القبر ... كل ذلك ومصر معها بكل معونة ومؤونة ، دون تبرم أو تذمر ، ودون كلمة ، أو تمرد أو معايرة أو معاتبة ، كذلك الذى وقع بين جنودها من الإنجليز وجنود المارشال ممطس الذى يحتج اليوم على الجلاء باسم الإمبراطورية ويتبجح ! ...

قامت مصر بهدوء ورباطة جأش تمين وتنقذ وتؤازر لأنها لا تنطوى على غدر .. ولأنها تؤمن بأن صك الصداقة ليس قصاصة ورق ، بل وثيقة شرف

تحمل توقيعها — هى الأمة الصغيرة الضعيفة — فلا بد من الوفاء للحليف حتى وإن أوردتها معه هذه المحالفة المضاة موارد الحتوف … تلك هى مصر … ليست نهازة للفرص الدنيئة، ولا طعانة من الخلف فى الظهر المكشوف …

ترى ماذا كان يحدث لو أن مصر كانت طليقة من كل قيد. حرة من كل تحالف أو تعاهد أو توقيع … وأن مركز بريطانيا فيها خلال حربها الضروس مركز المحتل الغاصب بغير سند شرعى … وكانت مصر تسمع وتعلم بما يجرى فى بلاد وقع عليها اغتصاب شرعى مماثل كفرنسا وتشيكوسلوفاكيا والنرويج … وما نظمه أهالى تلك البلاد الأبطال من حركات المقاومة السرية التى قامت لعرقلة حركات المحتل ونسف عتاده وقطع مواصلاته وحرق مؤنه والإخلال بأمنه والعبث بمصانعه ومرافقه؟ …

ماذا كان يحدث لو أن مصر — شعبا وحكومة — رأت نفسها فى حل من أن تفعل مثلما فعلت بلاد أوربا المحتلة، ولا رباط صداقة أو معاهدة أو محالفة يكتف ذراعيها ويغل يديها، فقامت قومة رجل واحد وانقضت على بريطانيا المحتضرة فى العلمين، لحطمت قواتها ونسفت عتادها وحرقت مؤنها وأشاعت فى صفوفها المبعثرة أشنع الفوضى وأناخت ظهرها المنحنى بأفظع المتاعب وأثقل الأعباء؟! …

أكان يقدر عندئذ لبريطانيا النصر؟ … إن العلمين كما تعلم الدنيا اليوم كانت نقطة التحول … ولو كسرت بريطانيا يومئذ لما قامت بعدئذ لها قائمة! … وكان هذا الانكسار من أيسر الأمور، لقد كان معلقا بأصبع مصر … لو لم تكن مصر مطبقة على ورقة صداقة وحلف وصدرها مغلق على شرف وضمير!

من أجل هذا أقول إن صداقة مصر ألزم لإنجلترا من صداقة المارشال سمطس[1] وجنوده!.

(١) رئيس جنوب إفريقيا.

ومن أجل هذا أتحدى بريطانيا أن تقدم على حرب قبل أن تكتف يد مصر بمعاهدة صداقة شريفة ...

صداقة مصر لبريطانيا ضرورة حربية حالة ... ولكن صداقة بريطانيا لمصر ليست أكثر من إجراء مرغوب فيه ...

نحن نستطيع الانتظار بغير قلق، ما دامت فى نفوسنا وطنية وفى قلوبنا إيمان ... أما الإنجليز فكلما لاح شبح الحرب اهتزوا قلقا وفرقا ... لأنهم يعرفون أن مصر الطليقة من قيود المعاهدات والصداقات أخطر عليهم فى الشرق الأوسط من أمة أوربية مدججة بالسلاح ... وأنهم يدركون ما نستطيع أن نصنع فى فترة اليأس من المفاوضات والمحالفات والصداقات ... إن لم يكن لدينا سلاح غير الانكباب على دراسة حركات « المقاومة السرية » ونظمها وأساليبها التى أدت إلى تحرير فرنسا وغيرها ... وإيفاد البعوث إلى رؤساء هذه الحركات يفقهوننا فى خير الطرق والوسائل ... لكفى بهذا السلاح نتربص به لبريطانيا فى أيامها السود ! . لقد علمتنا الحرب الأخيرة أن الأمم العزلاء لها سلاحها الفتاك وقوتها غير المنظورة ... أيها الشعب المصرى ! ... أنت صاحب حق ... ولكن إياك أن تطالب بحقك مطالبة الشحاذ ... لوح بشىء من القوة ... إن الحق العارى من القوة شحاذ يستجدى ! ...

وأنت أيها المفاوض المصرى، اطمئن واهدأ نفسا وكن رابط الجأش شجاعا، واعلم أن « بيفن » ليس مغفلا ... وحتى « تشرشل » ليس مغفلا ... كل ساسة بريطانيا يعلمون علم اليقين أن صداقة مصر المكتوبة الممضاة، هى خط الدفاع الأول عن بريطانيا العظمى ! ...

١١ سبتمبر ١٩٤٦ ...

هل ذهبت الروح ؟

... أمة أتت فى فجر الإنسانية بمعجزة « الهرم » أن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى ... أو معجزات ! ... أمة يزعمون أنها ميتة منذ قرون ... ولا يرون قلبها العظيم بارزا نحو السماء من بين رمال الجيزة ! ... لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الأبد ! ...

* * *

... ما غابت شمس ذلك النهار ، حتى أمست مصر كتلة من نار ... وإذا أربعة عشر مليونا من الإنس لا تفكر إلا فى شىء واحد :

« الرجل الذى يعبر عن إحساسها ... والذى نهض يطالب بحقها فى الحرية والحياة ، قد أخذ وسجن ونفى فى جزيرة وسط البحار ... » .

« وانقلبت القاهرة رأسا على عقب ... فأغلقت الحوانيت والمقاهى والبيوت وقطعت المواصلات وعمت المظاهرات ... وقام نفس الهياج فى جميع أرجاء الأقاليم والأرياف ... وإن الفلاحين لأشد من أهل المدن فى إظهار احتجاجهم وغيظهم ... فلقد قطعوا الخطوط الحديدية ، ليمنعوا وصول القطارات المسلحة ، وأحرقوا دور البوليس ... إن كل فئة وطائفة كانت تحسب نفسها البادئة بالقيام ... الشاعرة بالعاطفة الملتهبة الجديدة ، ولم يفهم أحد إذ ذاك أن هذه العاطفة انفجرت فى قلوبهم جميعا فى لحظة واحدة ، لأنهم كلهم أبناء مصر لهم قلب واحد ... » .

* * *

... إن هذا الشعب الذي نحسبه جاهلا ، يعلم أشياء ... ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله ، إن الحكمة العليا في دمه ولا يعلم ، والقوة في نفسه ولا يعلم ... هذا شعب قديم ... جيء بفلاح من هؤلاء وأخرج قلبه ، تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة ، من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض ، وهو لا يدري ... نعم ، هو يجهل ذلك ، ولكن هناك لحظات حرجة تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجاريب، فتسعفه ، وهو لا يعلم من أين جاءته ؟! ... هذا يفسر لنا ... تلك اللحظات من التاريخ التي ترى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة في قليل من الوقت ، وتأتي بالأعاجيب في طرفة عين ؟ ... كيف تستطيع ذلك إن لم تكن هي تجاريب الماضي الأصيلة ، قد صارت في نفسها مصير الغريزة » .

* * *

رجعت إلى هذه الأسطر من « عودة الروح » لأذكر نفسي بشعوري في ذلك العهد ، لقد مضت ثلاثون سنة على حوادث الثورة ... رأينا خلالها العديد من المظاهرات والاضطرابات والإضرابات ... ولكن شتان بين ما حدث في الماضي، وما يحدث اليوم ... ففي عام ١٩١٩ لم تكن هناك منظمات ولا هيئات ولا أحزاب ... ترتب وتهيء وتحرض وتدفع ... ولكنها يقظة مفاجئة ، وانفجار خاطف ، انطلق من جوف مصر كلها في وقت واحد لا يدرى أحد مَن محركه ؟ ذلك أنه لم يكن له محرك غير ضمير الوطن وحده . انفجار لم يذهل الإنجليز وحدهم ومن خلفهم ... بل أذهل زعماء مصر أنفسهم ... وعندما بلغ سعد زغلول ، وهو لم يزل في المنفى ، خبر وثبة مصر لم يصدق ما سمع ... وعندما عاد ورأى بعينيه مصر كلها شعلة تتوهج ، بهر الضوء بصره ، ثم جعل يتفرس فيما حوله ... وكأنه يسائل نفسه :

أهذا حقا بلده الذي تركه منذ قليل ، أم هو بلد آخر ، ليس له به عهد ... ما كان أحد منا يدرك وقتئذ مدى القوة في داخل نفوسنا ! ... كان ذلك

منذ ثلاثين سنة... أما اليوم فهنالك من يتساءل : هل احتفظنا بتلك الروح ؟...
أم أنها ذهبت كما يذهب الريح ؟ .

كثير ممن عاصروا الثورة القديمة ، يهزون رؤسهم أسفا ويقولون : أعجوبة ظهرت مرة ولن تعود ... أما الشباب الذى لم يعاصر تلك الثورة فيسمع ذلك ويهز رأسه عجبا ويقول : نحن اليوم أيضا نثور ونضرب ونتظاهر ونخرب ... فما الفرق بين ثورتنا وثورة السابقين ؟ ! .

الفرق فى رأيى هو أن كل طائفة اليوم لها ثورتها ... شباب الجامعة يثورون لما يهمهم ... والعمال يثورون لمطالبهم ... والموظفون يثورون لمصالحهم ... ثورات كثيرة حقا . لكنها مختلفة الهدف ... متعددة الأسباب ! ...

لم تعد الثورة تنفجر من قلب واحد ... فى وقت واحد ... لقصد واحد ... ولكنها تنفجر من قلوب عدة ... فى أوقات متفرقة ... واتجاهات متباينة ... روح مصر الحقيقية لم تذهب ... ولن تخمد ... هذا إيمانى الذى لن يزول... ومنذ بدت هذه الروح لعينى عام ١٩١٩ تملكتنى عقيدة أن هذا الذى أرى ليس شيئا جديدا ولا طارئا ... إنما هو شيء موجود دائما ... باق أبدا ... ولكن روح مصر تنام أحيانا عندما ينساها أهلها ، فلا يوقظونها ... وتتبدد أحيانا عندما يختلس منها أبناؤها أقباسا ، ينفقونها فى شتى الأغراض ، وتحار أحيانا عندما يتعدد الزعماء ، فيقودونها كل فى طريق... وهى تظل هكذا فى نومها أو بددها أو حيرتها ... إلى أن يتيح لها القدر ، بين فترة وفترة ، من الظروف والرجال والأحداث ... ما يدفعها إلى وحدة الغاية والسبيل والقيادة ... عند ذلك يرى العالم العجب . ويصيح الناس ... ويهمس التاريخ :

أنظروا لقد تكررت المعجزة ، وعادت الروح ! ...

١٣ نوفبر ١٩٤٨ ...

تحرك الشرق الجامد ...

... أخيراً قد تحرك الشرق الجامد ! ... تحرك من صميم أغواره ... وإنه اليوم ليتأهب لوثبة عجيبة ... وإن قوىً في صدره تتأجج ، وإن أفكاراً في عقله تتخمر ... كل هذا يحدث على نحو مفاجيء ، وعلى صورة عميقة ماسبق للعالم أن عهدها فيه ... هذا الشرق الذي لبث في نوم عقلي وروحي ، ما يقرب من ألف عام ، ينفض الآن عنه الـكرى ، وينهض على قدميه ليسير من جديد ... يسير إلى أين ؟ ... لسنا ندري بعد إلى أين يسير ... وإنه لمن الجرأة أن نتنبأ عما سوف يتمخض عنه هذا الحدث المعظم في السياسة والاقتصاد والاجتماع والدين . وغيرها من دعائم الحضارة الانسانية ... ولـكننا نأمل أن يصاحب هذه الجهود والآلام مولد شرق ، بعث ليحتل مكانه في عالم جديد » ...

قائل هذا الـكلام كاتب أمريكي اسمه « لوثروب ستودارد » ... نشره في كتاب عنوانه « عالم الإسلام الجديد » . ظهر في عام ١٩٢١ .

وأهمية هذا القول أنه يصور رأي أمريكا في شرقنا عقب الحرب العالمية الأولى ... ويرينا كيف أنهم استطاعوا أن يفطنوا إلى ما يضطرب يومئذ في نفوسنا من عناصر الحياة والنشاط والنهوض ... وما من شك في أن أمل الـكاتب قد تحقق أكثره ... فقد استطاع الشرق في ربع قرن أن يحتل مكاناً لا بأس به في هذا العالم الجديد الممثل في « هيئة الأمم المتحدة » ! ... على أن الذي كنت أود معرفته هو رأي ذلك الـكاتب في هذا « العالم الجديد » ...

وعلى رأسه بلاده وزعيمها « ترومان » ؟ ... « العالم الجديد » ... أتراه قد حقق أمله أم خيبه ؟ ... لست أدرى أهو حى ذلك الكاتب الآن أم هو فى الأموات . ليجيب عن هذا السؤال !!.

ولكن فى كتابه مع ذلك نظرات ، نستطيع أن نستشف منها رأيه فى السياسة الأمريكية الحاضرة ... لقد ألف كتابه فى وقت كان فيه الوطنيون فى الشرق يهبون مناضلين عن حرية أوطانهم ... وكانت فيه الثورة الروسية الفتية تهب مطلقة دعايتها فى أرجاء المعمورة ... فلنصغ إلى ذلك الكاتب إذ يقول :

« ... يا له من موقف مؤلم حقا ... موقف أولئك الوطنيين الشرقيين ... إنهم بين المطرقة والسندان ... بين سندان البلشفية ومطرقة الاستعمار الغربى ! ... كلما تلقوا من الحلفاء ضربة اتجهوا صوب « موسكو » . وكلما صدمهم « لينين » صدمة التفتوا نحو الغرب ! ... لوكان لدى ساسة الغرب ذرة من الإدراك لفطنوا إلى هذه الحقيقة ، وهى أن خير عامل من عملاء الدعاية البلشفية ليس « زينوفييف » ، بل قادة الحلفاء بقواتهم الباطنية ووسائلهم العتيقة فى سوريا وقلب بلاد العرب ! » ...

تلك نصيحة عمرها ربع قرن ! ... ولكنها لم تهرم بعد ... بل إنها لم تزل صالحة لأن تلقى اليوم فى بعض الأسماع الثقيلة والآذان الصماء ! ...

ولنستمع إلى ذلك الكاتب أيضا وهو يبدى مخاوفه من أن تمتد يد البلشفية إلى الشرق :

« ... إن الشرق قريب الشبه جدا من روسيا ... وإن مؤتمر « باكو » كان هو القنبلة الأولى التى افتتحت بها المعركة ، التى قصد بها توجيه الغزو البلشفى المباشر إلى الشرق ! ... »

ولـكن مؤتمر « باكو » لم يستطع فى ربع قرن أن يبلشف أكثر من القوقاز وجورجيا وأرمينيا ...

إلى أن جاء « ترومان » فى آخر الزمان ...

وهنا تستطيع روسيا أن توقن بأن مؤتمر « باكو » قد نجح بفضل أمريكا نجاحا لم يخطر على بال ...

لقد أهدى إليها ترومان دولة بلشفيه فى قلب الشرق العربى ... إنها الواحة المورقة التى سوف تغرس فيها من مبادئها جنات ... يحلم بما فيها كل من جاورها من الشعوب ! ...

ما أيسر المهمة أمام روسيا بعد ذلك ! ... وما أعجزها إن لم تنتهز الفرصة فتطرد الغرب بعدئذ من الشرق بركلة قدم ! .

هذا ما رآه وخشيه الـكاتب الأمريكى « لوثروب ستودارد » منذ ربع قرن ! ...

وهذا ما لم يره الرئيس الأمريكى « ترومان » منذ يومين ! .

والله يعطى البصر من يشاء ... ويعمى بالغرض من يشاء ...

وما ينبغى لنا نحن أن نعلق آمالنا على أغراض الدول ، تعمل طبقا لأغراضها ... فلنأخذ خيرنا حيث نجده ، ولنسع إلى حاجتنا حيث تكون ! ...

إن الله تعالى أراد لهذا الشرق الجامد أن يتحرك ... كما قال الـكاتب الأمريكى الحصيف ... ولقد شاهد فى صدره قوى تتأجج ... ورآه ينهض على قدميه ليسير ... ولقد تساءل : إلى أين يسير ؟ ... وها هو ذا الجواب بعد ستة وعشرين عاما : إنه يسير إلى مجده ... محطما فى طريقه كل من يقول له : قف مكانك أو عد إلى جمودك ! ...

٢٩ مايو ١٩٤٨ ...

شعب يريد النصر

من يطالع كتاب « الحرب والسلام » لتولستوى يجد هذه السطور :

« إن المعركة لايكسبها دائما إلا ذلك الذى وطن النفس على كسبها ... لماذا خسرنا موقعة أولسترلتز أمام « نابليون » ؟ لقد كان ما تكبدناه من خسائر معادلا لما تكبده الفرنسيون ! ... ولكن الذى حدث هو أننا كنا أسرع منهم اعتقادا فى الهزيمة ! ... إن الإنتصار لا يتوقف على القائد ولا على رئيس هيئة أركان الحرب... ولكنه يتقرر عندما يصيح أول جندى « لقد خسرنا ! » أو عندما يهتف : « لقد ظفرنا ! » » .

ويمضى تولستوى بعد ذلك فى تحليل ما حدث عام ١٨١٢ من ارتداد نابليون بجحافله عن مدينة موسكو ... لا عبقرية نابليون فى رأيه ، ولاما كان يصاب به من زكام ، ولا جليد روسيا الذى كان يجمد أنوف جنده ، فتتساقط من الوجوه كأنها حطام . ما كان هذا كله هو السبب فى تقهقر الفرنسيين ... إنما السبب الحقيقى فى نظره هو أن روسيا كانت تتشبث بحياتها فى أرضها أكثر من تشبث فرنسا باحتلال أرض ليست لها ... لقد أراد الروس طرد هؤلاء المتطفلين على بلادهم ... وكانت إرادتهم هى الأقوى... لأنها الأصدق ... ولا شىء فى الوجود يهزم إرادة صادقة ! ...

النصر هو إذن لمن يريد النصر ... ولا يريده حقا من صميم نفسه إلا ذلك المعتدى عليه فى عقر داره ...

إن الدول تنبت وتشب فى أرضها على مدى الأحقاب ، كما ينبت ويشب الدوح ، وتثبت جذوعه ، وتتغلغل جذوره ... فلا تخلعه العواصف ، ولا تقلعه الرياح ... إنها لا تزرع لساعتها بالأيدى فى أى أرض ، كما يزرع ضعيف الحشيش وواهن العشب ... فبالأيدى يخلع كذلك وفى الفضاء يطرح !...

هكذا يظن قصار النظر من ساسة الغرب أن فى مقدورهم أن يغرسوا بأيديهم فى طرفة عين دولة فى أرض الغير ...

إن التاريخ غنى بالعبر ... ولكنهم لا يبصرون ...

ولكن الموعد قريب ... يوم تردهم طبيعة الأشياء إلى البصر ، فيرون عندئذ كيف يتطاير زرعهم هباء ، وكيف تذروه الرياح بدداً ...

إننا سننتصر لأننا أردنا النصر ... كل فرد فينا أراد النصر ... لا جندى القتال وحده ... بل كل إنسان نبت فى هذه الأرض ... وتغلغلت فيها جذوره منذ القدم ... كل إنسان عالم أو جاهل ... كل فرد صانع أو عامل ... إن الجميع يتحرقون شوقا إلى العمل من أجل النصر ، ويضطرمون غضباً على كل من يصدهم عن هذا السبيل ...

لقد تلقيت ذات يوم صيحة مجلجلة كقصف المدافع من رجال بعيدين عن الحرب كرجال التعليم الصناعى يقولون ثائرين : « لقد التمسنا من أولى الأمر أن يستغلوا خبرتنا الفنية والعلمية من أجل الإنتاج الحربى ومن أجل جيشنا المظفر ... لدينا مصانع كثيرة يمكنها أن تعمل لا بحرارة الوقود بل بحرارة دمائنا التى تغلى فى العروق ! ... لا نريد أن تظل خبرتنا معطلة وقوتنا مهملة فى هذا الوقت الذى ينال فيه الجندى شرف إهدار دمه فى ساحة البطولة والتضحية ... لا نريد أوسمة من الشكر والتقدير كتلك التى منحتنا إياها أصحاب الأمر يوم عرضنا تطوعنا ... إنما نريد أوسمة من التجنيد والتكليف بالعمل لخدمة الجيش ليل نهار . إنه ليحز فى نفوسنا أن الجيش

البريطانى قد استغلنا فى الحربين العالميتين ، واعتصر جهودنا فى خدمة ما أسموه قضية الديمقراطية ... نريد نصيبنا من الكفاح قبل أن نعطى أجازات الصيف حيث الدعة والراحة . فى وقت نعتبر فيه الراحة جريمة فى حق الوطن الناهض والجيش المجاهد ...

بهذه اللهجة يتكلم الناس اليوم فى هذا البلد ...

ولكن كان هتاف أول جندى بالظفر هو الذى يقرر فى نظر تولستوى مصير الموقعة ... فما بالك بهتاف كل فرد فى الأمة طالباً نصيباً فى الجهاد من أجل نصر البلاد ! ! ...

فى يقينى أننا أمة كتب لها الانتصار ... لأنها تريد خالصة صادقة أن تنتصر ...

١٩٤٨ (*)

(*) هذا مقال عن الحرب بيننا وبين إسرائيل التى قامت لها دولة فى عام ١٩٤٨ على أرض فلسطين .

عيشوا فى خطر ...

« ... إنى أحيى تلك البوادر التى تنبىء بقدوم عهد موسوم بالرجولة ... نقشت فيه من جديد على جدران القلوب كلمة « البطولة » ...

صدقونى ! ... إذا أردتم أن تحصدوا ما فى وجودنا الخصيب من ثمرات وأن تفوزوا من الحياة بأشرف المتع ... فإنى أكشف لكم النقاب عن السر : عيشوا فى خطر ! ... ابنوا مدنكم على حافة البراكين ... أرسلوا سفنكم إلى البحار المجهولة ... اشتركوا فى الحروب مع أندادكم ... إن لم تستطيعوا أن تكونوا مسيطرين ومالكين ! .

عندئذ تشعرون أنه قد ولى عنكم الزمن الذى كنتم فيه تقنعون بالحياة فى الغاب مختبئين ، كالظباء النافرة الخائفة ! » ...

تلك كلمات « نيتشه » ... لكأنى به يوجهها إلى شعبنا الكريم ، ووالله لو كان ذلك الفيلسوف حياً ، ورأى من مصر ما نرى اليوم ، لتنبأ لها هى أيضاً بذلك العهد الموسوم بالرجولة والبطولة ...

إن تلك الصيحة : « عيشوا فى خطر » هى منذ اليوم صيحتنا ، فلتكن هناك هدنة أو لا تكون ... ولتقم للأعداء قائمة أو لا تقوم ... فإن شعورنا بظل من خطر يدنو من أرضنا ، وإدراكنا للتبعة الملقاة على أكتافنا ، وإيماننا بأننا لن نحيا إلا بكفاحنا ... كل ذلك كفيل أن يجعل منا ذئابا تنام فى الغاب بعين واحدة ... وتمضى النهار تسن المخلب وتحد الناب ! ...

سنعيش فى خطر ... ولن نخشاه ... لأن به عرفنا أنفسنا ، واستوثقنا من صلابة عودنا ... وأدركنا عندما سمعنا صوت العدو فى غابنا ، أنا لسنا بالغزلان الشاردة ، ولا الظباء النافرة ... ولكنا أسود كاسرة ، وسباع ظافرة ...

وليس هذا علينا بجديد ... فما من مرة نحس فيها أن العدو عدونا ، وأن الحرب حربنا ، إلا قمنا فيها هذه القومة ... لقد كان لنا دائما من شعورنا هاد، ومن نظرتنا مرشد ... لقد اشتعلت من حولنا نيران الحرب العالمية الأخيرة ، فما استطاعت حرارتها أن تنفذ إلى قلوبنا ... فقد شممنا منها بأنوفنا الدقيقة دخان الختل والخديعة ... صاح المتحاربون بأفكهم يقولون : إنها حرب من أجل الحريات ... إنها حرب من أجل الحق ... إنها حرب من أجل نصرة الضعفاء وتحرير الأمم الصغيرة ... ونشروا ميثاق الأطلنطى ، وقطعوا العهود بقيام عالم حر جديد . كل هذا ما هز نفوسنا ... لأننا كنا ندرك بإحساسنا الداخلى أن كل ذلك هراء ... فنحن كنا نعلم فيم قامت تلك الحرب ، وكان موقفنا فيها موقف جماعة من الأبرياء الأطهار ، ألقت بهم الظروف فى حلبة قمار ... وقد طفق دهاة المتقامرين يغرونهم بأن يشتركوا فى اللعب ويساهموا محاولين أن يسلبوا ما فى جيوبهم من نقود ، وأن يستنزفوا ما فى عروقهم من دماء . وكل يؤكد أنه هو الرابح ، وأن بربحه يعم الخير والرخاء من ساهم ودفع ... ولقد ساهمنا نحن فعلا ودفعنا ... مدفوعين بعهود الصداقة للحليف ، ولكنا ما شعرنا لحظة أن هذه المساعدة لها فى نفوسنا من المعانى أكثر من كونها نوعا من البر والصدقة ، أو عربونا للعهد والصداقة ... إن هذه المؤازرة فى حلبة « القمار » ما كانت تشعرنا ببطولة ، ولا كانت جديرة أن توقظ فينا الإحساس بالفخار ...

أما اليوم فنحن أمام عدو لنا وحدنا ... لا نساق إليه سوقا ، ولا نساوم

على مخاصمته بالوعود ... نرى أقوى دول العالم تؤيده ، ونرى أنفسنا منفردين بمداوته ... ومع ذلك ... فقد نهضنا لسحقه بقلوب تزأر فى جوانبها البطولة كأنها الرياح الهوج ... غير معتمدين على أحد ولا منتظرين مكافأة من أحد(*) .

تلك هى مصر ... دائما ... صريحة صابرة صلبة صادقة ... لا يستنفرها للحرب ألف حليف قوى ، ولا ألف وعد سخى ... ولكنها تنهض بمفردها تناضل ، إذا تشبعت بالإيمان غير حافلة بمواطن الخطر ...

١٩٤٨ ...

(*) كتبت بمناسبة الحرب مع إسرائيل .

هذه هي المدرسة الشعبية

النظام ، الديمقراطية ، الوطنية ، صفات رأيتها مطبوعة لا فى لوحة داخل إطار تزين الجدار ... بل فى أعمال طبيب سويسرى للأسنان ، دخلت عيادته ، وهو رجل مشهور فى مهنته ... مرتفع الأجر ... كثير الزوار ، لا يظفر طالبه بموعد قبل أسبوع أو عشرة أيام ... فما وجدت فى بهوه غير ممرضة ... وما أبصرت فى قاعة انتظاره أحدا ينتظر ... أين زبائن هذا الطبيب ؟ . إنهم يأتون فى مواعيد محددة ، ومن تخلف ألغى ميعاده ، والقادم يأتى فيجد سلفه فى حجرة العلاج ، فما يكاد ينتظر حتى يخرج فيحل محله ... وهكذا دواليك ... فلما جمعت قاعة الانتظار زائرين ... هدا هو النظام ... وإن من بين زبائن الطبيب وزراء وسفراء وأصحاب ملايين فما استطاع واحد منهم أن يمتاز بلحظة أولفته أو إشارة أو تحية على الآخرين ... هذه هى الديموقراطية ... وأدهشنى ما رأيت فى قاعة الانتظار من صحف مصورة ومجلات ملونة كلها دعاية للسياحة فى سويسرا « وطنه » تظهر روعة مشاتيها فى الجبال والسهول المغطاة بالجليد ، ومحاسن مصايفها فى المروج والأعالى المكسوة بالسندس الأخضر ... هذه هى الوطنية ...

* * *

حادثت الرجل فيما لاحظت عليه من هذه الصفات الثلاث ... فقال بعد تأمل ... وكأنه لم يفطن إلى ما عنده من مزايا :

— أعتقد أن هذا راجع إلى ما تلقيناه من تربية فى منشأ حياتنا ، وأحمق

هذه التربية أثرا فى نفس شعبنا : الخدمة العسكرية الإجبارية ... ففى سويسرا يفرض على كل مواطن ، مهما يكن عمله أو أسرته أو ثروته ، أن يؤدى الخدمة العسكرية الإجبارية ... وهى أحيانا قد لا تتجاوز ثلاثة أشهر للفرد الواحد ، ولكن تصور الفائدة التى يجنيها كل فرد من الأمة بعد هذه الشهور الثلاثة ... إنه سيتعلم النظام والخضوع للقوانين ، والطاعة للصالح العام ... وسيعرف الديموقراطية الصحيحة . لأن ابن الوزير يزامل ابن الحقير ... وابن الطبقات الموسرة يؤاكل ابن الطبقات الفقيرة ... وسيؤمن بالوطنية لأن المدافع عن الوطن ليس فئة من الشعب ولا طائفة من الأمة ... ولكن الجميع توضع على أكتافهم البندقية بلا استثناء ...

* * *

سمعت هذا الكلام من ذلك السويسرى ، وقلت فى نفسى :

— حقا تلك هى المدرسة الشعبية التى تنقصنا « الجامعة العسكرية الإجبارية » للجميع بغير استثناء .

وتخيلت الشعب المصرى كله أو على الأصح جيله الجديد من الرجال ، ينصهر فى ذلك « المصنع الإنسانى » الضخم ! ... يدخل بابه جيل هزيل نهأ على العبودية والفوضى ، لا يعرف احترام النظام ولا استعمال السلاح ، لم يفهم من الديموقراطية غير صندوق الانتخاب يشترى الأغنياء أصواته ببضع ولائم وبضعة دراهم ، ولا يدرك من الوطنية سوى كلمات وعبارات وهتافات ، ولا من المواطن المدافع غير تلك الطبقة الجاهلة المعدمة المحرومة المنكوبة تؤخذ للفرز العسكرى دون الناجحين والمحظوظين ، كما يفرز الأشقياء من السعداء ، تشيعهم ولولة النساء ونحيب ذوى القربى ورثاء المشفقين من الإخوان والزملاء .

* * *

تصورت هذا الجيل بأغنيائه وفقرائه ... بوجهائه وخفرائه ، بمتعلميه وجهلائه ، يلتى كله فى صهريج « الخدمة العسكرية الإجبارية » ليخرج بعد ذلك ، وقد عرف كل فرد فيه كيف يطلق بندقيته ، وكيف يستيقظ فى الفجر عند صوت النفير ... وكيف يحترم المواعيد ويلبى النداء ويحرص على النظام ويطبق القانون ، ثم كيف يستمتع بالهواء الطلق والألعاب الرياضية وينعم بالصحة البدنية ... ويخشوشن مترفوه فيقاسمون فقراءه شظف العيش ويتساوون جميعا ، لحظات من الدهر فى النظرة إلى الحياة ، فإذا عقلية واحدة قد تكونت لهذا الجيل ، وشعور واحد قد نبت ، تلك هى الديمقراطية الحقيقية ، مساواة فى المسئولية وتجانس فى الشعور والعقلية ... ثم شىء آخر بعد ذلك ... إيمان من الجميع بأن الرائد عن الوطن إذا جد الجد هو الجيل كله : أغنياؤه وفقراؤه ، عظماؤه وحقراؤه ، متعلموه وجهلاؤه ... كلهم سيذهب إلى الميدان كما ذهب إلى الخدمة العسكرية ... وكلهم سيحمل البندقية هناك كما حملها هنا ... الجندية إذن مجد يقابله الناس بالفخر ... وليس ضريبة شقاء يدفعها أهل الحرمان بين العويل والبكاء ... تلك هى الوطنية الحقة : الوطن للجميع والجميع سيمتشقون فى سبيله الحسام .

* * *

النظام ، الديموقراطية ، الوطنية .

دروس ثلاثة لازمة لكل شعب راق ، تهيأ للحياة ، وتربى للكفاح ، لا أرى أسرع ملقن لها ولا أضمن مدرب من تلك « المدرسة الإنسانية » الكبرى : الخدمة العسكرية الإجبارية .

أنشودة الأغنياء ...

كنت ذات يوم فى حانوت حلاقة ... فقال لى العامل الذى يحلق لى :

— أنظر إلى أصبع يدى التى بها أرتزق ... بها وجع يقتضى جراحة... ومواردى لا تسعفنى بأجر العلاج ... ولى أطفال فى المدارس أنفق عليهم ... ماذا أفعل ؟ وبأى عقل أعمل ؟ ...

وكان بجوار هذا المسكين زميل أجنبى ، يبدو عليه النشاط والبشر والمرح ... فقلت للحلاق :

— زميلك الأجنبى هذا ، أهو يتقاضى مثلك أو أكثر منك ؟ .

فقال :

— يتقاضى مثلى عين الأجر ... ولكن هناك فرقاً شاسعاً بينى وبينه ... إن الجالية الأجنبية التى ينتمى إليها هذا العامل الأجنبى نظمت شئون طبقاتها العاملة والفقيرة ... فهل تصدق أن زميلى هذا يرسل كل أولاده إلى مدارس الجالية بالمجان ... ويعالج هو وكل أسرته فى مستشفياتها بالمجان ... ويستطيع أن يحصل على الكثير من مطالب العيش وضروريات الحياة بالمجان . كل هذه المزايا التى يتمتع بها تجعله فى مستوى أرقى بكثير من مستوى زميل مصرى مثلى يعيش فى وطنه وأهله وحكومته وأمته ... لأن أجره قد تضاعف بتلك المساعدات التى تقدمها له بالمجان أمته . وأجرى قد تضاءل بتلك الأعباء

التي يفرضها عليّ إهمال أمتي . نحن العمال للصريين قد لا تهمنا زيادة فى الأجور بقدر ما تهمنا زيادة فى المزايا والمساعدات التي تخفف عن كواهلنا بعض النفقات .

فهززت رأسي ولزمت الصمت ... ولكني جعلت منذ ذلك اليوم أفكر فى مصير هذه الطبقات العاملة ، وأفكر فى واجبات هذه الطبقات الحاكمة .

إنهم يتحدثون كثيراً عن محاربة الفقر والجهل والمرض ، ويعتمدون لهذه الحرب الملايين ، ويرسمون لها الخطط ... ولكن أكثر الناس لا يشعرون أن الأمر جد ... فما أكثر البرامج التي تقرر في الورق ، وما أكثر الأرقام التي ترصد في الميزانيات ، ولم يزل الفقير تفرض عليه باهظ الأعباء ، شأنه شأن الغنى سواء بسواء إذا أراد مقاومة الجهل أو مواجهة المرض ! ...

للشعب المصرى حاسة خفية اكتسبها من قدمه فى الزمن وعراقته فى التجاريب . شعوره صادق فى أغلب الأحيان ، وقلما تخطىء إحساسه مهما دوت من حوله دقات الطبول ... فهو لم يقابل الصيحة الرسمية بمحاربة الفقر والجهل والمرض إلا بهدوء العارف بخفايا النفوس ... ولعله تمتم فى السر : (كلام الحكام مدهون بزبدة ، إذا طلع عليه نهار « الواقع والحقيقة » ذاب) ! ...

وكيف تريد من الناس أن تصدق وهم يسمعون خطباً ولا يرون ذهباً ... يرون أصحاب الأموال يخرجون ألسنتهم بالكلام ولا يخرجون « محافظهم » بالنقود ؟ ...

هل يوجد فى بلد من بلاد العالم اليوم أغنياء يدفعون ضرائب بالضآلة التي يدفعها أغنياء مصر ؟ ...

أرسل إليّ أخيراً ناشر انجليزى دفعة من حساب كتاب لى مترجم

فى انجلترا ... ففرحت بالمبلغ ، فلما وصلنى وجدت الحكومة الإنجليزية قد استولت على أكثر من نصفه ضريبة ... فسخطت أول الأمر ... ولكنى لم ألبث أن تذكرت أن الأمر فرض على الجميع ... وأن من الأغنياء هناك من يقبضون واحدا فى المائة من إيرادهم وتستولى الحكومة على الـ ٩٩ ٪ ... إنها المصادرة بعينها تفرض للصالح العام ... فلا ندهش إذن إذا وجدنا الطبقات العاملة والفقيرة تجد فى انجلترا كل المزايا الجانبية التى تشعرها بأنها عضو حقيق فى أمة حية ...

هل يقبل الغنى المصرى أن يدفع للحكومة ضريبة تصل إلى ٥٠ ٪ فقط من إيراده الكبير تنفق فى خدمات أمته ؟ ...

اليوم الذى تفرض فيه هذه الضرائب فى بلادنا هو وحده اليوم الذى تصدق فيه أن الأمر جد لا هزل فيه ... وأن محاربة الفقر والجهل والمرض ، ضرورة أوحى بها ضمير أمة ، لا أنشودة تتفكه بها أشداق الأغنياء والرؤساء ! ...

اذهب بغير ذهب

رقد النبي ﷺ على فراش الموت ، وطفق ينظر إلى إبنته فاطمة وهو تبكي على مقربة منه ، بغير صوت ... فتحامل على نفسه ثم همس :

— لا تبكي يا بنية ! ... قولي إنا لله وإنا إليه راجعون ، فإن لكل إنسان بها من كل مصيبة معوضة .

— ومنك يا رسول الله ؟! ...

قالتها فاطمة وهي تكفكف دمعها ... فأجاب النبي :

— ومني ...

وكانت زوجة النبي عائشة تراقبه ، جامدة العبرة ، شاحبة الوجه ، مكلومة الفؤاد ... فقالت لفاطمة هامسة :

إنه يوعك من الحمى ! ...

وفجأة نهض النبي قليلا وقال لزوجه :

— يا عائشة ! ... ما فعلت بذلك الذهب ؟ ...

— أي ذهب ؟ ...

— الدنانير الستة التي عندي ...

— هي عندي ...

لفظتها عائشة، وقد خالجها بعض الدهش لاهتمام النبي بهذا المال، وهو على تلك الحال من الكرب والشدة ... ولكن النبي بادر يقول :

— ما ظن محمد بربه أن لو لقي الله وهذه عنده !... أنفقيها كلها صدقة... إن النبي لا يورث ! ...

فعاهدته عائشة قائلة :

— سأنفقها ...

عندئذ بدت الراحة في وجه النبي ... ورقد وهو يهمس :

اللهم توفني فقيرا، ولا توفني غنيا، واحشرني في زمرة المساكين ! ... الآن استرحت ! ...

• • •

وقليل من البشر من يريد أن يستريح وهو على فراش الموت ! لأن الإيمان لا يحكم النفوس ... ولكن شيطان الغرور ! يتجرد الإنسان من روحه ولا يتجرد من ذهبه ... لا يؤمن حقا بأنه سيلقى الله، بل سيلقى ورثة أبتهم مشيئته من أعماق القبور ! ... ما من مخلوق يريد أن يترك الدنيا لخالقها يوم يذهب ... ولكننا نريد قبل أن نذهب لنلقى الخالق، أن نفرض عليه إرادتنا مكتوبة مسجلة، لتنفذ في الأرض والناس من بعدنا ! ... يا لصبر الله علينا وعلى جبروتنا ! ...

ولكن الله يعرف كيف يسخر من مشيئتنا وخيلائنا ... ويهزأ بذلك الخلف الذي اعتقدنا أننا حصناه ضد الفقر والمسغبة، وأمناه من العوز والحاجة ... وعلى قدر المال الذي ترك له تكون اللطمة التي تصيبه من السماء ! ...

أيها الأغنياء لا تسرفوا في الخيلاء، رحمة بأبنائكم ... اتركوا لهم قدرا

بسيطا يعينهم على الكد فى الحياة، ولا يقعدهم عن السعى والاجتهاد ... ورئوهم قسطا صغيرا يدعم فيهم الشخصية ولا يهدم فيهم الهمة ... أما الفضل والبقية ... فاجعلوها من حق الناس فى أرض الله ... حتى تستطيعوا أن تقولوا لله يوم تلقونه : "تركنا لك ملكك تصرفه بمشيئتك أنت تعاليت ! ... وإنا لنؤمن بك وبرحمتك ، فارع بعنايتك أبناءنا فيمن ترعاهم من عبادك !..." .

كل أغنياء الأمم المتحضرة قالوا ذلك لله فى صورة أخرى دون أن يجهروا : قالوها فى صورة "ضريبة الميراث" التى تجرد المتوفى من أكثر ثروته لتضمها إلى الدولة تنفقها فى مرافق الناس وفى إنشاء المساكن والمستشفيات والمدارس والمتنزهات للطبقات الفقيرة ... لذلك عنى الله بأمرهم ... وغير ما بهم لأنهم غيروا ما بأنفسهم ... فجعل من الإبن رجلا مجدا مناضلا يفوق أباه فيما بلغه من الفوز والنجاح .. وجعل من الناس دولة موفورة الرخاء، مرهوبة الجانب مرفوعة المكان ؟ ...

أما أغنياؤنا فأبوا أن يؤمنوا بالله ، أو بأبنائهم أو بأمتهم... فأبوا أن يكون فى بلدهم مثل هذه الضريبة : تنفق فى خدمة بلادهم ...

لا يريد أغنياؤنا أن يغيروا ما بأنفسهم من العمى والكفر ... ماضين بكل دانق من كنوزهم إلى القبور ، تاركين كل تراثهم المريض لوارث مغرور .

لذلك لن يغير الله ما بهم ... ولن يصب على خلفهم إلا الحمق والغباء والفساد ! ... وعلى قومهم إلا هـذا الجهل والفقر والمرض ! وعلى دولتهم إلا هذا السكون العليل ، والجناح الكسير ، والمكان الذليل ! ...

... ١٩٤٨

أحجار على البطون

جاء فى كتاب « تيسير الوصول » للشيبانى فى هذه الأحاديث :

قالت عائشة زوجة النبى :

« كان يأتى علينا الشهر ما نوقد فيه نارا ! ... » الخ ...

« ما أكل آل محمد أكلتين فى يوم واحد إلا إحداها تمر ! »

وقال ابن عباس :

« كان رسول الله يبيت الليالى المتتابعة وأهله طاويا ، لا يجدون عشاء ... وكان أكثر خبزهم الشعير ! » .

وقال عمر :

« لقد رأيت رسول الله يظل اليوم يلتوى من الجوع ، ما يجد من الدقل ، ما يملأ به بطنه ! » ...

وما الدقل إلا ردىء التمر ! ...

وقال أبو طلحة :

« شكونا إلى رسول الله الجوع ، ورفعنا ثيابنا عن حجر ، فرفع رسول الله عن حجرين ! ... » .

وقال ابن عباس :

« رأى رسول الله فى يد رجل خاتما من ذهب ، فنزعه وطرحه وقال :

يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيطرحها في يده ! ...

بهذه البطون الخاوية من لذائذ الطعام ، وهذه الأكف الخالية من بهارج الزينة ، أضاء العرب في الأرض نور الروح ، وأقاموا للإيمان منارة ، وأمعنوا في الفتوح ، وبنوا في التاريخ حضارة .

ولكن ... مع الأسف ... أخشى أن يكون « جمرة » الذهب هي اليوم حقا كل النور المنبعث من الشرق ! ...

جاء في كتاب « عالم يولد » للمفكر الألماني « كيسرلنج » هذه السطور :

« إن أوربا هي التي تقوم اليوم بالدور التاريخي الذي قامت به فلسطين ... أرض الأنبياء ... في محيط الإمبراطورية الرومانية ... لم يعد في مقدورنا اليوم أن ننتظر النور الروحي من الشرق ! ... إن الشرق سيصبح منذ الآن هو الرمز الصارخ للمادية ... على الرغم من وجود قلة لم تزل تعيش فيه محتفظة بعمق فكرها وصفاء روحها ! ... أوروبا وحدها الآن في ذلتها وبؤسها وضعفها (وجوعها) هي التي يمكن أن يشرق منها ذلك النور ! ... » .

* * *

أمن الممكن حقا أن يحدث هذا ؟ ...

إذا نزل الشرق عن روحه أيضا لأوربا ، فما الذي سيبقى له ؟ ...

لن يبقى له شيء حتى ولا إسمه ! ... لقد كان الشرق شرقا . أي منبعا للنور الروحي ومهبطا للدين والإيمان ... يوم كانت فيه الرؤوس تجوع والأجسام تشبع ، الطبقات العليا تصوم وتزهد ، والطبقات الدنيا تطعم وتقنع ! ...

إن الجوع لازم للرؤوس قاتل للأجسام ... ولا يضيء رأس إلا وهو ظمآن ...

الأمة كالمسرجة لا يشع لها ضياء ، إلا إذا كان أسفلها فى الزيت ، وأعلاها فى الهواء ! ...

ولكن هل من الحق أن الشرق سيصبح منذ اليوم هو الرمز الصارخ للمادية ؟ ...

لا لشيء إلا لأن طبقاته العليا غرقت فى الترف ، وتمرغت فى الذهب ، وبشمت من الشبع ، وعميت من الطمع ؟! ..

نعم لا لشيء إلا لهذا سيصبح الشرق رمزا للمادية ! ...

فإن الطبقات العليا وحدها هى التى تقر فى الأمم مثلها العليا ! ...

لأن رؤوس المصابيح هى وحدها التى ينبعث منها النور أو الظلام ! ...

فإذا ربط القادة على جباههم أحجارا من الذهب ، فقد عبد الذهب ! ...

وإذا ربطوا على بطونهم أحجارا من الجوع ، فقد مجد الروح ! .

وإذا مجد الروح فى أرض ، فقد بزغ فيها نور عزة ، وطلعت شمس حضارة ! ...

١٩٤٨

صلاة الملائكة

« إلى أصدقاء الإنسانية »

المنظر الأول

في السماء : ملكان من الملائكة

الملاك الأول : انظر : ما هذا الدخان الصاعد إلينا من الأرض ؟ ...

الملاك الثاني : هم البشر يحرق بعضهم بعضاً ...

الملاك الأول : أتراهم نسوا قول إلهنا لقابيل : ماذا فعلت ؟ ... صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض ... فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل من يدك دم أخيك ! ...

الملاك الثاني : وما ترى الأرض قائلة وهي تفتح اليوم فاها لتقبل لججا متلاطمة من دماء ملايين هابيل ! ...

الملاك الأول : يا للويل ! أونظل نحن في عليائنا نطل عليهم في سكون ؟ ...

الملاك الثاني : وما في مقدورنا أن نصنع لهم ؟ ...

الملاك الأول : نهبط إليهم لنرد إلى عقولهم الصواب ، ونفتح بصائرهم على نور الحق ...

الملاك الثاني : إنهم سكارى ... لا يبصرون ، ولا يصغون ، ولا يعون ...

« ترتفع إلى السماء أصوات صلاة »

الملاك الأول : أتسمع ! ... ماهذه الأصوات الجميلة الصاعدة إلينا من الأرض ؟ ...

الملاك الثاني : تلك صلاة جامعة ، يتوجه بها إلى السماء بعض العقلاء ...

الملاك الأول : اصغ إنها صاعدة من ثلاث جهات : من الشرق ، ومن الغرب ، ومن وسط الأرض ، أوبعد ذلك لا تريد منا أن نحرك ساكنا نحن أهل السماء ؟ ...

الملاك الثاني : قلت لك لن تستطيع لهؤلاء البشر شيئا ...

الملاك الأول : وهذه الدعوات الخارجة من قلوب نبيلة ؟ ... أنغلق من دونها الأبواب ؟ ... ألا ينبغي أن تجد إلى أسماعنا سبيلا ، وفى أرواحنا مستقرا ؟ ... يا لقسوة أهل السماء إن ردوا هذه الدعوات . وصدوا هذه الصلوات ، وتركوها تسقط على رؤوس أصحابها الراكعين أصداء باردة جوفاء ! إنى ذاهب بمفردى ...

الملاك الثاني : تهبط إليهم ؟ ...

الملاك الأول : نعم ، ملبيا النداء ... وإذا لم أستطع لهم شيئا ، فلأعش على الأقل بينهم ، أحمل نصيبا من العذاب مثل فرد منهم ... فرد من بسطاء الشعب لا يملك غير قلب ...

الملاك الثاني : أخشى عليك منهم ؟ ...

الملاك الأول : لا ينبغى لك أن تقول ذلك ! ... وداعاً ...

الملاك الثاني : إلى الملتقى ! ...

المنظر الثانى

غابة فى أوربا . الملاك الأول فى هيئة قروى
بسيط يجلس على حافة جدول تعباً حائراً ...

الملاك : آه ها هنا على الأقل مكان لا تلاحقنى فيه أصوات التدمير والتخريب والانفجار ... لقد صدق رفيقى ... إن مجرد الهبوط إلى هذه الأرض كالنزول إلى أسفل طبقات الجحيم ! ...

« يسمع صوتاً فى ماء الجدول فيصيح » :

: من هنا ؟ ...

« تظهر فتاة فقيرة من بين الأشجار تحمل متاعها وفى يدها إناء ملأته من الجدول »

الفتاة : (فى خوف) من أنت ؟ ...

الملاك : أنا ... أنا آت من المدينة ...

الفتاة : أنا أيضاً آتية من المدينة إنك فيما أرى تعب ... تسمح لى أن أقدم لك قليلا من ماء الجدول ؟ ...

الملاك : لا ... شكراً لك ... إنى متعطش إلى قليل من الهدوء ...

الفتاة : ها هنا مكان هادىء ...

الملاك : نعم …

الفتاة : سأذهب لئلا أزعجك …

الملاك : بل ابقى ، واجلسى ، وحدثينى ، أيتها الفتاة … لماذا تهيمين وحدك فى هذه الغابة الموحشة ؟ …

الفتاة : « تدمع عيناها » لم يبق لى أهل …

الملاك : لا تبكى …

الفتاة : ماتت أمى مريضة ، لم تسكن تملك ثمن الدواء … وقد لحق بها أبى … أما إخوتى فأخذتهم الحرب … ولا أدرى أفى الأحياء هم أم فى الأموات …

الملاك : ولماذا يقتتلون ؟ …

الفتاة : لست أدرى …

الملاك : وماذا أنت صانعة ؟ …

الفتاة : أود لو أجد عملا أرتزق منه … ألا تستطيع أن تعطينى عملا يا سيدى ؟ …

الملاك : أنا ؟ ! …

الفتاة : معذرة … ربما كنت أيضاً مثلى تبحث عن الرزق … هناك كثيرون مثلنا لا يجدون طعاماً ، ولا دواء ، ولا مأوى …

الملاك : وا أسفاه ! …

الفتاة : ماذا بك ياسيدى ؟ …

الملاك : لا شىء …

الفتاة : صوتك ضعيف ، ووجهك شاحب … إنك جوعان من غير شك …

الملاك : لا تهتمى لأمرى ...

الفتاة : « تخرج من حقيبتها تفاحة » كل هذه التفاحة ... لقد قطفتها فجر اليوم من شجرة تفاح برية فى مدخل الغابة ... إنها لم تزل خضراء ... ولكن عصيرها حلو شهى ...

الملاك : « ينظر إليها طويلا ؟ » ...

الفتاة : لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟ ...

الملاك : « يتناول التفاحة ويبقيها فى يمينه » شكراً لك أيتها الفتاة ! ...

الفتاة : لماذا لا تأكل ؟ ...

الملاك : لقد طعمت ورويت ...

الفتاة : متى ؟ ...

الملاك : الآن ... من رحمة قلبك ...

الفتاة : بل كل ... إن الرحمة وحدها لا تكفى طعاماً لنا ...

الملاك : إنها هى كل طعامى وشرابى ...

الفتاة : آه يا صديقى الطيب القلب ... أتأذن لى أن أدعوك صديقاً ! ...

الملاك : إنك لتضيئين روحى بالفرح ...

الفتاة : هلم نسير معاً فى هذه الغابة ... لعلنا نهتدى إلى بغيتنا ... عفواً ... ما أشد أرقى ... إنى ما سألتك عن حالك ...

الملاك : إنى ... إن بغيتى هى أن أراك فى خير ... هلمى نسير ... ما أجمل الأرض لو استطاع الإنسان فيها أن يبصر ، وأن يحب ، وأن يحمل الرحمة تتدفق من نفسه تدفق الماء من هذا الجدول ...

الفتاة : أنظر أيها الصديق ... هذا الطير الأخضر الذى يرد ماء الجدول ...

إن بجانبه أرنبا وحشيا ... أتراه ؟ ... إنه خلف العشب ... وإنه يشرب هو الآخر ... لكأنى بهما صديقان ...

الملاك : نعم ... نعم ...

الفتاة : اسمع ... الآن وقد احتسى الطير من كأس النهر ... هاهوذا يفتح منقاره ويغرد ...

الملاك : وهذا الأرنب لم يقفز ولم يهرب ... إنه كالمعتاد الإصغاء إلى صديقه ... أنظرى إلى أذنيه وقد تفتحتا كأنهما زنبقتان ؛ وإلى عينيه وقد لمعتا كأنهما فيروزتان ! ...

الفتاة : أتدرى ماذا يقول هذا العصفور ؟ ...

الملاك : لا يمكن أن يكون فيما يقول غير الخير والسلام والأمل ...

الفتاة : أصبت... إنه يخاطب هذه الزهرة البرية التى مازال يقطر منها الطل :

« تغنى » : يا بسمة الصبح للكائنات

هـــذا النـــدى ليس قطـــرة ماء

يا زهـــرة الأمـــل للكائنـــات

إن دمعك دمـــع السماء »

الملاك : غنيها مرة أخرى ...

الفتاة : ماذا بك ... أرى فى عينيك عبرة تلمع أيها الصديق !

الملاك : غنى مرة أخرى : « إن دمعك دمع السماء » أصبت ... أصبت يا صديقتى اللطيفة ...

الفتاة : « تنظر إليه ملياً » رباه ! ! ...

الملاك : لماذا تطيلين النظر إلىّ ! ...

الفتاة : لست أدرى …

الملاك : لا تراعى … هلمى نسير … هاتى يدك ! …

الفتاة : إنى لم أسألك عن اسمك ؟ …

الملاك : وأنا أيضاً لم أسألك عن اسمك … ماتفع الأسماء … لقد عرفت عنك كل ما ينبغى أن أعرف …

الفتاة : وأنا أيضاً …

(يسمعان صوتاً يقترب … … …)

الملاك : مَن للقبل ؟ …

الفتاة : « تنظر » هذا راهب فيما أرى …

(يظهر راهب يحمل متاعه فوق منكبيه)

الراهب : مَنْ أنتما ؟ …

الملاك : من أين أنت قادم أيها الراهب ؟ …

الراهب : من الويل الأكبر ، والليل الأبهم ، والخطب الأعظم الذى حاق بالبشر … هنالك حيث يمطر الإنسان أخاه الإنسان ناراً محرقة … دونها نار جهنم ! …

الفتاة : اجلس يا أبى … إنك متعب …

الراهب : اسقينى شربة ماء …

الفتاة : « تسقيه من الإناء وتعطيه تفاحة من حقيبتها » اشرب ، واطعم ، واهدأ نفساً …

الملاك : لماذا يقتتلون ؟ …

الراهب : « وهو يأكل » لأنهم يعبدون اليوم إلهاً جديداً يحل قتل

الشعوب ويأمر بشريعة الأقوى ... إلها ذا مخالب وأنياب مصفحة بالصلب والفولاذ ...

الفتاة : نعم ... يا للبلاء ! ...

الملاك : وأنت أيها الراهب ... ماذا تنتظر للذود عن الإله الحقيقي الذي يأمر بشريعه العدل والمحبة والإخاء البشرى ! ؟ ...

الراهب : بماذا أذود ؟ ...

الملاك : بسلاحك القدسي : الحق ...

الراهب : الحق ! ... إني أنتظر إلى أن ينبت للحق أنياب ...

الملاك : لن تنبت للحق أنياب ... ولا ينبغي له ... لأن الحق نور ينفذ إلى القلوب ...

الراهب : أما سمعت أن سلطة « القوة » تطفىء اليوم كل نور ... سواء ما أشع فى المدن أو الطرقات أو القلوب ؟ ...

الملاك : أهذا كلام رجل الدين ؟ ...

الراهب : من أين أنت هابط أيها الرجل ؟ ... إن الأديان ذاتها قد وقعت اليوم فى يد القوة الطاغية، تدّعى حمايتها وتضع عليها رايتها ، كأنها قطع من الأرض !...

الملاك : لا تدع الشك يداخلك فى صميم رسالتك أيها الراهب... فياضيعة الآمال إذا حدث ذلك... إن كل هذا التقتيل والتحريق والتدمير الذى أصاب الأرض ، لأقل خطراً عليها من تدمير الإيمان بسلطان الحق ! ...

الراهب : « يطيل النظر إلى الملاك » من أنت أيها الرجل الساذج ! ...

الفتاة : لا تختلفا ... خير لنا أن نتجه ثلاثتنا صوب السماء، وأن نسألها للمعونة على إطفاء نار الشر وإقرار الخير بين البشر ...

الراهب : أنت أيضاً أيتها الفتاة البسيطة ، تحسبين السماء تسمع أصواتنا الثلاثة الضعيفة ، وهى التى لم تسمع دوى المدافع وانفجار القنابل ! ...

الفتاة : أحقاً قد تخلت عنا السماء يا أبتى ؟... أوَقد تركتنا وجها لوجه أمام قسوتنا ووحشيتنا وآثامنا ؟ ... أمَا مِن رجاء ؟ ... أمَا مِن عزاء ؟ ... تكلم أيها الراهب ... يا أبتاه ... متى نستطيع أن نهتف من قلوبنا :

« ترنمى أيتها السموات ، وابتهجى أيتها الأرض ، لتنشد الجبال بالترنم ، لأن الرب قد عزى شعبه ... وعلى بائسيه يترحم » ...

الراهب : كفكفى دمعك أيتها البنية ! ...

الملاك : نعم ... ابتسمى أيتها الصديقة اللطيفة ...

الفتاة : أنت أيضاً فى عينيك دمعة ...

الملاك : ابسمى وغنى ...

الفتاة : « باسمة » أغنية الزهرة البرية ؟ ..

الملاك : نعم ...

الفتاة : « تغنى » :

يا بسمة الصبح للكائنات
هذا الندى ليس قطرة ماء

الملاك : « مكملا » :

يا زهرة الأمل للكائنات
إن دمعك دمع السماء

الراهب : « بصيغ السمع » أصغيا ... ألا تسمعان حفيفاً بين الشجر ؟ ...

الفتاة : نعم ...

الملاك : « ينظر » هذا رجل هائم على وجهه ...

الراهب : إنه طريد آخر ...

« يظهر رجل يحمل متاعه وعصاه ويترنح قليلا »

الرجل : « يقف أمام الثلاثة متأملا » فتى وفتاة وراهب ! ... وإذا اجتمع راهب وفتى وفتاة فمعناه زواج يعقد ؟!... أأنا مخطىء أيها السادة ؟ .. ولقد كان ينقصكم واحد : الشاهد « يشير إلى نفسه » وقد حضر ... وخمر وكؤوس « يخرج زجاجة وكأساً من بين متاعه » وقد حضرت !...

الراهب : من أنت أيها المخلوق ؟ ...

الرجل : عالم فى الكيمياء ...

الراهب : أوَكل سكير يحمل زجاجة يستطيع أن يدعى علم الكيمياء ؟ ...

العالم : أوَكل من يحمل زجاجة تستطيع أن تدعوه سكيراً أيها الراهب !...

الراهب : أوَتطمع فى أن أدعوه قديساً ؟ ...

العالم : إن دعوتنى كذلك فإنك لن تعدو الحقيقة بكثير ... ولكنى أكتفى منك بأقل من ذلك ... ادعنى فقط « رجلا ذا ضمير » .

الراهب : إنك — فى عرف السماء — رجل مرتكب لمعصية ...

العالم : آه ... دعنا من قاموس حرفتك وكلماتك المحفوظة أيها الراهب ... حسبك الفتى والفتاة «زبونين» فصب على رأسيهما مما فى جعبتك

أما أنا فاتركنى وشأنى ... فإنى ما جئت هذه الغابة إلا لأنى رجل ذو ضمير ... ألا تصدق ؟ ... ألا تصدقون جميعاً ؟ ...

الملاك : إنى أرى نقاء ضميرك ...

العالم : ها هو ذا رجل طيب القلب كريم النفس ... إليك وحدك يا هٰذا أوجه الكلام . . فإنى واثق من أنك تفهمنى ... أما بقية الناس ...

الملاك : نعم ... إنى أفهمك ...

العالم : ثق قبل كل شىء أنى عالم فى الكيمياء .

الملاك : إنى أثق .

العالم : الآن هات يدك ، وخذ كأساً .

الملاك : لا ... لا ... شكراً ... إنى لست عطشاناً ...

العالم : « يجرع » أما أنا فأريد أن أملأ رأسى خمراً لأقتل العلم غرقاً ... لا تحسب أنى خرجت عن وقار العلماء ... لم يبق للعلم ولا للعلماء وقار ...

الملاك : لماذا ؟ ...

العالم : تلك قصة طويلة لم أجىء لسردها الآن ... لا تذكرنى بما كان أيها الرجل ...

الملاك : ربما استطعت لك شيئا ...

العالم : أنت ! ...

الملاك : إنى رجل بسيط ... ولكنى أستطيع أن أفهمك ... لأنى أحس ما فى نفسك ... وأتألم لألمك ...

العالم : « يلتفت إليه وينظر ملياً » من أنت ؟ ... إنك — فيما أرى — رجل فقير بائس شريد !... نعم ... أنا أيضاً تألمت لك يوماً ... لك

ولأمثالك من ملايين البائسين .. ومن أجل ذلك طاردونى واضطهدونى ... ومن أجل ذلك أنا الآن معكم فى هذا المكان ...

الفتاة : من أجل الفقراء والبائسين ! ...

العالم : جميعاً ... وأنت معهم ... وهذا الراهب أيضاً ... لقد أنفقت عشرين عاما أفكر فيكم ... عشرين عاما أضع مشروعا لإسعادكم أيتها المخلوقات المسكينة ... إن العلم كان يستطيع القضاء على شقائكم ، وإزالة جوعكم ومرضكم وعريكم ، وإبدال جحيمكم جنة واسعة ... لقد أوصلتنى الكيمياء إلى نتائج عظيمة بنفقات مقبولة ... ولكن ... إليكم المهزلة :

جاء يوم فإذا الزعيم الطاغية يطلبنى ويقول لى :

« اطرح من رأسك هذه البحوث الخرافية ووجه علمك إلى طريق المجد » فقلت له : « وما هو طريق المجد ؟ .. » فأجابنى صائحاً : « نريد قنابل ... قنابل ... نريد مدافع ... مدافع ، نحن نريد من كيميائك أن تحول لنا اللبن إلى قنابل ، والزبد إلى مدافع ، وأنت تريد أن تحول اللبن والزبد إلى أفواه الحمقى والمغفلين أمثالك أيها العالم الأخرق ! » ...

الملاك : اللهم رحمتك ! ...

العالم : أرأيتم كيف تبدد حلمى أيها الإخوان ؟ ... والآن ها أنذا قد فقدت إيمانى بسمو رسالة العلم ! ... آه ... لعنة الله على العلم الذى يرضى أن ينتزع الطعام من أفواه البشر ، ليضعه فى أفواه المدافع ! ... « يجرع كأسه » .

الملاك : لا ينبغى أن تيأس ...

الراهب : أيها الرجل الساذج ... متى يكون اليأس إذن ؟ ...

الملاك : مهلا ... مهلا ... لا تفزعوا كل هذا الفزع أمام قوة الشر ...

العالم : أيها الفتى ... إنك لا تدرك مدى قوة الشر ... إن عوداً واحداً من الثقاب يستطيع أن يحرق مدينة ... وإن طاغية واحداً ألهب أمته بحمى التدمير ، وألقى بكل مالها فى إعداد أدواته ، قد استطاع أن يلهب فى عين الوقت جيرانه بالعدوى ، وجيران جيرانه ، ثم العالم أجمع ... وإذا كل بلاد الأرض تلقى كنوزها وغذاء أبنائها فى هذا الأتون ... وإذا مليارات المليارات تتدفق من مشارق الأرض ومغاربها فى هذا السبيل الجهنمى ... لم تعد الإنسانية جمعاء تفكر فى غير آلات الخراب ، وإنفاق مليارات المليارات من أجلها ... وأنا الذى كنت أحلم بمليار واحد لإسعاد البشر أجمعين ... كل أنهار الذهب التى تنبع من قلب الأرض تصب الآن منصهرة لتحطيم الأرض ... هذه الحمى الخبيثة التى أصابت الآدميين كافة ، هى ككل حمى : منشؤها جرثومة ... جرثومة واحدة فى شكل طاغية ... دخل جسم الدنيا الهادئة المطمئنة ، فأحدث فيها تلك الإفرازات السامة ، والاهتزازات الهستيرية التى قد تؤدى بها إلى الانحلال ، فالاحتضار ، فالموت ...

« يسمع صوت انفجار . . . . . . »

الفتاة : « منفزعة » ما هذا ؟ ... أتسمعون ؟ ...

العالم : تلك قنبلة سقطت فى الغابة ...

الراهب : صه ! ... أسمع أزيز طائرات ...

الفتاة : إلهى ، أو لن يتركوا حتى الغابات النائمة الباسمة ...

الراهب : ينظر إلى السماء صائحاً بقول « الكتاب المقدس » :

« اسـتيقظى ! ... اسـتيقظى ... البسى درع القوة يا ذراع الرب ... استيقظى كما فى أيام القدم ... ألست أنت طاعنة التنين ؟ ألست أنت مجففة البحر ومياه الغمر العظيم ، الجاعلة أعماقه طريقا لعبور المفديين ؟... » .

الملاك : «مرتلا» أنا ... أنا ... أنا هو معزيكم ... من أنت حتى تخافى من إنسان يموت ، ومن ابن الإنسان الذى يجعل كالعشب ؟...

« انفجار يدوى دويا عظيما . . . . »

العالم : إليـكم قنبلة انفجرت قربنا ! ...

الراهب : هلموا نختبىء قبل أن تصيبنا شظية ...

العالم : لن أختبىء ... يريدون حياتى ... فليأخذوها فقد أخذوا خير ما فيها ، وهى حريتى العلمية ...

الفتاة : وأنا أيضاً لن أختبىء فقد أخذوا أهلى ...

الراهب : وأنت أيها الفتى ؟ ...

الملاك : إنما أنا هنا فى خدمتكم ...

الراهب : لست أنا إذن الذى يبكى جسده ... فلنثبت جميعاً . وليأخذوا إذا شاءوا هذه الرمم والأشلاء ...

العالم : صدقت ... هى رمم وأشلاء بعد أن تجردت من الحرية والتفـكير والعقيدة والإيمان والهناء ؛ بل حتى الآدمية جردونا منها ... كل شىء أخذوه ليجعلوه وقودا لتلك النيران التى أشعلوها ، كى تظهر أسماؤهم الخاملة مضيئة فى عين التاريخ ...

الراهب : التاريخ ! ... التاريخ ... هذا الدن الذى صنعتموه أنتم

بأيديكم أيها العلماء وملأتموه بخمر الانتصارات الدموية لتسكروا به أولئك السفاكين والطغاة ، فأفرغوه من أفواههم بدورهم فى نفوس الرعايا والشعوب ! ...

العالم : وأنتم يا رجال الدين ... ألم ترضوا أحيانا أن تخلعوا أردية القداسة على مجازر أولئك السفاكين والطغاة ! ...

الملاك : كفى تنابذاً ! ... لماذا لا تتفقان ؟ كلاكما مؤمن ... وكلاكما راهب ... فما الدين إلا إيمان القلب ، وما العلم إلا إيمان العقل ! ...

العالم : أصبت ... كفى تنابذاً بين العلم والدين منذ مئات السنين .

الملاك : آه ... لو اتحد العقل والقلب من قديم ضد الغريزة الحيوانية لكان للإنسان اليوم شأن آخر ...

الراهب : لقد سخروا منا طويلا هؤلاء العلماء ... وقالوا إنهم فوق الإنسانية ، لأنهم يبحثون عن الحقيقة ...

العالم : ليس هنالك علم فوق الإنسانية ... تلك عقيدتى دائماً ولقد قلتها لزملائى يوم حاكمونى وجردونى من شاراتى وألقابى العلمية ، وقبلوا أن يخدموا الطغيان ... صحت فيهم :

يبنغى أن يكون العلم إنسانياً ، وإلا وقع فى الحيوانية ، لأن ما خرج من يد أحدهما وقع فى يد الآخر ... ولا شىء ، ولن يكون شىء غير ذلك فوق هذه الأرض ... آه ... إنكم لا تدركون مدى قوة الشر ... أتعلمون كم بلغت تكاليف الحرب الكبرى الماضية ! ... اسمعوا قول زميلى الدكتور بتلر الأمريكى الذى قضى سنوات يجمع الإحصاءات ...

لقد ذكر فى تقريره الذى قدمه لمؤسسة روكفلر أن ما أنفق على تلك الحرب فى سنواتها الأربع لو أنه صرف فى التعمير بدلا من التدمير ، لكان من المستطاع أن يخصص لكل أسرة فى العالم منزل صغير بحديقة جميلة ، وأن تنشأ فى كل مدينة يزيد سكانها على عشرين ألفاً مكتبة ، نفقاتها مليون جنيه ، وجامعة نفقاتها مليون جنيه أيضاً ، ثم يبقى بعد ذلك مبلغ عظيم يكفى لإنشاء المستشفيات فى كل بقاع الأرض ! ولكن البشر لم يجرؤوا بعد على تحمل بعض هذه النفقات من أجل خيرهم وسعادتهم ! ...

الملاك : هات يدك أيها الراهب ...

الراهب : ماذا تفعل ؟ ..

الملاك : أضعها فى يد هذا العالم ...

الراهب : نعم ... ضعها فى يده ... إلهى الذى فى السموات ... إنى أحس إيمانى الكامل يعود إلى قلبى كما تعود النعجة الضالة إلى الحظيرة ! ...

الملاك : ثق يا أخى الراهب أن القلب والعقل – وهما الملكتان النورانيتان العلويتان فى الإنسان – لا يمكن أن يمكثا طويلا فى أسر المخالب والأنياب ...

الراهب : من أنت أيها الفتى ؟ ... ينبغى أن تقول لنا من أنت ؟ ...

الملاك : أنا ... إنى ذاهب ... ينبغى أن أذهب الآن لأصنع شيئاً آخر ...

العالم : أوَ نترك الفتاة ؟ ..

الملاك : إنها بينكما فى سلام وأمان ...

الراهب : أَوَلا ننتظر حتى نعقد لك عليها كما قال أخونا العالم ؟

الفتاة : « تدمع عيناها » إنى لست به جديرة ! ...

الملاك : « تدمع عيناه » :

يا زهرة الأمل ، لا تبكى فإن دمعك دمع السماء ! ...

الفتاة : وداعا ! ...

الملاك : « يلوح إليها بالتفاحة فى يمينه » ... يا شجرة الحب للكائنات
لن تفارقنى تفاحتك ... ولا ذكراك يا ألطف المخلوقات ...

(يختفى ... ...)

المنظر الثالث

قاعة مؤتمر . . الطاغيتان(*) واقفان وحدهما
يتأملان خريطة للدنيا فوق مائدة والأبواب عليهما مغلقة

الطاغية الأول : « يشير بأصبعه إلى جزء من الخريطة » أريد أن أسود هذه الأمم والشعوب ! ...

الطاغية الثاني : « يشير إلى الجزء الآخر » وأنا أسود هذه الأمم والشعوب ! ...

« يظهر الملاك من خلف إحدى الستائر »

الملاك : الأمم والشعوب خلقها ربها حرة ... لا تقتسم ولا تستلب كما تقتسم الغنائم والأنعام ! ...

الطاغيتان : « مذعورين » من هذا ؟ ...

الملاك : كيف نسيتما قول الله في التوراة :

« ها إني أرفع إلى الأمم يدي ... وإلى الشعوب أقيم رايتي ... هل تسلب من الجبار غنيمة ؟ ... وهل يفلت سبي المنصور ؟ ... فإنه هكذا قال الله ، حتى سبي الجبار يسلب وغنيمة العاتي تفلت ... وأنا أخاصم مخاصمك ... وأخلص أولادك ... وأطعم ظالميك لحم أنفسهم ويسكرون بدمهم ... » .

(*) هتلر وموسوليني .

الطاغية الأول : كيف دخل هذا الرجل ؟ ...

الطاغية الثانى : « همساً » صه ... لا تتحرك !... فى عينه قنبلة يدوية صغيرة على شكل تفاحة ...

الطاغية الأول : فهمت ...

الطاغية الثانى : « للملاك » وبعد ؟ ... نحن فى خدمتك ...

الملاك : بل أنا الذى فى خدمتكما ، إذا رضيتما أن تفتحا قلبيكما قليلا لرحمة السماء ! ...

الطاغية الأول : إنك لا شك أخطأت المكان الذى تفهم اليوم فيه هذه اللغة ! ...

الملاك : إنى لم أيأس بعد من فهمكما إياها ...

الطاغية الأول : بل ينبغى أن تيأس سريعاً ... فإن لدينا الآن لغة أخرى ، وكتباً مقدسة جديدة أملتها روح شعبنا الجديد ومطالب حياته ...

الملاك : ما هى مطالب الحياة لشعبكم الجديد ؟ ...

الطاغية الأول : أن يسود على بقية الشعوب والأجناس ...

الملاك : وأن يسود عليه هو الشقاء والجوع والظلام ! ...

الطاغية الأول : إنه مستعد لبذل التضحية ...

الملاك : بذل التضحية ... لمن ؟... لك أنت أيها الطاغية ، لأن تلك هى مطالبك أنت لا مطالب الشعب ... إذ لا يمكن لشعب أن يطلب من أعماق نفسه حقاً هذه المطالب... إن ضمير الشعب أبسط وأنقى من ذلك... إنما السيادة والجبروت والطغيان هى

مطالب الغرور التي تنبث في رأس رجل واحد ... فيسخر شعبه المسكين كله لتحمل أعبائها ، ويسأله التضحية ، ويعطيه ثمنها هذه الألفاظ التي تسكره ولا تشبعه ... من هو الشعب الحقيقي غير ذلك الحطاب في الغابة ، والفلاح في الحقل ، والعامل في المصنع ، والتاجر في الحانوت ، والزوجة في البيت... أهؤلاء يطمعون في أن يسودوا الشعوب والأجناس ... لماذا ؟ ... إنما كل مطالبهم من الحياة أن يجدوا طيب الغذاء وراحة البال والضمير ، وصحة الجسم والعقيدة ، وحرية القول والعمل والتفكير ... مطالبهم الحقيقية في الحياة أن يسودوا الشقاء الآدمي ، لا أن يسودوا إخوتهم الآدميين ... وما كان أيسر تحقيق آمالهم النبيلة لو أنكم — أيها الطغاة — أردتم حقاً إسعادهم ... ولكنكم لا تريدون غير إسعاد أنفسكم أنتم بالاستيلاء على ما تحسبونه تيجان المجد الذي يزين جباهكم المظلمة ! ...

الطاغية الأول: « همساً لزميله » هذا رجل خطر ! ...

الطاغية الثاني : « همساً » لو خاطب الشعب بهذا الكلام ؟ ... لكن كيف تركه رجالك حراً حتى الساعة ؟ ...

الطاغية الأول: « للملاك » هذا كلام بديع ... من أنت أيها الرجل ؟ ...

الملاك : إني رجل غريب ... آت من بعيد ...

الطاغية الأول: « همساً » لحسن الحظ ! ...

الطاغية الثاني: « همساً » إن فيه مع ذلك لسذاجة تدعو إلى الاطمئنان ... تستطيع أن تضغط على زر الجرس الداني من أصبعك ... لكن ... مع الحذر ...

« يعمل ذلك ويفتح الباب ويدخل
بعض الاتباع . . . . »

الطاغية الأول: « مشيراً إلى الملاك » هذا السيد النبيل زارنا على غير انتظار، ومن غير دعوة ...

كبير الأتباع : كيف دخل ؟ ...

الطاغية الأول : هذا ما ينبغى أن تجروا فيه تحقيقاً ...

كبير الأتباع : « يحيط مع رجاله بالملاك » اتبعنا ...

الطاغية الثانى: عجباً ... إنه لم يقاوم ! ...

الملاك : ماذا هم صانعون بى ؟ ...

الطاغية الأول: « ساخراً » ما صنع بالمسيح قبلك ! ...

الطاغية الثانى: « ساخراً » تمجيداً لقدرك وقدر رسالتك التى بلغتنا ! ...

الملاك : آه ... « لكن هذه ساعتكم وسلطان الظلام ! ... »

الطاغية الأول: « لتابعه » لا ينبغى لهذا الرجل أن يخالط الشعب لحظة ... استجوبوه استجواباً سريعاً ... وأعدموه ...

الطاغية الثانى: حاذروا مما فى يده اليمنى ...

كبير الأتباع : « يقبض على يمين الملاك » هذه تفاحة ...

الطاغية الأول : حقيقية ؟ ...

كبير الأتباع : نعم ... وما زال عليها ندى الصباح ...

الملاك : « فى تضرع » لا تأخذوها منى ! ... لا تأخذوها منى ! ...

المنظر الرابع

محكمة عسكرية

الرئيس : « للملاك نافد الصبر » وبعد ؟ ... ألا تريد أن تجيب ؟ ...

الملاك : لقد أجبت ...

الرئيس : أصغ إلىّ ... من واجبى أن أنبهك مرة أخيرة إلى سوء المصير إذا أصررت على إخفاء الحقيقة ...

الملاك : أنا أخفى الحقيقة ؟... لماذا ؟... إنى لاأعرف كيف تخفى الحقيقة...

الرئيس : لقد سألتك عن اسمك ... ما اسمك ؟ ...

الملاك : اسمى ؟... الحقيقة أنى لم أفكر فى ذلك ... لم يكن لدى وقت لاختيار إسم من الأسماء ... لقد كان ما يشغلنى أعظم من ذلك وأجل ... ومع ذلك ... ما الفرق بين اسم واسم ... كل الأسماء سواء ... اختر لى من الأسماء ما تشاء...

الرئيس : « يلتفت إلى أعضاء المحكمة حوله يائساً » ووطنك ؟... وجنسيتك ؟ ...

الملاك : عجباً !... هذا أيضاً شىء لم أفكر فيه ... إنما أنا على هذه الأرض الجميلة وكفى ... ما الفرق بين بقعة وبقعة ، وجنس وجنس ...

كل البقاع والأجناس سواء ... اختر لى من البقاع والأجناس ما تشاء ...

الرئيس : « يلتفت إلى من حوله هازاً رأسه » وأهلك ؟ ...

الملاك : أهلى ! ... عجباً ... لماذا تسألوننى هذه الأسئلة الغريبة ! ... أهلى ؟ ... كل الناس أهلى ... لأن كل بنى الإنسان إخوة ... حتى أنتم يا من تحاكموننى ... أنتم أيضاً أهلى ... إنى أحبكم كلكم ... لأنى أحب بنى الإنسان ...

الرئيس : كيف دخلت قاعة الزعيمين ؟ ...

الملاك : كما دخلت هذه القاعة .. وكما دخل هذا الضوء « يشير إلى شعاع الشمس الداخل من النافذة » ...

الرئيس : لقد كان حول المكان حراس ...

الملاك : لم أر حراساً ، ولم يمنعنى أحد من الدخول ...

الرئيس : ولماذا دخلت ؟ ...

الملاك : لأفتح قلبَىْ الطاغيتين ...

الرئيس : « هامساً للأعضاء » لقد اعترف أخيراً ...

« يلتفت إلى الملاك » تفتح قلبيهما ؟ ... بأى سلاح ؟ ...

الملاك : بسلاح الحق المضىء ...

« الرئيس يهز رأسه خائب الأمل »

الرئيس : ألم يكن معك سلاح آخر ؟ ...

الملاك : لا أستطيع أن أحمل غيره ...

الرئيس : حل هذا السلاح على كل حال يكفى وحده لإدانتك ... هل لك شركاء ؟ ...

الملاك : نعم ...

الرئيس : « يتناول القلم فى رجاء » أمل عليّ أسماءهم ...

الملاك : ضع اسمك فى المقدمة ...

الرئيس : « وقد فوجىء » ماذا تقول ؟ ...

الملاك : وَضَعْ أسماء هؤلاء الأعضاء من حولك وهؤلاء الحراس ، والجنود وبقية أفراد هذا الشعب ، وجميع الشعوب ... لن تجد ورقاً يتسع لكافة الأسماء ... كل من له قلب شريك لى ... لأن كل قلب يترنم فى أعماقه بعين الكلمات ، وينشد عين الأناشيد ... ولكن الآذان لا تسمع من هذا شيئاً ، لأن هنالك لحظات يطغى فيها صوت الشر على كل الأصوات ! ...

« الرئيس يتشاور همساً مع الأعضاء » ...

الرئيس : « ملتفتاً إلى الملاك » ألديك دفاع آخر تبديه ؟ ...

الملاك : دفاع عمن ...

الرئيس : عن نفسك بالطبع ...

الملاك : نفسى؟ ... أيتها السموات عجباً! ... أأنا جئت لأدافع عن نفسى !

الرئيس : إذن قد انتهت محاكمتك .. قررت المحكمة العسكرية اعتبار المتهم خطراً على الأمن وسلامة الدولة ، وحكمت بإعدامه رميا بالرصاص قبل غروب شمس هذا النهار ...

الملاك : «كالمخاطب لنفسه فى دهشة » خطر على الأمن وسلامة الدولة !؟ ذلك الذى يقول للناس : أحبوا بعضكم بعضاً ! ...

الرئيس : « فى شبه سخرية وهو ينهض » إن المحكمة تأسف لعدم تشرفها بوضعك على الصليب ... فالصلب ليس عقوبة مقررة فى قانون المحاكم العسكرية ! ...

« المحكمة بكامل هيئتها تنفض » ...

الملاك : « بين الحراس يائساً » يا إلهى ! ... ما هؤلاء البشر الذين يعدون الحض على تآخيهم جريمة لا تغتفر ! ...

المنظر الخامس

أمام طابور الإعدام

الضابط : « الملاك » ... تطلب شيئاً ؟ ...

الملاك : لا ... شكراً لكم ...

الضابط : « لأحد الجنود » اعصب رأسه !...

« يتقدم الجندي بعصابة سوداء ليخفي رأس الملاك وعينيه »

الملاك : « يقصيه عنه برفق » لماذا تحجبون عني منظر الأرض الجميلة في اللحظة الأخيرة ؟ ...

الضابط : إنما نحجب عنك منظراً آخر ...

الملاك : منظركم وأنتم تسفكون دمي ! ... حتى هذا المنظر لا ينبغي أن تحجبوه عني : فإني أعرف كيف أحبكم على الرغم من ذلك وأرثي لكم : أنتم أيها الجنود الذين يصفونكم دائماً « بالهمجان » تمويها وتضليلا ... ليخدعوكم عن حقيقة الحياة الإنسانية ، ويغروكم بحياة الكواسر في الغابة : « تقتلون وتقتلون ، ذلك كل عملكم المجيد » ! وتلك كل حياتكم التي يريدونها لكم على هذه الأرض التي لا تبصرون جمالها ، ولا تسمعون غناءها ، لأنهم يغطون رؤوسكم بهذه الخوذات الثقيلة .

الضابط : صائحاً « كفى » ... كفى ... أمستعد ؟

المــلاك : مستعد ... اللهم اشهد أنى قد صنعت من أجلهم ما استطعت .

الضابط : « يلحظ يد الملاك » ماذا تحمل فى يمينك ؟ ...

المــلاك : « يرفع يده بالتفاحة فى حرص وخوف » لا تأخذوها منى !

الضابط : تفاحة ؟ ... ما تصنع بها الآن ؟ —

المــلاك : « متوسلا » إنها خير ذكرى أحملها من الأرض ؟

الضابط : « ينظر فى ساعته » أزفت الساعة ! ..

« يصيح فى الطابور ، فيرفع الجنود بنادقهم ويصوبونها إلى صدر الملاك » .

المــلاك : اللهم اشهد أنى لم أرد تركهم ولا التخلى عنهم ، إنما هم . .

« ينطلق الرصاص إلى فؤاده
فيقطع عبارته . . . . . »

المنظر السادس

فى السماء ترانيل الملائكة وصلاة من أرجاء السماء

الملاك الثانى : « للملاك الأول » هدت إلينا سريعاً ؟ ...

الملاك الأول : « ويل لساكنى الأرض ... إن إبليس نزل إليهم وبه غضب عظيم عالماً أن له زمانا قليلا » ...

الملاك الثانى : ألم أقل لك إنهم لن يصغوا إلينا... وإنك لاق منهم ما لاقيت...

الملاك الأول : « ناظراً إلى التفاحة فى يده » آه ! ... لكن مع ذلك ...

الملاك الثانى : ما هذه التفاحة ... أنت أيضاً طردوك من الأرض بتفاحة كما طرد آدم من السماء ! ...

الملاك الأول : « هامساً مترنماً » :

يا شجرة الحب للكائنات

إن دمعك دمع السماء ...

الملاك الثانى : ماذا بك ... إنك تعود إلينا بوجه غير الذى ذهبت به...

الملاك الأول : « يصغى » ما هذه الأصوات والتراتيل !...

الملاك الثانى : تلك صلاة يقيمها رفاقك الملائكة من أجلك فقد علموا أنك على الأرض فى خطر ...

الملاك الأول : من أجلى أنا يصلون ؟ ... ألا فلتكن صلاة الملائكة أجمعين من أجل أهل الأرض المساكين ! ...

محاكمة طاغية

سألتني إحدى الصحف الفكاهية عن رأيي في محاكمة الطاغية ، وعن قضاته فأجبت :

رأيي أن خير قضاة يحاكمونه ، هم أولئك الذين أسميهم بعد قليل :

ويحسن أن أتحدث بصيغة الماضي كما يفعل الروائيون الواقعيون ، فأفترض أن يوم المحاكمة قد تحدد له تاريخ ٩ أكتوبر من عام . . . .

وقد اخترت هذا التاريخ بالذات لأنه يوم ميلادي أنا . ولا فخر . ولقد تقرر عقد المحكمة ، لا في الريخستاغ ، ولا في ساحة الأولمبياد ، بل في حانة البيرة الشهيرة ، حيث كان يعقد المتهم اجتماعاته الأولى التي نبتت فيها جذور أفكاره ومبادئه . وقد جاء الناس من أقاصي الأرض لحضور المحاكمة ... فذهبت أنا بالطبع مع من ذهب في ذلك اليوم المشهود ... لقد احتشد الحضور في قاعة الحانة جلوساً إلى الموائد ... وجلست هيئة المحكمة على المنصة القائمة خلف « البار » ... ونظرت إلى القضاة فأدركت أني أمام محكمة إنسانية ... لا عسكرية ، ولا سياسية ... وهي في الحق المحكمة الوحيدة المختصة في نظر قضية إنسان اتهم بأنه أساء إلى بني الإنسان ...

كان القضاة هم :

المتصوف غاندي ، والعالم « أينشتين » ، والموسيقي « توسكانيني » .

وكان النائب العام « شارلى شابلن » .

يا لها من محكمة رهيبة : الروح ، والعلم ، والفن : عناصر التقدم البشرى ! ...

وجلس المتهم بين يدى قضاته هادئاً مطرقاً فى رداء مدنى ... ولم يكن محروساً ، إذ لا ضرورة لسلب حريته فى دنيا دينها الحرية ... ولم يكن معه محام ... فرأت المحكمة أن تنتدب له من يتولى الدفاع عنه . فوقع اختيارها على شخصى الضعيف ؛ لماذا ؟ ... لست أدرى ... لعلها جنسيتى الشرقية البعيدة عن طرفى النزاع ؟ ... أو لكتاباتى عن المتهم المشبعة بروح الإنصاف ، المنزهة عن التحامل ... وقد حاولت التنصل والاعتذار ... فأنا رجل هربت من المحاماة فى مستهل حياتى العملية بعد قيد اسمى فى سجلها ... أأعود إليها اليوم مفتتحاً بمثل هذه القضية ومثل هذا المتهم ؟ ... اللهم رحماك ربى ! ... ولكن أحداً لم يرحمنى ... ووضعوا هذه الصخرة على كاهلى ... فوقعت على الكرسى مطرقاً إلى جانب « موكلى » ...

التفت الرئيس فأندى إلى المتهم موجهاً إليه التهمة :

— أنت متهم بأنك عكرت صفاء الإنسانية ، وحاولت أن تعرقل تقدمها بمبادئك الرجعية ؟ ... أجب قبل كل شىء بـ « نعم » أو بـ « لا » ...

— لا ...

لفظها موكلى بسرعة وبدون أن يستشيرنى ...

فهمست فى أذنه :

— أنكرت التهمة ؟ ... حسناً فعلت !

وأشار الرئيس إلى النائب العام فوقف « شارلى شابلن » ليتلو « عريضة » الاتهام . ولكن الجمهور ضج بالضحك لمجرد مرآه ... واحتاج الأمر إلى جهد

ووقفت ، ليفهم الناس أن هذا الممثل الساخر إنما يمثل دوراً جدياً : إنه يمثل الاتهام فى قضية الإنسانية . ووقف شابلن ساكتاً ينظر إلى الناس حتى سكنوا ثم جلس ... فقد تذكر هو أيضاً أنه ممثل « صامت » . ولم تستطع حتى السينما الناطقة أن تغريه بالكلام ، إن الكلام هو أكذوبة النفس ، واللسان هو خدعة الإنسان ، وإن البشرية لم تتقدم يوماً بالقول الصاخب ، بل بالعمل الصامت . يا للعجب ! ... إن أعضاء هذه المحكمة كلهم رجال لم يعرفوا قط لغة الكلام ...

هذا غاندى لغته الصوم والإيمان . وهذا أينشتين لغته الفكر ... وهذا توسكانينى لغته الموسيقى ... وهذا شارلى لغته العاطفة ...

كلهم يعملون بغير حاجة إلى كلام ... والإنسانية سوف تسير فى موكبهم ولا شك مئات الأعوام ...

لم يتكلم شارلى واكتفى بأن أشار للرئيس إلى صندوق يحوى شريط سينمائى لروايته المعروفة فى فيلمه « الدكتاتور » حيث سجل فى آخره خطبته الرائعة عن الحرية موجهاً فيها الخطاب إلى الدكتاتورية ... تلك هى صحيفة اتهامه التى تلاها على الدنيا بأسرها ... وليس لديه اليوم حرف واحد يضيفه إليها ...

والتفت الرئيس آخر الأمر إلينا — أنا والمتهم — وقال :

— الدفاع ...

فوقفت وأنا لا أدرى كيف أدافع عن الطاغية ... ونظرت إليه فوجدته يرمقنى بنظرة رثاء وإشفاق ... لكنى تشجعت ، وقلت فى صوت متجف حائر :

— يا حضرات القضاة ! ... إنكم تتهمون هذا الرجل أنه عكر الصفاء

الإنسانى بإثارته أمته ودفعه إياها إلى الحروب ... وبأنه حاول عرقلة التقدم البشرى ببعثه للمبادىء الرجعية التى تقول بسيطرة جنس على جنس، وبحق القوى فى سحق الضعيف ... وقد أنكر موكلى التهمة ... وهذا سوء دفاع منه ... فالواقع أنه فعل كل ما نسب إليه ... دون أن يعلم أنها جريمة يمكن أن يتهم بها أمام محكمتكم للوقرة ... أنظروا إلى هذا الرجل ... إنه ليس فيلسوفاً، ولا عالماً، ولا فناناً ... حتى نطالبه بمبادىء مثالية تسير بالبشرية إلى عالم أرقى يسوده التعاون، والمساواة، والتضامن بين جميع الأجناس، ويخيم فيه الحب والوئام والسلام على كافة الناس ... ما كان ينبغى أن يقدم إليكم ياحضرات القضاة غير رجل، مطالب بحكم واجب رسالته وطبيعة فنه، بمبادىء إنسانية عليا ... لذلك أدفع بعدم اختصاص هذه المحكمة بنظر هذه القضية ...

جذبنى المتهم من كمى جذبة شديدة، وهمس فى أذنى غاضباً :

— أتريد أن تبتلينى بمصيبة ؟!... أتريد أن يحيلونى على محكمة عسكرية ؟! هذه المحكمة أحسن من غيرها ... لعنة الله عليك من محام ! ...

فهمست فى أذنه :

— هذا والله ما شاهدته فى المحاكم ... ما من قضية إلا طلب فيها المحامون الدفع بعدم الاختصاص، حتى وإن كانت المحكمة فى نظرهم خير محكمة على الأرض ...

وكان الرئيس فاندى فى تلك الأثناء قد مال على العضوين يتداول معهما ... وفرغ من المداولة ... فالتفت إلىّ قائلا :

— المحكمة ترفض هذا الدفع وتطلب الاستمرار فى المرافعة فالمتهم حقاً ليس فيلسوفاً ولا عالماً ولا فناناً ... ولكن ذلك لا يمنع من اعتباره رجلا عظيما ... والرجل العظيم ملك للإنسانية لأنه يؤثر فى مصيرها، أو هو بذلك

مسئول عنها وعن أقدارها ... وبهذه الصفة ترى المحكمة نفسها مختصة بنظر الدعوى ...

فتقدمت خطوة نحو المنصة قائلا :

يا حضرة الرئيس ! ! ... ونابليون ألم يكن رجلا عظيما ؟ ... إنه في رأيي كان فناناً حقاً ... أو على الأقل كان في مقدوره أن يصبح من خيرة كتاب عصره ، لو لم يتجه إلى الحرب ... إن رسائله إلى جوزفين لأدب من أروع الأدب ، بل لقد ظهرت مواهبه الفنية قبل ذلك بكثير ... لقد قيل إنه تقدم إلى مسابقة أدبية وهو في عامه النهائي بالمدرسة الحربية ، فظفر بالجائزة الأولى ثم إنه — حتى في حروبه ضد ممالك أوربا — كان يحمل في جعبته مبادىء الثورة الفرنسية القائلة بالحرية والمساواة والإخاء ... ومع ذلك فمثل هذا الرجل لم يقدم إلى محكمة مثل محكمتكم هذه ...

وهنا قاطعني عضو اليسار الموسيقى « توسكانيني » قائلا :

— من قال لك ذلك ؟... لقد صدر الحكم على نابليون من قاض تنحني أمام مجده الرؤوس المتوجة ... ذلك القاضي هو « بيتهوفن » ألا تذكر أنه أعجب أول الأمر بالقائد « بونابرت » الذي اجتاح أوربا ناشراً مبادىء الحرية الجميلة ... فألهمه هذا الإعجاب قطعته الموسيقية « سانفونية البطولة » يمجد في ألحانها النبيلة بالبطل النبيل ... فلما نمى « نابليون » رسالته الأولى وتوج نفسه امبراطورا ، خاب أمل بيتهوفن ، فمزق الإهداء المقدم إلى البطل الخادع ... وجعل «المارش الجنائزى» في القطعة لحنا داميا يرثى به البطل الأول الذى فقدته الإنسانية ... بعد أن انقلب طاغية يطمع في استعباد البشر ؟! ... أي حكم أعدل من هذا الحكم وأبقى على الدهر ؟! ...

واعتدل عضو اليمين العالم « اينشتين » ثم أضاف قائلا :

هذه المحكمة مختصة ... إذ لا توجد محكمة أخرى تعرض عليها تهمة خنق

حرية العلم وتشريد العلماء وتحريق المؤلفات ، مما هو منسوب إلى هذا المتهم . وهى تهمة إن صحت لاستوجبت عقاباً معنوياً أقسى من أى عقاب عادى ، يزول بزوال المحكوم عليه .

وأشار الرئيس « فانذى » بيده نحوى ... وقال :

— الآن ... تكلم فى الموضوع ...

فلم أجد بداً من الإذعان ... وقد يئست من انتحال الحجج للتخلص من هذه القضية ... لا مناص إذن من الدفاع عن هذا الرجل الذى وضع مصيره فى يدى ... كيف أبدأ ؟ ... كيف أقول لأنقذ موكلى وأبرئه من هذه التهم الخطيرة الشهيرة ؟ ... أمرى إلى الله : ما دمت وكيل هذا الرجل ، ليكن الله وكيلى ! ... وحسبى الله ونعم الوكيل ! ... وتنحنحت مرة ، ومرتين ، وثلاثا ... ثم قلت :

— يا حضرات القضاة ... لا شىء يؤثر فى نفسى مثل منظر عزيز قوم ذل ... ما مر مرة قرأت فيها تاريخ نابليون فى جزيرة سانت هيلانه إلا بكيت ... ذلك الرجل الذى كانت الدنيا فى قبضته قد وضع فى جزيرة صغيرة فى قبضة سجان انجليزى متعجرف ؛ وبالرغم من كل شىء فقد أصر نابليون على أن ينادوه بالإمبراطور ... فناداه من حوله بهذا اللقب ساخرين ، كأنه ملك من ملوك التمثيل ، على رأسه تاج من صفيح ... وكانوا يسمحون أحياناً لبعض كبار الزوار والسائحين أن ينظروا إليه من ثقب بابه ، كأنه حيوان هرم فى قفص ... إلى أن مات فلم يحضر دفنه غير بضعة أشخاص لا ذكر لهم ولا وزن ... تلك كانت عقوبته ! . عقوبة مادية كما ترون ... وقد استوفاها ... بل وقد استدر بعدها بعض الدموع ... إنها كانت غلطة ولا شك ارتكبها قضاته العسكريون والسياسيون ... لذلك اتجه بالرأى إلى ترك موكلى حراً ... يعيش فى هذا العالم الحر ويبصر بعينى رأسه هذه السعادة والبحبوحة التى ينعم بها اليوم شعبه ، بعيدا عن حكم

الجستابو وبير الطغيان ... إنكم تتحدثون عن العقوبة المعنوية ... وهل هناك عقاب معنوى أفظع مما يحسه هذا الرجل الآن ؟ ... إنه يسير فى شوارع بلاده الفرحة المطمئنة وهو يكاد يخجل من مجرد حياته ... هو الذى قد حرم هذا الشعب من هذا الفرح وهذا الرخاء أعواماً طوالا فى سبيل أوهام لم تحققها الحرب ، وحققها السلام ...

يا حضرات القضاة :

هذا إنسان أخطأ التقدير قبل كل شىء ... وصدر عن فلسفة عقيمة كادت تودى حقاً بالعالم إلى كارثة ... ولكن عقوبته القصوى فى نظرى هى فشله ... ليس أقسى من الفشل عقوبة لعظماء الرجال ...

وجلست بين صمت الجموع وإطراق القضاة ...

ورفع الرئيس « فاندى » رأسه أخيراً ، وقال :

— قد تستعمل المحكمة الرأفة إذا تبين لها أن المتهم قد غير أفكاره ومبادئه فى الإنسان والإنسانية وأنه أصبح مواطناً طيباً فى هذا العالم الجديد ... على أن المحكمة تود لو تعرف المهنة أو العمل الذى ينوى المتهم أن يزاوله البقية الباقية من حياته ؟ ..

فنهضت أقول من فورى :

— تلك فى الحقيقة مسألة دقيقة يا حضرة الرئيس ... ولكنى مع ذلك أعتقد أن موكلى لا مانع لديه مطلقاً من أن يعود إلى مزاولة حرفته الأولى ...

فلكزنى موكلى بكوعه ، وهمس :

— نقاش ؟ ! ... تريد لى أن أعود نقاشاً كما بدأت حياتى ؟ ... ألا خيبك الله من محام ! ...

الثورة المباركة

مقدمة الثورة المباركة

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ... كانت مصر لم تزل على ما هى عليه ، من حيث مجتمعها السياسى ، الذى جهل أى تقدم نحو مصيرها المنشود غير ممكن ... بل لقد ساء الحال ... فالملك فاروق جعل يتاجر بالوزارات ويلعب بالحكومات المتعاقبة ، كما هو معروف فى ذلك العهد ... والانجليز المنتصرون فى تلك الحرب لم يظهر منهم أى استعداد لأى تغيير فى موقفهم من مصر ... وكانت حرب فلسطين مع اسرائيل قد انتهت بغير نصر ، وقيل إن الأسلحة المصرية الفاسدة كانت هى أيضا من عوامل وآثار الفساد العام ... وأصبح ذلك النظام الذى قيل إنه « ديموقراطى » يكشف عما كنت أسميه فى بعض كتاباتى فى ذلك العهد : « الديموقراطية المزيفة »(*) ... ولكن

(*) ومن صورها ما جاء فى كتابى « يوميات نائب فى الأرياف » (١٩٣٧) عن الانتخابات فى ذلك العهد ... وما دار بينى أنا وكيل نيابة المركز وبين مأمور المركز بهذا النص : « ... أنا مش مأمور من المآمير اللى انت عارفهم ، أنا لا عمرى أتدخل فى انتخابات ، ولا عمرى أضغط على حرية الأهالى فى الانتخابات ، ولا عمرى قلت انتخبوا هذا وأسقطوا هذا ، أبداً ، أبداً ، أبداً . أنا مبدئى ترك الناس أحراراً تنتخب كما تشاء ...

فقاطعت المأمور وأنا لا أملك نفسى من الإعجاب :

— شيء عظيم ياحضرة المأمور ، بس الكلام ده مش خطر على منصبك ؟ انت على كده ... انت رجل عظيم ...

=

مع ذلك لم أستطع تصور نهاية لهذا النظام ... ولا تخيل الطريقة التى يتم بها ما سبق أن تمنيته وتنبأت به فى مقدمة الطبعة الأولى من كتابى « شجرة الحكم » الذى صدر عام ١٩٤٥ وما نشرته صراحة من ضرورة مجيء « ثورة مباركة » بهذ الإسم ... كى تطيح بهذا الزيف لذلك النظام الذى كانت مصر تعيش فيه دون أمل فى أى تقدم ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بانتصار المحتل لبلادنا ...

وفجأة تحدث المعجزة ...

من حيث لا أنتظر ...

حدث ذلك فى يوم الأربعاء ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ...

= لمفى المأمور يقول :

دى دايماً طريقتى فى الانتخابات : الحرية المطلقة ؛ أترك الناس تنتخب على كيفها ، لغاية ما تتم عملية الانتخابات ، وبعدين أقوم بكل بساطة شايل صندوق الأصوات وأرميه فى الترعة ، وأروح واضع مطرحه الصندوق اللى احنا موضبينه على مهلنا .

وبلغنى بعد ذلك أن رئيس الوزراء اسماعيل صدقى باشا سئل فى أى عهد جرت هذه الانتخابات فأشار إلى نفسه قائلا باسماً : « كانت فى عهدى أنا !... » .

الثورة المباركة (*)

« ... الفساد جاء من عاصفة جائحة لمبادىء شوهت وأسىء فهمها ، هبت فجأة على هذا البلد فقلبته كما رأينا شر منقلب ، فالأمر أجل وأخطر من أن يعالج بالعلاجات الوضعية ، إنما هي عاصفة أخرى جائحة من المبادىء الصحيحة السليمة ينبغي أن تهب فتقيم ما وقع وترم ما انهدم ، ولكن المعضلة : هي كيف ومتى تأتي العاصفة المباركة ... يجب تذكير الشباب بأنه هو المنوط به يوما إصلاح كل هذا الفساد وإحداث « الثورة المباركة » التي تقيم الوطن على أقدام الصحة والقوة والنظام ...

١٩٤٥

كان يوم أربعاء فيما أذكر . ذلك أن اليوم التالي ، وهو الخميس ، كان يوم سفري الأسبوعي إلى الاسكندرية . لقد كنت يومئذ مديرا لدار الكتب المصرية . ولم تكن أجازتي السنوية قد حان موعدها فسبقتني أسرتي إلى المصيف ، على أن أمضي معها عطلة نهاية الأسبوع . وصرت وحدي في مسكني . ولم أكن في حاجة إلى من يخدمني ، فطعامي أتناوله في الخارج .

(*) نشرت باسم « عودة الوعي » في كتاب عام ١٩٧٤ .

وأسهر مع أصدقاء وزملاء من الكتاب والصحفيين ، ولا أعود إلى شقتي إلا آخر الليل لأنام . وكانت القاهرة في هذه الأيام الأخيرة من شهر يوليو تكاد تكون مقفرة . فالملك فاروق قد انتقل إلى مصيفه بقصر المنتزة ، وانتقلت معه الحكومة وكبار موظفيها إلى مقرها المعتاد في بولكلي . كل شيء يسير سيره العادي . وعدت من سهرتي وآويت إلى فراشي .

ذلك الصباح ...

وفي الصباح الباكر نهضت وأدرت جهاز الراديو كما أفعل كل صباح . ولكني سمعت شيئاً غريباً لم يسبق لي سماع مثله . إنه بيان من الجيش يعلن قيامه لإصلاح الفاسد من أمر البلاد ، وأنه تقدم بمطالب إلى القصر الملكي لإقصاء الحاشية الفاسدة . كلمات بهذا المعنى تلقيتها طبعاً بابتهاج ، وإن كنت لم أقدر لها من الأبعاد أكثر مما تحتمل . فما من أحد في البلاد ، في ذلك الوقت ، لم يشعر بالسخط والاشمئزاز لسلوك الملك الشخصي وتصرفه العام . فقد كان لا يخجل من الظهور في كل مكان بين حاشيته من القوادين المبتذلين ، ولم يقف بهم عند حدود حياته الخاصة اللاهية العابثة ، بل تركهم يتدخلون ويؤثرون في شئون الدولة . ولقد حاول بعض النصحاء أن ينبهوه إلى خطورة ذلك وسوء عاقبته ، فلم يلتفت إلى نصح . بل لقد رفع إلى أعتابه ، رجاء بتطهير قصره من مثل هذه الحاشية ، في عريضة رسمية موقع عليها من بعض رجال السياسة ، فغضب منهم ولم يأبه لهم . واستمر كل شيء في طريقه المعهود ، لذلك لم أشعر عند سماعي بيان الجيش بأن شيئاً خطيراً سوف يحدث . إنه مجرد احتجاج ككل احتجاج .

وارتديت ملابسي وخرجت في صباح ذلك اليوم (الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢) ، واتجهت إلى ميدان سليمان باشا لأتناول فطوري المعتاد ، وإذا بي

أجد في ذلك الميدان دبابتين من دبابات الجيش المصرى . إذن المسألة قد تكون أكبر مما توقعت . فنحن قد اعتدنا أن نرى في مثل هذه المواقف دبابات جيش الاحتلال الإنجليزى . أما دبابات جيشنا المصرى ، وخاصة بعد بيان يتحدى الملك ، فمناه شيء لم يكن يخطر لنا على بال . ودخلت محل « جروبى » ، ووجدت هناك بعض المعارف يتحدثون فى ذلك الأمر ، وقد احتدم الحديث وعلت الأصوات واشترك فى النقاش من نعرف ومن لا نعرف ، فأدركت أن أحداثاً خطيرة فى الطريق إلينا . وفى اليوم التالى ، الخميس ، غادرت مكتبى بدار الكتب بأتوبيس الصحراء الذى يتحرك فى الرابعة بعد الظهر إلى الاسكندرية . وذهبت إلى بيتى توا ولم أخرج منه إلا فى صباح الجمعة فرأيت سيارات الجيش تذهب وتجيء طول طريق الكورنيش والناس يصفقون لها بحماس . وكنت أنا الآخر فى شدة الحماس . ما من أحد فى مصر لم يتحمس لهذا الجيش ، الذى استطاع وحده أن يقف ضد ذلك الملك ، ذلك الشخص المكروه من الجميع ، بأخلاقه القذرة وجسمه المترهل كأنه الخنزير .

وكأن القدر أراد له النهاية فأعماه عن سلوك الطريق الذى ينقذه . لقد كانت البوادر تنذر بالعاصفة ، فواجهها هو بتأليف وزارة جديدة هزيلة ، وجعل وزير الدفاع فيها زوج أخته « فوزية » القائمقام الرقيق اسماعيل شيرين . وحتى هذا القائمقام فهم للتو أن الظروف أخطر والمسئولية أكبر من أن يحملها مثله ومثل هذه الوزارة . فما ان تقدم لحلف اليمين أمام الملك حتى جثا على ركبتيه ، واستحلفه بحق النسب والقرابة ، أن يستمع منه لقولة الصدق وهى أن يأتى بالرجل الوحيد الذى يستطيع أن يواجه الموقف وينقذ العرش : إنه زعيم الأغلبية « مصطفى النحاس باشا » فهو لم يزل يحتفظ فى البلاد بشعبية واسعة، وظهوره فى تلك اللحظات سيجذب إليه الجماهير فتصغى إليه وإلى الحل الذى يراه ، وهو على كل حال رجل معروف بأنه لا يتصرف إلا فى حدود الدستور…

وتردد الملك

ولكن للملك تردد، وربما كبر عليه أن يأتى بعدوه التقليدى ليخرجه من مأزقه . وأمام إلحاح نسيبه الشاب أحال الموضوع إلى رئيس ديوانه ليدلى برأيه . وكان هو « الدكتور حافظ عفيفى » أحد أعداء النحاس وحزبه ، فكان رأيه بالطبع معروفاً . وضاعت الفرصة على الملك . وسارت الأمور بسرعة مذهلة . وفى طريق عودتى إلى القاهرة بالأتوبيس الصحراوى ، بعد ظهر السبت ٢٦ يولية ١٩٥٢ ، وقفنا فى استراحة « الرست هاوس » وطلبت فنجاناً من القهوة ، وإذا صوت مذيع الراديو بالمكان ، يعلن خبر مغادرة الملك للبلاد بعد نزوله عن العرش . وكان شعور البلاد بالفرحة شعوراً حقيقياً لا جدال فيه ...

السادة الجدد

وتطلعت البلاد إلى السادة الجدد . من هم ؟ لم يكن أحد منا يعرف عنهم شيئاً . اللهم إلا رئيسهم باسم الحركة فى البيانات التى تصدر فى الصحف وتذاع فى محطات الإذاعة . إنه لواء فى الجيش هو « محمد نجيب » ، كان قد تردد اسمه فى الشهور الأخيرة ، وقيل إن رجال الجيش ، وخاصة الضباط الشباب يرشحونه لرياسة ناديهم ، وللملك فاروق يعارض . ثم أبعده ورشح غيره من رجاله المقربين . ولكنه ظل محبوباً من الضباط الشبان ، إلى أن ظهر على رأسهم فى هذه الحركة التى أدت إلى طرد الملك .

والآن وقد استتب الأمر وأصبح كل شىء فى يد القائمين بالحركة ، ماذا هم فاعلون ؟ ... كان من رأى « اللواء محمد نجيب » ، كما سمعت ، أن الجيش لا يحكم ولا ينبغى له ، وأن عليه أن يترك حكم البلاد لأهلها بالطريقة الدستورية ، وأن يعود الجيش إلى ثكناته ويراقب سير الأمور عن كثب ،

وقيل إنه اتصل بزعيم حزب الأغلبية « مصطفى النحاس » في هذا الشأن ، وإن محادثات تليفونية بينهما قد سمعت . ووقعت جفوة بين اللواء الرئيس وزملائه الضباط الشبان .

الضباط وبجماليون

وقال لي يومئذ صديق من الصحفيين اللامعين المتصلين بهؤلاء الضباط اتصالا وثيقا : « إنهم يقولون إن الأمر يشبه مسرحيتك عن بجماليون »... كانوا يقصدون بذلك انهم هم الذين صنعوا من « محمد نجيب » التمثال الذي يقدم للناس على أنه رأس الحركة ، والواقع أنهم هم الذين فكروا في القيام بحركتهم وخططوا لها وكتبوا لها المنشورات بإسم « الضباط الأحرار » وحددوا موعد التنفيذ . ولكنهم استصغروا أنفسهم على مواجهة الناس وهم صغار السن والرتبة العسكرية . وخشوا أن لا يأخذ الناس مأخذ الجد حركة يقوم بها جماعة من شباب الجيش المجهولين المغمورين . كان لا بد لهم من وجه كهل ، برتبة لواء على الأقل ، يضعونه في المقدمة ويتقدمون خلفه . فاختاروا اللواء محمد نجيب ، وأقاموه تمثالا فوق قاعدة الحركة . ولكنه الآن قد استقر في أعين الناس ، ونسى أنه مجرد تمثال ، وأخذ يتصرف برأيه في مستقبل البلد السياسي ، فتذكروا تمثال « بجماليون » . ولكن هل كان أحدهم قد قرأ حقاً مسرحيتي ، أو أن الذي يعرفونه أو سمعوا عنه هو مجرد الاسم والعنوان ؟ مهما يكن من أمر ، فإن بجماليون في مسرحيتي قد حطم بعد ذلك تمثاله ، وهذا بالضبط ما فعلوه هم بتمثالهم ...

ولكن السؤال هو : هل كان في تدبيرهم من أول الأمر التخلص من محمد نجيب بعد الانتهاء من مهمته ؟... أم أن الحوادث اضطرتهم إلى ذلك؟... لقد قيل إن بعض لواءات الجيش والسياسيين قد نصحوا محمد نجيب بأن يبادر بالتخلص من هؤلاء الشبان المتهوسين ، ولكنهم هم كانوا أسبق منه ، فتغدوا به قبل

أن يتعشى بهم ... وقيل أيضا ، لست أدرى أحقيقة هى أم اشاعة ، إن تأييد السودان لمحمد نجيب وزعامته كان عظيما ، فأمه سودانية ، وإن السودانيين كانوا على استعداد للوحدة مع مصر بزعامة محمد نجيب ، وإذا تم ذلك فمعناه الاستقرار النهائى لحكم نجيب ، والقضاء على فكرة إقصائه والتخلص منه . ولذلك قيل أيضا — والعهدة على الراوى أو الرواة — إن الضباط الأحرار أسرعوا وأوفدوا من ذهب إلى السودان للعمل على عرقلة هذه الوحدة .

الخلافات الحزبية

كل هذه إشاعات أو حقائق لابد أن يتناولها التاريخ بالفحص الدقيق فى يوم من الأيام ...

هناك سؤال آخر : هل كان فى تخطيط هؤلاء الضباط الأحرار أن يحكموا البلاد بأنفسهم أو أن الظروف فى البلد ذلك الوقت هى التى دفعتهم إلى ذلك دفعاً ؟ ... إنى بالطبع لا أستطيع أن أعرف دخيلة نواياهم ، ولكنى أعرف بالمشاهدة المباشرة ، كما يعرف الكثيرون فى ذلك الوقت ، ما كانت عليه حالة البلاد من خلافات حزبية وأخلاق انتهازية . فمن الخلافات الحزبية ما لمست بنفسى مثلا من أمثلته ، وقد قامت الثورة ، وكانت حوادثها المتلاحقة تدعونى إلى تتبعها ، فكنت أتردد على جريدة « أخبار اليوم » كل ليلة لأستطلع ما يجرى . وفى ذات ليلة وجدت هناك صديقى الصحفى القديم المرحوم « توفيق دياب » صاحب جريدة « الجهاد » الوفدية . وما كدنا نجلس حتى دخل علينا أحد أقطاب حزب الأحرار الدستوريين المعارض للوفد وهو المرحوم « أحمد عبد الغفار باشا » . وإذا الاثنان يتلاقيان بالقبلات والأحضان ويتبادلان أرق العبارات بالود والترحاب . ثم أخذا يتحدثان فى الأوضاع الجديدة ومصير الدستور وضرورة وقوف الأحزاب كلها صفا واحدا ، ووضع حد للخلافات ،

ومد كل سياسي يده إلى الآخر لتتحد الكلمة ، حفاظا على دستور البلاد ، فقال أحمد عبد الغفار : « ومن يضمن لنا حسن نيتكم يا حزب الوفد ؟ » فرد عليه توفيق دياب : « إذا كان هناك غدر فأنتم أصحاب الغدر دائما يا حزب الأقلية » . وكلمة من ذاك وكلمة من هذا فلم أشعر إلا بالأصوات وقد ارتفعت بالسباب من الطرفين ، وصوت أحمد عبد الغفار الجهوري الجلجل يصيح : « من يضع يده في أيديكم يا وفديين يا حزب الرعاع يا كلاب » ، فصرخ توفيق دياب ، وقال وهو يجأر : « اخرس يا وغد انت وحزبك الحقير يا صنائع الانجليز ... ... » ولم يقف الأمر عند حد التراشق بالسب والشتم بل تعداه إلى الضرب واللكم .

وتضارب السياسيان

فقد رفع عبد الغفار عصاه لينهال بها على خصمه ، فاندفع خصمه دياب بكل جسمه الممتلىء ليكيل له لكمة ... ولم أجد بداً من التدخل، لأحول بينهما. فأمسكت بسترة توفيق دياب لأجذبه إلى الخلف ، فانزلقت قدمه ووقع على الأرض ووقعت معه . ثم نهض وهو يحاول التخلص من قبضتي التي ماتت على سترته صائحا : « سيبني سيبني يا أخي ... لازم أعلمه الأدب وأهشم له دماغه الوسخ » ، والآخر لا يزال واقفا بعصاه المرفوعة في الهواء وهو يرغي ويزبد بسبه وسب الوفديين جميعا ... ولم أجد بداً من أن أسحب صاحبي إلى الخارج . ونجحت في إخراجه وأوصيته أن يذهب إلى بيته فورا وينام في فراشه . فأنا أعرف أنه خارج حديثا من أزمة قلبية . وخشيت عواقب هذه الحادثة على صحته . وعدت إلى أحمد عبد الغفار محاولا أن أعيد الصفاء إلى النفوس ولكن هيهات ...... لقد أيقنت تلك الليلة أن لا شيء ، يمكن أن يقضي على داء الحزبية والتعصب الحزبي في هذا البلد ...

لكن ماذا حدث للدستور القائم فى مصر وقتئذ ؟ قيل لى إن حركة الضباط بعد أن نجحت فى طرد الملك فاروق ، وحصلت منه على وثيقة النزول عن العرش ، تلك الوثيقة التى ذهب وقدمها إليه فى قصره بالمنتزه وكيل مجلس الدولة « سليمان حافظ » ، كان على الضباط الأحرار أن يسيروا فى إجراءات الوصاية على العرش وهى إجراءات منصوص عليها فى الدستور . وقيل أيضا إن زعيم حزب الأغلبية « النحاس باشا » اتفق معهم على كل هذه الاجراءات الدستورية بما فيها دعوة مجلس النواب المنحل لتعرض عليه أسماء الأوصياء ، طبقاً لأحكام الدستور ثم تتخذ الإجراءات لإجراء انتخابات جديدة... ولكن « سليمان حافظ » وهو أيضا من أعداء الوفد ألقى فى نفوسهم الخوف فى ذلك. وقال لهم إن الانتخابات الحرة ستسفر حتما عن برلمان وفدى ومن أدراكم أن هذا البرلمان سيؤيدكم . ثم أشار عليهم بإهمال هذا الدستور ، وأفتى لهم بأن من حقهم إصدار القوانين دون برلمان ، لأنهم قاموا بثورة ، والثورة معناها إلغاء ما قبلها من أوضاع ... ... وهكذا أطلق على حركة ٢٣ يولية اسم « الثورة » بعد أن كان اسمها « الحركة » ! ولحبنا لها سميت « الحركة المباركة » . وقام بعض أساتذة الجامعة يؤكدون وصف « الثورة » ويؤيدون حقها المطلق فى إصدار القوانين ...

وأصبحت الحركة ثورة

ولكن بعض فقهاء القانون الدستورى ، قاموا من جهة أخرى ينفون عن الحركة وصف الثورة ، ويدللون على أن الوصف المنطبق على هذه الحركة هو « الانقلاب العسكرى» ، ذلك أن « الثورة » يقوم بها الشعب بقيادة مدنيين ، كما حدث فى الثورة الفرنسية التى قام بها الشعب بقيادة مدنيين ... وكالثورة

الروسية التي قام بها الشعب بقيادة « لينين » ، وكما حدث في الثورة المصرية سنة ١٩١٩ التي قام بها الشعب بقيادة مدنيين . أما الحركة التي تقوم بها جماعة مسلحة من رجال الجيش فهي « انقلاب لنظام الحكم » . ولكن الضباط الأحرار لم يأخذوا طبعا بالرأي الثاني ، وأبعدوا أصحابه ، ورحبوا بالرأي الأول وقربوا القائلين به . وأصبحت الحركة ثورة وأصبح لها مجلس ثورة يصدر القوانين في حجرات مغلقة دون معارضة وبغير مناقشة علنية .

أين كنا ؟ . . .

ولكن ... أين كنا نحن ؟ ... أين كان المفكرون في هذا البلد ؟ وأين كنت أنا المحب لحرية الرأي ؟ الواقع أننا — ولأقصر الكلام على نفسي ومشاعري — لم أشعر قط بضيق . على العكس كنت مستبشرا بقدوم هؤلاء الشبان ، مبهورا بما قاموا به من طرد ملك ، ما كان أحد يخطر بباله أن يطرد بهذه السهولة . أما الحياة الدستورية التي ضاعت ، فلم نلتفت إلى خطورة ضياعها في ذلك الوقت . لأننا كنا خارجين من مرحلة فقد فيها الدستور قدسيته ، وأفسدت فيه الديمقراطية إفسادا جعل منها مطية للانتهازيين ووسيلة للمستوزرين ، مما كنت ذكرته في كتابي « شجرة الحكم » (١٩٤٥) فقد سبق أن ذكرت فيه رأيي الذي أذعته عام ١٩٣٨ وهو أن النظام البرلماني كما يطبق في مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام غير الصالحين . وأن البرلمان كف عن مراقبة أعمال الحكومة بالمعنى الحقيقي ... وأن على البيت والمدرسة الإكثار من تذكير الشباب بالمثل العليا ... وأن يقنعاه بأنه هو المنوط به يوماً إصلاح كل هذا الفساد وإحداث الثورة المباركة ... التي تقيم الوطن على أقدام الصحة والقوة والنظام . بهذه الألفاظ بالنص كتبت قبل ثورة ١٩٥٢ بأعوام طويلة . فلا عجب إذن أن أرحب بهذه الثورة ، ولا أجزع لضياع

الدستور . إذن هذه مسئوليتي ... وإذا كان الدستور قد ضاع بنصيحة ذوى الأحقاد والأغراض ، فهذه لم تكن المرة الأولى . فقد سبق للدستور أن انتهك بنصيحة كهذه يوم اعتلى فاروق العرش، وباشر وهو شاب صغير برىء سلطاته الدستورية . لم يخطر فى باله أن دستور البلاد يمكن أن ينتهك . ولكن بعض مستشاريه والناصحين له المقربين إليه ، من رجال القصر من أمثال « على ماهر » و « أحمد حسنين » أرادوا أن يحولوه من ملك دستورى إلى حاكم مطلق ، ليحكموا هم من خلفه، فأفهموه أنه هو فوق الدستور ، وأن عليه أن ينتهز أول فرصة لإفهام الناس أنه هو الحاكم القوى ، واختاروا له هذه الفرصة يوم جاءت الانتخابات بالنحاس زعيما للأغلبية ، وتقدم بكشف تشكيل الوزارة ، فأشاروا على الملك أن يرفض بعض الأسماء ويبدل ويعدل فى الكشف المقدم . وكانت هذه المخالفة الدستورية فاتحة عهد تحطمت فيه كل حياة ديموقراطية صحيحة .

مبادىء بلا أشخاص

لذلك خفّت علينا — وعلى الأخص علىّ أنا بالذات — وطأة دستورنا الضائع . فالمبادىء ليست بذات قيمة فى نظرى بغير الأشخاص الذين يطبقونها بإخلاص، ويؤمنون بها ويحرصون عليها . ولقد كانت عندنا مبادىء ودساتير فى أيدى أشخاص يتلاعبون بها لمنافعهم وأغراضهم ، وما كنا نحلم به وننتظره دائمًا هو ظهور الأشخاص المخلصين . وهؤلاء الضباط الشبان بدوا لنا — ولى أنا على الأخص — أنهم جاءوا مخلصين لإصلاح البلد . فقد أعلنوا فى شجاعة ما كنا ننادى به ولا نجد الأذن الصاغية . بادروا بإلغاء الألقاب . ولطالما كتبنا ونشرنا ناسخر منها . وفى كتابى « تحت شمس الفكر » مقال بعنوان « كادر المقامات » ، أسخر فيه من ألقاب « صاحب الرفعة » و « صاحب الدولة » و « صاحب المعالى » و « صاحب السعادة » و « صاحب العزة » ، وغير ذلك

مما يثير الابتسام عندما تتذكر رجلا مثل « تشرشل » الذى كان يومئذ يهز العالم ولا يحمل إلا لقب « مستر » ، الذى يحمله سائق سيارته . هذا ما جاء فى ذلك الكتاب ، كما جاء فيه أيضا ضرورة إلغاء « الطرابيش » ، ثم تحديد للملكية ، وقد طالبنا به أيضا ، فقد تقدم نائب فى البرلمان السابق بهذا المطلب فلم يلتفت إليه بالطبع أحد . فلما علمت بخبر العزم الجاد على تحديد الملكية الزراعية تلقيت الخبر بحماس .

السنهورى . . .

وكان علمى بهذا الخبر فى صباح أحد أيام الصيف . وكنت جالسا فى مقهى صغير على الكورنيش بسيدى بشر . فأقبل علينا الدكتور عبد الرازق السنهورى ، وكأنه جاء يبحث عنى . كانت صداقتى قديمة به ، منذ عام ١٩٣٥ . كنت مديراً لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ، وكان هو أستاذا بكلية الحقوق . وكانت تجمع بيننا الأفكار المثالية والنزعات الإصلاحية ، وكنا نسكن منطقة الجيزة ، ونسير على أقدامنا ساعة العصر على كوبرى عباس نتحدث طويلاً وفى يد كل منا قرطاس من الترمس ، ونحلم بشتى المشروعات . وفى ذات يوم جاءنى يقول إنه فكر فى مشروع نافع لتكوين الشباب وغرس روح البطولة والمثل العليا فى نفوسهم ، وأن خير وسيلة لذلك تأليف جماعة من طلبة الجامعة ، ممن يستطيع الاتصال بهم ، باعتباره أستاذا فى الكلية ، تكون مهمتم نشر هذه المبادىء ، وطلب منى معاونته فى هذا المشروع بوضع البرامج اللازمة . وجمعنا نستعرض أبطال تاريخنا الذين يمثلون المبادىء العظيمة التى نريد غرسها فيهم مثل « عمر بن الخطاب » « طارق بن زياد » و « رمسيس الثانى » ونحو ذلك ... ومضت أيام وبينما أنا جالس يوما فى مكتب وكيل الوزارة ، إذا بى أجد حركة غير عادية : الوزير يطلبه بالتليفون من مجلس

الوزراء المنعقد ، وكانت الوزارة يومئذ ضد حزب الوفد والوفديين . ووكيل الوزارة يجرى هنا وهناك يحمل ملفات ، فسألته عن الخبر فقال : « مجلس الوزراء منعقد لفصل الدكتور السنهوري من الجامعة » فكدت أصعق . لماذا ؟ ماذا فعل ؟ فقال : لأن الدكتور السنهوري وهو أستاذ بالجامعة ألف جمعية سياسية من طلبه الجامعة لنشر الدعوة للوفد بإيعاز من صديقه عضو الوفد «النقراشى باشا» فلم أصدق ما أسمع . وصحت به : «ما هذا الكلام ؟ هذا محض افتراء ! هذه جمعية أخلاقية للحض على المثل العليا والتشبه بعمر بن الخطاب وطارق بن زياد ورمسيس الثانى » . فضحك ساخرا وقال : « اسكت ... اسكت ... عمر بن الخطاب إيه ورمسيس إيه ؟ انت لا تعرف شيئا . تقارير الأمن العام بوزارة الداخلية والبوليس السياسى فى هذه الأوراق والملفات تثبت كل شىء » ... فأقسمت له بشرفى أن السنهورى مظلوم ... لأنى أنا وهو مشتركان فى هذا المشروع الأخلاقى الجليل . وإذا كان لا بد من فصل السنهورى لهذا السبب فافصلونى معه . فأكد لى أن للموضوع سياسيى والجمعية لها أغراض سياسية حزبية وعضو حزب الوفد النقراشى ضالع فيها . وأن الموضوع لم يكشف لى على هذا الوجه ، وأنى لا أعرف منه غير ما أظهروه لى من واجهة بريئة وما هو إلا عمل حزبى بحت ، فعجبت عجبا شديدا . ولم تلبث الوزارة التى فصلت السنهورى أن سقطت وجاءت وزارة وفدية ، جاء فيها النقراشى باشا وزيرا فمد يده بالفعل إلى السنهورى ، وأعاده ومهد له طريق العمادة لكلية ثم وكالة وزارة المعارف . ولكن ذلك كله لم يؤثر فى صداقتى الشخصية للسنهورى .

بداية تحديد الملكية

فلما جاء السنهورى ذلك الصباح يبحث عنى فى مقهى سيدى بشر ، وكان يومئذ رئيسا لمجلس الدولة وموضع الثقة والمشورة لدى ضباط الثورة ، سألته عن

الخبر ؟ فقال أتريدنا أن نجلس ونتكلم هكذا فى موضوع هام على قارعة الطريق ، وفى مثل هذا المقهى الصغير ؟ قم بنا إلى كازينو مغلق محترم ... » وقادنى من يدى ودخلنا بالفعل مكاناً لائقاً وعندئذ قال لى : « اسمع ... رجال الثورة يريدون تحديد الملكية الزراعية ، وأمامنا الآن اقتراحان : اقتراح بجعل الحد الأقصى للملكية خمسمائة فدان ، واقتراح آخر بجعلها مائتين » فلم أتركه يتم كلامه ، وصحت به : مائتين ... مائتين ... اجعلوها مائتين» ... كنا متحمسين للتطرف لطول ما قاسينا فى مصر من التردد والرفض والمماطلة . وإنى أذكر دائماً هذه اللحظة . وكثيرا ما كررتها لبعض معارفنا القدامى من أصحاب مئات الأطيان ، كلما لعنوا أمامى هذه الثورة التى استولت على أطيانهم ... كنت أؤكد لهم أن الثورة مظلومة ، وأننا كنا متحمسين لذلك ، فرحين لاستجابتها إلى مشاعر ومطالب كانت تخالجنا من قبل ...

حول إلغاء الطربوش

نعم كنا نرى الكثير من مطالبنا وتمنياتنا يتحقق بسرعة ويسر . فى حين أن أقل وأتفه ما كنا ندعو إليه فى الماضى كان يتعثر فى العراقيل ويتبخر فى الجدل . فأبسط الأشياء وهو خلع الطربوش رمز التبعية العثمانية ، الذى لا يوفر دفئاً فى شتاء ولا يقى من القمس فى صيف ، لم ينجح أحد فى فرض خلعه أو تغييره . وقد أراد الصحفى القديم « محمود عزمى » أن يدعو إلى ذلك فى العشرينات ، ولبس القبعة فلم يتبعه أحد . واضطر إلى خلعها والعودة إلى الطربوش ، وتطلعت أنظار المجددين إلى زعيم ثورة ١٩١٩ « سعد زغلول » ليقوم بالخطوة الأولى فى هذا السبيل ، ولو أنه فعل لتبعته الأمة أو أكثرها خصوصا وزعيم الثورة التركية « كمال أتاتورك » كان قد أصدر وقتئذ أمره بخلع الطربوش فى تركيا . فكيف يزول من البلاد التى جاءتنا به ونظل نحن

متمسكين به ؟ ولكن « سعد زغلول » لم يفأ القيام بحركات أو إصلاحات ، مما عسكن أن يثير المناقشات والمجادلات التي تؤدي إلى انقسام الأمة في وقت تحتاج فيه إلى الوحدة والتكتل لطرد الاحتلال البريطاني ... ... وجاءت الثلاثينيات فتجددت الدعوة ، وكنت أنا طرفا فيها . وكثر الجدال على صفحات الجرائد بيني وبين رئيس تحرير جريدة المقطم المحافظة (خليل ثابت) . وانتهى الأمر بأن خلعت أنا وحدي الطربوش ولبست «البيريه» لقربه من «الطاقية» . وثبت عليه حتى اليوم ورأيته يعلو الكثير من الرؤوس ...

حل الأحزاب ومحاكمة زعمائها

هذا التنفيذ السريع ، عقب قيام الثورة ، لقرارات كانت تستغرق منا لتنفيذها الأعوام والأجيال ، قد بهرنا وجعلنا نسير خلف هذه الثورة بغير وعي... وشعرت الثورة أنها قد أحرزت نجاحا جعلها موضع الثقة ومناط الأمل ، فأرادت أن يكون لها سلطان راسخ . ولكن الأحزاب لم تزل قائمة ، وقد تفيق يوما وتتحد وتطالب بعودة الحياة الدستورية فما هو وقتذاك مكان رجال الجيش ممن قاموا بالحركة ؟ وهنا بادرت الثورة بحل الأحزاب جميعها . ولكن هذا لا يكفي . فما زال في البلد رجال سياسة ورجال عقول وأسماء كبيرة في كل مجال ، لها الاعتبار أو بعضه في النفوس والأذهان . أسماء قد يتضاءل إلى جانبها هذه الأسماء المغمورة لضباط شبان لا يوحي ذكرها بعد برصيد من تجربة أو علم أو ثقافة ... وهنا أيضا أقدمت الثورة على ضربة بارعة ، تكاد تشبه ضربة محمد علي المماليك في القلعة . تلك هي إنشاء « محكمة الثورة » ، حيث جاءت بأغلب رجال السياسة من أصحاب الأقدار الكبيرة والأسماء اللامعة ، لجردتهم من هيبتهم تجريدا ، وجعلتهم يقفون أمامها وأمام الناس عرايا مستضعفين خائفين وطامعين ، كل منهم يطعن في زميله لينجو بنفسه ،

أو لينال الحظوة عند الحاكمين، وضباط الثورة يشيرون إليهم ويقولون للناس: «هؤلاء هم الذين كانوا يحكمونكم وكنتم تحترمونهم ...»

ولكن عدداً من هؤلاء وقف أمام المحكمة وقال كلمة صدق وشجاعة، دون أن يسف في القول أو يطعن في زميل. على سبيل المثال – فيما سمعنا – ما روى عن السياسي الأديب الدكتور «محمد حسين هيكل». سألته المحكمة: لماذا لم يقف في وجه طغيان فاروق وهو زعيم حزب؟، فرد على ضباط المحكمة بهدوء: «لأن فاروق كان يخيفنا بكم أنتم يا رجال جيشه! ألم يكن فاروق هو القائد الأعلى للجيش وأنتم رجاله؟» ... وهذا صحيح. ماذا يفعل حزب من المدنيين أمام الجيش؟ كان في الواقع سؤالا لا محل له. ولكن مثل هذه المحكمة ما كانت بالطبع تتوقع من مثل هؤلاء الساسة في مثل هذا الموقف المهين ردودا محرجة ...

أما من كانوا خارج هذه المحكمة من رجالات مصر المرموقين فكان رجال الثورة يطلبونهم واحدا واحدا على انفراد ليستمعوا منهم، فكان شأنهم شأن غيرهم. وهو تسابق الواحد منهم في طلب الحظوة، والإعلاء من قدر نفسه ورأيه، والحط من قدر غيره والتسفيه لرأى سواه ... فكانت لعبة الحكام الجدد للفضلة أن يضربوا هذا بذاك، ويتلذذوا بمنظر هؤلاء الكبراء الفضلاء وهم يترامون على الأقدام خوفا وطمعا في حلبة التزلف والملق ...

وحركة التطهير

ثم أردفوا ذلك بالخبطة الكبرى التي عمت آثارها البلد كله وقلبت الموازين وقوضت النظام القديم في أدق تفصيلاته. وهي «حركة التطهير»، وإغراء كل موظف أن يفكر رئيسه، وكل صغير أن يتهجم على كبير. وكل زميل أن يشي بزميل، فانقلبت المصالح والإدارات والوزارات والجامعات والمستشفيات،

وكل جانب من جوانب النشاط فى مصر إلى ميدان مطاعن بالحق والباطل . وفى أغلب الأحيان بالباطل . لأن الطاعن كان فى كثير من الأحوال يطمع فى مركز المطعون ، وفى أحيان أخرى كان الشاكى مجرد مشاغب بالفطرة . أعطيت له فرصة الشغب . ولم يسلم رئيس فى إدارة أو مدير فى مصلحة من شكوى مرؤوس له ، ولا أستاذ فى جامعة من مطاعن زميل .

وشكوى ضدى أنا

وما من أحد سلم من الخدش فى هذا المعمعان . حتى أنا مدير دار الكتب ، لم أشعر إلا وشكوى قدمت ضدى من موظف محب للشغب . ماذا يمكن أن يقول وعملنا فى هذه الدار ليس فيه ما يسمح بالمآخذ ؟ ولكنه وجد شيئاً . ولابد أن توجد فى هذه الموجة شكوى من أى شىء فى أى مكان . ولم أكن أتصور أن يكون العمل النافع موضع شكوى . ماذا فعلت ؟ الحكاية أنه فى اليوم الأول لتسلمى وظيفتى فى دار الكتب وجدت فى حجرتى ما يشبه الكنبة المغطاه بكساء من الجوخ الأخضر . أردت الجلوس عليها فنهانى السكرتير وأزاح الغطاء فإذا هو مصحف كبير . حجمه متر فى مترين . وغلافه من الفضة الخالصة قيل إنه هدية للدار من مهراجا هندى . فعجبت لوضعه هكذا فى حجرة المدير . ورأيت الواجب أن أعرض هذه التحفة الثمينة ليشاهدها الجمهور . ثم قمت بجولة تفتيش فى الدار فوجدت صناديق خشبية كبيرة ملقاة بإهمال تكاد تسكنها الصراصير . فأمرت بفتحها فإذا بها نماذج من صور « ميناتور » جميلة للفن الفارسى فى القرن السابع عشر ، تصور حكايات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ونحو ذلك . فعجبت أيضاً وقلت : الجماهير أولى بها من الصراصير . ثم زارنى بعد ذلك العلامة النمسوى « جروهمان » وهو المتخصص فى العالم كله بكتاباته وبحوثه فى أوراق البردى الإسلامى ، واستطعت أن

أحصل منه على نماذج طريفة من مخطوطات البردى تكشف عن طريقة المعاملات الخاصة والعامة والتجارية فى مصر الإسلامية منذ أيام عمرو ابن العاص .

وفكرت وقتئذ فى أن أعرض كل هذه الأشياء الثمينة فى شبه متحف أو معرض يشاهده الجمهور من المترددين على دار الكتب . وتصادف أن زارت القاهرة وقتئذ سيدة فرنسية هى بنت أخت عالم الآثار المصرية ومدير المتحف المصرى مسيو « دريوتون » ، وكان صديقاً لى ، فرجوته أن يأذن بدعوة بنت أخته ، وكانت تعمل فى متحف اللوفر بباريس ، للمعاونة فى تنظيم ذلك المعرض . فوضعت للمصحف الفضى الضخم وسط المكان مفتوح الصفحات وحوله سياج من القطيفة الحمراء مثبت على أعمدة رفيعة من النحاس الأصفر ، ثم أشارت بصنع خزائن خشبية بواجهات زجاجية لعرض صور الفن الفارسى ونماذج مخطوطات البردى الإسلامية ونجح المعرض وكان يأتى لمشاهدته كل يوم أفواج من الزوار وخاصة من السائحين الأجانب . فما هى إذن الجريمة فى ذلك ؟ قالت الشكوى إنى صرفت من مال الدولة مكافأة لسيدة أجنبية لأنها من قريبات أحد أصدقائى الأجانب . والحقيقة أن هذه السيدة الزائرة لم يصرف لها أى مبلغ . وقد قامت بهذه الخدمة تطوعاً منها عن طيب خاطر . وحفظت الشكوى بالطبع . ولكنها مثل من الأمثلة التى دلتنى على أن فتح هذا الباب ضرره أكثر من نفعه . وقد أدى بالفعل إلى اتهامات ظالمة كثيرة وإلى تشويهات لسمعة بعض أفاضل الناس . وإلى استبعاد نفر من خيرة الأساتذة والعلماء ولكن الأخطر من كل ذلك هو إشاعة الفوضى فى النظام الإدارى نفسه . وخوف الرئيس من مرؤسيه فزالت هيبته وسلطته فترك الحبل على الغارب ، وإذا كانت الثورة قد أرادت بذلك أن لا يكون لأى كبير فى البلد سلطة غير سلطتها ، وأن تضرب الكبير بالصغير . فإن هذه

الخطة قد أضرت بالثورة نفسها . فعندما استتب لها الأمر ، وشرعت فى حكم البلاد حكما مطلقا ، وجدت أمامها رؤساء ومديرين فى كل المصالح والأعمال والقطاعات فقدوا شجاعة المسئولية .

ومضت عمليات التطهير دون مبالاة وبغير حساب حتى شملت بعض كبار الموظفين ، الذين اختيروا بعدها بقليل ، وزراء فى ذات الحكومة التى سبق أن أحالتهم للتطهير ، وعلى سبيل المثال المهندس عبد الملك سعد وزير المواصلات السابق ، والدكتور عبد الرازق صدقى وزير الزراعة الأسبق .

حماستى للحركة المباركة

لكن كل ذلك لم يكن قد بلغ فى نظرنا مبلغ الخطورة التى تستوجب النقد . والثورات تتحمل كثيراً من الأخطاء ونتحملها نحن عنها بل قلما نحفل بها أو نعتبرها أخطاء . ولكن عندما تنتهى الثورات إلى كوارث جسيمة حاسمة تهز مصير الأمة ، فإن هذه الأخطاء تصبح مكشوفة للنظر مطلوبة للتحقيق . شأن الشجرة الوارفة التى يسكن فى جذعها السوس . لا أحد يلتفت إلى سوسها ما دامت قائمة مثمرة أما إذا تهاوت أو اصفرت أوراقها ، فإن الناس يبحثون فى علتها والأنظار تهتم بما عاش فيها من سوس .

لم نكن نلتفت فى ذلك الوقت إلى عواقب ، لأنه لم تكن قد ظهرت بعد عواقب . كنا فى صميم ثورة تصدر كل يوم قرارات سريعة نافعة للشعب ، فيما تنم عليه من نية طيبة فى الإصلاح . وأذكر تماماً الآن كل مشاعرى نحوها . لم أشعر قط لحظة بغير التحمس المطلق لإجراءاتها . حتى فيما لحقنى منها من رذاذ ، بانطلاق قذائف شكاوى التطهير فى كل مكان . فقد كان ظنى ، وقد ظهر ذلك فى كثير من كتاباتى قبل الثورة ، أن مصر موبوءة تحت الحكم الفاروقى ، بداء الحزبية والنفعية والظلم الاجتماعى ، وكنا نتمنى لذلك تغييراً . بل لقد جاء فى كتابى (شجرة الحكم طبعة ١٩٤٥) ما ذكرت بعض عبارات عجيبة كأنها التنبؤ

عن ضرورة قيام « حركة مباركة ونورة مباركة » هكذا بالنص .. وجاءت بعد ذلك فعلاً ، وسميت بهذا الإسم فعلاً في مبدأ ظهورها .

... كل ذلك يثبت ولا شك ارتباطي الروحي بجوهر هذه الثورة ، واعتقادي أنها تحقيق لأملي ورأيي . وإذا كان الأمر كما يقول الشاعر :

« عين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا »

فأنا لم أكن قط من الساخطين على ثورة تنبأت بها وانتظرتها ، وأردت المحافظة عليها والتغاضي عن عيوبها آملا أن تصلح بنفسها هذه العيوب مع مرور الزمن ...

عندما أراد الوزير فصلي

ومضت الثورة في طريقها يحالفها النجاح ، ويحف بها تصفيق التأييد من الشعب . وكانت تضم في وزارتها الأولى بعض المدنيين . وكانت وزارة المعارف « التربية والتعليم » التي تتبعها دار الكتب قد عينت لها الثورة وزيراً من كبار رجال التعليم في العهد السابق وكان من أصدقائي . ولكنه مع ذلك تصرف معي تصرفاً غريباً . فقد حدث يومئذ أن ترجمت لي مسرحية إلى اللغة الألمانية ومثلت في سالزبورج في مسرح الموزارتيوم ، المنسوب إلى الموسيقى موزارت . ودعيت إلى الحضور وسافرت . وكان احتفال أدبي فني أقام لنا فيه رئيس الاقليم مأدبة كبيرة . وحيونا هناك تحية كريمة وصفها سفير مصر في تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية مرفقاً به مقالات الصحف الألمانية . وعدت إلى مصر لأجد صديقنا وزير المعارف قد تقدم إلى مجلس الوزراء بطلب فصلي من وظيفتي طبقاً لقرار التطهير باعتبار أني موظف غير منتج . كل ذلك من خلف ظهري وأنا لا أدرى شيئاً . ويظهر أن بعض الطامعين في وظيفتي قد

مزيفون مع أننا فزنا بثقة الأمة وحصلنا على الأغلبية الساحقة ! ! » كان هذا كل شيء ، ولم أمس بأذى ، مع أنى كنت موظفاً فى الدولة ومدير الارشاد ، أغرى الوزير بهذا الإجراء . وعلمت بعد ذلك ما تم . فقد انبرى له أحد قادة الثورة وأقدرهم وأقوام شخصية . ذلك الذى بدأ اسمه يلمع من بينهم : (جمال عبد الناصر) ، صاح فى ذلك الوزير المدنى قائلاً كما سمعت : (أتريد أن نطرد كاتباً عائداً إلينا بتحية من بلد أوروبى ؟ أتريد أن يقولوا عنا إننا جهلاء ؟!) وانتهى الأمر بإخراج هذا الوزير من الوزارة …

إنه ولا شك من حسن الطالع أن تضع الظروف هذه الثورة فى هذا الموقف الذى يبدو منه أن ضابطاً شاباً من رجال الجيش ، كان أحسن تصرفاً وأكثر تقديراً للمثقفين وفهماً للثقافة ، من رجل ناضج العمر من كبار رجال التعليم فى العهد السابق ! …

ولم أقابل عبد الناصر

وصار عبد الناصر يذكرها دائماً فى أحاديثه مع الصحفيين والمراسلين الأجانب : طردت وزيراً من أجل مفكر . ومع ذلك لم يخطر لى أن أشكره ، لا بالمقابلة ولا بالمراسلة ولست أدرى لماذا ؟ … ربما لأنه كانت قد تأصلت فى نفسى عادة البعد عن رجال السياسة والحكم . على الرغم من أن الأسماء الكبيرة فى البلد فى كل مجال ، كانت قد سعت وطلبت مقابلة رجال الجيش الحاكمين . بل أذكر أن صحفياً لامعاً من أصدقاء عبد الناصر زارنى يوماً فى مكتبى بدار الكتب وأخبرنى أن رئيس الحكومة (جمال عبد الناصر) يدعونى إلى تناول الشاى فى بيته . دعوة خاصة لن يحضرها أحد غيرنا . فقلت له معتذراً « كيف أذهب إلى رئيس الحكومة وما أنا إلا موظف فى درجة مدير عام ! إن اتصالاتى هى مع وكيل الوزارة . وعلى أكثر تقدير مع وزيرى المختص » . فضحك وقال : إنه لا يدعوك بصفتك موظفاً بل بصفتك مؤلف

« عودة الروح » التى قرأها ويقول إنها أثرت فى تكوينه الوطنى . فقلت له « ولو ... أرجوك ابعدنى من رجال الحكم » . فكان بعد ذلك كلما رآنى قال أمام الحاضرين : « هذا هو الرجل الذى رفض مقابلة عبد الناصر » فأبادر بتخفيف الوضع : ليس شخص عبد الناصر بل الحاكم . أنا لم أقابل قط فى حياتى رئيس حكومة وهو فى الحكم ، فيقول ضاحكا : يعنى تريد منه أن يستقيل لبراك ؟ فأرد مبتسماً « بالضبط هذا هو الحل » .

البعد عن الحكم

وكان عبد الناصر ، كما سمعت ، يدهش لا بتعادى عنه : ألسنا نفعل ما فكر فيه وشعر به وكتب عنه ؟ . إن الثورة ثورته . الواقع أن هذا هو المعقول والمنطق . ولكن ما يبعدنى هو مبدئى المعروف الذى كتبت عنه كثيراً : إن الحاكم لا يريد من المفكر تفكيره الحر بل تفكيره الموالى . إنه يريد أن يسمع منه تأييداً لا اعتراضاً . ورسالة المفكر فى جوهرها هى الصدق والحرية . وهو قد يخطىء ويخدع ويفقد الوعى ولكنه لن يخون رسالته عن وعى . وإنى أخشى دائماً أن تحجب الصداقة والقرابة والحب والعاطفة ، وحتى الكره والسخط ، النظرة الصادقة إلى حقائق الأشياء . ولقد حاولت على قدر المستطاع فى كتابى « سجن العمر » أن أصور أقرب الناس إلىّ وهما الوالدان بما لهم وما عليهم تصويراً خالياً من القداسة التى اعتادها الناس فى بلادنا ، نحو أهلنا ، وتعرضت بذلك لغضب الأحياء من ذوى القربى واستهجان المتحفظين من القراء ...

الحاكم المطلق

وسارت الأمور سيرها المعروف ، وأصبح عبد الناصر هو الرجل الأول فى البلاد . وكان كل يوم يكتسب حب الناس وثقتهم . حتى أولئك الذين

استولى على أطيانهم للإصلاح الزراعى . بدأ الكثير منهم يعتاد تحديد الملكية ويتأقلم . إلا الذين لا أمل فى ولائهم . وبدأت البلاد تعتاد حكم فرد وثقوا به وأحبوه . والجماهير عندما تحب لا تناقش . وخفتت شيئاً فشيئاً أصوات من اعتادوا المناقشة . وأخذ الحاكم المحبوب نفسه يعتاد الحكم الذى لا مناقشة فيه، وأخذ الستار الحديدى يسدل رويداً رويداً بين الشعب وتصرفات الحاكم المطلق. كنا نحبه ولا نعرف دخيلة فكره ولا الدوافع الحقيقية لتصرفاته . كان القلب منا يخترق الستار إليه . ولكن العقل ظل بمعزل عنه . لا يصل إلى فهم ما يجرى خلف الحجب . لم نكن نعرف من أمورنا أو الأمور الخارجية إلا ما يلقى هو به إلينا من فوق منصة عالية ، فى عيد من الأعياد أو مناسبة من المناسبات . وكان يتحدث بمفرده الساعات الطوال بغير كلفة . حديثاً يظهرنا فى صورة أبطال بقيادته . ويظهر الدول الكبرى حولنا فى صورة أقزام . فكنا نصفق إعجاباً وخيلاء . وعندما كان يخطب بقوة قائلاً عن دولة قوية تملك القنابل الذرية : « إذا لم تعجبها تصرفاتنا فلتشرب من البحر » كان يملؤنا الفخر .

الثقة شلت التفكير

وليس بعجيب أن يتلقى الشعب فى حماس العاطفة هذه الخطب بالتهليل والتكبير . ولكن العجيب هو أن شخصاً مثلى محسوب على البلد من أهل الفكر وقد أدركته الثورة وهو فى كهولته يمكن أن ينساق هو أيضاً خلف الحماس العاطفى . ولا يخطر لى أن أفكر فى حقيقة هذه الصورة التى تصنع لنا ... لعلى كنت أبرر ذلك لنفسى بأنه رفع لروح الشعب المعنوية . وليس فى هذا ضرر ظاهر ما دامت النتائج السيئة لم تزل بعيدة ... كانت الثقة فيما يبدو قد شلت التفكير . كنت أحياناً أستغرب أشياء وأقول لنفسى أمن الصواب حدوث ذلك ؟ ... أذكر يوم جاءنى صاحبى الصحفى اللامع صديق عبد الناصر

بنسخة من كتاب « فلسفة الثورة » مهدى إلىّ من مؤلفه الزعيم ، إلى فكرت بعد قراءته : كيف يصح لسياسى أن يكشف ورقه للعالم هكذا ؟

إسرائيل توزع كتاب « فلسفة الثورة »

وحدث أنى اطلعت بعد ذلك على مقال فى جريدة فرنسية بقلم أستاذ من أساتذة التاريخ والسياسة الفرنسيين ، حلل الكتاب تحليلاً علمياً وبين مافيه من أحلام وآمال وتصورات تكاد توحى بالرغبة فى إنشاء ما يشبه الامبراطورية الواسعة للدول العربية والأفريقية التى تنتظر الزعيم الذى يؤلفها . أو على حد تعبير الكتاب نفسه فى إشارته إلى مسرحية « بيرانديللو » الشهيرة « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » فهو يرى إلى أن « دول العروبة وغيرها تبحث عن زعيم » . وأدهشنى بعد ذلك ما جاء فى بعض الصحف العالمية : إن كتاب فلسفة الثورة هذا تتولى توزيعه فى الخارج جهتان فى نفس الوقت : السفارة المصرية . والسفارة الإسرائيلية .

وبالطبع كان غرض السفارة الأخيرة من ذلك إفهام العالم أن زعيماً من طراز هتلر قد ظهر فى العالم العربى ... ولكن الحقيقة أن عبد الناصر رجل سلام . ولم يفكر قط فى الحرب تفكيراً فعلياً . إنه رجل عواطف وانفعال وخيال . وقد جاء بكتاب للصحفى اللامع (محمد حسنين هيكل) أن عبدالناصر فى أوائل عهده ، كان قد أعد خطبة يلقيها ، ويعلن فيها خطة أو رؤية للسلام فى المنطقة . غير أنه سمع من السفير الأمريكى ، وقتئذ ، كلمة استقبله بها فى زيارة فلم تعجبه الكلمة ، وانفعل وغير خطبته واتجاهه فى الحال . وكان لهذا المسلك الانفعالى تأثيره على مصير الوطن كله ... كما سارت الأمور كلها بعد ذلك فى شئون الدولة خارجها وداخلها على هذا المسلك وبهذا المحرك : « انفعال ورد فعل » .

ومن يدرس بعناية الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية التى وقعت فى مصر على مدى حكم عبد الناصر ، يجد أن المحرك الخفى الحقيقى لها كان هو « الانفعال ورد الفعل » . وليس التفكير الهادىء الرصين الرزين المبنى على بعد النظر . فعبد الناصر ظهر فيما بعد ، من النتائج التى نجنى أخطاءها حتى اليوم ، أنه لم يكن رجلاً سياسياً ولم تكن له قط طبيعة رجل السياسة ، التى يملكها رجال أصل بهم وعرفهم ، مثل « نهرو » و « تيتو » . ومن المعروف أن نهرو قال لعبد الناصر فى عبارة رقيقة موحية إنه يحتاج إلى قليل من الشعر الأبيض . وهو يقصد بلا شك قليلاً من الرزانة والحكمة والتجربة . وقد ظهر فيما بعد أن نهرو على حق ، وأن عبد الناصر لم يستطع تحقيق عدم الانحياز كما استطاع تحقيقه بطلاه الحقيقيان : « نهرو » و « تيتو » . فهما سياسيان حقاً . فقد كان عبد الناصر أقرب إلى طبيعة الكاتب الفنان الحالم العاطفى ، ويظهر أن الظروف هى التى دفعته إلى طريق غير طريقه . ولو أنه ترك لطبيعته لكان كاتباً ناجحاً . ولعل هذا ما خطر له أول الأمر فقد اتجه بالفعل فى مطلع شبابه إلى كتابة القصة . وكتب صفحات منقصة بعنوان « فى سبيل الحرية » جعل اسم بطلها « محسن » أيضاً كاسم بطل «عودة الروح» . ولكن الظروف حولته من مؤلف محسن على الورق إلى محسن نفسه ، أيضاً على أرض الحياة . فعاش مثله وتصرف تصرفاته الشخصية الوطنية العاطفية الانفعالية . حتى فى المسائل البعيدة عن السياسة وشئون الحكم تبدو طبيعته العاطفية والانفعالية .

انفعل من أجلى

فعندما حدث يوماً أن هاجمنى بعض أدباء الشباب هجوماً مركزاً بغرض

تحطيم الأصنام . وكانت المقالات تصدر كل صباح مليئة بالاتهامات ، للإطاحة بالكاتب والنزول به عن مكانه . لم آخذ أنا الأمر مأخذ الجد ، ولم ألق بالاً إلى ذلك ولزمت الهدوء والصمت . وإذا بـ (عبد الناصر) هو الذي انفعل . وإذا هو في فورة انفعاله ودفعة رد الفعل ، يصدر قراراً بمنحي أكبر وسام في الدولة . وقد راجعه كبير تشريفاته ، بأن هذا الوسام لا يمنح إلا لرؤساء الدول وأولياء العهد . وأني موظف في درجة وكيل وزارة لا يحق له حمل مثل هذا الوسام . فلم يأبه بكلامه ...

هذا الاندفاع العاطفي كنا نحبه منه . لأننا عشنا طويلاً فيما مضى مع رجال حكم حذرين مترددين باردين ، لا ينتقلون خطوة إلا بعد طلوع الروح . ولكم قاسينا من ذلك . فإذا ظهر لنا حاكم عاطفي متحمس يخطو بسرعة وبجرأة فإن هذا بالنسبة إلينا شيء جديد . ولم يكن انفعال عبد الناصر واندفاعه قد ظهرت له بعد آثار خطيرة أو نتائج مدمرة . بل كان فيه ما يحمسنا نحن أيضاً ويشعل فينا ، بالعدوى ، لهب الانفعال وروح النشاط .

اتصال على البعد

وأنا على وجه الخصوص كيف لا أحب رجلاً يحبني ويقف جانبي في كل موقف ، دون أن أراه أو أوجه إليه كلاما أو شكراً ... لم أتصل به إلا على البعد ، وفي بعض المواقف القومية التي رأيت من واجبي أن أنبه إليها أو أشجعه عليها ... مثل ذلك اليوم الذي جمع فيه لجنة تحضيرية من أهل الرأي ، تمهيداً لعقد المؤتمر القومي ... كنت في حجرتي مريضاً أتابع على شاشة التليفزيون جلسات هذه اللجنة التحضيرية . كانت فيما أذكر برياسة « أنور السادات » ولكن « جمال عبد الناصر » كان يحضرها ويشترك في مناقشاتها . وقد أعجبني في هذه المناقشات روح الحرية . وكان الجدل يحتدم أحياناً بين

بعض الأعضاء وجال عبد الناصر رئيس الجمهورية ، حول مفهوم الديمقراطية ، وقد ظهر « عبد الناصر » فى تلك المناقشات المحتدمة ، واسع الصدر طويل الصبر ، يبدى رأيه ويشرحه ويتلقى المعارضة القوية بحجج أمام حجج دون تبرم أو ضجر ، حتى استبانت وجهات النظر ، وقوى عندى الأمل فى اتجاه الحكم فى مصر ، الاتجاه الصحيح .

والحكم الصحيح فى نظرى لم يكن قط هو الدكتاتورية . ففى كتابى «شجرة الحكم» (طبعة ١٩٤٥) الذى طالبت فيه وتنبأت بالثورة المباركة جاء فيه أيضاً ما نصه : « ... على أن نقدى للنظام النيابى لا يعنى أنى أطالب بإلغائه ، فزوال هـذا النظام من عالمنا الذى نعيش فيه يفضى إلى مشكلات لا حل لها ... والانتخاب على عيوبه هو الوسيلة التى لابد منها ما دام الناس هم أصحاب الرأى فى تنصيب حكامهم ... ... » .

لذلك لم أتمالك أن أرسلت إليه برقية أقول له فيها إنى رأيت وأنا على فراش المرض صورة جديدة لمصر تتشكل أمامى . فرد علىّ ببرقية يشكرنى ويتمنى لى الصحة . وإذا المؤتمر القومى ينعقد . وإذا المناقشات فيه قد اختفت . وإذا الأعضاء الذين كانوا يناقشون فى الديمقراطية للطلوبة لزموا الصمت المطبق لا فى المؤتمر وحده ولكن فى الحياة العامة . وكأن شيئاً من الإهمال أو عدم الرضى قد شملهم ، وأصبح هذا المؤتمر وغيره من الاجتماعات مجرد كتل بشرية لا عقل لها ولا تفكير يميزها ، ولا رأى مستقل يصدر عنها وإنما هى أذرع تلوح وأياد تصفق وأفواه تهتف ، والزعيم بقامته الفارعة قائم على منصة عالية يتكلم وحده الساعات الطوال ، لا يقاطعه غير صياح هستيرى : « ناصر ، ناصر ، ناصر ، ناصر » وشعارات تنطلق من كل ركن ، مما يستحيل معه الظن بأن أحداً من الحاضرين قد فهم فى هذه الضوضاء شيئاً مما يقول . فقد أصبحت الحناجر هى العقول . وما كان يبدو على الزعيم ضيق بذلك ، وإنما كانت ابتسامة الرضا ترتسم دائماً على شفتيه .

أصبح المعبود المعصوم

لقد أصبح معبود الشعب . ولست أدرى هل كان هذا حلماً قديماً له ؟ ...
بدأت أسائل نفسى بعد أن تأكدت مظاهر العبادة لشخصه على مر الأيام ،
ما الذى كان يعجبه فى كتابى « عودة الروح » ؟ أترى هى الفقرة التى تروى
ما معناه أن مصر تحتاج دائماً إلى معبود من بينها ؟ فلما قرأ ذلك وهو شاب
صغير حلم بأن يكون هو ذات يوم المعبود ؟ وليس هذا بالشىء المكروه
فكل إنسان له الحق أن يحلم بأن يكون معبود الجماهير ، لكن المكروه بل
الخطر هو أن يكون للمعبود البشرى من القداسة ما يجعله معصوماً من الخطأ
فى نظر الناس ، وما يجعل سلطانه يشل العقول فلا ترى غير ما يرى ، ولا يسمح
لها برأى يخالف رأيه . وهذا ما حدث بالفعل . ولأول مرة فى تاريخ مصر
الحديث نرى الأمور على مثل هذه الصورة : العقل المصرى وقد ختم عليه
بسبعة أختام ، فلم يعد يجرؤ على أن يخرج علناً رأياً مخالفاً لرأى الزعيم المعبود .
أعوام طويلة مضت وفى مصر صحافة وفيها مجلس نيابى ، وفيها اتحاد اشتراكى ،
هو الحزب الواحد الذى يضم كل عناصر الشعب ، ويقال إنه أعلى سلطة
فى البلاد ... هل سمع صوت واحد على صفحات جريدة ، أو كتاب أو مجلس
نيابى ، أو اجتماع عام ، جرؤ أن يبدى رأياً يختلف عن رأى « عبد الناصر » ؟
وإذا كان قد جرؤ فهل تمكنه السلطة من توصيل هذا الرأى المعارض حيث
يسمعه الناس ويعرفه الآخرون ؟ . أقول إن هذه ربما كانت أول مرة فى تاريخ
مصر الحديث يحدث فيها أن يظهر معبود أراد أن يكون لإرادته فى كل
البلاد العربية من القداسة والعظمة والسلطة ما لم يكن يملكه الأنبياء والرسل .
فالأنبياء المرسلون من السماء كانوا يجدون من يجادلهم ويناقشهم ويعارضهم .

ولقد عرفت مصر فى تاريخها القريب زعيماً معبوداً ، هو « سعد زغلول » قائد ثورة ١٩١٩ . ذلك الذى التفت حوله مصر بأ كملها ، ووضعت فيه أملها ، وأصبح أسطورة فى نظر الفلاحين ، حتى لقد سمعت وقتئذ فى الأرياف من يؤكدون أن بعض أوراق شجر القطن قد نبتت واخضرت ووجد مكتوباً عليها اسم « سعد زغلول » ... هذا الزعيم لم تمنع عبادة الشخص له من وجود معارضين يخالفونه الرأى ، وصحف وخطب تمتلىء بالآراء والأقوال التى تناهضه وتقف ضده ، بل ان صحيفة معارضة تناولته بالتجريح وهو زعيم الأغلبية ورئيس الحكومة ، واحتكم إلى القضاء و نظرت القضية ، ولكن القضاء المصرى العادل لم يعط الحق لرئيس الحكومة وحكم ببراءة المعارض .

وأنا شخصياً على الرغم من حبى لـ « سعد زغلول » وحرصى على سماعه وهو يخطب من شرفة بيته المسمى « بيت الأمة »، اقتنعت بالرأى الذى يخالف رأيه فى مسألة من المسائل ، كان ذلك يوم انقسمت الآراء فيمن يذهب إلى لندن لمفاوضة الانجليز فى قضية الاستقلال . كان على رأس الوزارة وقتئذ « عدلى يكن » وكان رجلاً مستقيماً موثوقاً به ، وطلبت الحكومة البريطانية أن يكون المفاوض المصرى ذا صفة رسمية مثل رئيس الحكومة المصرية ، لأن الطرف البريطانى سيكون هو أيضاً ذا صفة رسمية . ولكن « سعد زغلول » أصر على أن يكون هو المفاوض باعتباره زعيم الأمة ، وأصرت بريطانيا العظمى التى خرجت منتصرة من الحرب الكبرى الأولى ، وأصبح نفوذها فى العالم يشبه نفوذ الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى مجتمعين ، كانت حجتها أن الحكومات لا تفاوض إلا الحكومات . ولا يمكن لحكومة مسئولة أن تفاوض زعيم ثوار ، غير مسئول رسمياً ، حتى وإن كان فعلياً زعيم أمة .

وخطب « سعد زغلول » خطبته المشهورة التى وصف فيها مفاوضة (عدلى

يكن) رئيس الحكومة المصرية مع حكومة جلالة الملك جورج فى ذلك الوقت بقوله : « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » ...... وكان أن تعقدت الأمور وكاد يتوقف النشاط السياسى من أجل طلب الاستقلال . وقال رأى من الآراء : ما الذى يضير « سعد زغلول » — أن يترك « عدلى يكن » يذهب ويتفاوض ويأتى بنتيجة مفاوضته ويعرضها على الأمة بزعامة « سعد زغلول » ، وله عندئذ أن يرفض أو يقبل . هذا ما قاله « عدلى يكن » أيضاً ورأى فيه تقوية لمركزه فى المفاوضة ، لأنه سيخيف الانجليز بـ « سعد » الرابض المنتظر صاحب الكلمة النهائية آخر الأمر ، وكان هذا هو المسلك الذى اتبعه زعيم الأمة التركية « كمال أتاتورك » . ففى ذلك الوقت بالذات كان على تركيا أن ترسل وفداً يفاوض فى مؤتمر الصلح ، فلم يذهب (مصطفى كمال) وترك رئيس الوزارة (عصمت اينونو) يذهب ويفاوض . فكان « عصمت اينونو » إذا عرض عليه أمر صاح : لن يقبل هذا « مصطفى كمال » والأمة معه . وقد أعجبنى هذا الرأى ، ولم أقف فى جانب رأى « سعد زغلول » وأنا فى شبابى الأول ، على الرغم من حبى له وإعجابى به وبخطابته الرائعة البليغة . تلك هى الوعامة والعبادة التى تقوم على الرأى الحر ، ولا تقوم على الدبابات والمعتقلات ... ومن العجب أن يكون مفهوم الرأى الحر قد استمر فى مصر على نحو ما حتى فى العهود التى بدأ الفساد يدب فيها . فلقد حدث أن جاء « مصطفى النحاس » إلى الحكم على أثر انتخابات ظفر فيها بالأغلبية . وكنت يومئذ مديراً لإدارة الإرشاد بوزارة الشئون الإجتماعية ، فنشرت مقالاً فى جريدة الأهرام بعنوان « الخواتم الثلاثة المزيفة » أشير فيه إلى أن الأحزاب الموجودة فى البلد كلها مزيفة .

ومصطفى النحـــاس

فهاج « النحاس باشا » وهو يرأس مجلس الوزراء : « يقول عنا انا

فى الحكومة ، الذى من واجبه على الأقل أن يكون مرشداً وداعية لحكومته ، لا مهاجماً ومتهماً لها بالتزييف ، ولكنى كنت فى نظرهم كاتباً حراً قبل كل شىء ، يعبر عن رأيه الشخصى ، وليس مدفوعاً من حزب آخر يعمل لحسابه ولذلك احتملوا الرأى الحر وإن كان قد يضايقهم ...

على أن فكرة الزعيم المعبود الذى لاتتنافى عبادته مع نقده ، قد رأيناها ممثلة فى فرنسا فى عهد شارل ديجول فهو أيضاً على الرغم من تقديس الفرنسيين له باعتباره بطلاً قومياً ، فإن ذلك لم يمنع من وجود المعارضين لرأيه فى البرلمان والصحف والكتب . وكان هو ، أول الضاحكين لما يرسم له من كاريكاتور ونكات وانتقادات تسخر منه فى بعض المجالات ، وكانت أقسى الصحف هجوماً عليه وعلى سياسته الخارجية والداخلية مجلة « الاكسبرس » . كان يكتب فيها رئيس تحريرها السياسى (شرايبر) معارضاً بعنف آراء ديجول . فيرد عليه فى نفس المجلة الكاتب الروائى « فرانسوا مورياك » مدافعاً عن صديقه « ديجول » الذى منحه أكبر وسام فى فرنسا . ولذلك عندما جاء (سارتر) فى زيارة لمصر منذ أعوام سألنى ، لماذا لا أدافع أنا أيضاً عن عبد الناصر وأكتب فيه كتاباً بمجده ، كما فعل « مورياك » فى كتابه المعروف عن ديجول ؟ فقلت « لكى يكون هناك دفاع يجب أن يكون هناك هجوم . وعبد الناصر لايهاجمه عندنا أحد . ولا يجرؤ فى بلادنا أحد على مخالفة رأيه » .

حقاً إذا جرؤ أحد وهاجم رأيه فكيف يستطيع صاحب الرأى المهاجم أو المخالف أن يعلن هذا الرأى . فى أى جريدة ؟ وفى أى مكان ؟ إن رقباء الصحف والإذاعات ورجال المخابرات ونحو ذلك من وسائل النظام المطلق المغلق لا تسمح بظهور المعارضة ولا حتى بمعرفة الرأى المخالف أو صاحبه ... وحتى معنى المعارضة يُشوه فى الحال ويلصق بصاحبه الخيانة أو الإنحراف أو الانتماء إلى عمالة أجنبية أو عقائد تخريبية ...

ولـكن هل كان قد ظهر بصورة جدية وعلنية أن لعبد الناصر رأياً في ذلك الوقت له من الخطر والضرر ما يقتضى أن نخالفه ؟ ربما كانت هناك أشياء ولـكنها كانت تبدو لنا مما يمكن التجاوز عنه إلى جانب الخير المنتظر منه ... وفى الحقيقة أنه إلى ذلك الحين كان قد غمرنا فى سحر أو حلم لا ندرى كيف غمرنا فيه . ربما كان سحره الخاص كما يقولون عندما يتحدث إلى الجماهير. وربما كان الحلم الذى جعلنا نعيش فيه بتلك الأمانى والوعود . بل تلك الصور الرائعة لإنجازات الثورة التى حققها لنا ، وجعلتنا أجهزة الدعاية الواسعة بطبلها وزمرها وأناشيدها وأغانيها وأفلامها ، نرى أنفسنا دولة صناعية كبرى ورائدة العالم النامى فى الإصلاح الزراعى ، وأقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط . وكان وجه الزعيم المعبود وهو يملأ شاشة التليفزيون ، ويطل علينا من فوق منصات السرادقات وقاعات الاجتماعات ، ويحكى لنا الساعات الطوال هذه الحكايات ويشرح لنا كيف كنا وكيف أصبحنا ، بلا أحد يناقش أو يراجع ، أو يصحح أو يعلق ، فما كنا نملك إلا أن نصدق ثم نلهب الأكف بالتصفيق .

تنظيم التصفيق والهتاف

غير أن هذا النظام لم يكن يكتفى بالتصفيق العفوى والهتاف المرتجل ، بل ان الاعتماد الأساسى عنده على التدبير والتنظيم . وقد رأيت بنفسى ولم أصدق عينى . قابلت ذات يوم رجلاً من أهل الريف أعرفه . سألته عن سبب وجوده فى القاهرة ، فقال إنه متصل بلجنة الاتحاد الاشتراكى فى قريته . وأنهم أحضروه هو وزملاء له فى القطارات باستمارات سفر أو نحو ذلك للاحتشاد فى استقبال الرئيس جمال عبد الناصر عند عودته من الخارج فى مناسبة من

للناصبات ، لأن الاستقبال شعبي كما يقال عادة . وان إقامتهم وطعامهم على حساب الدولة . وأن عليه هو وزملاؤه أن يهتفوا له طبقاً للشعارات المطبوعة والموزعة عليهم . وأخرج لي من جيبه بالفعل ورقة أطلعني عليها فدهشت . لقد كان مكتوباً عليها بحروف مطبوعة هذه العبارات : هتاف جماعي : « ناصر ناصر ناصر » ... ثم هتاف فريق : « فليحيا ناصر العروبة » ثم هتاف جماعي : « فليحيا بطل الثورة » ... « القائد البطل » ... « زعيم الأمة العربية » ... الخ ... أشياء من هذا القبيل ، وسألت : كيف يهتفون من هذه الورقة . فقال إن الورقة لا تظهر فهي للحفظ فقط حتى لا ننسى الكلمات ، وأنه معين لكل جماعة منهم أربطة ، أول الصف أو في الوسط ... أو على رأس كل مجموعة يشير إليهم بالبدء ... كما يحدث في كورال الموسيقى وكورس للمسرحيات .

كنت أظن الشعبية تنبع فقط من القلوب . أو حتى من صور الأماني والوعود والأوهام والأكاذيب . ولكني ما كنت أظن حتى تلك اللحظة ، أنها يمكن أيضاً أن تصنع وتؤلف تأليفاً وتوزع لها أوراق هتاف كأنها نوتة موسيقية للغناء .

ومع ذلك وهنا العجب : كيف استطاع شخص مثلي أن يرى ذلك ويسمعه ، وأن لا يتأثر كثيراً مما رأى وسمع ، ويظل على شعوره الطيب نحو عبد الناصر ؟ ... أهو فقدان للوعي ؟ أهي حالة غريبة من التخدير ؟ .

هذه الحالة العجيبة التي أصابتنا يجب أن تكون يوماً محل دراسة وتحقيق ... أفهم أن يكون الشعور هو الاشمئزاز أو الغضب ، وعندئذ كان لابد وخاصة عند شخص مثلي أن أعبر عن ذلك ببعض التصرفات أو الكتابات ، مهما تكن النتيجة ، كما اعتدت أن أفعل في كثير من الأحوال . ولكن الغريب هو أني اكتفيت بالابتسام في تسامح ... لماذا ؟ ... لعله الأمل الذي وضعته في عبد الناصر — إنه من صنع خيالي ، وصورة للزعيم الذي كنت أنتظره من ثلاثين عاماً ، كما كتبت ذات يوم .

فلم أكن ولم تكن مصر على أى حال فى مجموعها قد شعرت بعد بالضيق من شىء خطير ... على العكس ، لقد كنا نهضم بسهولة ما نضيق به ولا يبقى فى نفوسنا منه أثر . فقد كنا مستبشرين بالغد شأن الأب الذى يحلم بالمستقبل الزاهر لإبنه ويغتفر له كل هفواته أملاً فى نجاحه فى الامتحان ، ولا يدخر وسعاً فى تلبية طلباته انتظاراً لليوم الموعود ، ولا تتفتح عيناه إلا يوم يفشل ابنه فى الامتحان (كامتحان يونيه سنة ١٩٦٧) فيبدأ الأب فى مراجعة الهفوات ومحاسبة الانحرافات (وحتى بعد الفشل علّلنا الأخطاء وصبّرنا الابن الفاشل بانتظار الملحق) لذلك لم تكن عيوننا ترى إلا الحسنات ، ولم تكن آذاننا تطرب إلا للنشيد الواحد الذى يعزف فى كل مكان « مكاسب الثورة » . حتى الحقود أو الموتور الذى كان يهمس بالتشكيك كان يكفى الرد عليه بأنه ما دامت ليست هناك خسائر فهذا فى ذاته مكسب . ومن يحب الثورة مثلى كان أميل إلى التغاضى والتسامح حتى عندما يتضح الشك ويكاد يسفر عن يقين . من ذلك أنه جاءنى ، يوم أن وقع رجال الثورة على وثيقة جلاء الانجليز ، بعض رجال الأحزاب السابقة وأطلعونى على بنود الوثيقة قائلين لى إنها نفس البنود والشروط التى سبق عرضها على مصر ورفضتها الأحزاب جميعاً . فن بين هذه البنود شرط يبيح للانجليز العودة إلى احتلال مصر ، إذا تعرضت المنطقة لأخطار الحرب كما أن السودان وبقاؤه مرتبطاً بمصر ، كان دائماً الشرط الأساسى لكل مفاوض مصرى على اختلاف الأحزاب . وأذكر بالفعل أنى كنت جالساً فى مأتم للعزاء فى وفاة أحد المعارف ، كان ذلك قبل الثورة بنحو عشرة أعوام ، فدخل مصطفى النحاس وكان يومئذ فيما أظن خارج الحكم ، وأخذ يتكلم مع من معه بصوته المرتفع المسموع ويقول إن الصخرة التى كانت تتحطم عليها

المفاوضات المصرية دائماً من أجل إجلاء الانجليز هي السودان ، ولو سمح لنا بطرح مسألة السودان جانباً لتم الجلاء منذ عشرينات هذا القرن . ولكن ما من سياسي في البلد كان يسمح لنفسه بذلك ، وما كان البلد ليسمح له . ومضت الأعوام وجاءت الثورة وتركت السودان ووقعت الوثيقة مع الانجليز على الجلاء المشروط أيضاً بعودتهم . فهم إذن كان انتظار مصر ثلاثين عاماً ؟ كانت هذه الملاحظة تبدو مقنعة . ولكني كنت أقول : ما دمنا قد خلصنا من الاحتلال على أي حال فهذا خير من التجمد الدائم . والعبرة بالتحرك والالتفات إلى بناء نهضة مصر . والثورة قد أزالت هذا الدمل من جبين مصر لتتفرغ إلى ما هو أهم . وهي ماضية الآن فعلاً نحو النماء الاقتصادي للنفوذ .

ومشروع السد العالي

وها هو ذا مشروع السد العالي سيكون — كما أصف لنا الثورة — فاتحة خير وبركة . وهو مشروع كان موجوداً في أدراج حكوماتنا السابقة . ويبدو أنه فحص ولم ينفذ ، إما لضخامة تكاليفه وإما لأسباب أخرى لم تكشف لنا بوضوح . ولم تتم مناقشته مناقشة علنية مفتوحة ليعرف الناس الرأي وضده ، ولكن الثورة تبنته فآمنا به جميعاً . ولم نسمع بأحد عارضه ، إلا مهندس كبير هو الدكتور عبد العزيز أحمد ، ويظهر أنه أحس بغضب الثورة عليه ، فغادر البلاد ، وعندما فاز في غيبته بجائزة الدولة التقديرية في العلوم ، وقد اختاره لها أكابر علماء البلد من زملائه وتلاميذه ، رفضت الثورة منح الجائزة له . ولم تعرف بشكل مفصل أسباب معارضته للمشروع . لأن الآراء المعارضة حتى في المسائل العلمية لا تأخذ حظها من النشر .

بلا مناقشة

فأسلوب الثورة لم يقم على أساس مناقشة الأشياء . وهو الأسلوب الذي كنا

نعرفه فى مصر من أيام ثورة ١٩١٩ . بل كنا نعرفه قبل ذلك . وأذكر فى شبابى الأول أن أرادت الحكومة إنشاء خزان ، ولعله خزان جبل الأولياء ، فأنا أكتب من الذاكرة ، فإذا المشروع يناقش علنا فى حضور الشعب . ولم يكن فى البلاد بعد برلمان . وحدث أن عارض المشروع أحد المهندسين المصريين فأعلن عن محاضرة فى قاعة مسرح « برنتانيا » (مكان سينما كايرو بالاس الآن) ، فذهبنا . وكان صباح يوم جمعة . وامتلأت الصالة بالناس . وجعل المهندس المصرى يفسر رأيه بالرسم والأرقام على سبورة ويفند ويعارض رأى المهندس الانجليزى (ولكوكس) ، ومصر وقتئذ تحت الاحتلال الانجليزى ولكن ذلك لم يمنع مصر من أن تحاول بنفسها أن تخلق فيها الرأى العام الذى يسمع ويناقش ويميز ويحكم ... غير أننا عندما قامت ثورة ٥٢ وأحببناها وأيدناها بقلوبنا طمعاً فى مستقبل أفضل ، لم نكن نناقش أى مشروع تؤيده . وربما لم نكن نستطيع . ولعلها هى لم ترد أن تشجعنا على ذلك . ولذلك بادرت هى للفور تسعى إلى تنفيذ مشروع السد العالى واعتمدت فى تنفيذه على أمريكا بالطبع . فأمريكا هى التى وقفت بجوار الثورة عند قيامها وأسكتت الانجليز المرابطين فى القناة ، وإلا لكانوا جاءوا بدباباتهم وطائراتهم وأجهضوا الثورة فى نصف ساعة . ولكن العلاقات بين الثورة وأمريكا ما لبثت أن توترت للأسباب المعروفة وغير المعروفة فقد قيل إنه حتى ذلك التوتر كان مخططاً له فى السياسة الامريكية ليؤدى إلى إخراج انجلترا وفرنسا من المنطقة وتسليم قناة السويس لمصر فى مقابل فتح خليج العقبة لإسرائيل ... وهذا ما نفذ بالفعل فى ١٩٥٦ باتفاق سرى بين أيزنهاور وعبد الناصر وظل أمره مخفياً إلى عام ١٩٦٧ ... وهكذا كان أن تعمد وزير خارجية الولايات المتحدة مستر « دالاس » ذلك القول الذى أغضب « عبد الناصر » فكان رد فعله الانفعالى المعتاد والمتوقع دائماً لدى أمريكا ، كما كان معروفاً أيضاً لدى السوفييت . ووصف خروشوف مشهور يوم قال عن عبد الناصر :

« إنه شاب مندفع انفعالى ... » (صفحة ١٩٦ من كتاب : عبد الناصر والعالم ، لمحمد حسنين هيكل) ... وبالفعل صدر تأميم القناة مع دفع تعويضات . وفى وقت لم يبق فيه سوى أقل من عشرة أعوام لانتهاء امتياز هذه القناة ، وعودتها قانوناً إلى ملكية مصر بدون دفع أى شىء . وكانت مصر تعد نفسها بالفعل لاستلام القناة . وأذكر أن صديق عمرى المرحوم حلمى بهجت بدوى ، الذى زاملنى فى مراحل الدراسة حتى باريس ، وساكننى فى شقة الجيزة يوم كان هو أستاذاً بكلية الحقوق وكنت مديراً لتحقيقات المعارف ، عندما عين وزيراً للتجارة والصناعة فى عهد الثورة ، وكان قبلها قد رفض أن يكون وزيراً للمالية فى حكومة حسين سرى باشا ، فكر فى مشروع يسير جنباً إلى جنب مع القناة بعد استلامها . هذا المشروع هو مد أنابيب بترول من السويس إلى بورسعيد أو الاسكندرية . وذلك لحث الشركة العالمية على سرعة تسليمها القناة لمصر ، ولأسباب أخرى اقتصادية . وقطع شوطاً كبيراً فى دراسة هذا المشروع والإعداد لتنفيذه ومفاوضة الشركات ليعرف التكاليف ، وكانت يومئذ مشجعة غير مرتفعة . ووافق عبد الناصر على هذا المشروع ثم عاد فرفضه . وها نحن اليوم نعود إليه ونفكر فى تنفيذه ... وكان حلمى بهجت بدوى فى مهمة بأوربا يوم تأميم القناة ، وفوجىء بذلك . وعاد إلى مصر فعينه عبد الناصر تقديراً لكفاءته رئيساً لهيئة القناة بعد تأميمها . وكان أول رئيس لها شارك فى إدارتها بكفايته الفذة . حتى وافاه الأجل المحتوم .

العدوان الثلاثى « المفاجىء » . . .

وبعد التأميم قامت القيامة المعروفة . وكنت أنا أول المتحمسين لهذا التأميم ، وكان يجيئنى من يقول لى بارتياع إن هذا التأميم عمل جنونى . إن هذا التأميم كارثة على البلد . فكنت أهب فى وجه من يقول ذلك هبة غضب شديد ،

وعندما جاءت الجيوش والطائرات إلى بور سعيد وبدأ العدوان الثلاثي أرسلت برقية إلى عبد الناصر أقول فيها « إني وأنا كهل يسير نحو الستين مستعد لحمل السلاح » ... كنت في ثورة ١٩٥٢ وفي كهولتي أفكر بقلبي ، وكنت في ثورة ١٩١٩ وفي شبابي أفكر بعقلي ... ولست أدري سبباً لذلك ... قناة السويس كانت دائماً مطمع أنظارنا ، وها هي ذي في أيدينا والباقي لا يهم . ولكن كانت هناك مع ذلك ومضات فكر تجعلني أتأمل بعض الأمور وأعجب لها . فلا أنسى خطبة الجمعة المشهورة التي أعلن فيها عبد الناصر أنه لم يكن يظن أن بريطانيا ستشترك حقاً في العدوان على مصر مع اسرائيل ، لأن ذلك في نظره يعرضها لغضب العرب . وأنه لم يعرف باشتراكها إلا عند سماعه أزيز الطائرات البريطانية ، فصعد إلى سطح منزله ليتأكد من ذلك بنفسه . قلت في نفسي : صح النوم ... كيف كان رئيس دولتنا يجهل هذا الأمر ، وأنا الذي ما ارتبت لحظة في أن بريطانيا جادة في الحرب ، منذ أن قرأت وسمعت البرقيات والاذاعات تتحدث عن اجتماعات إيدن بقواده . وإصدار الأوامر إلى السفن الحربية في مالطة والقاعدة الجوية في قبرص بالاستعداد . بل ان بعض هذه السفن قد أبحرت فعلاً وتحركت بالجنود في اتجاه الشرق الأوسط . لعل عبد الناصر قد فهم أن هذا كله من قبيل التهويش . ولكني أنا قد أخذت الأمر مأخذ الجد لأني استبعدت على حكومة جادة مسئولة في دولة كبريطانيا تعد الجيوش والسفن وتعبئ الجهود ، وتنقل الجنود وتتكلف النفقات لمجرد التهويش . والموقف لم يكن يستدعي ذلك ، لأنه كانت هناك حلول معروضة بالفعل ، ولكن لأسباب مختلفة كان إيدن — كما ظهر من لهجته وإصراره — قد قرر انتهاز الفرصة لإعادة النفوذ البريطاني إلى المنطقة ... كيف إذن خطرت لعبد الناصر هذه الفكرة : ان إيدن عندما كان يلوح بالحرب ويجري الاستعدادات لها على هذا النحو إنما كان ذلك مجرد تهويش ؟ ...

يهوِّش بالحرب

إن الإنسان أحياناً يرى الأشياء والأشخاص من خلال طبيعته . فهل كانت طبيعة عبد الناصر هي التهويش؟ . إذا راجعنا ظروف حرب ١٩٦٧ ونشر جيوشنا كلها في سيناء بشكل استعراضي هائل ، وتكديسنا هناك لكل دباباتنا الجديدة والقديمة ، وكل جنودنا المدربين وغير المدربين ، تضخيماً للعدد وتكبيراً للمظهر وإرهاباً بالمنظر ، دون أن تكون هناك نية هجوم حقيقي ، نجد أن المقصود هو الوصول إلى الهدف بالتهويش وليس بالعمل الفعلي . وهذا يؤكد ما أعتقده من أن عبد الناصر في داخليته رجل سلام — على الرغم من كلامه العنيف — انه رجل يريد السلام ويهوش بالحرب . في حين أن إسرائيل تريد الحرب وتهوش بالسلام . وبذلك خدعت العالم ، وجعلت نفسها في صورة الأمة الضعيفة المسالمة المهددة بعدوان دولة تفوقها عدداً وتجمعهم بالحرب لتلقي بها في البحر . ومن يهوش بالسلام ويريد الحرب يكسب الحرب . ومن يهوش بالحرب ويريد السلام يخسر الحرب ويخسر السلام وهذا كان حالنا ...

كذلك استمعنا في خطبة الجمعة المشهورة أيضاً إلى ذلك الخبر المطمئن الذي أعلنه الرئيس عن نجاحنا في سحب جيوشنا من سيناء عام ١٩٥١ وكانت قد اندفعت إلى هناك عند بدء العدوان الثلاثي ، فلما رأى الرئيس أن الهزيمة في الأفق أصدر أمره في الحال بالانسحاب ، وقد تم على أحسن وجه وحمد الله وحمدناه معه .

ونفس الخطة سنة ١٩٦٧

ويظهر أن رئيسنا قد حفظ هذه الخطة حفظاً . وكررها بحذافيرها في حرب ١٩٦٧ . ذلك أنه ما كادت الهزيمة تقع فيها أيضاً حتى بادر بإصدار أمر

الانسحاب المعهود ... ولكن شتان بين الحالين والظرفين والوضعين ... ففي العدوان الثلاثي كان جيشنا في بداية زحفه فأمكن سحبه . وكانت الحملة مركزة على بور سعيد ، وكانت أكبر دولتين في العالم متفقتين على ضرورة وقف الحملة في الحال وانسحاب المعتدين . وكانت هذه أول مرة في نظر العالم المتعجب تتفقان فيها على شيء . وهددتا معاً تهديدهما العنيف المعروف ، فلم يجد المعتدون بداً من التراجع على الفور . وأزيلت آثار العدوان بسرعة لا تخطر على بال . وهرول العدوان الثلاثي راجعاً من حيث أتى ، فلم تمض ثلاثة شهور حتى كان كل شيء قد عاد إلى أصله . وكأن شيئاً لم يقع ، ولكن ما كل مرة تسلم الجرة ... وكلمة إزالة آثار العدوان ليست مما يحفظ حفظاً ويتحقق بسهولة في كل الأحوال . ففي العدوان الثلاثي كانت الصورة مختلفة . فالأسدان الكبيران ما كانا يريدان السماح لبعض وحوش صغيرة أن تبسط نفوذها على الشرق الأوسط وتتحكم في قناة السويس . فهبا معاً هبة واحدة وزأرا الزئير الذي أخاف الضبع والذئب والثعلب الصغير ، فهربت جميعاً تاركة خلفها الفريسة في الأرض ، لا حول لها ولا طول . وكانت بور سعيد قد سقطت في أيدي المعتدين من أول وثبة وانتهى أمرها . كانت الاسماعيلية في متناول المخالب والأنياب . ولكن الفزع من الأسدين جعل هذه المخالب والأنياب ترتد عن الفريسة وتولى الأدبار ...

الفريسة تهتف : « انتصرنا » ...

ونهضت عندئذ الفريسة التي نجت بمعجزة وأخذت تصيح في الآفاق : انتصرنا ... انتصرنا ... وتزعق الأناشيد في الأبواق ، مشيدة بمعركة تماثل معركة ستالينجراد ، قيل إنها في بورسعيد ... وقد لا يكون في ذلك ضرر ولا بأس . فلا عيب في رفع الروح المعنوية للشعب ولكن الضرر هو أن

يكون الغرض هو خداع الناس ، وليس رفع الروح ، أن نتلاعب بكلمة النصر لنخفى عن الشعب أسباب عجزنا عن الدفاع عن أرضنا . وقد ظهرت نتيجة ذلك فيما بعد . فقد كان من جراء خداعنا لأنفسنا وتصديقنا للأكاذيب التى نذيعها عن أنفسنا وللتهاويل التى نضعها ونطلقها فى الإذاعات والأناشيد والأغنيات أن قمنا ننشط للمغامرات الحربية .

مغامرة اليمن

فما كادت قناة السويس تستقر فى أيدينا بأعجوبة فى عام ١٩٥٦ ونرى ذهبها يلمع فى أكفنا ، حتى مضينا نلقى به على تلال اليمن . وكانت قبائل اليمن التى نريد استمالتها إلى جانبنا لا ترضى بغير الذهب . فكانت تلقى إليهم من طائراتنا الركائب المتلألئة بالأصفر الرنان . كما كانت ترمى من الجو لجيوشنا أطنان التموين والغذاء من صفائح الجبن الفاخر والمعلبات واللحوم والفواكه . ولكن الشمس الحارقة وعدم وجود ثلاجات كان يفسد هذه الأطعمة ، فتترك فى أماكنها مكدسة وقد لعب فيها الدود وانتشرت منها رائحة العفن ، فلا يقربها أحد ، وأهل مصر من الجياع والمحرومين لا يعرفون أن طعامهم هذا الذى يتمنونه ملقى للحشرات على تراب اليمن السعيد . وهل استملنا مع ذلك قبائل اليمن بذهبنا ؟ قيل إن القبائل حتى الموالية لنا ، كانت تأخذ ذهبنا بالنهار وتترصد لضباطنا وجنودنا فى الليل ، فتصطادهم وتجز رؤوسهم وتبيعها للطرف الآخر غير الموالى ، ثم بعد ذلك انتهى الأمر باليمن كلها أن صارت مخالفة لمصر فى اتجاهها السياسى .

إن تاريخ حرب اليمن سيكتب يوماً فى صفحات صادقة لنعرف حقيقة ما جرى هناك . وماذا كانت النتيجة التى خرجنا بها ؟ إن من المؤكد الآن هو أنه بالإضافة إلى الأرواح التى ضاعت من جيوشنا وتقدر فيما يقال ، بعشرات الآلاف من الرجال ، فإن المعروف أيضاً أن غطاء الذهب الذى

ولكنه قد ضاع بأكمله فى هـذه الحرب الضائعة ، وضاع معه أملنا فى تحسين حالنا ... !

وحرب وهزيمة ثالثة

ولكن هل اكتفينا بحربين وهزيمتين ؟ لا ... لا بد من الثالثة ... وكانت حرب وهزيمة ١٩٦٧ . أى أنه فى مدة نحو عشرة أعوام من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٧ قد استهلكنا ، أو على الأصح ، استهلكتنا ثلاث حروب بثلاث هزائم ، لا ندرى بالضبط كم كلفتنا من آلاف الأرواح ، ولا كم من آلاف الملايين من الجنيهات إنما الذى ذكر ونشر هو أن ما خسرناه فى الحروب الأخيرة وحدها يقدر بنحو أربعة آلاف مليون جنيه أى كما قيل أيضاً ان هـذا المبلغ لو أنفق على قرى مصر البالغ عددها أربعة آلاف قرية ، لكان نصيب كل قرية مليون جنيه ، تخلقها خلقاً جديداً وترفعها إلى مستوى قرى أوربا ... ولكن قرانا المصرية بقيت على حالها الحزن التعس ، وفلاحنا المسكين بقى على جهله ومرضه وفقره . وراحت آلاف الملايين التى جاءت من عرق مصر لتذهب فى الوحل . وفوقها هزيمة منكرة . بل فوق الهزيمة المنكرة أكثر من خمس سنوات حتى اليوم تمر على مصر ، وهى راكدة بلا حرب ولا سلم تنفق على جيشها المعطل من الأموال ما يكفى — كما قال محمد حسنين هيكل فى مقاله بالأهرام بتاريخ ٢١ يولية ١٩٧٢ — لبناء السد العالى مرتين ، أو سدين عاليين كل عام نبنيهما ثم نهدمهما ليسقطا فى التراب ...

ماحكم التاريخ ؟

ما هذا الجنون ؟ وماذا سيقول التاريخ فى هذا الذى جرى فى عهد هذه الثورة ، وهو الذى قال ما قال عن عهد الخديوى اسماعيل ، لأنه استدان

بضع عشرات من الملايين أنفقها في مد السكك الحديدية وفي تعمير البلاد وإدخال زراعات جديدة وفي بناء قصور بقيت لنا على كل حال حتى الآن ، كمنشآت استخدمتها للمصالح والوزارات على مدى سنوات ، ثم في بناء أشياء أخرى مثل دار الأوبرا التي انتفعنا بها كمصدر إشعاع فني وأدبي على مدى أجيال ، وفي غير ذلك مما سمي في وقت ما ترفاً أو سفهاً ، وما هو ، فيما يمكن أن يقال إلا بعض مظاهر الحضارة المصرية التي أراد لمصر أن تلحق بها ... وإذا كان التاريخ قد أدانه ، فهل نطمع في أن يبرئنا نحن ؟ إنني أرجو أن يبرىء التاريخ عبد الناصر ، لأني أحبه بقلبي . ولكني أرجو من التاريخ أن لا يبرىء شخصاً مثلي ، يحسب في المفكرين ، وقد أعمته العاطفة المحبة للثورة عن الرؤية ففقد الوعي بما يحدث حوله . لقد كانت ثقتي بعبد الناصر تجعلني أحسن الظن بتصرفاته ، وألتمس لها التبريرات المعقولة ، وعندما كان يخالجني بعض الشك أحياناً ، وأخشى عليه من الشطط أو الجور كنت ألجأ إلى إفهامه رأيي عن بعد وبرفق وأكتب شيئاً يفهم منه ما أرمي إليه . فقد خفت يوماً أن يجور سيف السلطان في يده على القانون والحرية فكتبت (السلطان الحائر) . ثم خفت أن يكون غافلاً عما أصاب المجتمع المصري قبيل حرب ١٩٦٧ من القلق والتفكك ، فيعتمد عليه في الإقدام على مغامرة من المغامرات فكتبت (بنك القلق) . وهي كلها كتابات مترفقة بعيدة عن العنف والمرارة ، لمجرد التنبيه لا الإثارة ، وقد علمت فقد قرأها وفهم ما أقصده منها . ولكنه فيما ظهر لم يأخذ بها ، بل اندفع في طريقه ... ولم يكن من السهل مع ذلك أن أنشر كتاب « بنك القلق » . فقد ظل هذا الكتاب أكثر من نصف عام حبيس الرقابة لا تسمح بنشره إلى أن سمع المسئولون أنه قد ينشر في الخارج فاضطروا إلى السماح بنشره اضطراراً . وفوق ذلك فإني لم أكف عن كتابة ما أراه مما اعتبروه خطراً . وفي أدراج مسئول كتابات لي لم يسمح لها بالظهور حتى اليوم . وبعضها كان

يقرأ سراً كالمنشورات الخفية . فالقلم لا يستطيع أن يسكت ، حتى مع وجود الحب ونقص الوعى ... فالمعارضة والاحتجاج على ما علمنا به من فساد قد فعلناه بالكتابة فيما نشر وفيما لم يسمح بنشره ، وبالتبليغ المباشر إلى صاحب الشأن شفوياً أو خطياً . ولكن القضية ليست هنا . فالصوت الفردى قليل الجدوى مهما تكن وسيلته وشجاعته . القضية هى فى غياب الصوت الجماعى الممثل فى الهيئات السياسية والقضائية والعلمية والثقافية . أين شجاعتها ؟ ولماذا لم يصدر عنها صوت أو حركة ولو رمزية تدل الحاكم المطلق على أن البلاد واعية تنبض بالحياة ؟ ولكنها لم تتحرك دفاعاً عن الحرية أو الكرامة ، إما غفلة منها أو انقساماً بعضها على بعض . ولست أبرىء نفسى بهذا لأنى اعتبر أن إدانتى الحقيقية هى فقدان الوعى الكامل بالوضع وأنا فى الشيخوخة وبعقل يميش بالتفكير ... ولا تفسير لذلك سوى أن مصر عاشت فى فترة حجبت عنها كل المعلومات وأخفيت كل الحقائق ، وأعلنت كل الأكاذيب بكل وسائل النشر والإذاعة والإعلان ...

آية السخرية

إن ما حدث لى يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ وما بعده لآية من آيات السخرية التى تثير الدهشة والعجب ... كنت متهيئاً للخروج فى الصباح ، وإذا صفارات الإنذار تدوى على غير انتظار ، فحسبتها مجرد تجربة من تجارب الغارات الجوية ، وخرجت إلى الطريق فإذا هرج ومرج ، وإذا هى غارة جوية حقيقية ، وإذا بمتطوعى الدفاع المدنى من الشباب يقفون فى وجه السيارات يحولونها من شارع إلى شارع ، فارتبك المرور وتكدست السيارات وسدت مداخل الطرقات لا تدرى أين تتجه ، ومن آن إلى آن تسمع طلقات سريعة متلاحقة للمدافع المضادة للطائرات .

وذهبت إلى مكتبي بجريدة « الأهرام » فوجدت أحد سعاة المكتب في يده راديو ترانزستور صغير ، يعلن في كل ربع ساعة بياناً من المسئولين في وزارة الحربية أو قيادة الجيش ، أننا أسقطنا للعدو مائة طائرة ، وعندما جاء الظهر كان عدد ما أسقطناه من الطائرات قد بلغ قرابة المائتين . أما في المساء فقد ارتفع العدد إلى ما لا أذكر من أرقام . فما شككت في أن العدو قد انتهى أمره . وسرت في شوارع القاهرة من ميدان التحرير إلى ميدان سليمان باشا فإذا لافتات كبيرة علقها الاتحاد الاشتراكي كتبت عليها عبارات النصر ، ثم عبارات تقول « إلى تل أبيب » ...

وكان الجو كله الذي حولنا يكاد يشعرنا بأن دخول جيوشنا في تل أبيب لن يتأخر عن التاسعة مساء من نفس اليوم ٥ يونيو ١٩٦٧ . ولكن جاء اليوم التالي والبيانات العسكرية تشير إلى اشتداد المعارك في سيناء ، فرسمت في رأسي صورة لخطة جيوشنا الظافرة ... فلما دخل عليّ زائر صديق يقول لي في قلق وحزن انه سمع من الاذاعات الأجنبية أن العريش قد سقطت في يد العدو ، وأن جيوشنا تتقهقر باستمرار لم يظهر عليّ أي انزعاج ، وقلت في هدوء وابتسام وبلهجة الوثوق التام : اسمع ... أنت لا تفهم خطة جيوشنا ... ... لقد اتضح لي الآن أنها لا تقصد الوصول إلى تل أبيب ولا التوغل في أرض العدو . إنما هي تريد استدراج جيشه إلى أعماق صحراء سيناء والقضاء عليه . لأن احتلال أراضيه أمر قد تقوم له قيامة هيئة الأمم ومجلس الأمن فينتهي الحال إلى التراجع عنها ، كما حدث له يوم احتل غزة وبعض سيناء عام ١٩٥٦ واضطر مرغماً إلى الانسحاب عنها ، أما تحطيم قوته العسكرية وإنزال الخسائر الجسيمة بها فهو لا شك هدف أهم وأبقى في نظر قيادتنا . هذه هي الخطة . وهذا هو سر التراجع والتقهقر في صفوفنا . ولبثت مطمئناً إلى تفسيري هذا . ومضت الأيام التالية ، وقواتنا مستمرة في تراجع يشبه الركض ، تاركة في شبه

هرولة كل المواقع من شرم الشيخ إلى رفح ، وأنا لا أزال هادئاً مبتسماً بتفسيرى وبالخطة العسكرية التى أنفأها خيالى ...

هزيمة غير معقولة

ذلك أنه لم يكن من الممكن عقلاً ولا منطقاً أن نصدق بسهولة أن جيوشنا يمكن أن تهزم فى بضعة أيام . لقد لبثنا الأعوام وهم يروون عنها الأعاجيب ، ويجعلوننا نرى فى كل عيد من أعياد الثورة استعراضات عسكرية تحوى أحدث طراز من الدبابات ، ونرى فيها الصواريخ التى سميت « القاهر » و « الظافر » ، ونرى فرقاً يطلق عليها اسم الصاعقة تركض وهى تهدر هديراً مخيفاً ، ونرى جنوداً تهبط من الأعالى وتقفز فوق الجدران ، وتمزق وتأكل الثعابين ... ثم سمعنا فى الخطب عن قوة طيراننا التى لا مثيل لها فى الشرق الأوسط ، وأبصرنا أسرابها وهى ترعد فى السماء وجعلنا ندفع من عرق الجبين طيلة سنين ضرائب دفاع وطنى وأمن قومى علاوة على المستحق من الضرائب العادية اقتطعت من لحم الشعب الذى حرم نفسه الكثير تدعيما لجيشه . وكانت الدعاية لهذا الجيش تجعل أكثر الناس تشاؤماً وتشككاً فى الثورة يقول كما سمعت ذلك بنفسى من أفواه ذلك الطراز من الناس : « ربما كانت الثورة فاشلة فى كل شىء إلا ، والحق يقال ، فى الجيش ، فرجالها أصلاً رجال جيش وهو عماد وجودهم وقد أنفقوا عليه ما أنفقوا ، فإذا اختل كل شىء فى المجتمع على أيديهم ، فلا يمكن أن يصل الخلل إلى الجيش ... » كان هذا النفر من المتشككين فى الثورة يقول فى صباح ٥ يونية ١٩٦٧ : « نعم سينتصر جيشنا على العدو وبالطبع سينتصر ، وهذا شىء مفروغ منه ، لكن العبرة بالنتيجة ، والنتيجة كارثة إذا تدخلت أمريكا مباشرة ضد مصر » لم يكن إذن من الممكن لشخص واحد ، سواء أكان مع الثورة أم ضدها أن يشك فى قدرة الجيش المصرى على صد العدو وقهره ، وزاد التأكد يوم شاهدنا فى التليفزيون

رئيسنا يواجه الصحفيين الأجانب للوفدين من أكبر صحف العالم ليسألوه قبل ٥ يونية والأزمة مستحكمة عقب إغلاقه خليج العقبة، ماذا هو فاعل إذا جاءت السفن الحربية من بريطانيا أو أمريكا لفتح هذا الممر المائى الذى أغلقه ؟ فأجاب بثقة القادر : « سيجدون هناك قوة لا يتصورونها » .

ما شككت وأنا أشاهد ذلك وأسمعه فى التلفزيون أن هناك صواريخ ذرية فى الانتظار . لم يخطر ببالى قط أن مثل هذا الكلام قد يكون من قبيل التهويش . والظاهر أنه كان خارج بلادنا من يزن مثل هذا الكلام الوزن الحقيقى . فقد سمعت ، ولا أذكر فى أى تاريخ ، أن عضواً فى الكونجرس الأمريكى قال وهو يقرأ خطباً من مثل هذا القبيل لعبد الناصر : « هذا الرجل يبلف » ... ولكننا فى مصر ، ما كان أحد منا يرتاب أو حتى يراجع قليلا حقيقة ما يلقى علينا . هل كنا مسحورين ؟ كما سبق أن قلت ... أو أنها الثقة التامة فى زعيم وضعنا أملنا به ؟ أو أننا اعتدنا هذا النوع من الحياة الذى جعلتنا الثورة فيها مجرد أجهزة استقبال داخل صندوق مغلق علينا مع الأكاذيب والأوهام ؟ ...

وهكذا لبثت حتى يوم الخميس ٨ يونية وأنا أعيش داخل وهم خططهم العسكرية . وكلما قيل عن تقهقر لجيوشنا ازداد اعتقادى بأن الخطة تطبق بإحكام ، وأن هذا التقهقر هو عملية التفاف حول جيش العدو ، وحركة كماشة واسعة للتضييق عليه ، إلى أن اتصل صديق بالتليفون قبيل منتصف ليل ذلك اليوم (الخميس) ليخبرنى أنه قد أعلن رسمياً فى مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة ، أن مصر قبلت وقف إطلاق النار . فأفقت قليلا : كيف قبلت مصر ذلك وهى منتصرة ؟ ثم شط خيالى مرة أخرى وفسرت الأمر على أن قبول مصر التوقف عن المضى فى انتصاراتها إنما جاء نزولا على رجاء أمريكا ، ووعدها بتعويض مصر بمعونات مغرية فى نظير هذا التوقف عن إطلاق النار ...

لم أعرف الحقيقة ويعتريني الذهول إلا في يوم الجمعة ٩ يونية ... فقد ظهر أننا خسرنا الحرب منذ الساعات الأولى من يوم ٥ يونية ... وعندما رأينا وجه الرئيس في شاشة التليفزيون يعلن الهزيمة ويخففها بلفظ النكسة ، لم نصدق أننا بهذا الهوان ، وأن إسرائيل بهذه القوة ... وكان أكرم له وأعظم لو أنه اختفى عن أنظارنا في ذلك اليوم ولم يواجهنا بكلام . ربما كان خيالنا قد ضخم لنا صورة آلامه التي لا يمكن أن نحتمل ... ولكننا مع ذلك تأثرنا وعاد فامتلك عواطفنا لعلمه وقوله إننا شعب عاطفي . وأنسانا الهزيمة وجعلنا نرقص ، حتى في مجلس الأمة لمجرد وجود شخصه بيننا بدلا من أن نسائله ولو برفق ومحبة عن أسباب الهزيمة لنعرف أمراضنا حتى نتهيأ للصحة ، لا أن ندهه ليسكتم المرض ويخنق الحقائق ليبقى الفساد كما كان ، خشية على تصدع مركزه — لم يكن بالطبع هذا الشعب في حالة طبيعية من الوعي ، كأي شعب آخر في مثل هذه الظروف ، يسائل زعيمه على الأقل بوعي حاضر ولا أقول يحاكمه أو يطالبه بدفع ثمن الهزيمة كما فعل الشعب الفرنسي مثلا الذي لعن نابليون وتركه للنفي بعد معركة واترلو ... وأخذ هو يجدد حياته بدونه وبنفسه . مع أن زعيمه شرفه بانتصارات عسكرية مجيدة ساد بها أوربا كلها ناشراً مبادىء الثورة الفرنسيه ومبشراً بالوحدة الأوروبية . لقد تركوه يدفع ثمن هزيمته الوحيدة . تلك الهزيمة التي تسبب فيها أحد مارشالاته بتخاذله عن اللحاق به في المعركة ، لقد عاش هذا المارشال « جروشي » ولم يمس ، وتحمل نابليون كل الذنب والمسئولية ... أما عندنا فإن قائدنا الخالد بهزائمه العسكرية المتلاحقة التي غامر فيها بأموال شعب فقير ليحتل أرضه في النهاية عدو صغير ، بقي ليتنصل من هزيمته ويجعل مشيره هو الذي يدفع عنه الثمن بانتحاره ، ويقدم قواده إلى المحاكمات

وتلقى عليهم التبعات . وحتى من أراد أن يكتب تلميحاً عن فساد أو هزيمة أو نكسة فيجب إبعاد شخص الزعيم عن كل مسئولية ، فالمسئولون دائماً هم الآخرون... وهكذا استمر هو في كرسي الحكم على مصر والزعامة الناصرية على العرب جميعاً — تلك الزعامة التي خربت مصر ونكبت العرب — ونحن ليس لنا حيلة ولا قوة إلا التعلق به لأنه جرّدنا طول الأعوام من كل فكر مستقل ومن كل شخصية قوية غير شخصيته هو . وقد نجح في ذلك إلى حد جعل كل شخصية في بلادنا حتى في مجال العلم والفكر والثقافة تشعر بضآلتها إلى جانب ضابط صغير من أعوانه . ولذلك عين لرئاسة المجلس الأعلى للجامعات والمجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ضابطاً صغيراً في السن وفي درجة التعليم وجعل علماءنا الكبار يجلسون أمام رئيسهم الضابط الصغير متأدبين . وإذا تلقوا تكريماً أو مكافأة فمن يديه هو لمن كان مرضياً عنه ، أما غير المرضى عنه فيحرم . ولم يظفر فعلاً بالرضى وحرم من جائزة الدولة التقديرية بعض مفاخر بلادنا ومنهم الدكتور عبد الحميد بدوى القانوني العالمي الذي كان نائباً لرئيس محكمة لاهاى الدولية رغم ترشيحه مراراً من طارق فضله . كما سبق أن حرم بالأوامر نابغة المهندسين الدكتور عبد العزيز أحمد رغم انتخابه بالفعل من صفوة العلماء . وكاد يحرم كذلك رغم انتخابه الدكتور السنهوري مؤلف أكبر موسوعة قانون وواضع القوانين لكثير من البلاد العربية لولا المساعي التي بذلت وأهمها جهود « محمد حسنين هيكل » الذي حال دون التمادي في مساوىء كثيرة لذلك العهد . سواء كانت هذه المساوىء من فعل الزعيم أو بعلمه أو من فعل أعوانه وبغير علمه . ذلك أن رجال الأقدار لا تخفف من مسئولياتهم البواعث ولا التبريرات فهم باعتبارهم المسئولين عن مصائر الأمم يحاسبون فقط على النتائج ويتحملونها حتى وإن تسبب فيها آخرون فإليهم دائماً تنسب الفضائل والمكاسب كما تنسب المساوىء والخسائر .

ولكن الزعيم ولا شك مسئول شخصياً عن تعيين الضابط صغير السن والتعليم رئيساً لعلماء البلد ومفكريه في حين أن نابليون عندما احتل مصر ومعه نخبة من علماء فرنسا وأسس فيها المجمع العلمي المصري لم يجرؤ وهو نابليون على تعيين نفسه رئيساً لهذا المجمع العلمي بل جعل الرئيس هو العلامة « مونج » وجعل نفسه مجرد نائب عنه ... فلا عجب إذن أن نتمسك بزعيمنا بعد الهزيمة وأن نجعل وجوده الشخصي بديلاً من النصر أو مرادفاً له لأنه كان قد أشعرنا بكل هذه الوسائل أنه لا يوجد في مصر ولا في العالم العربي كله غير عقل واحد وقوة واحدة وشخصية واحدة هي «عبد الناصر» وبدونه لا يوجد شيء فلا رجال ولا عقول ولا قوى يعتمد عليها . وليس أمامنا إلا الضياع . وهكذا الفاشستية والهتلرية والناصرية كلها تقوم على أساس واحد هو إلغاء العقول والإرادات الأخرى ما عدا عقل وإرادة الزعيم . وكلها شاهدت هجرة العديد من العقول إلى الخارج كما حدث أيضاً لكثيرين في مصر . وكلها تترك بعدها شبحها مسيطراً ، وفي ميراثها خيولا يركبها بإسمها الطامعون والمغامرون ... إن فكرة الزعامة على العالم العربي هي التي أضاعتنا جميعاً . وهي التي استحوذت على فكر عبد الناصر وجعلته قوة مدمرة لنفسه ولمصر وللعرب . وهو درس يجب أن نعيه جيداً لمقاومة كل من تراوده نفسه على زعامة العرب ، والسيطرة عليهم بشخصه وبإرادته وأفكاره ... وهكذا بقي الزعيم موجوداً دائماً يمنينا بكلماته المعتادة عن النصر ... وعادت الأناشيد من جديد تردد كلمة النصر ولكن النصر تغير مفهومه . وأصبح هو جلاء إسرائيل عن الأراضي التي احتلتها ، وعودتنا إلى ما كنا عليه قبل ٥ يونية ١٩٦٧ . ولقد كانت أمانينا الوطنية بالأمس انتهاء الاحتلال البريطاني عن أراضينا ، اليوم أمانينا الوطنية هي إنهاء الاحتلال الإسرائيلي عن أرضنا ... ونحن مستمرون مع ذلك في ترديد شعار الثورة : « كيف كنا وكيف أصبحنا » .

ومرت على الهزيمة الأيام . وفى كل يوم يتضح لنا فداحة حجمها لا عن طريق إعلان الحقائق رسمياً . بل بأساليب ملتوية فى سطور غامضة عابرة تندس فى مقال صحفى نفهم منه أن الجيش قد أبيد وأسلحته ومعداته وأحدث دباباته وطائراته التى استنزفت دم مصر ، ضاعت مع الأرواح التى قدرت بعشرات الألوف ، والأموال التى بلغت آلاف الملايين، ولم تطلق مع ذلك طلقة واحدة، وقال قواد دولة صديقة فى عجب : لو أن كل دبابة صمدت وأطلقت طلقة لتكبد العدو من الخسائر ، ما جعل الحرب تمتد إلى أجل معقول ، وجعل الهزيمة إذا وقعت ، هزيمة بشرف ... ولكنه القرار المعروف للألوف : قرار الانسحاب ... من أول نظرة ! ... أى من أول نظرة إلى سوء الموقف ... أسلوب واحد هو طابعنا المميز فى حروب الثورة الناصرية : توريط أنفسنا ثم الانسحاب .

ولكن الانسحاب فى الحرب عام ١٩٦٧ كان باهظ الثمن . فظيعاً فى منظره ونتائجه وآثاره ... بل كان فى رأى الخبراء العسكريين مجزرة بشرية رهيبة . فالأمر بالانسحاب السريع لجيش كبير انتشر فى الصحراء واتخذ مواقعه بمعداته على مدى أسابيع ، ودعوته للجرى حافياً دون انسحاب فنى منظم ، تحت وابل نيران العدو لهو قرار أهوج من مسئول فقد أعصابه ويستحق المحاكمة . وهو ما لم يحدث . وسحقت مصر سحقاً بهزيمة لن ينساها التاريخ .

أين يقام التمثال ؟

وتوفى عبد الناصر بعد ثلاث سنوات من الهزيمة ، ولا ندرى كيف أمكنه أن يعيشها . غلبت علينا جميعاً العواطف يوم وفاته . وأنا بنوع خاص . دفعتنى المشاعر ودواعى الوفاء فاقترحت إقامة تمثال له فى ميدان بالقاهرة . فجاءتنى خطابات محبذة متأثرة مثلى بالعاطفة ، وجاءتنى قلة من الخطابات مترددة ثم

وجدت من بينها خطاباً يقول فيه صاحبه إنه موافق على إقامة التمثال ولكنه يرى أن يكون مكانه ليس فى القاهرة بل فى تل أبيب . لأن إسرائيل لم تكن يوماً تحلم بأن تبلغ بهذه السرعة هذه القوة العسكرية ولا أن تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضارى ، إلا بفضل سياسة عبد الناصر ... ...

انتهت الثورة

كان من الطبيعى أن تنتهى ثورة ١٩٥٢ فى يوم الهزيمة ، وهى فى الواقع تعتبر منتهية فى نظر التاريخ . والمقصود طبعاً بكلمة الثورة هنا هو النظام الذى خرج منها . ذلك أن الثورات بمعناها الدقيق تنتهى عادة بمجرد تحويلها إلى نظام حكم رسمى . فثورة ١٩١٩ مثلاً انتهت بعد أن أدت مهمتها باستقرار نوع من الحكم الملكى البرلمانى وتعيين زعيمها سعد زغلول رئيساً للوزارة . والقول بأن ثورة ١٩١٩ فشلت أو انتهت بقيام ثورة ١٩٥٢ هو قول غير دقيق . لأنها انتهت قبل ذلك بثلاثين عاماً بتحويلها إلى نظام حكم رسمى . كذلك الثورة الفرنسية انتهت وأدت مهمتها بتحول فرنسا إلى نظام حكم امبراطورى فى عهد نابليون . والثورة الروسية أدت مهمتها بعد أن تسلم لينين السلطة واستقر نظام حكمه على نحو ثابت ... بل ان الثورة الاسلامية كانت قد أدت مهمتها باستقرار معاوية فى الحكم وتحولها فى عهد الأمويين إلى نظام ملك وراثى ... كذلك الحال فى ثورة مصر ١٩٥٢ فقد أدت مهمتها باعتلاء زعيمها رئيساً للجمهورية ، واستقرار هذا النظام الذى جعل رياسة الجمهورية رياسة مطلقة ... هذا النظام الدكتاتورى فى جوهره وحقيقته هو الذى هزته الهزيمة هزاً وصفه الرئيس بأنه شرخ . وكان طبيعياً أن يتسع الشرخ وينهار النظام . وما حدث بعد ذلك حتى اليوم يعتبر من قبيل التقلصات العصبية العاطفية ، أو يعتبر من قبيل الدوار الذى يصاحب الوحم إيذانا بميلاد مصر جديدة ... ...

مهما يكن من أمر فإن هذه المرحلة من مراحل مصر ، التى استغرقت عشرين عاماً سوف تكون موضع دراسة مستفيضة . وهذه المرحلة يمكن كذلك تقسيمها إلى فترتين : الفترة الأولى وهى التى كان الحكم فيها جماعياً يشترك فيه كل من قاموا بالثورة ، وهى ثورة ١٩٥٢ الحقيقية . أما الفترة الثانية فهى الفترة التى انفرد فيها عبد الناصر بالحكم المطلق بعد تنحية مجلس الثورة الناصرية . وأرجو لدارسيها بفترتيها أن يكون رائدهم العدل والموضوعية ، وأن لا تطغى على تفكيرهم المادىء وبحثهم الرزين وحكمهم الرصين ، أى حزازة أو مرارة أو مجاملة أو مبالغة ، وأن تذكر لها ولقادتها المحاسن والمساوىء على السواء ، وأن يصوروا بأحجامهم الحقيقية وأن لا يقلدوا ثورة ١٩٥٢ أو نظامها فى الانتقاص أو الإغفال لثورة ١٩١٩ أو رجالها ، والرفع من شأن ثورة عرابى أكثر من قدرها ، فكشف ذلك لبعض الفاحصين عن عقدة ومرض وغرض ازاء ثورة ١٩١٩ لأنها كانت ثورة شعبية حقيقية ... ومن مدح وإشادة بحركة عرابى لأنها تشبه ثورة ١٩٥٢ فى أنها حركة جيش قامت تطالب الخديوى توفيق بمطالب معينة كما قامت ثورة ١٩٥٢ كحركة جيش تطالب الملك فاروق بمطالب معينة . وكأن سخرية القدر شاءت أن يكون التشابه تاماً لجعل ثورة ١٩٥٢ تنتهى بهزيمة عسكرية واحتلال أجنبى ، كما كانت نهاية ثورة عرابى ...

كذلك لا ينبغى تقليد ثورة ١٩٥٢ فى تشجيعها على التزييف والنفاق وطمس الحقائق وجعل ثورة ١٩٥٢ هى تاريخ ميلاد مصر الحضارى . وأن ما قبلها هو الجاهلية . فى حين أن ثورة ١٩٥٢ ما كان يمكن أن تقوم إلا على دعائم قوية من نهضة مصرية حقيقية قامت فى الثلاثين سنة السابقة على قيام الثورة .

وأن نقدنا وهجومنا فى كل ما كتبناه عن الحكم الفاسد، إنما فقط كان هجوماً ونقداً على رجال الحكم من ملك وساسة وأحزاب .

من صنع الدولة ...

ففساد الحكم فى جانب، وكانت فى الجانب الآخر مصر بعقولها وسواعدها وإرادتها الحرة . لقد كانت لثورة ١٩١٩ هذه الظاهرة العجيبة : وهى أنها أيقظت مصر ، فنهضت تبحث عن شخصها وتعيد روحها وحضارتها بذاتها ، دون اعتماد على حكام مصر وحكوماتها وساستها وأحزابها ، فمصر بعد ثورة ١٩١٩ فى حضارتها وفكرها وفنها واقتصادها هى من صنع مصر ، وليست من صنع حكامها . أما بعد ثورة ١٩٥٢ فإن مصر هى من صنع الدولة أكثر مما هى من صنع نفسها . فإرادة الدولة وقراراتها المطلقة التى لا معارضة لها ولا مناقشة هى التى توجه كل شىء فى مصر ، حتى مجرد الفكر ، وهذا عكس ما حدث بعد ثورة ١٩١٩ . فثورة مصر السياسية عام ١٩١٩ عندما انتهت ، كانت ثورة مصر الحضارية والفكرية قد بدأت . وأن ثورة مصر السياسية انتهت بتحولها إلى نظام حكم ملكى ، أخذ يظهر فساده عاماً بعد عام . ولكن الثورة الفكرية والحضارية بدأت تسير يوماً بعد يوم ، ويظهر تألقها ورسوخ أساسها بغير معونة الحكومات المشغولة عنها بنشاطها الحزبى والسياسى . إلى حد أذكر فيه أن مسابقة أدبية أعلن عنها فى العشرينيات للتأليف المسرحى لم تفكر فيها الحكومة ، بل الذى فكر فيها ودفع قيمة جوائزها فرد من الناس من جيبه الخاص . أما فى ثورة ١٩٥٢ فإن السياسة والفكر والحضارة وكل نشاط تقوم به يد واحدة وتخرج من رأس واحد ... وليس معنى ذلك أن ما صنعته دولة الثورة كان سوءاً كله ، أو أنه كان خالياً من النفع أو من حسن النية . وهذا ما أردت أن يكون البحث فيه قائماً على روح العدل والانصاف والموضوعية التامة ، فمصر قد عرفت

لظامين على مدى ثلاثين عاماً : النظام الديمقراطى على نحو ما ، ومن عيوبه التى لمسناها ونقدناها التطاحن الحزبى والجدل العقيم الذى يعرقل المشروعات النافعة ويبطىء تنفيذها . ومن مزاياه شىء من حرية القول والعمل والرأى والوعى المستقل ، مع عدم المغامرات والمقامرات الخطرة ... ثم النظام المبنى على الحكم المطلق بإرادة فرد ، من مزاياه التنفيذ السريع لما يراه من مشروعات نافعة ومن عيوبه القرارات المتعجلة أو المفاجئة المبنية على المغامرات والمقامرات التى قد تورط الأمة فى ساعة واحدة وتوردها موارد الهلاك ...

تقييم مكاسب الثورة

كذلك إذا طرحت يوماً للفحص مكاسب الثورة (ثورة ١٩٥٢) فيجب فحصها بالموضوعية العلمية . بعيداً عن أى عاطفية . فمثلاً الاصلاح الزراعى يدرس من كل نواحيه . وهل وقف عند حد تحديد الملكية وتمليك الفلاح المعدم عدة أفدنة ، أو أنه كان إصلاحاً زراعياً بالمعنى الحقيقى زالت فيه جحور الطين التى تؤوى الفلاحين ، واختفت معه صورة الفلاح الفرعونى بمحراثه الخشبى وحلت محلها الآلات الحديثة ، وحررت البهائم من الأعمال الشاقة كما حدث فى النهضات الزراعية الحقيقية وخصصت البهائم والمواشى لمد البلاد بالألبان واللحوم ؟ والتصنيع ماذا تم فيه ؟ وما حدوده وأسواقه ؟ وما الذى نجح منه وما الذى أخفق بغير مغالاة ولا إجحاف ؟ والاشتراكية ما حقيقة تطبيقها وما مداه ؟ هل هى مجرد التأميم ؟ تأميم الثروات وتأميم الحريات وتأميم صراع الطبقات وتأميم العقول ووضع كل ذلك فى جيب واحد هو جيب الزعيم وفى إطار سياسى واحد واقتصادى واحد وفكرى واحد هو شخص وعقل وإرادة الزعيم ؟ وهل الاستيلاء على أموال وقصور طبقة لتحل فيها طبقة أخرى بإسم آخر تماثلها فى الثراء وتتشبه بها فى الترف هى الاشتراكية ؟! . وهل الشعب سعيد حقاً لأنه يكفيه سماع أغانى الاشتراكية وهو غارق فى الشقاء الذى يراه

الجميع ، لاداخل مساكنه أو جحوره ، بل تراه الأعين أيضاً معروضاً في الشوارع أكداساً من الآدميين يقفون الساعات الطويلة أمام الجمعيات الاستهلاكية في انتظار قطعة لحم يلقى بها إليهم ، غير الملايين الأخرى المحرومة التي لم تعد تذكر طعم اللحم ، وأكوام اللحم الآدمي المتعلقة على أوتوبيسات مترنحة مهشمة في مناظر تأباها الإنسانية ، وجماعات من البشر يعاملون في مستشفيات قذرة معاملة الحيوانات الضالة المهملة ... والوحدة العربية التي نشأت قبل الثورة في مشاعر الشعوب المتآلفة بالقلوب في عالمنا العربي وكانت سائرة في طريقها بوسائلها الطبيعية ، هل نجحت الثورة في تحقيقها بوسائلها السياسية وهل جمعتها وقوتها أو فرقتها وأضعفتها بأساليب التدخل والتزعم والسيطرة وبسط النفوذ وإغداق الأموال في تدبير المؤامرات وتحريك الانقلابات وجعل العربي يقتل العربي في حرب اليمن ويستخدم ضده النابالم الحارق والغاز الخانق ؟! ... ويكفي الاطلاع على رأى خروشوف نفسه في موقف عبد الناصر تجاه الدول العربية والوحدة وذلك في رسالته الموجهة إلى عبد الناصر كما نشرت في كتاب « عبد الناصر والعالم » لمحمد حسنين هيكل . جاء في الصفحتين ٢٠١ و ٢٠٢ من ذلك الكتاب المطبوع في دار النهار ببيروت ما نصه :

« تذكرون أنكم في إحدى محادثاتنا — أثناء زيارتكم الأخيرة لموسكو — أعربتم عن الاستياء من حكومات الأقطار العربية المجاورة وسألتني عما يجب عمله لتغيير الوضع الداخلي في تلك الأقطار التي تقف موقف العداء من الجمهورية العربية المتحدة وعن المعونة التي يمكن الاتحاد السوفيتي أن يقدمها إليكم في هذا الصدد (كان عبد الناصر في موضع آخر من الرسالة قد طالب بصواريخ متوسطة المدى من الاتحاد السوفيتي) وكما تذكرون فقد أجبتكم بأنه يجب إظهار التسامح والامتناع عن التدخل في شئون الدول الأخرى . إنما يجب التأثير في تلك الأقطار عن طريق القدوة الصالحة والمثل الطيب من

جانب الجمهورية العربية المتحدة وذلك برفع مستوى اقتصاد شعب جمهوريتكم ومستوى ثقافته ورفاهيته وإنشاء نظام من شأنه تمكين كل القوى الوطنية ضمن الجمهورية من إظهار مبادأتها وأشرت عليكم بأن تسعوا إلى أن تقيموا في الجمهورية العربية المتحدة ذلك النوع من الكيان الاقتصادي والنظام الحكومي اللذين من شأنهما أن يستهويا الأقطار العربية الأخرى من أجل الفوز بالحظوة لدى الشعوب بهذا المد الإيجابي. وقد ابتسمتم بعدئذ وقلتم إنني غير واقعي في استقراء الوضع في الأقطار العربية وأضفتم أن الأمر يتطلب تدابير أكثر حزماً. وأجبتكم حينئذ قائلاً إن التدخل في شئون الدول العربية هو شيء خطر جداً وأنه ليس من شأنه أن يؤدي إلى الوحدة وإنما من شأنه على العكس أن يؤدي إلى تفكك جهود الأقطار العربية. ولكن يبدو أنني أخفقت في إقناعكم ويبدو أن كلاً منا تمسك حيال هذه النقطة بوجهات نظره ... » وهكذا جاء في نص رسالة خروشوف أنه حتى هو نفسه كان يرى فيما يريد عبد الناصر فعله تدميراً للوحدة العربية ... ثم ثقافتنا على وجه العموم ومدارسنا وجامعاتنا وتعليمنا وحياتنا الفكرية عامة هل ارتفع مستواها أم انخفض بالثورة ؟ ... أي أن مستوى اقتصاد الشعب ومستوى ثقافته ورفاهيته كما قال خروشوف هل حققتها الثورة الناصرية وشغلتها كما شغلتها الزعامة والسيطرة على مصر في الداخل والعرب في الخارج ؟ ... كل ذلك تجب دراسته بالعدل والحق ...

وفي الجملة هل ثورة ١٩٥٢ كانت ذات فائدة حقيقية لمصر والبلاد العربية أو أنها فترة معترضة لسيرها معرقلة لنهضتها ؟ وهل كانت نظاماً طبيعياً أو نظاماً مصنوعاً نتج عن حركة آزرتها وخططت لها أمريكا لتزرع في المنطقة أنظمة عسكرية على غرار ما فعلته في أمريكا الجنوبية اللاتينية لتوقعها أن مصر وقتذاك كانت مهيأة فعلاً ومقبلة على نهضة ذاتية تنبت فيها الاشتراكية نبتاً طبيعياً

شعبياً ويقوم فيها التصنيع والإصلاح والوحدة العربية على أسس صحيحة ثابتة ناضجة، أو أن بلادنا ما كانت تبلغ من ذلك شيئاً إلا بعد جهد وزمن وأنه لا مكاسب يمكن أن تنالها بسرعة إلا عن طريق القرارات العسكرية ؟ ...

كل هذه الموضوعات والتساؤلات يجب أن تكون موضع دراسة بفكر طليق وعقل موضوعي . وكل البنود المعتاد ذكرها وترديدها من بنود مكاسب الثورة في حاجة إلى غربلة دقيقة بعيدة عن الطبل والزمر والأناشيد والأغاني والشعارات اللفظية وتضخيم كلمة الناصرية كأنها نظرية ! ...

ضياع وعي مصر

وأنا أفترض أن كل هذه المكاسب حقيقية . وأود من كل قلبي أن يسفر البحث النزيه عن ذلك ... ولكن هناك خسارة لا شك فيها ولا يعدلها عندي مكسب ، ذلك هو ضياع وعي مصر . ولو تصورنا رجلاً تسلط على ابنه ولم يترك له إرادة ولا اختياراً لشيء ، وجعل يغدق عليه كل الخيرات التي يرى هو أنها صالحة لابنه ، ويتخير هو له نوع الحياة التي يجب أن يعتادها والزوجة التي يجب أن يتزوجها ، ويراقب الصحف التي يطالعها والكتب التي يقرؤها والأخبار التي يسمعها ، والأغاني التي ينشدها والسينما التي يشاهدها ، والطعام الذي يأكله والدواء الذي يعالجه والأصدقاء الذين يصادقهم والأعداء الذين يعاديهم ، وباختصار كل ما يتصل بحياته المادية والعاطفية والفكرية يجب أن يسير في المجرى الذي يريده ويخطه الأب الحنون ، دون أن يقبل من ابنه مراجعة أو معارضة أو اختياراً حراً . ماذا يكون مصير هذا الابن ؟ وهل تنفعه كثيراً الخيرات والمكاسب التي أغدقت عليه ، وقد فقد مع مرور الزمن النمو الطبيعي لتكوينه العقلي والإرادي ... وأصبح شخصاً ضعيف الشخصية فاقد الوعي بذاته جاهلاً لمعنى المسئولية ، لأنه لم يتحملها يوماً بنفسه ، فأبوه

الجنون هو الذى يفكر له ويختار له ويقرر له القرارات المصيرية ، ويتحمل عنه كل المسئولية وهو جالس كالمعتوه ، يتلقى كل شيء من فم أبيه .

وهذا بالضبط كان حالى ، يوم جلست أمام التليفزيون بفم مفتوح كالبلهاء ، أستمع إلى انهيار مصر الثورة الذى تم فى بضع ساعات ... ثم استمر الطنين كالمعتاد من حولى فى الأناشيد الحماسية وأغانى المطربين والمطربات ولافتات الشركات : النصر ، النصر ، النصر ، شركة النصر لكذا ، وشركة النصر لكيت ، وسيارة نصر ، ومصنع نصر ، ومتجر نصر ... وكل شيء نصر فى نصر فى نصر ... إلى حد مضحك يثير سخرية أى إنسان عاقل ... ولكن مصر لم تعد تعقل ولم تعد تعى أنها أصبحت مضحكة بهذه الألفاظ والأوصاف . فقد كانت تصدق من أرادوا أن يجعلوها تصدق أنها تعيش غارقة فى الانتصارات ، انتصارات الثورة ، أيامك كلها انتصارات ...

لم يكن فينا رجل يقول أو يستطيع أن يقول : كفوا عن ترديد كلمة النصر هذه التى نطلقها بغير وعى ولا معنى على كل شيء يصادفنا ... إن البلاد التى انتصرت فعلاً الانتصارات العسكرية أو العلمية أو الحضارية لم تسكثر هكذا ولم تسرف فى ترديد هذه الكلمة فى كل موضع وبمناسبة وغير مناسبة بلا حياء ... أما والهزائم قد توالت علينا فما هى دواعى الاستمرار فيما قد يثير السخرية ، إلا أن يكون هو الاطمئنان إلى أن الوعى العام مفقود ... أتراه كان تحطيماً مقصوداً لوعى مصر ؟ ... إن الكتب المدرسية فى أيدى الشباب تضخم أمجاد الثورة تضخيماً تشتم منه رائحة التزييف والملق ، وتترك فى ظلام اللاوعى صفحات مشرقة لعهود أخرى ...

ما عذر الكهول ؟

ولكننا نحن كهول الثورة ما عذرنا ؟ ما الذى خدر عقولنا ؟ فينا من

يقول إن إجراءات عنيفة قد اتخذت لمنع تكوين رأى عام حر يناقش ويعارض، وانها الرقابة المشددة على كل ما ينشر ويذاع ثم الاعتقالات لمن يشتبه فى رأيه المخالف مع ألوان من التعذيب بلغت فظاعتها مبلغ الأساطير، مما لا بد أن يحقق فى صحته يوماً من الأيام. ولكننى لا أنسى على الأقل تعذيب أستاذ جامعى فاضل نعرفه هو الدكتور عبد المنعم الشرقاوى الذى عذب تعذيباً جسمانياً بلغ من بشاعته أن أنكر شكله أهله ومعارفه. وكان قد اتهم فى قضية تهريب نقد وما أن خرج من المحكمة بحكم البراءة حتى وجد بانتظاره على الباب ضابط مخابرات بسيارة قادته إلى المصير المجهول والتعذيب الفظيع، ولم أكد أعلم بذلك من شقيقه الشاعر عبد الرحمن الشرقاوى ومن أستاذه المرحوم الدكتور مصطفى القللى — الذى اضطهد بعزله من مجلس إدارة الجامعة لمجرد الدفاع عنه فى المحكمة — حتى كتبت فى الحال كلمة أقول فيها: «هذه لطخة سوداء فى جبين الثورة لا يمكن الدفاع عنها أمام التاريخ» وأرسلتها إلى من يوصلها إلى عبد الناصر ... وكنت حتى وقتئذ أحسن به الظن ولا أصدق أنه مسئول، ولكن الإشاعات راجت عن معذبين كثيرين. منهم من كان يؤتى إليه بزوجته أو ابنته أو أخته للاعتداء على عفافها أمامه ... كل هذه الفظائع سمعناها واقشعرت لها أبداننا. فهى مما لم تكن تعرفه مصر من قبل حتى لقد قيل إن هذه الأساليب فى التعذيب هى من أساليب المخابرات النازية وأنه قد استقدم بالفعل فى مصر بعض الضباط السابقين من النازيين للتدريب على أساليب التعذيب. ولكن العجيب هو أن يحدث لأستاذ جامعى هذا التعذيب ولا تتحرك الجامعة ولا يحتج زملاؤه الأساتذة ولا تلاميذه الطلاب. ولو بالوقوف دقيقة عن الدروس؟! ...

كذلك يوم حدث ما سمى بمذبحة القضاة بطرد نحو مائتين من رجال القضاء لفرية كاذبة مدبرة لم يحتج رجال القضاء. ويوم ضرب الدكتور السنهورى رئيس مجلس الدولة وأهين وكاد يقتل لم يحتج زملاؤه. ويوم عين رئيساً لنا

فى المجلس الأعلى للآداب ذلك الضابط الصغير لم نتفوه بكلمة لا أنا ولا طه حسين ولا العقاد . بل جلسنا هادئين وكأن الوضع طبيعى . هنا تكمن مسئوليتنا جميعاً نحن المثقفين ويقع علينا اللوم بل المحاسبة أمام التاريخ . لا بد من محاكمة لنا جميعاً . ومن فتح ملف الثورة بأكمله . فينا من يقول إنها فظائع الاضطهاد والإرهاب . كما أن فينا من يقول إن من أفلت من الإرهاب والاضطهاد وقع فى شرك الأوهام . فالحقائق محجوبة . والرؤية الصحيحة للأشياء ممنوعة . ولم يبق أمامنا إلا اتجاه واحد وصورة واحدة هى ما ترسمه لنا سلطات الثورة محفوفة بدوى الطبول . سحرونا ببريق آمال كنا نتطلع إليها من زمن بعيد ، وأسكرونا بخمرة مكاسب وأمجاد فسكرنا حتى غاب عنا الوعى .

عودة الوعى

لقد ذكرت أن عبد الناصر أهدى إلىّ كتابه « فلسفة الثورة » عند صدوره . لقد كان بالاهداء عبارة أشار فيها إلى كتاب « عودة الروح » : « مطالباً بعودة لروح أخرى فى عهد الثورة » ... ولم يدر بخلدى وقتئذ أن ما سوف نحتاج إليه مصر بعد عشرين سنة من عمر الثورة ليس « عودة الروح » ولكن « عودة الوعى » ... وهو كتاب لن أكتبه أنا ، لا لأن شيخوختى وضعف صحتى هما وحدهما السبب ، بل لأن موقفى من الثورة منذ البداية كان الحب لها والأمل فيها ، والتسامح معها كما ذكرت فى هذه الصفحات إلى أن صدمتنى هزيمة ١٩٦٧ وتكشفت لى خطورة مساوئها . وهنا ماذا كان يجب أن أفعل ؟ ويفعل الشيوخ زملائى أصحاب الأقلام ؟ هل نسكت ؟ وضميرنا يسأل لماذا سكتتم بعد أن عرفتم ؟ هل نصرخ ؟ يقولون لنا ليس هذا وقت صراخ واعتراض ومساءلة ، ونحن نضمد جراحنا ونعد أنفسنا للمعركة المقبلة لإزالة آثار العدوان . إذن من يكتب الكتاب ؟ ... من يستطيع ذلك ، فيما أرى ،

فهو كاتب آخر من جيل آخر ، له من الحرية وعدم الارتباطات العاطفية ما يمكنه من الرؤية الواضحة والحكم المتشبث على عهد اختلطت فيه حقائق الأشياء إلى حد كان يرفع فيه الشعار ويعمل بنقيضه خلف الستار . فكلمة الحرية مثلاً و « عهد الحرية » تجرى على الألسنة فى الخطب والأغانى والأناشيد ، وما من كلمة حرة واحدة لا يريدها الحاكم يمكن أن تخرج من الصدور ، وإلا دخل صاحبها السجون ، لقد نجح الحاكم فى أن يدمج مصر كلها فيه . وأن يقنع مصر البالغة من العمر أكثر من خمسة آلاف عام أن عمرها هو عمر الثورة ونظامها، وأن لا عمر لها قبل ذلك ولا بعد ذلك يستحق الذكر . هذه العملية البارعة لضغط مصر العملاقة ووضعها فى علبة الثورة ونظامها ، خنقت مصر ، وأفقدتها الوعى بحقيقة حجمها الهائل عبر التاريخ والأنظمة التى اجتازتها كلها وبقيت « مصر » .

كذلك فإن الكاتب المنتظر سوف يكون أقدر منا على معرفة الحقائق التى أخفيت عنا بإحكام شديد . وسوف يعجب عندما يعلم أن فداحة خسائرنا فى القتلى والأموال فى حرب اليمن لم تنكشف لنا إلا فى أسطر قليلة عابرة فى إحدى الصحف ، وذلك فى عام ١٩٧٠ فقط أو بعد هذا التاريخ كما أن السماح بمرور سفن إسرائيل فى خليج العقبة ظل مخفياً عنا طويلاً ، من سنة ١٩٥٦ حتى أعلنه الرئيس عبد الناصر فى مايو ١٩٦٧ . كما أن المسئول عن الحروب الخاسرة وعن كارثة الأمس بالانسحاب الذى اعتبره الخبراء العسكريون مجزرة مهينة مبيدة للجيش المصرى عام ١٩٦٧ غير معلن حتى الآن . وغير ذلك كثير مما لا نعلم عنه شيئاً إلى اليوم . وكل ما نعلمه هو ما نراه بأعيننا من آثار تفتت بلادنا وخرابها وشقاء أهلها وعندما بدأنا نشعر بفداحة كوارث ثورتنا عقب هزيمة ١٩٦٧ وبدأ نوع من الوعى بضرورة المحاسبة ... أقيم فى الحال أمامنا السد الواقى المنيع بشعار : «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» .

ولا يصح الكلام قبل إزالة آثار العدوان وألا كان للمتكلم أو للمتحرك يعمل ضد الوطن . وهكذا شد الوثاق مرة أخرى ، وختم على الأفواه ، وتشتت الوعى من جديد . ولم يسمح لمصر أن تفتح ملف القضية وتحكم بنفسها على ما حدث لها ...

إن معنى عودة الوعى لمصر هو استرداد حريتها فى الحكم بنفسها على الأشياء . وإنه ليحضرنى مثل جميل للحرص على وعى الشعب . إنه يوم تقدم ديجول وهو بطل قومى لفرنسا للاستفتاء على رياسة الجمهورية . لقد تقدم معه خمسة من المرشحين . وقبل الاستفتاء العام سمح للجميع بفرص متساوية فى الصحف والإذاعات لعرض براجمهم . ونشرت إحدى الجرائد خمس خانات معنونة بالأرقام لا بالأسماء ، ووضعت فى كل خانة برنامج المرشح . ودعت قراءها إلى اختيار البرنامج دون معرفة صاحبه ، ولم تذكر أسماء المرشحين إلا فى آخر صفحة . وأردت أنا أن أجرب فى نفسى هذه العملية ، واخترت إحدى الخانات ، وقد أعجبنى البرنامج الذى فيها ، وقلبت الصفحات لأعرف اسم من اخترت فإذا هو لدهشتى ديجول نفسه ... هكذا يربى الرأى العام الحر ، ويحرصون على وعى الشعب فى تلك البلاد . أما الاستفتاء الذى تطبل له جميع الصحف مقدماً بكلمة « نعم » بالخط الأحمر العريض ، ثم يخرج بنتيجة ٩٩٫٩ ./. فمعناه أن هذا البلد ليس له وعى ولا حرية بل ولا كرامة إنسانية .

فهل ستسترد مصر الوعى الحر يوماً ؟ لذلك كان لابد لكتاب « عودة الوعى » من أن يكتب فى يوم من الأيام ... وهو لن يكتب قبل أن يفتح ملف الحقيقة ... كل الحقيقة .

من يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ حتى الوقت الحاضر ...

توفيق الحكيم

الأحد ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٢

كلمة

لم يكن فى عزمى ولا نيتى الإذن بنشر هذه الصفحات يوم كتبتها . كان دافعى إلى كتابتها فى ذلك اليوم من عام ١٩٧٢ هو انقضاء عشرين عاماً على ثورة ١٩٥٢ وتأملى هذه الفترة من تاريخ بلادى ، والجو من حولى مكفهر بالأحداث الأليمة ، والصدور منقبضة بكابوس الهزيمة ...

جعلت أسترجع ماوعته ذاكرتى من صور الثورة ومن صلتى بها ، وأحاسب نفسى من خلال محاسبتى لها . ولم أطلع أحداً على هذه الصفحات . أردت أن أدسها بين أوراق الخاصة وأحتفظ بها احتفاظى بشىء يخصنى وحدى ، واعتبرتها مذكرات ليست بعد للنشر ، تحدد على الورق مشاعرى الشخصية تجاه تلك الحقبة من عمرى . وهذا ما فعلته ... لأن مواقف أهل الرأى التى يجب أن تعلن هى التى تكون أثناء الأحداث وفى صميمها — إذا استطاعوا — وليس بعدها ... أما إذا كان الأمر تدويناً لذكريات ومراجعة لأمس ومحاسبة لنفس فإن هذا لا يمكن بالضرورة أن يكون إلا بعد زوال الأحداث . ولذلك بقيت هذه الصفحات خطية مطوية ، إلى أن شاءت ظروف فى مناسبة من المناسبات أن أطلع عليها صديقاً قديماً أثق به كل ثقة . فاستأذننى فى استخراج نسخة من هذه المخطوطة يحتفظ بها لنفسه . وكان أن استنسخها على آلة كاتبة . وإذا بعدد من النسخ قد تسرب . ثم تكاثر وانتقل فى الخفاء من يد إلى يد . إلى أن خرج الأمر كله من يدى ، ولم أحفل كثيراً بما حدث ويحدث ، لأن الأصل المكتوب بخط يدى هو فى حوزتى دائماً ، وليس على ما نشر توقيعى ولا إمضاى . ولكن الأمر استفحل حتى وجدت ذات يوم مجلة فرنسية محترمة قد نشرت ترجمة غير كاملة عن نسخة من تلك النسخ المتسربة .

وأرادت مجلة أخرى فى أوربا أن أصرح لها بالنشر فرفضت، ورضخت لإرادتى .
وأخيراً علمت أن إحدى الجرائد فى لبنان قد نشرت عن النص الفرنسى غير الكامل ترجمة عربية بعيدة عن الأصل أسلوباً ومضموناً . ثم جاءنى أكثر من ناشر يطلب نشر الأصل الكامل باسمى وأسلوبى فى جريدة أخرى ثم إخراجها فى كتاب . وهنا عزمت على أن أقاضى قانونياً كل أولئك الذين نشروا هذه الصفحات المبتسرة للترجمة بدون علمى وإذنى ونسبوها إلىّ . ولكن بعد التروى واستشارة الأصدقاء من أهل الفكر والرأى اتضح أن للقاضاة قد تحمل معنى الإنكار لهذه الصفحات بما فيها من رأى وهذا الإنكار ليس فى نظرهم من شيمتى ، لأنهم يعرفون عنى من قديم أنى لم أنكر قط شيئاً كتبته ، أو حتى لم أكتبه ونسب إلىّ واعتقدته ووجدته يمثل رأيى . واتفقوا على أن أصرح بالنشر ما دام النشر قد وقع بالفعل ، وأن من حق الناس أن يطالعوا ما أكتبه فى السر أو فى العلن ، لأن القلم والفكر فى رأيهم ملك الناس جميعاً وليس ملكاً خاصاً محبوساً على صاحبه . وهذا صحيح . وهذه عقيدتى أيضاً . فحامل القلم والفكر مسئول عن تبليغ الناس بما يراه . حتى وإن كان غير مسئول عن صحة الرأى . فهو ليس بمعصوم من خطأ التقدير أو خداع النظر أو سوء الفهم أو سلامة الحكم أو حجب مصادر العلم . ولكنه مسئول دائماً عن الصدق والإخلاص فى الرأى كما استطاع أن يراه ... على أنى وقد أذنت أخيراً بنشر هذه الصفحات على الملأ أحب أن يفهم الناس من ذلك أنها آرائى وشهادتى أمام ضميرى . ولا أحب أن تؤخذ على أنها موقف سياسى أو حكم نهائى ، على العكس ، إنى أطالب فيها بالبحث المنصف والتحقيق الدقيق والكشف عن الحقيقة ، بعد فتح ملف هذه الفترة بأكملها .

إن المهمة الكبرى لحامل القلم والفكر هى الكشف عن وجه الحقيقة ...

كلمة الطبعـــة الثـانية

بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذى يتناول قيام « الثورة المباركة » الذى جاء ذكرها فى مقدمة « شجرة الحكم » ، ونشرت بعد هزيمة ١٩٦٧ ووفاة عبد الناصر بإسم « عودة الوعى » ، غضب الناصريون فى مصر وخارج مصر ، وهاجوا وماجوا كما لو كانت الناصرية ديناً مقدساً لا ينبغى للمساس به ، وكما لو أن عبد الناصر فوق مستوى البشر ، ليس لمخلوق أن يحاسبه على خطأ . ولو كان شخص جمال عبد الناصر هو المقصود لكان من واجبنا التسامح ، ولكنت أنا أول المطالبين بالترحم على ذكراه وعدم إزعاجه فى مثواه . ولكم كنت أود أن يكون هذا هو موقفى نحو شخصه واسمه . ولكن عبد الناصر ليس شخصاً واسماً . إنه فترة حكم طويل دمغ مصر كلها بطابع معين . ولم يزل هذا الطابع من بعده يدمغ لحم مصر كأنه الوشم الذى يطمس معالم ما تحته . وتمر الأيام وتطلع الأجيال ولا تعرف ما تحت هذا الوشم ولا ما كان قبله ولا ما سيكون بعده . إذن على مصر أن تتوقف عن النمو السياسى والفكرى والاجتماعى ، لأنها لا تعرف ولا تريد أن تكشف حقائق هذه الفترة من الحكم الفردى المطلق . كان لابد إذن من فتح ملف ثورة ١٩٥٢ بأ كملها ورؤية الحقائق إذا أردنا لمصر أن تنهض على قدميها وتسير بنفسها فى طريق التقدم . وليس من الضرورى بعد فتح الملف أن نحاكم ونعاقب . هذا ليس بالهدف المنتج . إن أهم هدف من هذا الذى أسميه « فتح الملف » هو فتح

العيون على الأخطاء والكوارث حتى نتجنبها ونحن نبنى مصر من جديد ، وحتى لا نسمح لكائن من كان بتكرارها . ثم فتح الأذهان على ما قيل إنه مكاسب وإنجازات لنفحص قيمتها الحقيقية ونتائجها الفعلية ، لأن هذه الفترة المليوءة بالأكاذيب اختلطت فيها الشعارات الفارغة الرنانة بما قد يكون قد نتج حقاً من منافع .

ولكن الناصريين . أى الراكبين على حصان عبد الناصر ، لسبب أو لآخر ، يفزعون من مجرد ذكر الملف وفتحه . لماذا ؟ أترك الجواب لفطنة من يحب الحقيقة ويريد لبلاده أن تبنى على الصدق . وليس له غرض أو مرض . ولن أكف عن المطالبة بفتح الملفات وكشف الحقائق مهما يسخط الساخطون .

ولقد رأيت أن أطلع قارىء هذه الطبعة على نموذج من رد الفعل (فى ختام الكتاب) مشفوعاً بردى ، توضيحاً للمواقف ، راجياً من كل مواطن أن يضع مصلحة وطنه فوق كل اعتبار ...

سؤال صحفي

(مجلة المصور — القاهرة)

« بعض الأقلام التى انبرت تهاجمكم ... لم تتعرض لصلب ما جاء فى الكتاب... ولقد واجهتم أنتم التساؤل المطروح ... لماذا لم تتكلم وقتها؟ بإجابة لها وجاهتها ... قلتم إن الظروف لم تكن تسمح لأى واحد أن يجد منبراً لنشر وجهة نظره ... وكذلك لم تكن جسامة بعض ما حدث قد أتيح لنا معرفة أبعادها .

هذا معقول ... ولكن ... ألم تكن تبدو ثمة ظواهر كان يجب أن نقف فى مواجهتها ؟

رد توفيق الحكيم

— إن التجاء الأقلام التى تكتفى بمهاجمتى دون التعرض لصلب الوقائع هو اعتقاد خاطىء بأن التجريح الشخصى يمكن أن يستر ويخفى حقيقة الوقائع . ولكن لابد أن تنكشف يوماً الحقائق . لأن شخصى زائل أما ما يمس الأمة فهو باق . أما لماذا السكوت حتى اليوم فكل من يوجه هذا السؤال يعلم علم اليقين السبب فى ذلك . وإذا فرضنا أن السكوت عن الجريمة كان ذنباً فما قولهم فيمن ارتكب الجريمة ؟ أنترك من ارتكب الجرائم ونحاسب من سكت عنها ؟ حاكموا الاثنين على الأقل . أما محاسبة الناقد الذى سكت والتستر على المجرم

الذى أجرم ، فهذا له معنى آخر ووصف آخر وسبب آخر . ومن الحق سؤالك «ألم تكن تبدو ظواهر كان يجب أن تقف فى مواجهتها ؟» فعلا قد كانت هناك ظواهر دفعتنى إلى مواجهتها بالوسائل التى كانت فى يدى . من ذلك ظاهرة خنق الحرية وإعطاء القانون أجازة . وهنا رأيت من واجبى أن أكتب «السلطان الحائر» لأوضح وجوب احترام القانون والحرية والابتعاد عن استعمال السيف والعنف . وجاءت هذه العبارة تحذيراً للحاكم : « إن السيف يفرضك ولكنه يعرضك . أما القانون فهو يحرجك ولكنه يحميك » . إن الذى يحمى الحاكم حقاً هو القانون والحرية ، وأما الخطر الذى يمكن أن يتعرض له فهو فى السيف الذى يظن أنه يحميه . وكتبت « السلطان الحائر » عام ١٩٦٠ عندما بدأت هذه الظاهرة فى التكشف . ثم بدت ظاهرة أخرى فى عام ١٩٦٦ . وهى ظاهرة القلق فى المجتمع المصرى التى تفشت إلى حد أصبح المجتمع فيه كأنه يعيش بغير عمود فقرى . مجتمع رخو هلامى متميع لا يصلح لمواجهة أى قوة خارجية . وخشيت فى ذلك الوقت من عواقب أى مغامرة عسكرية غير محسوبة اعتماداً على جبهة داخلية قلقة رخوة مريضة . فكتبت « بنك القلق » محذراً . ولكن على الرغم من كل ذلك فلم يؤخذ بهذه الكتابات وهذه التحذيرات وللواجهات إلى أن وقع المحظور .

نموذج من « السلطان الحائر »
المنشور فى عهد عبد الناصر(*)
(القانون والسيف)

الوزير : ... سوف يقال إنك حطمت القانون والشرع فيه ... وسوف يصبح (القاضى) هو الرمز الحى لروح الحق والمبدأ ... ورُبّ شهيد مجيد له من التأثير والنفوذ فى ضمير الشعوب ما ليس لملك جبار من الملوك ! ...

السلطان : « يكظم » لعنة الله ...

الوزير : لا تنله هذا المجد يا مولاى على حساب الموقف ! ...

(*) قد يبدو غريباً أن يسمح عبد الناصر نفسه بنشر وتمثيل هذا التحذير له من استعمال السيف بدل القانون ، وهو المقصود بالطبع . وفى وقت كان فيه نظامه يمارس ذلك . وهو ما دعانى فى « عودة الوعى » إلى وصف عهده بمصادرة الحريات وخنق الكلمة ... تفسير ذلك هو أنه يجب التفريق بين شخص عبد الناصر وبين طابع نظامه ... فعاطفة عبد الناصر نحوى وثقته بى وعلمه بموقفى المستقل عن كل الاتجاهات السياسية طول حياتى ، واستقبالى المتحمس للثورة ... كل هذا جعله يمتنع عن مس أى كلمة أكتبها أو أقولها بل ويقف إلى جانبى دائماً ، حتى عندما هاجمنى بعض الأدباء فقد بادر وقلدنى وساماً من أرفع أوسمة الدولة ... لذلك يؤلمنى دائماً أن أقف هذا الموقف : بين المحب لشخصه والناقد لنظامه ...

السلطان : وما العمل إذن ؟ ... إن هذا الرجل يضعنا فى مأزق ... ويخيرنى بين أمرين ، كلاهما مر : القانون الذى يظهرنى ضعيفاً ويصيرنى أضحوكة ، أو السيف الذى يصمنى بالوحشية ويجعلنى بغيضاً ! ...

الوزير : « يتجه إلى القاضى » يا قاضى القضاة ! ... كن لينا ميسراً ... ولا تكن صلباً معسراً ! ... قف معنا فى منتصف الطريق ، وأوجد لنا حلا وسطاً ، واجتهد معنا فى البحث عن مخرج معقول ! ...

القاضى : ما من مخرج معقول سوى القانون ...

الوزير : نطرح السلطان للبيع فى المزاد ؟ ! ...

القاضى : نعم ! ...

الوزير : والذى يرسو عليه المزاد ويشتريه ؟ ...

القاضى : يعتقه فى الحال ... فى مجلس العقد ... هذا هو الشرط ؟ ! ...

الوزير : ومن ذا الذى يقبل أن يخسر ماله على هذا النحو ؟ ! ...

القاضى : كثيرون ... أولئك الذين يفتدون حرية السلطان بأموالهم ! ...

الوزير : إذن ... لماذا لا نقوم نحن بأداء هذا الواجب ... أنا وأنت ... ونفتدى سلطاننا بأموالنا الخاصة سراً ... ونفوز نحن بهذا الشرف ؟ ! ... أليست فكرة صائبة ؟ ! ...

القاضى : كلا مع الأسف ... سراً لايجوز ... القانون صريح ... إنه ينص على أن كل بيع لأملاك بيت المال يجب أن يتم علناً ، وفى مزاد عام ! ...

السلطان : « للوزير » لاتتعب نفسك معه ! ... إنه مصر على فضيحتنا ! ...

الوزير : « للقاضى » وأخيراً يا قاضى القضاة ؟ ... أما من حيلة تخرجنا من هذه الورطة ! ...

القاضي : حيلة ؟ ! لست أنا الذي يطلب إليه البحث عن الحيل ! ...

السلطان : بالطبع !... هذا الرجل لا يبحث إلا عما فيه تحدينا وإذلالنا !...

القاضي : لست أنا بشخصي يا مولاي ! ... إن شخصي الضعيف لا شأن له في الأمر كله ! ولو كان الأمر بيدي ومتعلقاً برغبتي لما كان أحب إليّ من أن أخرجكم من هذا الموقف على خير ما تشتهون ! ...

السلطان : يا للضعيف المسكين !... الأمر ليس بيده ... بيد مَنْ إذن ؟ ...

القاضي : القانون ...

السلطان : نعم هذا الشبح الذي تختفي وراءه لتخضعني ، وتفرض عليّ إرادتك ، وتظهرني أمام الناس في هذا المظهر المضحك الواهن المهين ! ...

القاضي : بل لتظهر بمظهر الحاكم المجيد ! ...

السلطان : أترى من علامات المجد أن يعامل سلطان معاملة السلعة والمتاع ، ويباع في الأسواق ؟ ! ...

القاضي : إنها لمن علامات المجد فعلا يا مولاي أن يخضع سلطان للقانون كما يخضع له بقية الناس ...

الوزير : إنه لجميل حقاً يا قاضي القضاة أن يطيع الحاكم القانون كما يطيعه المحكوم ... ولكن في هذا مجازفة كبرى ... إن سياسة الحكم لها أساليبها ، وحكم الناس يتطلب وسائل أخرى ...

القاضي : إني لا أفقه شيئاً في السياسة ، ولا في مهنة حكم الناس ! ...

السلطان : إنها مهنتنا نحن ... دعنا إذن نمارسها بوسائلنا الخاصة ! ...

القاضي : إني لم أغل يديك يا مولاي ... إن لك مطلق الحرية في أن تمارس حكمك كما تشاء ! ...

السلطان : حسن ! ... إنى أرى الآن ما يجب على فعله ! ...

الوزير : ماذا أنت صانع يا مولاى ؟ ...

السلطان : أنظر إلى الشيخ ! ... أتراه يحمل سيفاً فى منطقته ؟ ... كلا بالطبع ... إنه لا يحمل غير لسان فى فمه يديره بكلمات وعبارات ، وإنه ليحسن استخدام ما يملك بحذق وبراعة ، ولكنى أنا أحمل هذا ! « يشير إلى سيف » وهو ليس من خشب ، ولا هو لعبة من اللعب ! ... إنه سيف حقيقى ، وينبغى أن يصلح لشىء ، ويجب أن يكون لوجوده سبب ... أتفهمون كلامى ؟ ! ... أجيبوا ! ... لماذا قدر لى أن أحمل هذا ؟ ! ... ألازينة أم للعمل ؟ ! ...

الوزير : للعمل ! ...

السلطان : وأنت أيها القاضى ... لماذا لا تجيب ؟... أجب !... أهو للزينة أم للعمل ؟ ! ...

القاضى : لأحدهما ...

السلطان : ماذا تقول ؟ ...

القاضى : أقول لهذا أو لذاك ! ...

السلطان : ماذا تعنى ؟ ...

القاضى : أعنى أن لك الخيار يا مولاى السلطان ... لك أن تجعله للعمل ، ولك أن تجعله للزينة ... إنى معترف بما للسيف من قوة أكيدة ، ومن فعل سريع وأثر حاسم ، ولكن السيف يعطى الحق للأقوى ، ومن يدرى غداً من يكون الأقوى ؟ ... فقد يبرز من الأقوياء من ترجح كفته عليك ! ... أما القانون فهو يحمى حقوقك من كل

عدوان ، لأنه لا يعترف بالأقوى ... إنه يعترف بالأحق ! ...
والآن فما عليك يامولاى سوى الاختيار بين السيف الذى يفرضك ولكنه يعرضك ، وبين القانون الذى يتحداك ولكنه يحميك ! ...

السلطان : « مفكراً لحظة » السيف الذى يفرضنى ويعرضنى ، والقانون الذى يتحدانى ويحمينى ؟ ! ...

القاضى : نعم ...

السلطان : ما هذا الكلام ؟ ! ...

القاضى : الحقيقة الصريحة ...

السلطان : « يفكر مردداً » السيف الذى يفرض ويعرض ؟ ! ... والقانون الذى يتحدى ويحمى ! ؟ ! ...

القاضى : نعم يا مولاى ! ...

السلطان : « للوزير » يالهذا الشيخ اللعين ! ... إن له عبقرية نادرة فى أن يوقعنا دائماً فى الحيرة ! ...

القاضى : إنى ما صنعت يا مولاى غير أن طرحت عليك وجه المسألة ، وعليك أنت الاختيار ! ...

السلطان : الاختيار ؟ ! ... الاختيار ؟ ! ... ما رأيك أنت يا وزير ؟ ! ...

الوزير : أنت الذى يبت فى هذا يا مولاى ! ...

السلطان : إنك لا تعرف أنت أيضاً ، فيما أرى ! ...

الوزير : فى الواقع يا مولاى ، إن ...

السلطان : إن الاختيار صعب ؟ ! ...

الوزير : حقاً ...

السلطان : السيف الذى يفرضنى على الجميع ، ولكنه يعرضنى للخطر ... أو القانون الذى يتحدى رغباتى ولكنه يحمى حقوقى ! ...

الوزير : نعم ...

السلطان : اختر لى أنت ! ...

الوزير : أنا ؟ ! ... لا ... لا يا مولاى ! ...

السلطان : مم تخاف ؟ ...

الوزير : من العواقب ... عواقب هذا الاختيار ... إذا اتضح يوماً أنى اخترت الطريق الخطأ ! ... ويالها يومئذ من كارثة ! ...

السلطان : لا تريد تحمل التبعة ؟ ! ...

الوزير : لست أجرؤ ... وليس من حقى ! ...

السلطان : لا بد من البت فى النهاية ...

الوزير : ما من أحد غيرك يا مولاى يملك حق البت فى مثل هذا الأمر ...

السلطان : حقاً ... ما من أحد غيرى ! ... ولن أستطيع التهرب من ذلك ... أنا الذى يجب عليه أن يختار ، ويتحمل تبعة الاختيار ! ...

الوزير : أنت مولانا وحاكمنا ! ...

السلطان : نعم ، وتلك ساعتى المخيفة ! ... الساعة المخيفة لكل حاكم ! ... ساعة يصدر القرار الأخير ، القرار الذى يغير مجرى الأمور ! ... ساعة ينطق بذلك اللفظ الصغير ، الذى يبت فى الاختيار الحاسم ! ... الاختيار الذى يقرر المصير ! ...

« يفكر ملياً ، وهو يقطع المكان جيئة وذهاباً ، والكل ينتظر نطقه ... والصمت يخيم لحظة ... »

السلطان : « وهو مطرق فى تفكيره » السيف أم القانون ؟! ... القانون أم السيف ؟! ...

الوزير : إنى مقدر يا مولاى دقة موقفك ! ...

السلطان : ولا تريد مع ذلك أن تعيننى برأى ؟! ...

الوزير : لا أستطيع ... أنت فى هذا الموقف صاحب الرأى وحدك ! ...

السلطان : لا مفر إذن من أن أقرر بنفسى ! ...

الوزير : هو ذاك ...

السلطان : السيف أم القانون ؟ ! ... القانون أم السيف ؟ !... « يفكر لحظة ، ثم يرفع رأسه بقوة » حسن ... لقد قررت ...

الوزير : أوامرك يا مولاى ! ...

السلطان : قررت أن أختار ... أن أختار ...

الوزير : ماذا يا مولاى ؟ ...

السلطان : « صائحاً فى عزم » القانون ! ... اخترت القانون ! ...

نموذج من « بنك القلق »
المنشور فى عهد عبد الناصر

المجتمع الاشتراكى

أدهم : وماذا يهم ؟ ... مادام الخطيبان سعيدين ! ...

الزبونة٨ : وكلام الناس ياحضرة ؟ ! ... كيف تستطيع بنتى أن تواجه صديقاتها وبنات خالتها وعمتها ؟ ! . كل واحدة دخلت بجهاز فخم ... فكيف تنزل بنتى إلى المستوى الذى لا يليق بها ؟ !

أدهم : نحن الآن فى مجتمع اشتراكى .

الزبونة٨ : مجتمع إيه ؟ ! .

(تظهر بالباب الخطيبة وخلفها الخطيب ...)

الخطيبة : أنت هنا يا ماما ؟

الزبونة٨ : تعالى يا بنتى ... تعال يا دكتور ! ...

أدهم : تفضلوا ... أهلا وسهلا ! . (يشير إلى مقعدين)

الخطيبة : التفتنا فلم نجدك خلفنا . سألنا البواب قال إنه رآك تدخلين هنا ... ...

الزبونة٨ : هنا يا بنتى يعالجون القلق ... وانت عارفة أنا دماغى انفجر ...

الخطيبة : لكن هذه مسائل خاصة يا ماما ...

الزبونة ٨ : انهم لا يعرفون من نكون ... لم أذكر أسماء ... نحن مجرد ناس نشكو من الحالة ... وربما كان غيرنا كثيرين مثلنا ...

أدم : اطمئنوا ... نحن هنا لا نتدخل فى خصوصيات ... ... ولكننا بقدر الإمكان نحاول التخفيف من متاعب الناس .

الخطيب : اسمح لى أسأل ... ما هى طريقتكم فى ذلك ؟

أدم : ليس لنا طريقة ... هذا مكان يأتى إليه من يريد أن يتكلم ... مجرد الكلام فيه أحياناً راحة وتفريج ...

الخطيب : (للسيدة) ولكنك يا تيزة كنت تستطيعين الكلام معنا نحن فى البيت ... !

الزبونة ٨ : هذا ماحصل . وجدت أمامى لافتة عليها كلمة القلق رحت داخلة...

أدم : حصل خير على كل حال . ولنعتبر أنفسنا الآن جميعاً أفراد أسرة واحدة ... ما هو الضرر فى أن نتحدث عن متاعبنا ؟ ...

الخطيب : لا توجد متاعب بالمرة . خلاف غلاء الأسعار المطرد ... وهذه ظاهرة عامة فى الدنيا كلها . وتعليلها معروف .

أدم : طبعاً سيادتك أدرى منا ... الست قالت إنك تحمل دكتوراه .

الخطيب : نعم . فى الاقتصاد .

أدم : وفى الاقتصاد السياسى بالذات .

الخطيبة : وله مؤلفات فى الاشتراكية .

أدم : أيضاً ؟ . الدكتور إذن اشتراكى صميم .

الخطيبة : طبعاً . وأنا مثله . أليس كذلك يا شكرى ؟

الخطيب : بالفعل .

أدم : عظيم ...

نموذج آخر من « بنك القلق »

(اشتراكية بدون روح)

الزبونة : كان كل أملى أن أراها فى عش الزوجية هذا الشهر ... لكن الشقة والجهاز ...

أدهم : يظهر أن الست الكبيرة تريد الشقة والجهاز من مستوى لائق .

الزبونة٨ : طبعاً يا سيدى ... أنا قلت لك الظروف .

الخطيبة : أى ظروف يا ماما ؟ ...

الزبونة٨ : مستواك العائلى ياسميرة ... بنت خالتك تحية ... انت عارفة بأى جهاز دخلت السنة الماضية ... أول شىء ستفعله عندما تزورك فى مسكن الزوجية هو أن تنظر إلى جهازك حجرة حجرة ونقارن ...

الخطيبة : فعلا . هذا أول شىء ستفعله تحية .

الزبونة٨ : ليست وحدها . الجميع .

أدهم : الجميع ؟!؟ لا ... أنا أظن الدكتور لا يهمه مستوى الجهاز .

الزبونة٨ : كيف لا يهمه ... الدكتور قام بدفع مهر محترم علاوة على علب الملبس التى سيقدمها ... من آخر نوع حسب المتفق عليه .

أدهم : وهل من الضرورى علب الملبس ؟

الزبونة٨ : ما هذا الكلام الذى تقوله يا حضرة ؟! ... هذا أهم شيء ! ... علب للبس ... لأنها هى التى فى عيون الناس ... بعد الشبكة ... والشبكة والحمد لله كانت تشرف .

أدهم : ورأى الآنسة ؟ ...

الخطيبة : رأيى أن خطيبى تام ويقوم بكل الواجب .

أدهم : ورأى الدكتور أن علب للبس والشبكة حاجات ضرورية الآن ؟!... فى هذا المجتمع الجديد ؟!!

الخطيب : والله هذه ... عادات .

أدهم : عادات برجوازية ! ...

الزبونة٨ : ماذا تقول حضرتك ؟ طبعاً ضرورية ... حضرتك غرضك تحرض الدكتور على عدم إحضار علب للبس ؟! .

أدهم : أستغفر الله ... أنا حرضته ؟!

الزبونة٨ : اسمع يا حضرة أنت !. علب للبس أهم شيء ... ولابد تكون من أحسن صنف ... عيب تضحك علينا الناس على الأواخر ... أنت لا تعرف من حولنا ... ولسانهم الطويل ...

أدهم : أنا سحبت كلامى ... أرجوك يا دكتور أحضر للبس من أحسن وأفخر صنف !... هذا مجتمع برجوازى داخل قماط اشتراكى ! اشتراكية قوانين ولوائح . وليست بعد اشتراكية روح!... أحضر للبس والعلب من أغلى نوع !

الزبونة٨ : هذا ماكان سيفعله بالطبع . أليس كذلك يا دكتور ؟ ...

نموذج آخر من « بنك القلق »
المنشور فى عهد عبد الناصر
(الاشترأسمالية)

أدهم : ما دام الأمر كذلك فلماذا التحرى عن موقفى ؟

منير : لمجرد العلم بالشىء ليس إلا . ما دمنا سنعمل معاً ، من الطبيعى إذن أن يعرف كل منا موقف الآخر .

أدهم : وهل نحن تحرينا عن موقفك ؟

منير : موقفى أنا واضح .

أدهم : وضح لنا أكثر . إذا سمحت .

منير : أنا طبعاً ... اشتراكى .

أدهم : اشتراكى برجوازى .

منير : بالضبط .

أدهم : أو برجوازى اشتراكى .

منير : تمام .

أدهم : أو يمينى يسارى . اشترأسمالى !

منير : ماذا تقول ؟

شعبان : أرجوكم ... أرجوكم ... هل هذه التحريات والأوصاف والتعريفات لازمة لعملنا هنا؟ لها دخل بشغلنا؟!

منير : لا يا أستاذ شعبان . وأنا سبق قلت إن كل هذا لمجرد العلم بالشيء . لا أكثر ولا أقل . لمجرد معرفة كل منا أفكار الآخر . ونحن كلنا في الواقع متفقون ومن مبدأ واحد . وموقفنا واحد . وكل شيء على ما يرام .

شعبان : اطمئن يا منير بك من جهتنا اطمئن!

منير : أنا مطمئن . ومن نعم الله أننا نسير على سياسة كل شيء يمشي مع بعضه ما دام الجميع مع الدولة ونحن كلنا مع الدولة والحمد لله .

كلمة فى ذكرى عبد الناصر

(جريدة الأهرام — ١٩٧٤/٩/٢٨)

« والرأى عندى فى علاج كل هذا أن الأمر فيه موكل بتغيير عام ، يحدث فى محيط المجتمع المصرى من جميع نواحيه السياسية والخلقية والدينية . فلا المدرسة ولا البيت بمستطيعين الآن شيئاً كبيراً فى إصلاح ما فسد . لأن الفساد جاء من عاصفة جائحة لمبادىء شوهت وأسىء فهمها هبت فجأة على هذا البلد فقلبته كما رأينا شر منقلب . فالأمر أجل وأخطر من أن يعالج بالعلاجات الوضعية . إنما هى عاصفة أخرى جائحة من المبادىء الصحيحة السليمة ينبغى أن تهب فتقيم ما وقع وترم ما انهدم . ولكن المعضلة هى : كيف ومتى تأتى العاصفة المباركة ؟ فى رأيى أنها لا تأتى بغير اعداد واستعداد ، كما جاءت العاصفة الأولى الهوجاء . فلقد دخلت تلك العاصفة خلسة من النافذة التى فتحها جهاد طويل مجيد وحركة وطنية مجيدة . وهنا يأتى دور البيت والمدرسة فى الاعداد والاستعداد ، عليهما يقع عبء تفهيم الشباب أن هذه الحال التى هم عليها لا يمكن أن تدوم ، وأن عليهم أن يستعدوا لإصلاح ما بأنفسهم . على البيت والمدرسة الاكثار من تذكير الشباب بالمثل العليا القويمة والمبادىء الخلقية السليمة وأن يعرضا عليه عيوبه وعيوب الجيل وأمراض العصر ، وأن يقنعاه بأنه هو المنوط به يوماً اصلاح كل هذا الفساد وإحداث الثورة المباركة التى تقيم الوطن على أقدام الصحة والقوة والنظام ... »

(هذه صفحة من كتابى « شجرة الحكم » المنشور عام ١٩٤٥)

وبعد هذا الكلام بضعة أعوام جاءت « الثورة المباركة » ثورة يولية ١٩٥٢ . وكان من الطبيعي أن استقبلها بالحماس وبالدهشة . فقد تحققت نبوءتي . كأنما كنت أخط سطور المستقبل للوطن . وقامت بعض انجازات مما كنا نطالب به من تحقيق العدالة الاجتماعية وتحديد الملكية والسير في طريق الاشتراكية . وظهر عبد الناصر وتبلورت شخصيته على أنه محط الآمال . وتوثقت بيني وبينه أواصر المحبة القلبية ، على البعد ، فلم نتقابل طوال حياته أكثر من دقائق معدودة ونحن وقوف . ولم يحدث أن جلسنا معاً أو جمعنا مجلس طويل . ولكنه كان ، كما بلغني ، يقدرني ويكاد يعتبرني أباً روحياً للثورة التي تنبأت بها ودعوت إليها . وهذا الجانب الشخصي سأظل دائماً أحتفظ به في قلبي وأحمل له في أعماق نفسي أجمل الذكرى .

إن الجانب الشخصي هو حقي ، ولكن الجانب العام هو حق الوطن .
وعند ما كتبت في الأربعينيات عن ضرورة قيام « ثورة مباركة » كان الدافع هو إصلاح حال الوطن . ولقد أعطينا الثورة من تأييدنا ولعبد الناصر من حبنا وحماسنا ما كان كفيلاً بأن يرفع بلادنا إلى أعلى مستوى في الحضارة والرخاء وكانت آمالي هي أن أرى الأمية في بلادنا قد اختفت ، وجحور الطين التي يسكنها الفلاح المصري ولا مرحاض فيها ويقبول ويتبرز كالحيوان في الخلاء قد زالت ، وأصبح يعيش ويسكن كالآدميين . وأن العامل المصري قد خصصت له المستشفيات النظيفة وأنشئت لأوقات فراغه هو وعياله النوادي الرياضية المفيدة ، وارتفع في المستوى الاجتماعي إلى درجة أمثاله في البلاد المتقدمة . والشعب كله ينعم بما تنبأنا له على يد « الثورة المباركة » من الوقوف على أقدام الصحة والقوة والنظام ... إلى أي حد وبأي نسبة ظفر الشعب بهذه المكاسب ؟ في رأيي أن ما تحقق له من مكاسب الثورة لا يزيد على عشرة في المائة مما توقعنا له . وقد أتفاءل وأزيدها إلى عشرين أو ثلاثين في المائة . دفعنا فيها

من حرياتنا ووعينا وأرواحنا وأموالنا أبهظ الأثمان ... على كل حال كانت آمالنا فى الثورة أكبر مما تحقق حتى الآن ... ...

لقد حكم عبد الناصر البلاد بمفرده حكماً مطلقاً نحو خمسة عشر عاماً كان يستطيع خلالها أن يرسي البلاد على دعائم اشتراكية صحيحة وديمقراطية سليمة، تجنى ثمارها الحقيقية لا شعاراتها الظاهرية . فما الذى حدث ؟! لا شك أنه كان يريد الخير لشعبه . ولكن الذى حال دون تحقيق هذا الخير طائفة من الموانع والعلل والأسباب والمعوقات . ما هى بالضبط ؟ لابد أن نعرف كل ذلك حتى نجد العلاج ونستأنف المسير على هدى ونور . من أجل هذا طالبنا وسنظل نطالب بفتح الملف...

لست أدرى لماذا الغضب والارتياع والتشنج والتمزع عند بعض الناس لمجرد ذكر الملف وخص الملف ! أهو خوف شخصى من شىء لا يراد كشفه ؟ أهو نوع من عبادة الفرد اعتادوا عليه وتعتبر من الكفر المساس به ؟ أهو تدهور فى التربية الوطنية ، لا يفرق بين المناقشة والتهجم ! من طول ما ألف الناس أن الخلاف فى الرأى يؤدى إلى المعتقلات ! ؟

« اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية » حكمة قديمة . حبذا لو فهمها الناس وعملوا بها . ففى مجال السياسة هى قمة النضج . وفى محيط العلاقات الشخصية هى مجلبة لراحة النفس وحرية النظر . ولست أدرى ما المانع أن أحب شخص عبد الناصر حب الصديق وأنقد أعماله العامة نقد المواطن ؟ لماذا نخلط دائماً بين الود والرأى ، وبين المشاعر الشخصية والمواقف العامة وتعتبر كل نقد خصومة خاصة . ويوم كتبت رداً على رأى قيل إنه الأستاذ هيكل دهش من كان يعلم بما كان بيننا من مودة وحسبوها خصومة شخصية ، ولم يعرفوا أننا دائماً نختلف فى الرأى إذا جمعنا مجلس ، وأعنف عليه أضعاف العنف الذى قرأوه ، ثم لا نلبث أن نأخذ أحدنا بذراع الآخر ونمضى نتناول الطعام معاً ، بنفس صافية ومودة راسخة ...

هناك بالفعل حجة جديرة بالنظر هي الزعم بأن نقد ثورة ١٩٥٢ أو المساس بالناصرية ردة تهدد مكاسب الشعب وتعود بنا إلى الوراء . إذا كان ذلك صحيحاً فهي بالفعل كارثة . وإذا كان معنى ذلك ومؤداه أن نقدس تسبيح بحمد الثورة والناصرية وتتغنى بمكاسب نقتنع بها ونقنع أنفسنا بكمالها ونعمى عن نقصها ولا نطالب بالمزيد منها وبإصلاح ما فسد فيها . فهي كارثة أخرى ...

على الشعب إذاً وعلى الشباب بالأخص أن يختار : بين الاقتناع والعبادة أو الطموح والحرية ، بين عبادة الفرد التي تعميه عن التفكير والنظر أو الطموح الحر إلى مستقبل متسع الآفاق ...

أقول الشباب لأني وجهت إليه كلامي وعلقت عليه آمالي منذ ثلاثين عاماً في تفجير « الثورة المباركة » . ولم يخب ظني في شباب ذلك العهد ، فقد قامت بالفعل تلك الثورة والقائمون بها شباب . وأنا اليوم شيخ مرشح للموت في أي لحظة ، ولا مطمع لي ولا أمل في شيء . وكان الأجدر بي أن أجلس مستريحاً أنتظر النهاية في هدوء . فما الذي يدفعني إلى كل هذا الذي أفعله الآن ؟ إنه ولا شك وضع خاص بي أجد نفسي فيه . هو أني المتنبيء والداعي إلى « الثورة المباركة » ... وكان عليّ أنا أن أجيب عن هذا السؤال : هل حققت هذه « الثورة المباركة » كل الآمال والأحلام التي كان ينتظر منها أن تحققها للوطن ؟ ... لذلك كتبت « عودة الوعي » يوم مرور عشرين عاماً على قيام هذه الثورة ...

كل هذا حق الوطن علي . أما حق الحب الشخصي والمودة الخاصة فإنه يقتضي مني أن أذكر بالخير رجلاً حافظ على مودتي طول حياته ، ولم أملك نفسي يوم وفاته من ذرف دمعة صادقة . وكلما حل يوم الذكرى لرحيله دعوت له من أعماق القلب بالرحمة والغفران .

هكذا تكلم عبد الناصر
من العالم الآخر

ثورة ناصر تستقبل اليوم عامها العشرين بغير ناصر هذا ما يردده الناس اليوم ولا شك أجمعون . ولكن وجود الجسد ليس هو كل الوجود . ولا هو بالأمر المهم فى حياة الخالقين . إن الخالق موجود دائما فى عمله وهو يعيش حياة هذا العمل ... ويعرف أن حياة عمله تطول بالتغذية المستمرة ، وتزهو وتجمل بالأثواب المتجددة ، وتضيء وتتوهج بمشاعل التطويرات المبتكرة . وهو يطل دائما بروحه المرفرفة فوق عمله ، وكأنه يقول للناس : « إياكم أن تدعوا عملى يذبل بالاهمال أو يخمل بالتجميد . شذبوا من أغصانه الصفراء ، وألقوا بجذوره فى ناره الخامدة . أتموا من عملى ما لم يتم ، وقوموا منه ما لم يستقم . ولا تتوهموا أن عملا من الأعمال التى يقوم بها الإنسان أو تبدعها الطبيعة يمكن أن يصل إلى الكمال . فالطبيعة تصحح نفسها باستمرار وتعدل وتبدل فى ثمراتها طبقا لدواعى البيئة والمناخ . إن الكمال هو قبر الأعمال . وما دامت هناك حياة أى حركة أى تغيير فلا بد من بحث هذه الأعمال المحبوسة فى قبر كمالها لتنفض عنها قليلا تراب القداسة لتنهض وتمشى باحثة عن الثياب الملائمة للعصور الجديدة ... كونوا على ثقة أن تخليد الأعمال القديمة هو فى بعثها بصورة جديدة . وليس فى تركها بغبارها . فالأعمال الزائلة هى التى لا تنفع الناس ولا تبقى فى الأرض مهما ترفع بها الهتافات

والشعارات . والأعمال الزائفة هى التى تخدع الناس مهما تملأ أبصارهم بالأضواء المثيرة الخلابة ... وإذا كانت هذه الثورة اليوم تستقبل عامها العشرين ، عمر فتاة نضجت لاستقبال حياة مقبلة باسمة لها بالسعادة ، فإنى لست بالبعيد عنها .

وكل الذى أخشاه وأراه المحطم لكل أمل فى الانتفاع بثورتنا (ثورة ١٩٥٢) أو (الناصرية) كما تريدون تسميتها ، فهو تقديسها التقديس الوثنى الذى يحرم كل بحث فى سلبياتها . إن فيها سلبيات بالطبع وبالضرورة ككل موجود فى هذه الدنيا ... وفيها انجازات لابد أن يعاد فحصها لتبين ما يظل يصلح وما يجب تعديله ... وأخطر سلبيات ثورتنا هو قلب المجتمع الى « مجتمع سلبى » باعتماده على الحكومة فى كل شىء وانتظاره من السلطة أن تفكر وتتحرك له ... إذا كنتم تريدون لى بقاء واعملى نفعا فاحلموا الشجرة « الناصرية » بورق جديد أخضر يحل محل الورق الذابل الأصفر ... والويل كل الويل إذا استمر التقديس الوثنى للشجرة القديمة بورقها القديم ... هكذا أنصحكم الآن ... »

هكذا تكلم عبد الناصر ... بروحه التى أسمعها ...

محاضر التحقيقات

من واقع فتح الملفات والوثائق

لما كان كتابي «عودة الوعي» هو فى الأصل انطباعات وتساؤلات ودعوة إلى فتح الملفات ، لمعرفة الحقيقة عن فترة من تاريخ بلادنا ، فإن هذا الكتاب هو خطوة فى طريق عودة الوعي إلى الأمة بمعرفة شيء من الحقيقة التى حجبت عن كثير من الناس . وذلك من واقع وثائق رسمية . فمن استطاع الحصول على وثيقة من الوثائق هو الذى يستطيع أن يسهم بالفعل، لا بالكلام فى إلقاء الضوء على فترات التاريخ . فما وعى الأمة إلا تاريخها المتصل الواضح . لأن التاريخ هو ذاكرة الأمة . ومن يفقد ذاكرته يفقد وعيه . وحصيلة الذاكرة صفحات الماضى والحاضر ، بما فى هذه الصفحات من وقائع وحقائق . فإذا كانت بعض هذه الصفحات مبتورة أو مستورة فإن ذاكرة الأمة تصبح هى الأخرى وقد بترت وسترت فتعيش الأمة بغير وعيها الكامل ... وها هى ذى صفحة منسية ووثيقة مطوية لها دلالتها ولها فائدتها فى توضيح بعض الأمور والمواقف .. إنها رسالة طويلة إلى عبد الناصر . ثم التحقيقات التى أجرتها النيابة العامة حول هذه الرسالة... أما الرسالة فقد كتبتها بمناسبة تعيين الصحفى محمد حسنين هيكل وزيراً ، ونقله بذلك من مجال القلم إلى كرسى السلطة . وأردت أنا أن أجعل من هذه المناسبة وسيلة لإفهام الرئيس عبد الناصر أن البلاد وهى تعانى أزمة نفسية شديدة بعد هزيمة ١٩٦٧ أصبحت لا تصدق ما يصدر عن الجهات الحكومية ، لأن أزمتنا هى أزمة ثقة . ولذلك فإن الأقلام

الحرة المستقلة هي وحدها التي تستطيع أن تعالج نفسية الرأي العام · ولكن هذه الرسالة أصبحت موضع تحقيقات كما هو مبين في ملفات التحقيق الرسمية هذه ... ومنها يتضح كيف أن هذه الرسالة على الرغم من صيغتها الودية وصراحتها المخلصة ونصحها الأمين لم تكن محل ترحيب ، بل كانت موضع ضيق . بل لقد توقع لها أحد المستجوبين سوء العاقبة ، كما هو مبين في صفحة ١٩ من التحقيق ، حيث قال : « هو فعلاً كان الكلام عن رسالة الحكيم اللي أرسلها للريس والكلام ده حصل فعلاً وأقصد منها أن ما كانش فيه داعي لإرسال هذه الرسالة ما دام هيكل كان حيقابله ويشرح له المسألة ، وإن الريس هيتضايق من هذه الرسالة وحايضرب الاربعة اللي تناقشوا فيها وهم لطفي ونوال وتوفيق الحكيم » (لطفي هو لطفي الخولي ونوال هي سكرتيرة هيكل) إلى أن قال في نفس الصفحة : « وأقصد أنه يضر بهم لأنهم سمحوا أن الرسالة دي توصله ودي حليطة ... » .

إذن الشعور في ذلك الوقت هو أن من يتشجع ويرسل إلى الرئيس بنصح يعتبر عمله غير لائق ويتوقع له الضرب . ولما كانت رسالتي قد أرسلت بواسطة زوج كريمة الرئيس عبد الناصر وهو حاتم صادق الموجود معنا في تحرير الأهرام ، فقد حاول المحقق أن يعرف هل كان حاتم صادق يعلم بمضمون هذا الخطاب (صفحة ١٢ من التحقيق) ثم هل كان السيد حاتم صادق مؤيداً لما كتبه توفيق الحكيم ؟ (صفحة ١٣) ثم سأل المحقق بعد ذلك لطفي الخولي عما إذا كان سمع أو علم » أن السيد توفيق الحكيم أرسل هذا الخطاب إلى السيد الرئيس — عرضنا عليه صورة الخطاب — فأجاب بما نصه في التحقيق صفحة ٥٦ « اطلعت على هذا الخطاب الآن وأقرر أن هذه أول مرة أرى فيها هذا الخطاب . فلم يحدث أنه عرضه عليّ الأستاذ توفيق الحكيم من قبل ، وأنا أقرر أن الأستاذ توفيق الحكيم كان قد أبلغني برغبته في كتابة خطاب للرئيس وطلب مني مستحلفاً أن لا أذكر ذلك لأحد .

وهذا هو كل ما لى من علاقة بهذا الخطاب . والذى أذكره على وجه التحديد أن السيد / توفيق الحكيم قال لى انه عايز يوصل رأيه إلى سيادة الرئيس (صفحة ٥٧) ولم يحدد لى الطريقة بدقة . ولا أذكر بالدقة أنه قال لى الطريقة اللى عايز يوصل رأيه بها إلى السيد الرئيس . وأنا قلت له إذا كان هذا فيمكن بخطاب أو بمقابلة إذا أمكنك تحديد ميعاد ولكنه لم يحدثنى عن ما سيكتبه فى الخطاب . والأستاذ توفيق الحكيم فى غنى عن القول بأنه من المؤمنين إيماناً عميقاً وقوياً بالثورة وبقيادة عبد الناصر شخصياً وهو دائماً يتحدث عن ذلك حتى أنه يذكر أنه يسمى عبد الناصر عودة الروح بالنسبة إلى مصر وذلك نسبة إلى كتابه الوطنى المعروف « عودة الروح » ... ثم سأله المحقق (صفحة ٥٩) : « هل عرض عليك السيد توفيق الحكيم مضمون هذه الرسالة أو الأفكار التى تضمنتها » فأجاب لطفى الخولى (صفحة ٦٠) : « لا ولكن أنا خمنت أنها آراؤه والتى سبق أن ذكرها » وسأله المحقق : ألم يكتب السيد توفيق الحكيم هذه الرسالة فى حضورك ثم ألم تطلع عليها قبل إرسالها ؟ فأجابه بالنفى ثم سأله المحقق عما إذا كانت نوال الحلاوى (سكرتيرة هيكل) قد اطلعت على هذا الخطاب وقرأته مرتين وصورته ؟ وأن زوجها عطية البندارى « قرر فى التحقيق أنه فى هذه الزيارة ذكرت زوجته نوال أنها صورت الرسالة التى أرسلها السيد / توفيق الحكيم إلى الرئيس قبل إرسالها (صفحة ٦٢) . ثم سأله المحقق (فى صفحة ٦٣ و ٦٤) عمن طلب منه عدم ذكر موضوع الرسالة . فأجاب بما نصه : « أظن توفيق الحكيم باعتبار أنه مش مقرر انه يرسل الرسالة من عدمه على أساس أنها كانت مجرد رغبة منه » . وعاد المحقق فسأله : « تقرر أنك تظن أن الذى ذكر ذلك هو السيد توفيق الحكيم فهل يفهم من هذا الظن أنه من الجائز أن يكون شخصا آخر هو الذى طلب منك عدم إذاعة إرسال هذه الرسالة ؟ فأجاب لطفى الخولى : « أعتقد أن اللى قال لى هو توفيق الحكيم وبالفعل نفذت طلبه . ومجرد لفظ

الثلن الذى ورد فى إجابتى السابقة يأتى من خلال أن هذا الموضوع مر عليه مدة من الزمن ولم يكن يحتمل كل ما أراه الآن من تحقيق وسجن وأنا نفذت رغبة السيد توفيق الحكيم الذى أعتبره أستاذ جيلنا » وعندما سأله المحقق عما إذا كان السيد هيكل قد طلب منه عدم إذاعة إرسال خطاب من السيد توفيق الحكيم إلى السيد الرئيس » أجاب أنه لا يتذكر . ثم ضيق المحقق عليه الخناق (فى صفحة ٦٩ من التحقيق) على الوجه الآتى :

س : قرر أيضاً عطية البندارى (زوج نوال سكرتيرة هيكل) أنه أثناء الزيارة (زيارة نوال وزوجها لمنزل لطفى وزوجته) ذكرت أنت أو نوال الحلاوى أن الخطاب الذى حرره السيد توفيق الحكيم سيرسله السيد / حاتم صادق .

ج : بالنسبة لى أنا لم أذكر هذه الواقعة . وبالنسبة لنوال فلم أسمعها أيضاً تذكر ذلك أثناء الزيارة .

س : وكيف أرسل إذن السيد / توفيق الحكيم الرسالة للسيد الرئيس ؟

ج : معرفش .

س : هل علم أحد آخر بواقعة إرسال الرسالة ؟

ج : أنا شخصياً معرفش .

س : وما الذى كان يبغيه السيد / توفيق الحكيم من إرسال هذه الرسالة ؟

ج : هو كان غرضه توضيح وجهات نظره على ما أعتقد .

س : ألم يكن يعبر عن رأى أحد آخر ؟

ج : لا أعتقد ذلك .

س : ولماذا وافقته أنت على إرسال هذه الرسالة عندما عرض الفكرة عليك ؟

ج : أنا أعتقد أن أى كاتب يعبر عن وجهة نظره فى خطاب إلى السيد الرئيس أمر مستحب وأعتقد أن الرئيس يرحب بذلك . ولذلك عندما عرض علىّ فكرة إرسال خطاب إلى السيد الرئيس وافقت على هذه الفكرة .

س : عندما وافقت على هذه الفكرة هل كنت تعلم مضمون الرسالة التى سيرسلها إلى السيد الرئيس ؟

ج : معرفش المضمون لأن السيد توفيق الحكيم لم يطلعنى على الرسالة ولم أقرأها وبالتالى لا أعرف ما فيها ... (صفحة ٧٠ من التحقيق)

س : اطلعت على صورة الخطاب الذى أرسله السيد توفيق الحكيم للسيد الرئيس — أثناء التحقيق — فهل الأفكار التى وردت فيه هى الأفكار التى عرضها عليك السيد / توفيق الحكيم عندما وافقته على إرسال هذا الخطاب ؟ — عرضنا عليه الخطاب للاطلاع عليه مرة ثانية بناء على طلبه ...

ج : اطلعت على الخطاب الآن وأقرر أن ما ورد فى هذا الخطاب هو تحليل شخصى للسيد / توفيق الحكيم لم يأخذ رأيى فيه (صفحة ٧١ من التحقيق) وإنما هو تحدث معى فقط فى أمر مبدأ إرسال خطاب إلى السيد / الرئيس يتضمن كيفية مراعاة الوضع فى الأهرام بعد تعيين السيد / هيكل وزيراً للإرشاد كى يستمر الأهرام فى أداء دوره بالنسبة للبلد وللمعركة فى الداخل والخارج وأنه يضع هذا الرأى تحت نظر السيد الرئيس .

س : ألا تذكر أن حديثاً دار فى هذه الزيارة (زيارة عطية البندارى وزوجته نوال فى منزل لطفى الخولى وزوجته يوم ١٩٧٠/٤/٢٨) عن موضوع هذه الرسالة التى أرسلها السيد توفيق الحكيم للسيد الرئيس ؟

ج : جايز يكون حصل كلام عن موضوع الرسالة أثناء هذه الزيارة مع نوال المحلاوى باعتبارها أنها تشتغل معايا فى الأهرام وعلى علم بالموضوع ، ولكن لا أذكر إذا تم هذا الحديث أم لا ، ولا مضمونه .

س : هل تذكر أن هذا الحديث قد صدر من نوال المحلاوى أثناء الزيارة ونصه : توفيق الحكيم بيقول لى القلم ده فيه سحر لما كتبت به ما شطبتش حاجة خالص (صفحة ٧١ و ٧٢ من التحقيق) ولا غيره فعلاً ولا غيره ولا كلمة وبعدين أنا قرأته فتوفيق الحكيم قعد يبص فيه لغاية ما خلصته وسكت وقال لى إيه بأه ؟ إنتى شايفة إيه بأه قلت : الحقيقة أنا يا توفيق بيه ، أنا حاقرأه مرة ثانية علشان أقول لك رأيى . قال : كده طيب اسقى أصلك انت قارئة حرة فقلت له : متشكرة قوى على الثقة دى على الله تنفعنى طبعاً — وطلعت صورت الجواب» .

ج : جايز يكون صدر منها هذا القول ولكن حقيقة لا أتذكر لأنى لا أريد أن أظلم أحداً .

ملحوظة : (صفحة ٧٢ من التحقيق) .

كلفنا الرائد محمد حسن اسماعيل بالقسم الفنى بإدارة المباحث العامة لإحضار جهاز تسجيل فأحضر جهاز تسجيل داخل غرفة التحقيق وقمنا بفض حرز الشريط المسجل وسلمناه إليه وطلبنا منه إدارة الجهاز على ما جاء بالصحيفة ٢٥ من تفريغ إدارة المباحث العامة على لسان نوال المحلاوى بخصوص واقعة قراءتها الخطاب وتصويرها له وبعد أن استمعنا مع المتهم إلى الحديث السالف وتبين أنه يطابق ما ورد بالتفريغ - سألنا المتهم عما إذا كان الصوت الذى سمعه خاص بنوال المحلاوى فقرر أنه لا يستطيع أن يقطع لأن الصوت غير واضح ولست خبيراً بالأصوات ولا أدرى ما موضوع هذا التسجيل وطبيعته ومشروعيته القانونية .

تمت الملحوظة   رئيس النيابة : توقيع

وهكذا استمر التحقيق على هذه الصورة كما هو مبين فى وثائق التحقيقات الرسمية للنشورة فى آخر هذا الكتاب، على قدر ما استطعت الحصول عليه . وهى واضحة الدلالة على حقيقة الحكم البوليسى للسيطر على البلاد . وإذا كان كل هذا الضيق والتضييق لمجرد رسالة شخصية ودية مهذبة إلى الرئيس عبد الناصر، حاولت أن أجعلها فى طى الكتمان على قدر الإمكان ، حتى تؤدى الغرض منها... فى هدوء — وهو توصيل رأيى إلى الرئيس وإسداء النصح إليه ، فما الذى كان يمكن أن يفعل ويقبل فى مثل هذه الحالة ؟ ها أنذا لم أسكت . ولم أنتظر حتى يأتى اليوم من يسأل : « لماذا سكت ؟ ولماذا لم تتكلم وتقل له رأيك وهو حى ؟ » ها أنذا قد قلت له رأيى فى حالة البلد والشعب وما هو فيه من حيرة وقلق وبلبلة فكر وأزمة ثقة وانتا دون غيرنا من البلاد التى مرت بمثل هذه الأزمة انفردنا بالعلة دون العلاج ، لأننا اعتمدنا على أجهزة حكومية لا يصدقها أحد ، وأن الثقة هى فى الأقلام المستقلة ....قلت له ذلك بأرق أسلوب فى رسالة شخصية ، فماذا كانت النتيجة ؟ نتيجة رسالة صادقة أمينة من كاتب يحبه ويقدره ويتمنى له الخير ويريد أن يساعده على إدراك خطورة للوقف وما وراءه من علاج . كانت النتيجة عدم احتمال ذلك ، ووضعت هذه الرسالة الشخصية الأمينة الناصحة موضع هذه التحقيقات وما أدت إليه من سجن الذين ضبط عندهم شريط التسجيل الذى سجل به هذه الأحاديث والمناقشات حول هذه الرسالة . حتى السيدات وضعن فى السجن مع أزواجهن . فقد سجنت نوال المحلاوى سكرتيرة محمد حسنين هيكل وزوجها عطية البندارى كما سجن لطفى الخولى مع زوجته . ودام سجنهم جميعاً أكثر من ستة شهور بدون محاكمة . ولولا الحياء على الأقل لكبر سنى وحسن نيتى لكنت قد وضعت معهم جميعاً فى السجن .

نص

رسالة توفيق الحكيم إلى عبد الناصر

(وهى الرسالة موضوع التحقيق)

سيادة الرئيس

سمحت لنفسى أن أكتب إليكم هذا الخطاب الخاص لما لى من صلة قلم بجريدة الأهرام باعتبارها المنبر الذى ينطلق منه صوت بلادنا فى أرجاء الأرض. ودفعنى إلى ذلك ما علمت به فى أمر تعيين الأستاذ محمد حسنين هيكل وزيراً للإرشاد . ولثقتى الوطيدة بسداد رأيكم فقد تقبلت الخبر بشىء من التفكير وجعلت أقلب الأمر على مختلف وجوهه . وتمهلت قليلاً فى قبول ما يلوكه الناس من تعليقات ، ربما كان أكثرها صادراً ممن يهمهم إضعاف هذا المنبر وإخفات صوت يعتقد أنه منبعث من صميم القلب الوطنى والقومى . مهما يكن من أمر فهناك حقيقة لم أستطع لها دفعاً : هى أن جريدة الأهرام باستقلالها وبما فيها من أقلام حرة يثق بها الناس قد استطاعت وتستطيع دائماً أن تشيع فى النفوس الثقة والأمل ، وبهذا الاتجاه الذى سارت فيه فى طرح الحقائق —حتى المؤلم منها— ثم الإيحاء مع ذلك بروح التفاؤل ، بعيداً عن أى توجيه رسمى ، قد هيأها لهذه المهمة الفريدة فى وقتنا الحاضر ، وجعل منها الأداة الفعالة فى تنوير الرأى العام والتأثير فيه دون الانتجاء إلى الشعارات المفتعلة التى مجها الناس من أجهزتنا الرسمية . وهذه الأجهزة الرسمية الإذاعية لها عذرها . ولا ينتظر منها أن تفعل أكثر مما تفعل . لأن الناس لا تصدق غالباً ما يصدر عن جهاز حكومى . وهنا الأزمة الحقيقية يا سيادة الرئيس . أزمتنا

اليوم هى أزمة ثقة . والحالة النفسية التى يمر بها شعبنا اليوم هى الحيرة والقلق وبلبلة الفكر . وكل شعب فى مثل وضعنا مر بهذه الحالة ولكن علاجها دائماً كان فى وجود الثقة . لأن أصواتاً ومنابر حرة كان يعرف منها كل شىء بحجمه . أما نحن فقد انفردنا بالعلة دون العلاج . لأننا اعتمدنا على أجهزة الدعاية الرسمية وحدها . جهاز واحد كان يرجى منه العلاج : هو « الأهرام » الحر . وكان الناس فى مصر والعالم العربى بل وخارج هذه البلاد ينتظرون كل جمعة مقال « بصراحة » ليعرفوا حقائق ما يجرى من خلال أسطر لا تنتمى إلى جهة رسمية ، ولكنها تكشف عن الصدق الذى يريده الناس ، على قدر الإمكان .

أتصور الآن ما يجرى يا سيدى الرئيس إذا فقدت الأهرام هذه الصفة . ما الذى سيبقى للناس ؟ أبواق إذاعة وتلفزيون لا تقبل إلا لأغانيها ! ... وكل نشاط لهذه الأجهزة فى مجال الرأى سيأتى بعكسه . لأن الناس لا تريد الآن أن تصدق إلا ما يصدر بعيداً عن السلطة .

صدقنى يا سيادة الرئيس إن جريدة كالأهرام بأقلامها المستقلة تستطيع أن تعالج نفسية الرأى العام بأفضل مما تستطيع وزارة من الوزارات . ولا أقولها دفاعاً عن زميل . فالموقف أجل وأخطر من أن أنظر إليه من زاوية شخصية . إنما هو الحق الذى أراه ونحن نجتاز مرحلة حرجة من تاريخنا ، على كل مواطن فيها أن يكون صريحاً .

فاعذرنى يا سيادة الرئيس إذا أقحمت نفسى وكتبت إليكم لأول مرة بما بدا لى فى هذا الشأن الهام . وإنى لعلى يقين دائم بحكمتكم وحبكم لبلادكم بما تريدون لها وتعملون من أجل حريتها ونهضتها .

وتفضلوا يا سيادة الرئيس بقبول أصدق آيات التقدير والإجلال .

توفيق الحكيم

من محاضر التحقيق (*)

محضر آخر

فتح المحضر يوم الأحد ١٩٧٠/٥/١٧ الساعة ١٢ ظهراً بإدارة المباحث العـــامة .

بالهيئة السابقة

حيث انتقلنا لإدارة المباحث العامة لمواصلة التحقيق . وكنا قد نبهنا بإحضار عطية البنداري عبد العزيز ، وقد دعوناه ، وسألناه بالآتي قال :

إسمى عطية البنداري عبد العزيز (سابق سؤاله)

س : هل ذكر أحد أمامك أن السيد / توفيق الحكيم قد عرض الخطاب الذى أرسله للسيد الرئيس عليه قبل إرساله ؟

ج : لأ — محدش قال أمامى إنه شاف الجواب — إنما كان كلام لطفى على أساس إنه سمع به

س : ألم يذكر أحد أمامك أن الأستاذ توفيق الحكيم عرض هـذا الخطاب على السيدة زوجتك قبل إرساله .

ج : لأ — وأنا أحب أكرر أنى بعيد كل البعد عن عمل زوجتى بالصحافة ولا دخل لى فيه إطلاقاً ، وحتى لو فيــه أخبار أنا باقبلها ، وحتى لم أكن أذهب إلى حفلة بها صحفيين لأنى باستمرار باشعر أنى غريب عن هذا الجو ، وكانت موضوع زيارتى للطفى فهى أساساً كانت زيارة

(*) فى نهاية الكتاب يجد القارىء الصور الزنكوغرافية لهذه الصفحات المأخوذة من ملف التحقيق ونرجو أن يلاحظ القارىء أن هذه الصفحات ليست متصلة أحياناً . وإنما قد اقتصرنا منها على ما يفيد موضوع الكتاب فحسب .

من زوجتى لزوجته ، وكنت متفق معها على أنها ماتتكلمش فى الشغل بعد الظهر عشان تستريح من العمل فنتكلم فى مواضيع بعيدة عن جو عملنا .

س : ألم يتحدث لطفى الخولى عن الحريات عند عرضه لأمر هذا الخطاب فى حديثه أمامك ؟

ج : لأ ، هو مقالش كده — فيما أذكر ، ومكانش فيه مناسبة لهذا .

• • •

ج : أنا اللى أعرفه عن مراتى أنها ما بتعملش حاجة تخشى منها أبداً وبتحب الريس والنظام وأولاده وحاتم صادق فى الأهرام حب شخصى ، ولا تسمح لأى شخص أن يتعرض لهم ، أما لطفى الخولى فاتصالاتى به محدودة .

س : ولم تخش إذن السيدة زوجتك السيد / سامى شرف على ما ذكرت ؟

ج : أنا أقصد من إنها بتخشاه إنها بتعمل له حساب .

س : وهل تذكر أنه جرى حديث بشأن السيد / حاتم صادق أمامك على لسان زوجتك أو لطفى الخولى ؟

ج : أذكر أن أول ما عين حاتم فى الأهرام كانت طلعت إشاعة على إن مرتبه كبير جداً وكانت مراتى تنفى هذا وبتقول إنه بتقول بمرتبه ٦٥ جنيه تقريباً وكانت بتمدح فيـه وبتقول إنه شاب كويس وبيدرس وبيتعمق فى دراساته ، وغير مستغل علاقته بالسيد الرئيس حتى لاتجنى على أى حد ، وكان بيتعاون زى أى واحد عادى . إنما لطفى مقالش عنه حاجة أمامى .

س : ألم يجر حديث عنه فى لقائكم بمنزل لطفى الخولى ؟

ج : أعتقد أن نوال أو لطفى مش فاكر إن الجواب الى كتبه الحكيم حا يوديه حاتم للريس .

س : هل ذكر أيهما أن السيد / حاتم صادق كان يعلم مضمون هذا الخطاب أو أنه اطلع عليه ؟

ج : معرفش .

س : ألم تستفسر عما إذا كان من الممكن أن ينقل السيد / حاتم رسالة إلى السيد الرئيس دون أن يعلم محتوياتها ؟

ج : مسألتش — إنما اعتقادى الشخصى إنه ما دام واحد بينقل رسالة لازم يبقى عارف فيها إيه .

س : ألم يذكر ذلك صراحة أحد أمامك ؟

ج : لا

س : هل فهمت من الحديث الذى جرى أن السيد / حاتم كان مؤيداً لما كتبه الأستاذ توفيق الحكيم ؟

ج : الحقيقة ما أخدش منى هذا التفكير ولم أسأل والقعدة كانت أساساً خاصة مش قعدة شغل والحديث كان أساساً بين نوال ولطفى وأنا لم أتعمق فيه .

س : ألم يذكر أحد أمامك أن السيد / حاتم صادق مرشحاً لرئاسة تحرير مؤسسة الأهرام ؟

ج : أنا سمعت إشاعات بكده ، وانهم شالوا هيكل عشان يجيبوه وأنا شخصياً مكنتش متصور إنه يتشال أو إنه انشال من الأهرام ، ورأيى إن لو كان الريس عاوز يشيله حايشيله ما باخدش غير قرار ويطلع و دى

مش حكاية ، وهيكل ليس له فى رأيى أى قوة غير أنه معروف أن الريس يحبه وده كان رأيى اللى بأقوله .

س : ومن سمعت بهذه الإشاعة التى ذكرتها ؟

ج : أعتقد أنها من خارج الأهرام ومش فاكر مين من الناس اللى قال هذا الكلام ، إنما أجزم أنه مش لطفى ولا نوال هم اللى قالوا هذا الكلام — وخصوصاً إنى كنت متأكد من نوال إن من أول ما صدر قرار بتعيين الأستاذ هيكل وزيراً إن ده علاوة على عمله فى الأهرام .

س : هل تعرف من يدعى على الحلاوى ؟

ج : لأ لم أسمع عليه ، ومعرفش حد اسمه على الحلاوى .

س : ألا تذكر أنه فى يوم توجهك لزيارة لطفى الخولى فى منزله أنه كان ...

* * *

... ولطفى هو اللى بيقول إن الرقابة بتضايق .

س : ورد بهذا الحديث ما يفيد إنه دار حديث بين لطفى الخولى والأستاذ توفيق الحكيم عن انعدام الحريات فى البلاد .

ج : أبوه هو قال كده زى أنا ما سمعت الآن .

س : ولم لم تذكر ذلك عند سؤالك ؟

ج : أنا مكنتش فاكر والقعدة كلها كانت خاصة ولم يعلق بذهنى أى شىء منها — ومكانش لها أهمية خاصة ، إنما اللى حصل فعلاً هو المكتوب فى الورق واللى سمعته الآن فى التسجيل .

ملحوظة :

طلبنا من المختص إدارة التسجيل على التفريغ الوارد فى صفحة ١٢

من تفريغ إدارة المباحث العامة الذى دار فيه الحديث بين الأربعة المجتمعين عن السيد الرئيس والذى ورد فيه رأى خالد بالنسبة لقبول الأستاذ حسنين هيكل الوزارة ، والأسباب التى دعت إلى أن يكتب الأستاذ توفيق الحكيم بالذات خطابه لسيد الرئيس ، وقد تم إدارة الشريط على ما ورد بصفحتى ١٢ و ١٣ والجزء الأول من ١٤ ، وأقر المتهم بأن هذا الحديث جرى بالفعل على لسان الأربعة السابق بيانهم ، وأن الذى قصده لطفى الخولى بخالد هو السيد / خالد محيى الدين .

تمت الملحوظة .   رئيس النيابة

التوقيع

س : هل فهمت من حديث لطفى الخولى إلى من أبدى السيد/خالد محيى الدين رأيه فى قبول الأستاذ حسنين هيكل الوزارة ؟

ج : اللى فهمته إن خالد قال الكلام ده للطفى كرأى ، ومعرفتش منه إذا كان بلغ هيكل بهذا الرأى أو لأ .

س : ورد بالحديث المسجل على لسان لطفى الخولى أن الأستاذ توفيق الحكيم اختير لكتابة الرسالة لظروفه الخاصة ، فهل ذكر من الذى طلب منه كتابة هذه الرسالة من الأشخاص الذين اجتمعوا به وتحدثوا معه فى شأنها .

ج : واضح من التسجيل — وهو مطابق لما حصل ولما دار من حديث على لسان لطفى فيما أذكر — ان لطفى والأستاذ هيكل ونوال كانوا عارفين رسالة توفيق الحكيم قبل إرسالها .

س : معنى ذلك أنك فهمت أن زوجتك كانت على علم بهذه الرسالة ؟

ج : أيوه بحكم منصبها وعملها كسكرتيرة للأستاذ هيكل .

س : ولكنك قررت أنها لم تتحدث بشيء أمامك عن هذه الرسالة ؟

ج : أنا مكنتش متذكر ، وقال إن الرسالة أرسلت للريس فغيش فيها سر .

س : ثبت من التسجيل على لسان لطفى الخولى بعد مغادرتك للنزل أن الأستاذ هيكل طلب منهم أن يقسموا يميناً على عدم البوح بهذه الرسالة لأحد – فماذا تعلل أحاديثهم أمامك عن هذا الأمر .

ج : أنا أعتقد أن دى دردشة ، وأنا معرفش أنهم متفقين ما يقولوش حاجة عن للوضوع ، وواضح من التسجيل إنى كنت باستوضح الحاجات اللى معرفهاش ، إنما كونهم حالفين اليمين أو غيره معرفش عن كده شيء أبداً .

س : وما الذى تقصده من العبارة التى ذكرتها فى صفحة ١٢ ؟ (تلونا عليه العبارة الواردة فى هذه الصفحة على لسانه) .

ج : الكلام كله على ما سمعت كان بيجرى حول الأستاذ هيكل وما إذا كان رفض أو يقبل ، وكان لطفى بيقول انه رفض بطريق غير مباشر ، وأنا ناقشته فى هذا الموضوع ، وقلت عليه انه إذا عوم للسألة يبقى رجل مجنون ، وأقصد بعبارة رجل مجنون انه هيكل يبقى مجنون إذا مشى زى ما بيقول لطفى .

س : ورد فى التسجيل صفحة ١٦ على لسان زوجتك أن السيد / محمد فائق ذكر للسيد الرئيس عند حلفه اليمين أن الأستاذ هيكل أحق بوزارة الإرشاد منه ، وإن تماضر حادثتها فى أمر تعيين الأستاذ هيكل وزيراً .

ج : أيوه – فعلاً أذكر أن زوجتى قالت كده ، وتماضر هى تماضر توفيق ، وكانت بتقولها الله يكون فى عونكم على أساس أن التليفزيون اللى هى موظفة فيه – يحتاج لجهود كبير قوى من الأستاذ هيكل .

س : ومن هو مصطفى الباز الذى ورد إسمه على لسان زوجتك فى صفحة ١٨ من التفريغ ؟

ج : معرفوش ، وهى كانت بتتكلم مع لطفى .

س : ورد بالتسجيل على لسانك فى صفحة ٢٣ عبارة «سواء قعد أو ماقعدش حا يضرب الأربعة اللى قعدوا» . فما الذى تقصده من هذه العبارة «عرضنا عليه التفريغ فى صحائف ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤» .

ج : هو فعلاً كان الكلام عن رسالة الحكيم اللى أرسلها للريس والكلام ده حصل فعلاً ، وأقصد منها أنه ماكانش فيه داعى لإرسال هذه الرسالة ما دام هيكل كان حايقابله ويشرح له المسألة ، وإن الريس حايتضايق من هذه الرسالة وحايضرب الأربعة اللى تناقشوا فيها وهم لطفى ونوال وتوفيق الحكيم .

س : ومن هو الرابع ؟

ج : أنا زى ما قلت الأربعة اللى كانوا موجودين هم لطفى ونوال وتوفيق وهيكل ، وإنما مش فى ذهنى أن الريس حا يضرب هيكل إنما قلت إن الريس حايتضايق ويضربهم أقصد أنه حايضرب الثلاثة ومش هيكل — وأقصد انه يضربهم لأنهم سمحوا أن الرسالة دى توصله ودى جليطة . وقالوا فى الكلام فعلا زى ما قلت فى التحقيق إنهم جابوا حاتم صادق ويسلمها للريس وأنا مفهومى للعملية ان دى مسألة مفيش فيها خيانة لأن دى رسالة بيكتبها توفيق الحكيم وهيكل ولطفى وبيستلمها حاتم عشان يوديها للريس ومش معقول يبقى فيها خيانة .

س : ولم كان القسم إذن على عدم البوح بها ؟

ج : أنا معرفش إن فيه قسم أو حاجة زى كده .

س : ورد على لسان زوجتك أنها صورت هذه الرسالة قبل إرسالها .

ج : أيوه فعلاً أفتكر أنها قالت كده .

س : ولم كان ذلك فيما ذكرت ؟

ج : علشان تحتفظ بها فى أرشيفها لأن باعتبارها سكرتيرة الأستاذ هيكل عندها صور للمستندات الهامة السرية .

س : هل تعرف أن لديها فى المكتب آلة لتصوير المستندات ؟

ج : أنا مش متأكد إنما لازم يكون هذا صحيح بحكم عملها وخصوصاً انهم مطبقين فى الأهرام كل الوسائل التكنولوجية .

س : وما هى أزمة مايو التى تعنيها زوجتك فى حديثها الثابت فى صفحة ٢٥ ؟

ج : فى مايو ١٩٦٨ كان حصل هجوم فى اجتماعات الاتحاد الاشتراكى على الأستاذ هيكل — فكان هيكل واللى معاه خايفين أحسن يكون فيه تعليمات بذلك ، ولكن الريس أنصفه وأوقف هذا الهجوم .

س : وما دخل زوجتك فى هذا الأمر — على ما قررت — فيما تذكر ؟

ج : هى ملهاش دخل فى العملية — إنما بحكم صلتها فى العمل مع الأستاذ هيكل بتتأثر طبعاً بما يحدث له ، وأعتقد أنه فى خلال الأزمة دى فى مايو كان عاوزها تنقل بعض أوراقه الخاصة من المكتب .

* * *

ج : أحب أن أقول انى أصبحت أواجه بمثل — وأنا آسف للتعبير — هذه الاتهامات التى تشبه الحواديت والتى تثير الأسى فى نفس إنسان يعتقد أنه يعمل لصالح بلده ووطنه وقيادته وعمله وأنه لما كان ضد كان ضد ولما أصبح مع أصبح مع . ولم أخف فى يوم من الأيام لا فى

للنافعات ولا الإتصالات آرائى التى أعتقد أنها صادرة عن إيمان بالوطن وتخدم القضية . أما أن يصل الأمر الآن ليس — فقط إلىّ — بل أيضاً إلى زوجتى فلا أدرى ماذا أقول حقيقة —

تمت أقواله ووقع	رئيس النيابة
التوقيع	التوقيع

ثم أعدنا سؤاله بالآتى قال :

إسمى : أحمد لطفى الخولى   سابق سؤاله

س : ما قولك فيما ذكره عطيه البندارى فى التحقيق من أنه أثير فى يوم زارك فيه بالمنزل مع زوجته السيدة نوال الحلاوى حديث حول موضوع السيد / هيكل وزيراً للإرشاد وأنك ذكرت فى هذه الزيارة أن توفيق الحكيم سيرسل بخطاب للسيد / الرئيس يعبر فيه عن رأيه فى هذا الأمر . وأنه يرى من الأفضل بقاء الأستاذ هيكل فى الأهرام فقط وأنه تساءل لماذا توفيق الحكيم بالذات هو الذى يرسل هذا الخطاب فقلت له إن السيد / الرئيس يحبه وأن هذا الموضوع وصل إلى علمك من الأستاذ هيكل أو أن الحديث جرى بشأنه بين الأستاذ هيكل وتوفيق الحكيم بحضورك . « تلونا عليه أقوال عطية البندارى التى أدلى بها بالتحقيق الذى أجراه السيد / صلاح نصار رئيس النيابة » .

ج : أنا لا أذكر شيئاً عن هذا ومع ذلك أريد أن أقول لو صح هذا كله ماذا يعنى هل يعنى هذا نقداً لتعيين هيكل وزيراً هل يعنى انتقاصاً من كرامة أحد هل يعنى تطاولاً على الرئيس هل يعنى خيانة لقضية الوطن . ماذا يعنى. وعلى العموم أنا لا أذكر أن توفيق الحكيم قدم لى

أو ناقشنى أو أن هيكل حدثنى عن خطاب فى هذا الشأن ولا أدرى لماذا يحدثنى هيكل عن خطاب فى هذا الشأن كما لو كان يريد وسيطاً بينه و بين السيد / الرئيس .

س : هل كان هناك اجتماع فى منزلك حضره عطيه البندارى وزوجته ؟

ج : لم يكن هناك اجتماع وإنما كانت هناك زيارة عادية هو وزوجته والكلام فيها كان عادياً يتناول أموراً كثيرة كالدردشات التى تحدث بين ناس يجلسون مع بعضهم ولا أذكر حقيقة هل أثير هذا الموضوع أم لم يثر وأنه إذا كان قد أثير فلا بد أننى ذكرت ما سبق أن قلته فى هذا الشأن فى المحضر وقد قلته علناً فى الاجتماع .

س : هل كانت هذه الزيارة قبل الاجتماع أم بعده ؟

ج : لا أذكر .

س : لماذا يقرر عطية البندارى ذلك ؟

ج : لا أعرف وربما اختلط عليه الأمر .

س وما قولك إذا ما ثبت أن هناك خطاباً أرسله توفيق الحكيم للسيد الرئيس؟

ج : يسأل مرسل الخطاب ويبقى ده دليل على تحرك توفيق الحكيم من مقعده ... وأنه ليس هناك أى جريمة فى أن يرسل أى مواطن خطاباً برأيه فى أى أمر من الأمور إلى الرئيس بل هذا هو المطلوب والذى شجع عليه الرئيس نفسه فى خطاباته .

س : وإذا كان هذا أمر طبيعى ومطلوب فلماذا تصر على إنكاره ؟ .

ج : لأنى لم يحدثنى توفيق الحكيم فى هذا ولا هيكل ولم أر هذا الخطاب.

س : ألم تعلم به من أى مصدر آخر .

ج : لا .

س : ومن أين علم به عطية البندارى ؟

ج : ليس لدى أى فكرة عن ذلك .

س : أليس لديك تعليل آخر حول هذا الموضوع ؟

ج : كل الناس فى الأهرام أثارت أسئلة عن إمكانية هيكل فى التوفيق فى الجهد بين مسئولياته فى العمل كوزير ورئاسة تحرير الأهرام بما فيهم توفيق الحكيم .

س : هل تحدث أمامك توفيق الحكيم عن هذا ؟

ج : لا أذكر وجايز يكون اتكلم .

س : هل تذكر أحاديث دارت بينك وبين توفيق الحكيم بخصوص هذا الموضوع ؟

ج : لا أذكر وذلك بسبب العمل وانى أقول مرة أخرى إذا ثبت كل هذا فما هو وجه الجريمة المنسوبة إلىّ وتساؤلات عادية وتدل على اهتمام أهل البلد .

س : ألديك أقوال أخرى ؟

تمت أقواله ووقع	رئيس النيابة
التوقيع	التوقيع

وأقفل المحضر على ذلك عقب إثبات ما تقدم حيث كانت الساعة ١٢,٥٥ صباح يوم ١٣/٥/١٩٧٠ وقررنا ما يأتى :

أولاً حبس المتهم أحمد لطفى الخولى حبساً مطلقاً على ذمة القضية ويودع بسجن القناطر للرجال .

ثانياً : ندب السيد / رئيس القسم الفنى بإدارة المباحث العامة لتفريغ شريط التسجيل المقدم من هيئة الأمن القومى وينبه عليه بالحضور الساعة ٩ صباحاً لحلف اليمين واستلام الشريط — وتعرض .

رئيس النيابة — التوقيع

فتح المحضر يوم الأربعاء ١٣/٥/١٩٧٠ الساعة ١١ صباحاً بمكتب النائب العام بالهيئة السابقة .

. . . .

. . . .

. . . .

هذا الرأى وسيقال إذا استقلت اننى لا أعمل فى الأهرام إلا مع الأستاذ هيكل وكان ردى أنه بالمنطق إذا جاء رئيس تحرير آخر غير الأستاذ هيكل فمن غير المعقول أنه يعمل مع نفس الطاقم الذى كان يعمل معه رئيس التحرير السابق وأنه لاداعى لإحراج نفسى أو إحراج أى شخص .

س : وما قولك فيما قرره عطية البندارى بعد أن استمع إلى شريط التسجيل أن الحديث الذى استمع إليه خاص به وبلطفى الخولى وأنت وليليان ؟

ج : هو حر وده رأيه ولكن أنا أقطع بأن ده مش صوتى ولا أستطيع أن أميز بقية الأصوات وليس عندى ثقة فى هذا التسجيل .

س : ألديك أقوال أخرى ؟

ج : ليس لدى أقوال أخرى .

تمت أقوالها ووقعت	رئيس النيابة
التوقيع	التوقيع

ثم استدعينا السيد / أحمد لطفى الخولى وسألناه بالآتى قال :

إصمى : أحمد لطفى الخولى   سابق سؤاله .

س : ألم تسمع أو تعلم أن السيد / توفيق الحكيم أرسل هذا الخطاب إلى السيد/الرئيس . « عرضنا عليه صورة الخطاب المرسل من السيد/توفيق الحكيم للسيد/الرئيس » .

ج : اطلعت على هذا الخطاب الآن وأقرر أن هذه أول مرة أرى فيها هذا الخطاب فلم يحدث أن عرضه على الأستاذ توفيق الحكيم من قبل . وأنا أقرر أن الأستاذ توفيق الحكيم كان قد أبلغنى برغبته فى كتابة خطاب للرئيس وطلب منى مستحلفاً أن لا أذكر ذلك لأحد وهذا هو كل ما لى من علاقة بهذا الخطاب والتى أذكره على وجه التحديد أن السيد توفيق الحكيم قال لى أنه عايز يوصل رأيه إلى سيادة الرئيس ولم يحدد لى الطريقة بدقة . ولا أذكر بالدقة أنه قال لى الطريقة التى عايز يوصل رأيه بها إلى السيد/الرئيس وأنا قلت له إذا كان هذا فيمكن بخطاب أو بمقابلة إذا أمكنك تحديد ميعاد ولكنه لم يحدثنى عن ما سيكتبه فى الخطاب والأستاذ توفيق الحكيم فى غنى عن القول بأنه من المؤمنين إيماناً عميقاً وقوياً بالثورة وبقيادة عبد الناصر شخصياً وهو دائماً يتحدث عن ذلك حتى أنه يذكر أنه يسمى عبد الناصر عودة الروح بالنسبة إلى مصر وذلك نسبة إلى كتابه الوطنى المعروف عودة الروح .

س : ولكن سبق أن قررت فى جلسة التحقيق السابقة أنك لا علم لك أن السيد/ توفيق الحكيم أرسل خطاباً للسيد/الرئيس .

ج : هذا صحيح وأنا لا أعرف إذا كان أرسل خطاب أم لا وذلك أن كل ما علمته من السيد/ توفيق الحكيم أن له رغبة فى إرسال خطاب . وأضيف أننى لا أتذكر الآن أن الأستاذ توفيق الحكيم أخبرنى أنه أرسل الخطاب أم لا لأن الموضوع لا أجد فيه أى شىء أن كاتب كبير يكتب خطاب أو يوصل رأيه إلى قيادة البلد لأن هذا هو المفروض والواجب وأنه يجب للكتاب أن يعبروا عن رأيهم للقيادة وأعتقد أن الرئيس يرحب بذلك .

س : ومتى أبدى لك السيد/ توفيق الحكيم رغبته فى إرسال خطاب للسيد/ الرئيس ؟

ج : لا أذكر على وجه التحديد أو الضبط ولكن فى الوقت الذى صدرت فيه التعيينات الوزارية الأخيرة .

س : وما هى المناسبة التى ذكر لك فيها السيد/توفيق الحكيم هذه الرغبة ؟

ج : أنا أذكر أنه فى ذات يوم واحنا فى المؤسسة ، ولا أتذكر فى مكتب من ولكن بالتأكيد كنا فى المؤسسة بدأ الأستاذ توفيق الحكيم حديثه عما إذا كان سيؤثر تعيين الأستاذ هيكل وزيراً على ممارسة عمله فى الأهرام وبالتالى قد لا يجد الوقت الذى كان يعطيه للأهرام مما قد يضعف الأهرام صحفياً وأنه يرى أن هذا يجب تلافيه أو علاجه لما فيه مصلحة البلد والدور الذى يؤديه الأهرام كجهاز إعلامى فى الداخل والخارج خصوصاً مع مراعاة أن الأهرام كانت الدعايات الغربية تقول انها الصحيفة الرسمية وكان يرى أن وجود السيد/ هيكل فى وزارة الإرشاد سوف يعطى مادة لهذه الدعايات وكان رأيى أنا الشخصى أننى قلت له وهو نفس الرأى الذى قلته فى الاجتماع العام فى مؤسسة الأهرام وهو الرأى الذى قلته أيضاً للأستاذ هيكل وأنا أهنئه أن لابد وأن يكون للقيادة السياسية أى للرئيس جمال عبد الناصر أسباباً قوية بناء على رؤيته الشاملة للموقف والتى من موقع مسئوليته الشاملة وهى رؤية لا يمكن أن تتاح لأى أحد منا بهذا الشمول وبالتالى فلا يمكن تقدير كل هذه الأسباب لأنها بالضرورة غير معلومة وتدخل فى نطاق الاستراتيجية السياسية وأن كل ماتمناه هو أن ينجح الأستاذ هيكل بعد نيله لهذه الثقة فى مهمته الجديدة كما نجح فى الأهرام وأن الوقت قد حان ليمتحن نظام الأهرام فى استمراره بنفس الكفاءة مع وجود

الأستاذ هيكل لنصف الوقت فقط ومن خلال هذا الحديث بدأ توفيق الحكيم التفكير مخالفاً لي في هذا الرأى وقال إيه رأيك في أنني أبعث رسالة بوجهة نظرى للسيد/ الرئيس فأنا أجبته وقلت له أعتقد أنه ممكن وأن الرئيس يرحب بأى آراء طالما أنها تصدر عن ناس مسئولين ويحسوا بمسئوليتهم تجاه الوطن وتكون صريحة وليس وراءها منافع شخصية — وأعتقد أن ده يتوفر في السيد / توفيق الحكيم .

س : هل عرض عليك السيد / توفيق الحكيم مضمون هذه الرسالة أو الأفكار التي تضمنتها ؟

ج : لأ ، ولكن أنا خمنت أنها آراءه والتي سبق أن ذكرها .

س : ألم يكتب السيد / توفيق الحكيم هذه الرسالة في حضورك ؟

ج : لأ .

س : ألم تطلع عليها قبل إرسالها ؟

ج : لأ .

س : ألم تكن أنت صاحب هذه الفكرة في إرسال هذه الرسالة .

ج : لأ ، ولكن هو اللي عرض إرسال الرسالة فأنا وافقته وحتى هذا الموضوع مين اللي عرض أنا غير متذكر بالدقة لأنه كان خلال حديث جارى بيني وبينه وعلى العموم فإنه شيء طيب أن يتم اتصال بين الكتاب المؤمنين بالثورة وبين هذه الثورة وأن تكون الصراحة رائدهم فيما يشعرون به من آراء .

س : ومن الذى اشترك معكم في هذا الحديث ؟

ج : أعتقد أنه كان موجود الأستاذ هيكل ونوال كانت بتخرج وتيجي

لأن المكتب كان مفتوح الى كنا قاعدين فيه وهو فى الدور الرابع وبالقرب من مكتب السيد / هيكل .

س : هل اشترك السيد / هيكل فى الحديث الذى دار بينك وبين السيد توفيق الحكيم ؟

ج : الأستاذ هيكل كان موجود واستمع لوجهات النظر وقرر أنه لابد أن يكون مفهوماً أن هذا قرار من القائد إلى جندى فى معركة وعليه أن يطيع وأنه فى نفس الوقت مستمر فى عمله فى الأهرام كما قرر السيد الرئيس نفسه فى القرار الصادر منه بالتعيين وقرر أيضاً أنه يستطيع أن يوائم بين وقته فى العملين خاصة وأنهما من طبيعة واحدة وأنه يرى أن ذلك تكريم للصحافة ككل من الرئيس وليس لشخصه فقط وطلب توضيح ذلك لأى تساؤلات .

س : ألم يعرض السيد / هيكل رأيه بالنسبة لما أبداه السيد / توفيق الحكيم من إرسال خطاب إلى السيد / الرئيس .

ج : حقيقة لم أسمع رأى السيد / هيكل فى هذا الموضوع لأنى تركتهما الاثنين وصعدت إلى مكتبى ولم أعرف بعد ذلك شيئاً عن الموضوع .

س : ولكن هل كان السيد / توفيق الحكيم قد أبدى رغبة فى حضورك بخصوص إرسال خطاب إلى السيد/ الرئيس ؟

ج : أيوه كان أبداها فى حضورى .

س : وما تعليق السيد/ هيكل فى هذه الرغبة فى حضورك وقبل أن تنصرف ؟

ج : أعتقد قال له أنت حر .

س : ألم يعرض السيد / توفيق الحكيم على السيد/ هيكل مضمون الخطاب أو الأفكار التى سيذكرها فى هذا الخطاب .

ج : محصلش أمامي ولكن رأى السيد / توفيق الحكيم معروف بخصوص مدى ما يمكن أن يؤثر وجود هيكل كوزير للإرشاد على دور الأهرام كجهاز إعلامي في الداخل والخارج .

س : وهل كان يعرف السيد/ هيكل الرأي الخاص بالسيد / توفيق الحكيم .

ج : لا أعلم ولكن الحديث الذي سبق أن ذكرته بيني وبين السيد/ توفيق الحكيم كان في حضور السيد / هيكل .

س : ألم تكن نوال المحلاوي موجودة أثناء هذا الحديث ؟

ج : هي باعتبارها سكرتيرة السيد / هيكل كانت بتدخل وتطلع .

س : ألم يطلع السيد / توفيق الحكيم نوال المحلاوي على الخطاب الذي أرسله السيد/ الرئيس ؟

ج : لا أعلم .

س : ألم تطلع نوال المحلاوي على هذا الخطاب وتقرأه مرتين وتصوره ؟

ج : مش فاكر لأن الموضوع كان بالنسبة لي أمراً عادياً يخص كاتب مسئول مع قيادته .

س : هل دار في الزيارة التي تمت يوم ١٩٧٠/٤/٢٨ من عطية البنداري وزوجته لك حديث بخصوص هذا الخطاب ؟

ج : جايز يكون حصل حديث ولكن لا أذكره . وأريد أن أكرر أن هذا الموضوع لم يكن يحتل في ذهني مكان خاص .

س : قرر عطية البنداري في التحقيق أنه في هذه الزيارة ذكرت زوجته نوال أنها صورت الرسالة التي أرسلها السيد / توفيق الحكيم للسيد الرئيس قبل إرسالها ؟

ج : لا أتذكر الآن إذا كانت بوال قالت هذا الكلام من عدمه والموضوع ما أخدش معايا أى معايشة على أساس إن الموضوع خاص بالسيد توفيق الحكيم .

س : ألم تسأل السيد/ توفيق الحكيم فيما بعد عما إذا كان قد نفذ رغبته فى إرسال هذه الرسالة من عدمه .

ج : أعتقد أنه قال لى إنه بعث هذه الرسالة .

س : هل ذكر لك كيف أرسل هذه الرسالة إلى السيد / الرئيس .

ج : لأ .

س : وما هى الظروف التى ذكر لك فيها انه أرسل هذه الرسالة ؟

ج : أنا لا أذكر الظروف ولكن اللى أذكره أنه قال لى فعلاً انه بعث الرسالة .

س : ومتى ذكر لك أنه أرسل الرسالة ؟

ج : لا أذكر ولكن بعد اللقاء الأول اللى أبدى فيه الرغبة فى إرسال الرسالة بيوم أو اتنين .

س : ألم تستفسر منه عن الطريقة التى أرسل بها هذه الرسالة ؟

ج : لأ .

س : ألم يخبرك السيد / توفيق الحكيم أنه أرسل هذه الرسالة مع السيد حاتم صادق ؟

ج : لأ معرفش وهو مقليش .

س : ومن الذى طلب منك عدم ذكر موضوع الرسالة ؟

ج : أظن توفيق الحكيم باعتبار إنه مش مقرر إنه يرسل الرسالة من عدمه على أساس أنها كانت مجرد رغبة منه .

س : تقرر أنك تظن أن الذى ذكر لك ذلك هو السيد / توفيق الحكيم فهل يفهم من هذا الظن أنه من الجائز أن يكون شخصاً آخر هو الذى طلب منك عدم إذاعة إرسال هذه الرسالة ؟

ج : أعتقد إن اللى قال لى هو توفيق الحكيم وبالفعل نفذت طلبه ومجرد لفظ الظن الذى ورد فى إجابتى السابقة يأتى من خلال أن هذا الموضوع مر عليه مدة من الزمن ولم يكن يحتمل كل ما أراه الآن من تحقيق وسجن وأنا نفذت رغبة السيد/ توفيق الحكيم الذى أعتبره أستاذ جيلنا .

س : ألم يطلب منك السيد هيكل عدم إذاعة إرسال خطاب من السيد توفيق الحكيم للسيد/الرئيس ؟

ج : ما أذكرش .

س : هل يفهم من إجابتك السابقة أن يحتمل أن يكون قد ذكر السيد/هيكل ذلك ولا تذكر ؟

ج : حقيقة مقدرش أقول آه أو لأ لأن هذا الموضوع كما قررت من قبل بعد أن تحدث فيه توفيق الحكيم لم يتحدث فيه أحد . ولم يكن موضع تعليق أحد .

س : هل تناولتم بالحديث فى الزيارة التى تمت فى منزلك وحضرها عطية البندارى وزوجته وزوجتك حديثاً عن الحريات ؟

ج : جايز ولكن لا أذكر .

س : قرر عطية البندارى أنك ذكرت فى هذه الزيارة أن حديثاً دار بينك وبين السيد / توفيق الحكيم عن انعدام الحريات فى البلاد ؟

ج : لا أذكر أنى ذكرت لعطية البنداري إن فيه حديث دار بينى وبين

السيد / توفيق الحكيم من انعدام الحريات ولكن جايز أكون قلت لعطية البندارى ولكن لا أستطيع أن أقطع . إن توفيق الحكيم وأنا نفكر فى عمل موضوعات للنشر فى الأهرام لتكون حواراً بين أجيال مختلفة أو أفكار مختلفة وحول قضايا عديدة . وعلى أن يكون اسم هذه الموضوعات حوار .

ملحوظة :

اكتفينا بهذا القدر من استجواب المتهم الآن وأرجأنا استكماله لباكر ...

تمت للملحوظة　　　　　　　　　　رئيس النيابة

التوقيع

وأقفل المحضر على ذلك عقب إثبات ما تقدم حيث كانت الساعة ١٠ر٦ مساءً　　　　　　　　　　رئيس النيابة

التوقيع

فتح المحضر يوم الأربعاء ٢٠/٥/١٩٧٠ الساعة ١٥ر١١ صباحاً . بإدارة المباحث العامة .

لإثبات أننا كنا قد حددنا اليوم لاستكمال استجواب المتهم فدعوناه وسألناه بالآتى قال :

إسمى : أحمد لطفى الخولى　　　　　سابق سؤاله .

س : ما هى فكرة موضوع الحوار الذى تناقشت فيها مع السيد / توفيق الحكيم ؟

ج : أنا طريقتى وأسلوبى أن الاقناع لا يمكن أن يكون عن طريق مجرد مقال يعرض فيه وجهة نظر واحدة للكاتب وينتهى الأمر . وإنما ما يسمى

الآن فى الصحافة العالمية فى الفكر مقالات للمناقشة أو الحوار وعلى هذا الأساس تعرض حول موضوع واحد وجهات نظر متعددة من زوايا مختلفة وهذا يفيد فى عمق فهم الموضوع وتبينه ويشد جمهور القراء بدل من القول بأن هذا أبيض أو أسود وقد اتبعت ذلك فى ما قمت به من اتصالات صحفية من خلال الأهرام كما حدث مع راسل وسارتر وجارودى أخيراً وماكسيم رودنسون وهو أيضاً نفس الأسلوب الذى أتبعه فى تحرير الطليعة نفسه وفى العادة نخصص موضوع نكتب فيه عدة مقالات وثبت أن هذا مفيد ليس فقط بالنسبة للقراء بل بالنسبة للكتاب أنفسهم ويقرب فى النهاية من وجهات النظر بطريق طبيعى وصحى وهذا الأسلوب الذى ذكرته الآن تناقشت فيه مع السيد/ توفيق الحكيم على أن نتبع هذا الأسلوب فى الأهرام وهو أسلوب الحوار وقد رحب السيد/ هيكل بهذه الفكرة كرئيس تحرير للأهرام عندما عرضنا عليه هذه الفكرة أنا والسيد/ توفيق الحكيم الذى كان يوافقنى فى الرأى وهذا ليس جديداً على الأهرام فقد سبق منذ ثلاث سنوات أن أنفقت فيه صفحة لعرض الآراء والأفكار وكلفت بمسئوليتها وأعتقد أنها كانت فكرة ناجحة ولكن لم يكن هناك وقت لتنفيذ هذه الفكرة نظراً لظروف القبض علىّ على ما أعتقد لأن هذه الفكرة كانت منذ أسبوعين فقط على ما أذكر .

س : ولكن يقرر عطية البندارى فى التحقيق أنك ذكرت أثناء الزيارة أن حديثاً دار بينك وبين السيد/ توفيق الحكيم حول انعدام الحريات .

ج : أنا لا أعتقد أن هذه الواقعة حصلت كما أن عطية البندارى ليس الرجل السياسى أو رجل الفكر الذى أتحدث معه فى مثل هذه الأمور وأنا باستغرب هو بيقول حاجة زى دى ازاى .

س : تقرر أن السيد/ توفيق الحكيم طلب منك ألا تبوح بخبر إرسال رسالة منه للسيد/الرئيس فما هي الأسباب التي تدعوه إلى ذلك ؟

ج : الأستاذ توفيق الحكيم طبيعته هو كتمان السر . حتى إذا كتب قصة وستنشر غداً في الأهرام فيقول «أكتم السر ولاتقل لأحد» ومن يعرف طبيعة توفيق الحكيم لايستغرب عليه ذلك ـ وأعتقد بالنسبة لموضوع الرسالة ليس فيه ما يمكن أن يكون فيه ثمة ضرر لأحد لأنها مجرد رسالة من كاتب ومفكر إلى السيد / رئيس الجمهورية وبالتالي فليس هناك أسباب معينة دعت السيد / توفيق الحكيم أن يطلب مني هذا الطلب .

س : ومتى طلب منك السيد / توفيق الحكيم هذا الطلب ؟ وقت إبدائه رغبته في إرساله هذه الرسالة ، أم عندما ذكر لك أنه أرسلها بالفعل ؟

ج : الحقيقة أنا مش فاكر هو قال لي إمتى .

س : ولكن قرر عطية البنداري في التحقيق أنه دارت دردشة تضمنت أن السيد هيكل طلب منك . أن تقسموا يميناً على عدم البوح بهذه الرسالة لأحد .

ج محصلش وليس من طبيعة الأستاذ هيكل ذلك واللى حصل إن السيد توفيق الحكيم هو اللي قال لي فقط ما تجيبش سيرة لأحد عن هذه الرسالة وهو طبيعته كده .

س : ولكنك ذكرت بجلسة تحقيق أمس أنك لا تستطيع أن تقول بالنفي أو بالإيجاب أن السيد / هيكل طلب منك عدم إذاعة إرسال خطاب من السيد / توفيق الحكيم للسيد / الرئيس ؟

ج : إجابتي الآن كانت بالنسبة لحلف اليمين فلم يطلب منا السيد / هيكل

حلف يمين وإنما أنا لا أتذكر أن السيد / هيكل كلمنى فى موضوع الرسالة وإذاعة إرسالها وأريد أن أكرر أن قضية الخطاب لم تكن واردة فى ذهنى ولم أجد فيها أى شىء غير طبيعى أو يضر بأحد أو يسبب إزعاج لأحد .

س : ويقرر عطية البندارى أيضاً فى التحقيق أن رأيك كان أن يرفض السيد هيكل الوزارة بطريق غير مباشر وأنك ذكرت له هذا الرأى فى تلك الزيارة ؟

ج : أنا لا أذكر ذلك لأنى لا أتحدث مع عطية البندارى فى مثل هذه الأمور ورأيى قلته علناً فى الاجتماع العام بمؤسسة الأهرام وحضره الأستاذ هيكل نفسه ورأيى لا يقدم ولا يؤخر فى هذا الموضوع وهيكل نفسه يعتبر أن هذا القرار أمر تكليف من القائد إلى جندى فى معركة .

س : قرر أيضاً عطية البندارى أنه أثناء الزيارة ذكرت أنت أو نوال المحلاوى أن الخطاب الذى حرره السيد / توفيق الحكيم سيرسله السيد / حاتم صادق .

ج : بالنسبة لى أنا لم أذكر هذه الواقعة وبالنسبة لنوال فلم أسمعها أيضاً تذكر ذلك أثناء الزيارة .

س : وكيف أرسل إذن السيد / توفيق الحكيم الرسالة للسيد / الرئيس .

ج : معرفش .

س : هل علم أحد آخر بواقعة إرسال الرسالة ؟

ج : أنا شخصياً معرفش .

س : وما الذى كان يبغيه السيد / توفيق الحكيم من إرسال هذه الرسالة ؟

ج : هو كان غرضه توضيح وجهات نظره على ما أعتقد .

س : ألم يكن يعبر عن رأى أحد آخر ؟

ج : لا أعتقد ذلك .

س : ولماذا وافقته أنت على إرسال هذه الرسالة عندما عرض الفكرة عليك ؟

ج : أنا أعتقد أن أى كاتب يعبر عن وجهة نظره فى خطاب إلى السيد / الرئيس أمر مستحب وأعتقد أن الرئيس يرحب بذلك ولذلك عندما عرض على فكرة إرسال خطاب إلى السيد / الرئيس وافقت على هذه الفكرة .

س : عندما وافقت على هذه الفكرة هل كنت تعلم مضمون الرسالة التى سيرسلها إلى السيد / الرئيس ؟

ج : معرفش المضمون لأن السيد / توفيق الحكيم لم يطلعنى على الرسالة ولم أقرأها بالتالى ولا أعرف ما فيها ولكن من الممكن أن أتصور أن هذه الرسالة تدور حول رأيه فى كيفية عمل الأهرام واستمراره فى دوره الاعلامى بالنسبة لتعيين السيد / هيكل وزيراً وأن هذا سيؤثر على عمله فى الأهرام كما سبق أن ذكرت أمس فى التحقيق كنت قد أوضحت له أن لابد أن يكون القرار قد اتخذ من القيادة السياسية بعد تقدير كل هذه الاعتبارات التى هى بالضرورة غير خافية عنها .

س : اطلعت على صورة الخطاب الذى أرسله السيد / توفيق الحكيم للسيد/الرئيس — أثناء التحقيق — فهل الأفكار التى وردت فيه هى الأفكار التى عرضها عليك السيد / توفيق الحكيم عندما

وافقته على إرسال هذا الخطاب ... « عرضنا عليه الخطاب للاطلاع عليه مرة ثانية بناء على طلبه » ...

ج : اطلعت على الخطاب الآن وأقرر أن ما ورد فى هذا الخطاب هو تحليل شخصى للسيد / توفيق الحكيم لم يأخذ رأيى فيه وإنما هو تحدث معى فقط فى أمر مبدأ إرسال خطاب إلى السيد / الرئيس يتضمن كيفية مراعاة الوضع فى الأهرام بعد تعيين السيد / هيكل وزيراً للإرشاد كى يستمر الأهرام فى أداء دوره بالنسبة للبلد وللمعركة فى الداخل والخارج وأنه يضع هذا الرأى تحت نظر السيد / الرئيس .

س : ألا تذكر الأحاديث التى دارت فى زيارة عطية البندارى ونوال المحلاوى لك يوم ١٩٧٠/٤/٢٨ ؟

ج : أنا مش متذكر وبعد مرضى فى سنة ١٩٦٨ بالقلب لاحظت أنى أنسى تواريخ ووقائع قريبة جداً لدرجة أنى أنسى تاريخ زواجى وتاريخ ميلاد ابنتى وزوجتى مما يسبب لى حرجاً عائلياً كما أنى نسيت فى هذا العام موعد وفاة والدىّ وهذا أول عام لهما .

س : ألا تذكر أن حديثاً دار فى هذه الزيارة عن موضوع هذه الرسالة التى أرسلها السيد / توفيق الحكيم للسيد / الرئيس ؟

ج : جايز يكون حصل كلام عن موضوع الرسالة أثناء هذه الزيارة مع نوال المحلاوى باعتبارها انها تشتغل معايا فى الأهرام وعلى علم بالموضوع ولكن لا أذكر إذا كان تم هذا الحديث أو لا ولا مضمونه .

س : هل تذكر أن هذا الحديث قد صدر من نوال المحلاوى أثناء الزيارة ونصه « توفيق الحكيم بيقول لى القلم ده فيه سحر لما كتبت به ما شطبتش حاجة خالص ولا غيره فعلاً ولا غيره ولا كلمة وبعدين أنا قرأته لتوفيق

الحكيم قعد يبص فيه لغاية ما خلصته وسكت وقال لى إيه بأه انتى شايفه ايه بأه ؟ قلت الحقيقة أنا ياتوفيق بيه أنا حاقرأه مرة تانية علشان أقول لك رأيى قال كده طيب فعلا استنى أصلك إنت قارئة حرة فقلت له متشكرة قوى على الثقة دى على الله تنفعنى طبعاً — وطلعت صورت الجواب » .

ج : جايز يكون صدر منها هذا القول ولكن حقيقة لا أتذكر لأنى لا أريد أن أظلم أحداً .

ملحوظة :

كلفنا الرائد محمد حسن إسماعيل بالقسم الفنى بإدارة المباحث العامة لإحضار جهاز تسجيل فأحضر جهاز تسجيل داخل غرفة التحقيق وقمنا بفض حرز الشريط المسجل وسلمناه إليه وطلبنا منه إدارة الجهاز على ما جاء بالصحيفة ٢٥ من تفريغ إدارة المباحث العامة على لسان نوال المحلاوى بخصوص واقعة قراءتها الخطاب وتصويرها له . وبعد أن استمعنا مع المتهم إلى الحديث السالف وثبت أنه يطابق ما ورد بالتفريغ — سألنا المتهم عما إذا كان الصوت الذى سمعه خاص بنوال المحلاوى فقرر أنه لا يستطيع أن يقطع لأن الصوت غير واضح ولست خبيراً بالأصوات ولا أدرى ما موضوع هذا التسجيل وطبيعته ومشروعيته القانونية .

تمت الملحوظة　　　　　　　　رئيس النيابة
　　　　　　　　　　　　　　التوقيع

لم نسكت فى عهد السادات أيضاً

فى عهد حكم الرئيس أنور السادات لم نسكت كذلك عندما وجدنا أننا يجب أن نقول كلمتنا وأن ننبه الدولة . فقد جمعت فى مكتبى عدداً من الكتاب والأدباء ورجال الفكر ، وجعلنا نستعرض حال البلد فى تلك الفترة من يناير ١٩٧٣ وما ساد البلاد من اضطراب وقلق . ورأينا أن من واجبنا باعتبارنا من رجال الفكر فى الأمة أن نصارح الدولة بحقيقة رأينا فى الموقف . وذلك فى صورة بيان فوضونى فى كتابته ، فكتبته بخطى ووقعت عليه بإمضائى ووقع عليه معى من كان حاضراً ، ثم لم يلبث هذا البيان أن امتلأ بالتوقيعات وقبل أن يعرض على ذوى الشأن والجهات الرسمية فوجئت هذه الجهات به منشوراً فى صحف الخارج بعناوين مثيرة تظهره فى صورة موقف ضد الدولة من كتاب مصر وأدبائها ومفكريها ... وكان أن غضبت الدولة غضبتها المعروفة ... فقد كانت تخشى كما قالت من زعزعة الجبهة الداخلية ، وكانت كما اتضح بعد ذلك تتهيأ بالفعل لمعركة العبور .

أسس المناقشة بين أهل الفكر

مما لا شك فيه أن البلد فى حالة قلق بعد نحو خمسة أعوام من الهزيمة وانسداد الطرق وظلام الأفق وظهرت بوادر هذا القلق مجسدة فى اضطراب الشباب . وهناك الآن موضوعات وتساؤلات تبدو فيما يلى :

أولا : هل هناك خلاف بين الحكم وبين الأمة وشعورها بالمثل فى شبابها وعقلها المثل فى مفكريها ؟

ثانياً : إذا كان هناك خلاف حقاً فهل هو يعنى تغييراً فى أساليب الحكم ؟ مثل تمكين وتأمين حرية الرأى والمناقشة من حمل مسئولياتها ؟ وما وسائل ذلك ؟ وما هى النتائج المترتبة عليه بالنسبة للمعركة والإعداد لها ؟

ثالثا : ما هو مفهوم كلمة المعركة ؟ وما هو المعنى الواجب تفسيره وفهمه وعرضه لمداها وأبعادها وجوهرها وكذلك لكلمة الإعداد لها ؟ وهل الإعداد مقصود به المدى القريب للمعركة العسكرية أو للمدى البعيد للمعركة الحضارية ؟

٩ يناير ١٩٧٣ توفيق الحكيم

السيد / رئيس اللجنة البرلمانية لتقصى الحقائق

تحية طيبة وبعد :

بالنيابة عن زملائنا الكتاب والأدباء الموقعين على البيان المرفق صورته فإننا نضع أنفسنا تحت تصرفكم . إذا كان من المفيد الاستماع إلى رأينا فيما تبحثون فيه .

وتفضلوا بقبول فائق الإحترام.

٢١ يناير ١٩٧٢ — عن الكتاب والأدباء الموقعين

توفيق الحكيم

بيان من الكتاب والأدباء

نحن الكتاب والأدباء الموقعين على هذا البيان قد رأينا من واجبنا أن نعاون الدولة فيما تقوم به الآن هيئاتها الرسمية من تقصى الحقائق فى حالة الاضطراب التى بدت بوادرها الآن فى بعض الأحداث الجارية ، يدفعنا إلى ذلك إيماننا بوطنية رئيس الدولة واعتقاداً منا أن فى استطاعته الامساك بالزمام للسير بالبلاد فى طريق محفوف بالمخاطر تهب عليه الزوابع اليوم من كل جانب، ويحتاج إلى الحكمة وسداد الرأى لتجنيب الوطن ويلات الشطط وتوجيهه إلى حيث يجد نفسه ويؤكد شخصيته ويسترد قوته . ولما كان من خصائص الكتاب والأدباء بحكم رسالتهم فى الأمة أن يكتشفوا باطنها ويستشفوا ضميرها ، فى حين أن مهنة الصحافة هى تحرى أخبارها ومهمة الهيئات الرسمية هى تقصى حقائقها من واقع حوادث معينة قد تكون مجرد بثور خارجية لمرض دفين ، ودخان ظاهرى لنيران تتأجج تحت رماد ... لذلك كان علينا نحن الكتاب والأدباء أن نكمل الصورة ونقدم للمعونة بإبراز ما استتر واستخفى مما يعتمل الآن ويضطرم فى باطن الأمة وضميرها . وليس ذلك فقط لمجرد استكمال عمل تقوم به الهيئات الأخرى ، ولكنه أيضاً للخشية من أن يهمل أمر هذا الغليان الذى يفور فى نفوس الناس فيجد طريقه فى أى لحظة إلى الانفجار وتقع الكوارث ذلك أنه مما لا شك فيه لدينا أن البلد يغلى فى الباطن على نحو لم يعد يخفى على أحد . وقد لا يعرف كل الناس تعليلا لما يشعرون به من قلق واضطراب وغليان داخلى ، وقد يبدى البسطاء من الناس والأبرياء من الشباب تعليلات مختلفة ،

يسوقونها بغير تفكير أو تمحيص ويرددونها فى أحاديثهم ويضمونها فى منشوراتهم ، وهذه التعليلات أو المطالب أو الاحتجاجات قد تبدو فى أغلبها سطحية أو غير ناضجة أو مدروسة ، ولكن تبقى الحقيقة التى لا شك فيها وراء كل هذا وهو شعورهم جميعاً بأنهم قلقون لشىء ما وأنهم ما عادوا يحتملون ما هم فيه من إحساس بالضياع . والآن ما هو منشأ هذا الإحساس العام بالقلق والاضطراب والضياع فى نفوس الناس ، لعل السبب الأهم فى ذلك هو عدم وضوح الطريق أمامهم . فالصيحة المرتفعة فى كل حين بكلمة المعركة وأن الطريق هو للمعركة كان من الممكن أن يكون هو الجواب على أسئلتهم والطريق الواضح أمام أعينهم . وهذا لا شك ما أرادت الدولة أن تقدمه كجواب أو مصباح لوضوح الرؤية فى طريق المستقبل المعتم . ولكن مع الأسف تمضى الأيام وتصبح كلمة المعركة مجرد كلمة غامضة لا حدود لها ولا أبعاد لمعناها ولا تحليل لعناصرها . مجرد كلمة تلوكها الأفواه ، مستهلكة لكثرة مضغها ، ويصبح الناس ويمسون وهذه الكلمة تردد على جميع النغمات فى الأناشيد والأغانى والخطب والشعارات ، حتى فقدت قوتها وفاعليتها بل وصدقها ، وصارت اللقمة الممضوغة فى الفم غصة ، لا هم يستطيعون ابتلاعها ولا هم يجرؤون على لفظها . وأصبحوا فى حيرة من شأنهم ، وأصبح طريق المستقبل أمامهم مرة أخرى مسدوداً وهم فى ضياع ... ولما كان الشباب هو الجزء الحساس فى الامة ، وهو الذى يعنيه المستقبل أكثر من غيره ، فهو لا يرى أمامه إلا الغد الكئيب . فهو يجتهد فى دراسته ليحصل على شهادته النهائية فإذا هى شهادة القذف به فى رمال الجبهة لينسى ما تعلمه ولا يجد عدواً يقاتله . وهذا أيضاً بالنسبة إليه هو الضياع ... أما بقية المواطنين فهم يعيشون فى حياة صعبة سيئة الخدمات العامة وكل نقص أو إهمال أو توقف أو عبث يختفى خلف صوت المعركة وفى انتظار المعركة وتحكماً بالمعركة . وإذا بالأمر فى نظرهم ينقلب إلى مهزلة وإلى سخط وإلى قرف عام .

هذا بعض ما استقر فى الضمائر هذه الأيام، ولا بد من حل سريع لهذا الوضع . ولا يمكن أن يكون هناك حل إلا فى الصدق ، والصدق وحده . لأن الصدق هو الذى ينهى الحيرة ويقنع الناس ويهدىء النفوس . لأن الغليان فى باطن الإناء يهدأ إذا كشف الغطاء ... الشعب يريد أن يقتنع بشىء لأنه غير مقتنع . ولا بد لراحة باله واقتناعه من عرض حقائق للموقف أمامه واضحة من كل جوانبها ، وعليه هو أن يقدر وأن يعرف ويختار طريقه . وهذا يقتضى النظر فى تغيير بعض الإجراءات التى تسير عليها الدولة اليوم ، ومنها حرية الرأى والفكر وحرية المناقشة والعرض لإلقاء الضوء على كل شىء فى هذا الضباب حتى تتضح الرؤية ، وليكن ذلك داخل المؤسسات ، إذ كانت السرية لظروفنا الحاضرة تقضى بذلك . على أن لا يكون للدولة رأى مسبق تضغط به على أهل الرأى وتجعلهم مجرد أبواق لترديده وترويجه . بل أن تكون الدولة آخر من يبدى الرأى بعد أن تستمع وهى جادة صادقة إلى رأى مصر الحر أولاً ، لا أن تصوغ هى الرأى وتضع الشعار وتلقى به إلى الناس وتفرضه عليهم فرضا ... آن للدولة فى هذه الظروف العصيبة أن تتخفف هى من كل العبء والمسئولية وتضعها على كاهل الأمة ... إن فى ذلك مصلحتها وصيانة لها أمام التاريخ .

الكتاب والأدباء المصريون
عنهم : توفيق الحكيم

* * *

عواقب بيان الأدباء

وكان أيضا نتيجة لهذا البيان ما ذكر من طرد وتشريد أكثر المشتركين فى التوقيع عليه ... وكان أن شتمنى السادات فى اجتماع على عام ، كما بلغنى ، وكما أظن أنه نشر أيضاً ، من قوله « ما هذا « الهباب » الذى كتبه توفيق الحكيم ! » ...

ملف عبد الناصر

بين اليسار المصرى

وتوفيق الحكيم

نص وثيقة

إلى باعث الأدب الأستاذ
توفيق الحكيم مطالبا بعودة
الروح مرة أخرى بعد الثورة .

جمال عبد الناصر

٢٨ مايو سنة ١٩٥٤

اخترنا لك ...
٣

فلسفة الثورة

بقلم
جمال عبد الناصر

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

اليسار يفتح ملف التجربة الناصرية

مع « توفيق الحكيم »

« ما ان صدر كتاب « عودة الوعى » حتى سارعت قوى اليمين واليسار المتصارعة فى الساحة المصرية إلى تحديد موقف من الكتاب وكاتبه .

وبين ترحيب اليمين وتهليله ، لما حوى الكتاب من نقد للتجربة الناصرية ، وبين ضيق اليسار وردود فعله الغاضبة ، نشرت مقالتى فى مجلة «روز اليوسف» أوضح بصراحة رأيى فى اليسار وفى الطريق الذى ينبغى أن يسلكه . . .

وتلقى اليسار المصرى رسالتى بصدر رحب ودعانى للحوار معه فرحبت .

مقدمة الحوار

الرسائل المتبادلة

من توفيق الحكيم إلى اليسار المصرى(1)

بعد الصدمة الأولى لـ « عودة الوعى » وبعد كل ما أثار هذا الكتاب من شكليات وسطحيات فى المواقف والمشاعر ، خاصة فى بعض البلاد العربية التى تسود فيها ناصرية تجارية .. أعتقد أنه آن الأوان للدخول فى صميم القضية التى أثرتها ، ومناقشة جوهر الموضوع بعيدا عن الأشخاص والشخصيات .

وأنا أقصد فى حديثى هذا مخاطبة اليسار . لأننى — أياً كانت مثاليتى — أعتبر نفسى من المسئولين عن الاشتراكية المصرية .

وأنا أدرك جيدا موقف اليسار الحالى ، والناصرى بوجه خاص ، وخوفه من استثمار الرجعية لنقد إنجازات عبد الناصر . ولكن خوف اليسار هذا يكاد يوقعه فى موقف رجعى ! فهو ينسى أزمة الديمقراطية التى وقعت فى سنوات ١٩٥٣ — ١٩٥٤ . وينسى موقفه من رفض النظام الشمولى الذى ساد فى هذه السنوات . صحيح أن موقف الثورة واتجاهها اختلفا منذ قرارات

(1) نشرت هذه المقالة بعنوان « لم أنقد لحساب الماضى ، وإنما لحساب المستقبل »

التأميم . ولكن على اليسار أن يتخفف قليلا من تزيين وتجميل تجربتنا في الاشتراكية وتصويرها في صورة الاشتراكية المثلى : ولعل عذر اليسار في هذا الموقف خوفه من الردة إلى الوراء وإلى الأسوأ . فهو إذن موقف تكتيكي دعت إليه ضرورات الظروف الحاضرة وليس بالموقف الاستراتيجي السليم الصالح للبقاء والاستمرار، ذلك أن القول بأن الناصرية هي الاشتراكية الحقيقية تزييف على الواقع والتاريخ ولا مفر ، كـكل تزييف ، من أن يسقط وينكشف . وسيؤدى هذا حتما إلى ظهور يسار صادق مع نفسه ومع الحقيقة ، يبنى مذهبه وكفاحه على المذهب الاشتراكي الحقيقي دون استعارة أردية مرقعة .

وهذا هو ما يجب التنبيه إليه من الآن ، حرصا على مستقبل اليسار في مصر قبل أن يظهر زيف الموقف التكتيكي الحالي المؤقت أمام أعين الاشتراكيين المخلصين .

إنني بما كتبت لم أكن أتجنى على عبد الناصر كما يقولون . إنني على العكس أحبه وأقدره ، لكنني أضع اجتهاداته في موقعها ، وأعتبر أن مشكلات الديمقراطية والاشتراكية في بلادنا ما تزال — بعد عبد الناصر — في حاجة إلى حلول أخرى ثورية وديمقراطية .

إنني لا أنقد لحساب الماضي ، وإنما لحساب المستقبل .

— حاولت نقد ما رفضت من سلبيات أيام عبد الناصر ، بل أيام السادات أيضا .

إن ميولي التقدمية كانت دائما واضحة ومنذ ما قبل الثورة، ويكفي كتاب « سلطان الظلام » الذي كان يحارب النازية منذ أربعين عاما .

أما تعاطفي مع الماركسية التي كنت أدرسها في العشرينات ، عندما كان عمر الثورة الروسية أقل من سبع سنوات ، فشيء معروف . وكنا أيامها نرقب إنشاء حزب أو اتجاه اشتراكي واضح في مصر .

ولكل ذلك أعتبر من حقي أن أتكلم اليوم عن الاشتراكية في مصر. ومن حقي أن أعمل على وضعها على أساس سليم. وأن أخاف على اليسار المصرى وأحافظ عليه وعلى مستقبله.

وأنا ألوم هذا اليسار لأنه يتناقض الآن مع نفسه إلى حد ما ولأنه في حالة ردة عن الجوهر الحقيقي للاشتراكية لاهتمامه بالتكتيك المؤقت على حساب البرنامج الاشتراكي الحقيقي، وعلى حساب الاستقلال بمنبر يميزه داخل صيغة التحالف التي خدمت الانتهازية أكثر مما خدمت العمال والمثقفين والفلاحين.

إن خوف اليسار من عودة الرجعية القديمة يجعله يقع - كما قلت - في خدمة الرجعية الجديدة.

وفي اعتقادي أن اليسار يجب أن ينقد السلبيات الكثيرة التي عانينا منها. لأن هذا واجبه. ولأن هذا لن يخدم اليمين. وإنما سيحرمه من الاستفادة من الموقف التبريري لليسار.

ثم أن تناقض اليسار مع نفسه يتضاعف عندما نرى القيادة الحاضرة تعلن أنها شريك مسئول للقيادة الماضية.. عن أي شيء يدافع إذن؟ وضد أي شيء؟ وماذا ينكر وماذا يتبنى؟

إن قصة «عودة الوعي» ببساطة هي أنني في عام ١٩٧٢، وفي مناسبة الاحتفال بمرور عشرين عاما على ثورة يوليو، وجدت نفسي في أزمة قاسية. في لحظة استرجاع لعمري الفكري، الذي هو عمر مصر الحديثة أيضا. مصر التي كانت كل كتاباتي ودراساتي ورحلة عمري تدور حولها. وكان شبابنا في تلك الأيام لا يكف عن الثورة والغضب، فتساءلت: لماذا يصطدم جيل الثورة بالثورة؟

وجوابا على هذا السؤال كتبت انطباعاتي في «عودة الوعي» وأوصيت بألا تنشر إلا بعد أن أودع الحياة.

وما يهمني الآن هو أن أؤكد وأن يفهم اليسار المصرى، أن جوهر « عودة الوعى » أنه نقد لعهد بعد أن صار جزءاً من التاريخ . وأن هذا التاريخ لا تزال مجهولة تفاصيله وحقائقه وخباياه ومستنداته ، ومن الخطأ ، فى حالة كهذه، التعجل فى إصدار الأحكام المطلقة ذات اليمين أو ذات اليسار .

روزاليوسف ١٩٧٤/١٠/٢١

من لطفي الخولي إلى توفيق الحكيم

أستاذنا الجليل توفيق الحكيم :

تحية طيبة وبعد ...

يدفعني إلى كتابة هذه الرسالة عوامل كثيرة ومتداخلة . لا أشك في أنك وقفت عليها وتلمست نوعيتها خلال المناقشات — الحلوة المرة — التي دارت بيننا ، سواء في مكتبك أم في بيوت بعض الأصدقاء والزملاء .

ولقد داخلني الإحساس ، أننا — أنت وأنا — رغم ماهنالك من اختلاف في منهج الرؤية وسني العمر ، أقرب إلى بعضنا البعض في الاتجاه والموقف ، من قربك إلى أولئك الذين يحلو لهم ، من وقت لآخر ، وضع « برنيطة » على رؤوسهم والاتكاء على « عصاك » . ثم يقولون في الاشتراكية واليسار وعبد الناصر والتجربة ، ماقاله مالك في الخمر ...

ومع ذلك فمازلت محتاجا إلى اختبار حقيقة هذا الإحساس وصدقه ، خارج الذات .

إن كل المناقشات التي دارت بيننا ، حتى اليوم ، اتسمت بالعفوية والارتجال غير المنظم . وأحيانا مرت مرورا عابرا بأسئلة وقضايا هامة وحيوية . وكثيراً ما انقطع خيط المناقشة نتيجة تدخلات « الغير » من الأصدقاء وغير الأصدقاء ، أكثر من مرة . فلم أتمكن من تحديد دقيق لأبعاد الرأي أو للموقف الذي

تتبنونه وتدعون إليه . باختصار ، لم نصل - رغم حرص كل منا - إلى نتيجة محددة بعد ، عن نقاط الاتفاق ونقاط الخلاف حول المسألة المركزية فى كل القضايا : إلى أين تتجه مصر بعد حرب أكتوبر ؟

أستاذنا الحكيم :

لعل فى مقدمة ما تعلمناه عنك ، أن الحوار بين الأفكار ، يجب أن يحفر عميقا ، حتى يلتقى بالجذور ، لنتفهم بعد ذلك هوية التفريعات المختلفة ومناحى مساراتها .

وأظننى لست فى حاجة إلى أن أوكد لك - بادىء ذى بدء - أن توفيق الحكيم الانسان والفنان والمفكر ، كان لا يزال ، هو « حكيمنا » ، الذى أنار لنا منذ أن شرعنا نفك طلاسم اللغة ، طريقنا إلى معانقة الواقع وإخصابه والتعامل مع تناقضاته ، بهدف تغييره لصالح الانسان .

ومنذ طرقت روحك وفكرك وفنك أبواب وجداننا وعقولنا ، كنت « كالمتنبى » عندما نزل بمصر ، فلاء الدنيا وشغل الناس .

« بعودة الروح » ملأت دنيانا . و « بعودة الوعى » شغلت الناس . وبين عودة الروح وعودة الوعى تاريخ متصل الحلقات ، غنى بالمواقف والابداع . لا يستطيع المرء أن يجتزىء منه حقبة أو موقفا أو عملا إبداعياً واحداً ، ويدعى بأمانة موضوعية أن هذا هو توفيق الحكيم .

فى مفهومنا ، نحن الاشتراكيين المصريين ، أن توفيق الحكيم « ظاهرة اجتماعية تاريخية » ، الانسان المبدع فيها هو بطلها ، الذى يخوض صراعا دائما ومتجددا مع واقعه وعصره . وأن هذا الصراع يتخذ مواقف متعددة ، تتراوح بين الثورة والتمرد والنقد الإصلاحى وأحيانا المساومة التكتيكية . و « بطل » الظاهرة ، يجسد هذا كله فى صور فنية من أعمال مسرحية وروائية مسروائية وانطباعات ... الخ .

وبالتالي فإذا كان توفيق الحكيم » ليس هو « عودة الروح » فقط . فهو أيضا ليس « عودة الوعي » وحسب . وإلا فأين يذهب عصفور من الشرق ، والسلطان الحائر ، وطالع الشجرة ، ونائب الأرياف... وذلك المفكر الذي جلس ذات ليلة من عام ١٩٣٧ « تحت شمس الفكر » يكتب بشجاعة : « إن الشعب اليوم قد تغير في نظري ، وإن عقليته قد تكورت وأصبحت له رغبات حيوية تمس صميم غذائه اليومي وحياته المادية ... إنه يطالب اليوم أن يعيش . لا معنويا فقط كما كنا ننادي بالأمس . ولكن ماديا أيضا ، عن طريق اللقمة المتوافرة للملايين من المحرومين ... على أنه ينبغي لنا مع ذلك أن نتساءل : إلى متى نظل في مصر ، ونحن نملك فيها نظاما ديمقراطيا ، نعتقد أن إصلاح شئون الطبقة الفقيرة ، معناه التصدق والإحسان ؟ وإلى متى ، ونحن لدينا برلمان ، لا نجد فيه ممثلين لملايين الطبقات الفقيرة ، يدافعون عما تراه هذه الطبقات منهضا لها مصلحا لحالها ... » .

أستاذنا ...

والحديث ذو شجون . أليست «عصا الحكيم» التي رفعتها في عام ١٩٤٧ في وجه برجوازية الحرب المصرية الشرهة المستغلة ، هي نفس العصا التي تدب بها اليوم على أرض الواقع المعاصر . قلت يومها : «إن مصر تحولت في السنوات العشرين الماضية تحولا اقتصاديا ملحوظا ، كان من نتيجته إثراء طبقة من الناس إثراء سريعا أدى إلى نشر مثل عليا جديدة في المجتمع ... أو على الأصح مثل ليست عليا ، لأنها بذرت في النفوس بذور المادية والوصولية والاستهتار ... » .

لو أنك رفعت العصا اليوم في نهاية ١٩٧٤ في وجه البرجوازية الجديدة المتجمدة على قيم البرجوازية القديمة ، لرجمك بالحجارة واتهمك بالإلحاد

واسغيراد الأفكار ، أولئك الذين يذرفون اليوم دموع التماسيح وهم يقرأون ، من السطح ، كتاب عودة الوعى .

ما علينـا ...

إن « توفيق الحـكيم » – فى مفهومنا أيضا – ليس كلماته على الورق ، منفصلا عن حركته فى المجتمع خلال مراحل تطوره المختلفة .

« الشيخ » توفيق الحـكيم فى سجن العمر ، وجه لذات الإنسان الذى يطالعنا بوجه « الشاب » توفيق الحـكيم ، وهو يتأجج حماسا لحركة الشباب فى السبعينيات ضد الهزيمة وعفنها ، يحاورها ويستلهم منها ويخصبها .

وتوفيق الحـكيم الذى يدين ، بنفسه ، صمته وغياب وعيه فى « عودة الوعى » ، هو نوع من «البورتريه الساخر» لصورة أخرى لتوفيق الحكيم ، أعرفها عن قرب ، عندما ضاق بالقيود على حرية التعبير فى عام ١٩٧٠ فـكتب رسالة شخصية صادقة وشجاعة إلى جمال عبد الناصر .

باختصار ... توفيق الحـكيم هو « كل » توفيق الحـكيم . وقيمته الموضوعية تستمد من الطابع العام للظاهرة الاجتماعية التاريخية . وهو طابع وطنى تقدمى ، مستقبلى النظرة ، عدو للتخلف والجهالة والظلمة والقيود . ولعلنى لا أغامر إذا قلت إنه ليس بينه وبين اليمين الغبى ألفة أو عمار .

لماذا أكتب لك هذا كله ؟

لأكثر من سبب . لـكن لعل أهم هذه الأسباب ، هو التصدى لتلك التيارات التى تنصبك – رغما عنك فيما أعتقد – قيادة لها فى حربها الشرسة الضروس ضد التقدم والحرية والانسان فى بلادنا . ومن هنا كانت محاولتى لتحديد « موقعك » بالنسبة لمواقعنا على خريطة مجتمعنا المعاصر . وبيان

أن الأرضية العامة الواسعة ، التي بذلت طوال نصف قرن ، الجهد ، في حرثها وزرعها بقيم سيادة الانسان على مصيره — وذلك من خلال إبداعه الفكرى ونضاله العملى ، معرفته العقلية ووعيه الوجدانى — هى ذات الأرضية التى نواصل ، بكل العزم والتضحية والأمل ، الحرث والزرع فيها .

لماذا الحرص على تحديد للواقع اليوم ؟

أصدقك القول وأجيب ، لأمرين اثنين :

الأمر الأول :

هو أن اليمين المتخلف الذى طفح على جلد الأمة ، بجهله النشيط ، ورعونته العمياء ، يحاول اليوم أن يصنع من كتابك « عودة الوعى » وما تضمنه من انطباعات سريعة ورؤية ذاتية لبعض السلبيات فى تجربة العشرين عاما الماضية مدفعا ثقيل العيار ضد حركة التقدم .

الأمر الثانى :

هو رسالتك المفعمة بالصدق والاخلاص التى وجهتها على صفحات « روزاليوسف » إلى اليسار المصرى وذلك من منطلق أنه «أياكانت مثالياتى ، أعتبر نفسى من المسئولين عن الاشتراكية المصرية » .

فى هذه الرسالة أثرت العديد من النقاط الهامة ، حول موقف اليسار من الناصرية ، وعن أن خوفه من استثمار الرجعية لنقد إنجازات عبد الناصر يكاد يوقعه فى موقف رجعى ، فضلا عن قضايا التكتيك والاستراتيجية والموقف التبريرى لليسار ... الخ .

استاذنا الحكيم ...

أنت إذن ، فى هذه الرسالة ، تحدد موقعك بوضوح داخل نفس الأرضية التى نرتكز عليها مواقعنا .

وليس هناك — عندك أو عندنا — تجربة مقدسة أو شخص مقدس .
وليس هناك أيضا — عندك أو عندنا — هدف إلا مواصلة حركة التقدم ، ماديا وروحيا ، لجماهير شعبنا ، نحو اشتراكية حقيقية .

إذن لماذا لا نتحاور — يا سيدى — حواراً جادا منظما ومسئولا ، بهدف الوصول إلى تشخيص موضوعى للتجربة والواقع ، بهدف فرز الايجابيات من السلبيات واستشراف طريق المستقبل : معطياته ، احتمالاته ، مخاطره ، ضماناته .

لقد طالبت — أنت شخصيا — أكثر من مرة بفتح ملف التجربة جماهيا وبحرية . وقد هالك أن يتخذ كتيب «عودة الوعى» قميص عثمان بين المتصارعين . بعضهم يتدثر به ليخفى عوراته . وبعضهم الآخر يقع فى خطأ اعتباره الكلمة الأخيرة « لتوفيق الحكيم » تجب كل كلام سبقه أو كلام يلحقه .

ولقد سمحت لنفسى أن أبحث هذا الأمر مع زملائى فى أسرة تحرير الطليعة وعرضت عليهم مناقشاتى معك . وإنه ليسعدنى أن أكتب إليك برغبة « الطليعة » التى — تعرف تقديرها الكبير لفنك — أن تفتح معك هذا الملف من خلال حوار جماعى منظم ومسئول .

وكلنا أمل أن تستجيب لنا وتتلقى منك كلمة القبول .

وإذا كان ردك بالإيجاب ، فإننا نطمع فى أن لا تبخل علينا باقتراح أبعاد الإطار ، التى نراها جوهرية لهذا الحوار .

مع عميق التقدير وصادق الحب والاعزاز .

القاهرة فى ١٩٧٤/١١/١٦ لطفى الخولى

من توفيق الحكيم إلى لطفي الخولي

عزيزي الأستاذ لطفي الخولي ...

أشكر لك رسالتك المفعمة بالمودة والمصارحة ، كما أشكر لك ولزملائك في أسرة تحرير الطليعة دعوتكم إلى حوار جماعي منظم ومسئول حول تلك القضايا التي ذكرتها في رسالتك . وهي دعوة تسرني وتسعدني .

فالحوار المنظم الخصب ، ضروري اليوم لتوضيح الرؤية وكشف الطريق وربما ذهب الحوار إلى مناقشة أهم قضية يمكن أن تطرح الساعة للبحث ، وهي « مستقبل الاشتراكية في مصر » . وقد يرتبط بهذا البحث مناقشة وثيقة الصلة به حول « وضع اليسار المصري وقوه وتطوره في المستقبل » . وقد تصل بنا الآمال إلى حد التطلع إلى توحيد اليسار المصري بمختلف اتجاهاته الشاردة وتكتلاته المتباعدة في « مؤتمر عام » يجعل منه قوة فكرية ضخمة تقوم على منهج محدد مدروس ، يستطيع أن يقيم الاشتراكية في بلادنا على دعائم متينة قادرة على التوجيه العام ، حتى ننتقل بذلك من مرحلة الاشتراكية العلوية ، التي تهبط من يد الحاكم وقراراته ، إلى مرحلة الاشتراكية الحقيقية التي تنبعث من الفكر الثوري الحر المستوحى من الشعب ومطالبه .

وقد يدهش كثيرون لهذه الاهتمامات حتى من شيخ في أواخر مراحل العمر . . وقد يتساءلون : ما جرى له اليوم ؟ فهم لا يعرفون عني سوى الفنان ذي البيريه والعصا ، وتلك الصور والحكايات التي يصطنعها الناس عادة للفنانين .. وربما كنت أنت الوحيد بين الاشتراكيين الحقيقيين الذي لن يدهش . لأنك أنت نفسك فنان . . ثم أنك أنت أيضا بدأت حياتك في القانون . وهي سمات وظروف مماثلة لسماتي وظروفي . ومن هنا جاء التقارب بيننا في الاتجاه والموقف كما تقول .

والحق، أنه على الرغم من اختلافنا في منهج الرؤية وتباعدنا في السن، فإني لم أشعر قط بالغربة معك . بل كان شعوري دائما أننا نقف معاً على أرض واحدة . ولكن أكثر الآخرين – ولهم الحق – في حاجة إلى إجابة على سؤالهم المستغرب : ماله ولكل هذا اليوم ؟! من أجل هؤلاء رأيت أن أعود إلى كتبي القديمة أبحث عن جذوري المتصلة بالاشتراكية فأنا أرفض دائما أن أزرع زرعا في أرض ليست لي فيها جذور طبيعية . سواء في الفن أو في الفكر أو في المبادىء أو في العقائد ... ولقد استخرجت على عجل هذه الصفحات من كتاباتي المنشورة في الثلاثينيات والأربعينيات مما يمكن أن أسميه « اشتراكيتي » لترفق برسالتي هذه إليك .

وهي دلالات على ميول واتجاهات لم يفطن إليها كثيرون، لأن أنظارهم كانت متجهة إلى صوري الفنية وحدها . ولأن الفن كان هو الميدان الذي كتب علي أن أخوض مشكلاته ، وتلقى على كاهلي واجباته . إلى أن انتهت مسئولياتي فيه بظهور المواهب التي حملت عني أعباءه . واقترب عمري من النهاية ، وأصبحت مجرد مواطن لا يشغله شاغل غير تلك الآمال التي يريد أن تتحقق لوطنه . ولقد استبد بي هذا الشاغل إلى حد العنف في السؤال : ماذا كسبنا وماذا خسرنا ؟ حتى نستطيع أن نبصر الطريق الواضح الذي يجب أن نسير فيه إلى حسن المصير.

وها أنت ذا تتيح لنا الفرصة لنبحث كل ذلك . ونناقش كل ذلك في إطار الحوار المنظم المسئول .

وليس عندي من اقتراح في هذا الصدد غير الدعوة إلى إجراء هذا الحوار بين من تختارهم أنت من صفوة المفكرين الاشتراكيين الأحرار على أن تنشر محاضر هذا الحوار لتكون نواة لمنهج واضح للفكر الاشتراكي الحر في بلادنا .

أكرر الشكر لك وللزملاء من أسرة تحرير الطليعة . وتقبل مودتي ومحبتي وتقديري .

توفيق الحكيم

القاهرة في ١٧ / ١١ / ١٩٧٤

اشتراكي[1]

في طريق التحرر :

لا أمل في إصلاح العالم إلا إذا عولج شقاء الملايين في كل أمة من الأمم . من أجل ذلك لم يستطع حتى الزعماء المروضين (الدكتاتوريين) أنفسهم أن يعتمدوا على كلمة « الوطنية » وحدها في التأثير على الجموع فقرنوها بكلمة « الاشتراكية » .

لا ريب إذن في أن الاشتراكية هي جوهر لا بد أن يدخل في تركيب كل نظام سياسي حديث . وكما استطاعت الدكتاتورية اختراع « الوطنية الاشتراكية » فما أيسر على الديمقراطيات إنشاء « الديمقراطيات الاشتراكية » .

ما أسميه هنا « الديمقراطية الاشتراكية » إن هو إلا هذه النظم الاشتراكية التي قامت اليوم داخل إطار الديمقراطية (إنجلترا وفرنسا) كما ظهرت من قبل بعض مظاهر تلك النظم داخل إطار الوطنية الدكتاتورية (ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية) .

نحن اليوم إذن أمام حرب « الوطنية الاشتراكية » و « الديمقراطية الاشتراكية » .

الديمقراطية الاشتراكية هي من غير شك صياغة مقبولة لجوهرين متلائمين

---

(١) المقتطفات التي رافقت رسالة توفيق الحكيم إلى لطفي الجولي .

لكن « الديمقراطية » شيء و « الدولية » شيء آخر . إن جوهر « الاشتراكية » السليم لا يمكن أن يقترن إلا بفكرة « الدولية » .

إذا كانت كل ثمرات العالم الجديد بعد إبادة الدكتاتوريات هي تعميم « الديموقراطيات الاشتراكية » لكان هذا جميلا . لكنه ليس كل ما يصبو إليه التقدم الإنساني . ذلك أن « الديموقراطية الاشتراكية » ليست هي أيضا أكثر من « نظام داخلي » لكل دولة من الدول . وأن كل دولة « ديمقراطية اشتراكيـــة » (المقصود بها هنا وفي ذلك الوقت ١٩٤١ دول مثل فرنسا وانجلترا) تستطيع أن تنشيء لنفسها مطامع استعمارية وسياسية قومية تقوم على السيادة الخارجية . وبهذا تستأنف الحروب الاقتصادية والدموية بين الدول « الديمقراطية الاشتراكية » بعضها ضد بعض .

كانت فكرتي منذ أعوام أن « الاشتراكية » ينبغي أن تأتي من الخارج إلى الداخل . أي أن تسود بين الدول قبل أن تقر بين الأفراد .

(ملحوظة) :

وهذا ما حدث فعلا بعد نشر هذه الكلمات ، إذ تكونت بعدئذ عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية مجموعة الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية . .) .

الاشتراكية بين الدول في الإنتاج والتوزيع والقـانون والنظام . إذا تم ذلك فقد تم كل شيء تبعاً لذلك .

(ملحوظة) :

هذه النظرة التنبؤية قد تحققت أيضا بعدئذ فيما يشبه نظام « الكوميكون » بين الدول الاشتراكية الشرقية بعد تكوين مجموعاتها ...

(من كتاب سلطان الظلام)

* * *

فلأترك هذا الحديث العام ، ولأعرض ما أراه صالحا لبلادى ... لا تعنينى الآن الأسماء ولا الصفات ولا التعاريف . . ولا أفكر الآن وأنا أتكلم برأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية ... إنما أنا أبسط ما أتمناه لأهل بلدى من إصلاح دون تقيد بمبدأ أو بمذهب ... فليس أخطر على أمة ناشئة من أن تلبسها مذهب أمة أخرى دون نظر إلى طبيعتها وحاجتها وحجمها وذوقها وروحها .

أريد أن تتحقق فى بلادى ثلاثة أشياء :

الأول — أن يكون كل ولد يولد ، وكل مواطن يوجد ، ملكا لنفسه وملكا للوطن فى آن كما أن الخلية فى الجسم ملك لنفسها وملك للجسم ... فالوطن مسئول عن الصحة الجسمانية والذهنية لكل مولود وموجود . فالتطبيب بالمجان والتعليم بالمجان ... إن لم يتحقق هذا فلا قيمة لوجود الوطن ... كما لا قيمة لوجود الجسم إذا تخلى عن مصائر الخلايا ... كذلك ما يملكه الفرد فى أرض الوطن هو ملك للفرد وملك للوطن فى آن ... لأن قطعة الأرض قطعة من لحم الوطن فلا يجوز للفرد أن يسىء استغلالها أو أن يعجز بإهماله أو جهله عن استخراج كنوزها وتعطيل نفعها ... فعلى الوطن أن يقسم أرضه أو لحمه إلى مناطق تعاونية ... يجرى فيها البذر والزرع والحرث والسماد والحصاد والدراس بآلات حديثة وخبرة علمية لتنتج أكثر ما يمكن من محصول ، هو ثروة للوطن وثروة للفرد فى آن ...

الثانى — أن تمتد يد الضرائب التصاعدية بقوة إلى رقاص ساعة العيش ، فلا يتطرف من نهاية الثراء إلى نهاية الفقر ... ليهدأ فى الوضع المقبول الذى يقارب ويجانس بين أبناء الوطن .. وأن يكون لحكومة الوطن رقابة دقيقة

على شركات المرافق العامة كالمياه والنـور والمواصلات الخ حتى لا يكون لها غير ربح زهيد لا يبهظ أفقر الناس ... فإذا تولت الحكومة إدارتها مبالغة في الحرص على مصالح الكافة كان ذلك أفضل وأتم . يضاف إلى ذلك واجب آخر على حكومة الوطن : توفير السكن الصالح وتدبير العمل للعاطل وفرض الحد الأدنى للأجر الذي يصون للأجير كرامته الآدمية ، ويكفل له كمواطن كيانه الداعم لكيان الوطن .

الثالث – العلاقة بين رأس المال والعمل ... وهو جوهر الخـلاف بين المذهبين المتصادمين : أحدهما يقول إن رأس المال يستغل العمل ويربح كل كده ويجرع جبع عرقه ... والثاني يقول إن رأس المال هو الذي يجازف فله وحده ثمرة جسارته . والحقيقة التي أراها في طريق التبلور عندنا الآن : هي أن لا نطالب الآن بالقضاء التام على الرأسمالية ولا أن نتركها تمرح وحدها في ثمرة الاستغلال ... ولكن نجعل في رأيي الآن للعمل شعاراً يواجه به رأس المال . « لا تستغلني وأشركني في الربح » .

هذا تخطيط عملي بسيط فيما أراه الآن في هذا الأمر ... لست أحفل الآن بما يمكن أن يسمى بين المذاهب ، حسبي أنه اتجاه أراه الآن نافعا ميسور التنفيذ ، آمل أن يرى ضوء الشمس في بلادنا ذات يوم ...

(من كتاب تأملات في السياسة) ١٩٤٧

* * *

(ملحوظة) :

جاءت بعد ذلك بخمس سنوات ثورة ١٩٥٢؛فعلى الدارس والفاحص النظر في مدى ما نفذ وما تحقق من هذا التخطيط ...) .

البرامج أولاً

... إن كل النهضات التي قامت بها الحكومات الحديثة في بلادها، خصوصاً بعد الحرب (العالمية الأولى) قد تمت وفق منهج مرسوم وتحدد لتنفيذها زمن معلوم. فقالوا هذا «نظام خمسي» وهذا «نظام عشري» تبعاً لعدد السنوات التي قدر الأخصائيون أنها لازمة لظهور المشروعات. فأين نحن من هذا؟ أتستطيع مثلا أن تقول لي هل وضع نظام ثابت لمحو الأمية من البلاد في ظرف سنوات معلومة؟... حتى ترتب على هذا الحدث نتائج اجتماعية واقتصادية وسياسية نواجه بها هذه النهضة القادمة؟ أيمكنك أن تقول لي هل هناك مشروعات اقتصادية درسها الخبراء وقرروا لها زمناً تتم فيه وتخرج للبلاد في نهايته وسيلة جديدة من وسائل الانتاج، تزيد الثروة الأهلية الزيادة التي تتعادل مع نمو عدد السكان، وتسد الحاجات المنتظرة والمطالب المستقبلة؟ وهل في مقدورك أن تقول لي هل درس الباحثون سياسة ثابتة للتعليم الجامعي وخطة واضحة لتوجيه الثقافة العامة في نهضتنا؟ وإلى أي مدى ننحو نحو الحضارات القائمة أو أننا سنبقى حيارى جداً في حدائق المعرفة لا ندري ماذا نأخذ وماذا ندع؟! فأنت ترى أنه لم يوضع شيء بعد — حتى على الورق — لتحديد العمل والزمن الذي يقتضيه التنفيذ لمختلف فروع نهضتنا، بل انه لم ينظر إلى الآن حتى فيما يجب البدء به حالا من هذه المرافق المختلفة تبعاً لحاجة البلاد حتى لا يضيع علينا الوقت.

(من كتاب تحت شمس الفكر)

فساد الدولاب

حتى على فرض فراغنا من رسم الخطط ووضع البرامج، فالباقي بعد ذلك كثير. بل ان مجرد السير الآن في طريق العمل عسير إذ بمن نعمل؟ إن الأيدي العاملة قد لحقها الفساد، فهي مثل تروس الساعة المختلة تدور في غير حدود. فيد الوزير أحياناً تمتد إلى الأنظمة والأوضاع تقلبها رأساً على عقب دون أن

تصغى إلى كلام أصحاب الاختصاصات من المرءوسين ، وإن الموظف مهما يكبر ومهما ينبغ لا يعدو أن يكون تابعا يتلقى أمر رئيسه ويؤمن على رغباته وإن علم أن فيها الضرر لمصلحة البلاد . وهكذا أهدرت الشجاعة الأدبية وجبنت النفوس عن تحمل المسئولية . بل إنه ليحدث أكثر من ذلك . فإن المسألة الفنية لتعرض أحيانا على لجان من الاخصائيين يبحثونها فى شهور فيأتى وزير يضرب بنتيجة البحث الطويل عرض الحائط ويؤشر بقلمه الأحمر مناقضا ما جاءت به اللجنة ، كأنما هو يتحدى تلك العقول ليظهر أن رأيه « المرتجل » لساعته خير وأحكم من آراء المختصين بعد درس شهور . ولكن الأدهى والأمر أنه يجد فى أكثر الأحيان من بين موظفى وزارته ومن بين هؤلاء الأخصائيين أنفسهم من يقول « آمين آمين » . فهل بمثل هـــذا الدولاب الحكومى نستطيع أن نسير فى تنفيذ خطة أو برنامج ؟ فإلى أن يفهم هؤلاء الموظفون كيف يحترمون آراءهم ، إلى أن توزع الأعباء والمسئوليات بين الوزير ومعاونيه ، ويحل النظام محل الفوضى فى علاقة الرئيس بالمرؤوس ، فلن تكون الأداة الحكومية صالحة بعد للسير الجدى، فى تنفيذ مشروع من المشروعات .

(من كتاب تحت شمس الفكر)

* * *

الأحزاب والشعب

إن المفروض فى ممثلى الشعب أن يتقدموا إلى المقاعد النيابية ببرامج ثابتة واضحة ، محدد فيها بالدقة ، الخطط ووسائل التنفيذ لمطالب طبقات الشعب المختلفة التى يمثلونها ... ولكن الذى يحدث اليوم هو غير ذلك . فإن كل مشروع حيوى يهم الشعب، إنما يصدر من جهات أخرى غير ممثلى الشعب !... ولم نعد ندرى فيم يمثل هؤلاء الممثلون الأمة ؟! .

ان الشعب اليوم قد تغير فى نظرى ، وان عقليته قد تكونت ،وأصبحت له رغبات حيوية تمس صميم غذائه اليومى ، وحياته المادية ... انه يطالب

اليوم أن يعيش لا معنويا فقط ، كما كنا ننادى بالأمس . ولكن ماديا أيضاً ، عن طريق المقمة المتوفرة للملايين من المحرومين ... على أنه ينبغى لنا مع ذلك أن نتساءل : إلى متى نظل فى مصر ، ونحن نملك فيها نظاما ديموقراطيا ، نعتقد أن إصلاح شئون الطبقة الفقيرة ... معناه التصدق والاحسان ، وإلى متى ، ونحن لدينا برلمان ، لانجد فيه ممثلين لملايين الطبقات الفقيرة ، يدافعون عما تراه الطبقات منهضا لها مصلحا لحالها ؟! ما معنى الديموقراطية إذا لم تكن هى تمكين طبقات الشعب كلها على اختلاف مراتبها ومطالبها من الدفاع عن نفسها بنفسها تحت قباب المجالس النيابية ... ما من برلمان فى أى بلد ديموقراطى فى العالم يعرف هذا الوضع الذى نحن عليه لأنه ما من أحزاب فى العالم تكوين هذا التكوين الشخصى المرتجل كأحزابنا المصرية ذات الصبغة الشخصية الواحدة المتشابهة ! ... فى البـــلاد الأخرى أحزاب ذات مبادىء مقررة ، كل منها يدافع عن حقوق طبقة من طبقات الأمة ، على نحو يكفل التوازن بين المصالح ، بينما أحزابنا ، على تعدادها وكثرتها ، لا تمثل فى حقيقة الأمر ، غير طبقة واحدة : هى طبقة الملاك ... هى التى نسمع صوتها فى البرلمان وهى التى اتخذت لنفسها صفة القوامة على الطبقات الأخرى . وهى التى تستطيع أن تمنع وتحرم الطبقات الأخرى ، حتى من حق الاعتراف بنقاباتها التى تنظم شئونها وتدافع عن حقوقها !

ويحضرنى هنا مثل أحب أن أذكره : فقد وجدت فى حانوت حلاقة ذات مرة حلاقين أحدهما يعمل إلى جانب الآخر ويتقاضيان أجرين متساويين الأول مصرى والثانى يونانى . فعلمت شيئا عجيبا : فقد قال لى العامل المصرى انه هو فى بلاده لا يستطيع أن يعلم أبناءه بالمجان ، ولا أن يستشفى بالمجان ، وأنه لا يجد أحداً ولا هيئة تعينه على تكاليف العيش . بينما زميله اليونانى يعلم أولاده كلهم بالمجان ، فى المدارس اليونانية ، لأن هناك هيئات ونقابات يونانية تعنى أهم

المنافة بمساعدة العمال والأجـــراء اليونانيين ! ... وقد روى لى هذا العامل المصرى أيضا أنه ذهب بابنته الصغيرة يوما إلى مدرستها الأولية فوجد عاملا مصريا آخر قد عجز عن دفع مصروفات ابنته على ضآلتها « عشرة قروش شهريا » فاضطر إلى العودة بها إلى البيت مما حز فى نفس زميله فأخرج أجره اليومى من جيبه ودفعه من أجله ... لا شك أن أكثر الناس يوافقوننى على أن هذا الوضع للأشياء يجب أن يتغير ...

(من كتاب تحت شمس الفكر)

* * *

الفكر والشعب

سألتنى مجلة سياسية عن دور الكتاب الاجتماعيين فى حركة الإصـــلاح الاجتماعى فأجبت بقولى : « نعم الكتاب والمفكرون هم قادة الإصلاح ، وهم واضعوا أسسه وخططه فى كل زمان ومكان ... والئن كانت حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر قد تأخرت حتى اليوم فذلك سببه تقصير الكتـــاب والأدباء ... إلى أنهم بملء فى الأدب للمصرى بهذا الجرم . إن الأدب فى مصر لم يكن إلى عهود قريبة غير حلية عاطلة فى معاصم الأدباء . لقد كان يعيش هؤلاء الكتاب لا فقط على هامش المجتمع بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه أو الثراء . لم يكن الأدب فى مصر إذن أداة لتسجيل وتوجيه لشئون المجتمع ولم تكن أقلام الكتاب أبواقا توقظ النائمين ، ولكنها كانت معازف ينمس على أنغامها المترفون . وإذا كان هؤلاء هم كتاب أمة وهذا هو أدبها فلا عجب إذا ظلت حال المجتمع المصرى على ما تراه اليـــوم ... على أن الأمور بالضرورة قد تتغير الآن (١٩٤١) . وأظنك تستطيع أن تقول ان الأدب فى مصر يتجه فى الطريق الصحيح ، وان كثيراً من الكتاب المعاصرين نشروا كتباً وأفكارا تتصل بصميم المجتمع ، وان آراءهم تسمع وتحترم وتؤثر أحياناً

فى اتجاهات الحياة العامة ... » وهنا ذكرتنى تلك الجلة السياسية بأنى كنت أول من اقترح منذ عامين (١٩٣٨) إنشاء وزارة للشئون الاجتماعية فى حديث لى نقدت فيه النظام البرلمانى كان له ضجة وعوقبت بسببه وكدت أطارد من الحكومة أو أحال إلى مجلس تأديب ، ولكن المسئولين تراجعوا واكتفوا بخصم خمسة عشر يوما من مرتبى . ولكن وزارة الشئون الاجتماعية التى اقترحتها أنشئت فعلا فى عام ١٩٣٩ ... « وكان فى مجرد وجود هذا الهيكل الرسمى المخصص للمسألة الاجتماعية أقوى دعاية لهذه المسألة فى أنحاء البلاد ، مما جعل الشعب كله يهتم بالمسألة الاجتماعية بعض اهتمامه بالسياسة وأصبحت تثار فى البرلمان قضايا الفلاح والعامل وحقهما فى حياة إنسانية معقولة، وحصة الفقير وحقه فى معونة الغنى . وأصبحنا نسمع كبار الأمة يتحدثون عن ضرورة الرقى بمستوى حياة الشعب . وكثرت المحاضرات فى كل مكان وتكونت جمعيات الإصلاح وارتفعت أصوات الرحمة من القلوب وكلمات العدالة والانصاف من الأفواه كلها مجمعة على أنه ينبغى وضع حد لما نراه من استئثار مئات من أهل هذه البلاد بالخيرات وترك الملايين فى جوع وعرى كالسائمات . ولكنى أقول باعتبارى كاتبا إن الأمر لم يعد فى حاجة إلى توجيه . فإن حالة الشعب الآن لا يختلف فيه اثنان . وأن قادة الرأى ورجال الأمة ومفكريها يعرفون علل الشعب أتم معرفة ويوضحونها ويصفون لها العلاج . وفى كل يوم يزداد عدد هؤلاء المفكرين والدعاة وتتسع دائرة المصغين إلى رسالتهم ، إلى أن يأتى اليوم الذى تصبح فيه المسألة الاجتماعية هى المسألة الأولى فى الدولة ، لها صحافتها ولها ساستها ، وعلى أساسها تتقدم الأحزاب إلى الحكم . ويكون النجاح أو الإخفاق فى تحقيق برامجها هو الذى يبقى الوزارات أو يسقطها ... فها أنت ذا ترى ما أرمى إليه : أن المسألة الاجتماعية عندنا هى فى طور « الهواية » ولن تدخل فى طور « العمل الجدى » إلا إذا طالب بها الشعب نفسه ... فتى

تصبح إذن المسألة الاجتماعيـــة في مصر ذات تأثير مباشر في أداة الحـكم ، كالمسألة السياسية ...

(من كتاب تحت شمس الفكر) .

في أسوان

« ... كان اسماعيل صدقي باشا) أحد قادة الاقتصاد على المنهج الرأسمالي) من نزلاء فندق كتراكت ، فضمتنا الشرفة ، ودار بيننا الحديث في جمال النيل وجلاله ... ثم في كنوزه الاقتصادية أيضا ، بل كنوز تلك المنطقة من أرض مصر فقال صدقي : إن الحديد الذي يمكن استخراجه من هذا الجبل، كما جاء في بعض التقارير ، يكفي حاجتنا مئات الأعوام ، وهو من أجود أنواع الحديد ، وربما استطعنا أن نصدر الحديد كما نصدر القطن. أما البترول الأبيض الكامن في ماء النيل ، وأعني به القوة التي يمكن استخراجها من كهربة خزان أسوان وأثرها في خلق مصر صناعة وحضارة فلا خلاف فيه بين أحد اليوم. فقلت له: « إذن ما الذي يقعدنا عن الانتفاع بهذه الكنوز » ؟ قال « الأغـــراض السياسية » ... قلت داخليا وخارجيا ، هذا صحيح . وإذا استطعنا التغلب على التيارات الخارجية ، والضغط الاجنبي ، فهنالك آفتنا الداخلية الكبرى : السياسة للسياسة ، أو على الأصح « السياسة للحـــكم » . إن العقلية المصرية (بفعل الظلم الطويل) لم تتغير منذ أجيال ، سواء في الحكام أو المحكومين . فالهدف الرئيسي للحكم هو السيطرة . ولعل الاحتفاظ التقليدي بوزارة الداخلية أي البوليس والإدارة والضبط والربط في يد رئيس الحكومة ، وهو مظهر ورمز لهذه الفـكرة (كان رئيس الوزراء في ذلك العهـد هو دائما في نفس الوقت وزير الداخلية). لذلك يمكن في رأيي تلخيص شعور الفـــرد العادي (لاعتياده الظلم) في هذه العبارة : « من لا يستطيع أن يحبسني ليس له عندي اعتبار ! » فضحك صدقي باشا وقال : هذا بالضبط هو الواقع » فقلت : ومتى

إذنْ نستطيع أنْ نرى الفرد العادى فى بلادنا يقول : « من لا يستطيع أن يحسن حالى ليس له عندى اعتبار » ؟ . أظن أنه لو حدث هذا لتغير الوضع فى الحال ولم تصبح لنا السياسة للحكم أو السياسة للسياسة ؛ بل السياسة للاقتصاد .

... قال لى بعض مهندسى الخزان « خزان أسوان » أن وزير روسيا المفوض (يظهر أنه لم يكن لروسيا وقتذاك ١٩٤٥ ممثل فى درجة سفير) عندما جاء أسوان التف حوله بعض شباب الموظفين يسألونه عن البلشفية ، فقال لهم وهو ينظر إلى تلك المساقط المائية الجبارة : « لا تهتمــوا هكذا بالسياسة ، التفتوا إلى اقتصاديات بلادكم ! » ...

(من كتاب تأملات فى السياسة) .

* * *

ملحوظة :

من العجيب أن خروشوف بعد ما يقرب من عشرين عاما قال نفس هذه العبارة . فقد جاء فى رسالة من خروشوف إلى جمال عبد الناصر ، وردت فى الصفحة ٢٠ من كتاب « عبد الناصر والعالم » لمحمد حسنين هيكل (دار النهار بيروت) نصها : « تذكرون أنكم فى إحدى محادثاتنا ، أثناء زيارتكم الأخيرة لموسكو ، أعربتم عن الاستياء من حكومات الأقطار العربية المجاورة ، وسألتمونى عما يجب عمله لتغيير الوضع الداخلى فى تلك الأقطار التى تقف موقف العداء من الجمهورية العربية المتحدة ، وعن المعونة التى يمكن الاتحاد السوفيتى أن يقدمها إليكم فى هذا الصدد . وكما تذكرون فقد أجبتكم بأنه يجب إظهار التسامح والامتناع عن التدخل فى شئون الدول الأخرى . إنما يجب التأثير فى تلك الأقطار عن طريق القدوة الصالحة والمثل الطيب من جانب الجمهورية العربية المتحدة . وذلك برفع مستوى اقتصاد شعب جمهوريتكم ومســتوى ثقافته ورفاهيته وإنشاء نظام من شأنه تمكين كل القوى الوطنية ضمن الجمهورية

من إظهار مبادئها ... ولكن يبدو أنى أخفقت فى إقناعكم ... الخ الخ » .

* * *

منشآت العمال

« ... هل ارتفاع الأجور يكفى وحده لرفع مستوى المعيشة بين طبقة العمال ؟ لا أظن . والدليل أن أجر العامل اليوم قد ارتفع فى مصر عما كان عليه من قبل ، ولكن مستوى معيشته لم يرتفع بهذه النسبة ... لم تزل أسرة العامل ومسكنها وطعامها على الحال القديم ... والحل لهذه المشكلة هو أن تنشأ مصلحة أو وزارة باسم « منشآت العمال » تقوم باستقطاع جزء من أجر كل عامل وتجمل حصيلاته فى صندوق خاص ، تغذيه الحكومة وأصحاب العمل بمبلغ كاف ويوجه هذا المال إلى إنشاء المشروعات التى ترفع مستوى العمال مباشرة كبناء المساكن الصحية ، والحوانيت التعاونية والأحياء والنوادى العمالية الخ الخ ...

(من كتاب عصا الحكيم ١٩٤٧)

خزان آخر

« ... إن مصر قد تحولت فى السنوات العشرين الماضية تحولا اقتصاديا ملحوظا ، كان من نتيجته إثراء طبقة من الناس إثراء سريعا أدى إلى نشر مثل عليا جديدة فى المجتمع ... أو على الأصح مثل ليست عليا ... لأنها بذرت فى النفوس بذور المادية والوصولية والاستهتار ... ولكن هذا الأمر ليس بوقف على مصر وحدها ... كل بلاد العالم حدث فيها مثل ذلك ، يوم تمت فيها هذه التحولات الاقتصادية ، مع هذا الفارق : وهو أن تلك البلاد الأخرى كان فيها مثل عليا حقيقية قوية قبل أن تغزوها المثل الداخلية غير العليا ، فلم يستطع هذا الغزو أن ينال كثيرا من التقاليد المغروسة فى العلم والخلق والفكر

والفن ... أما مصر فلم تكن قد تهيأت بعد لمثل هذا الغزو المادى ... العلاج الآن هو أن نبادر بإقامة خزان آخر إلى جوار خزان أسوان ... خزان المثل العليا » ...

(من كتاب عصا الحكيم)

* * *

دواء الغـــلاء

« ... لا حديث للناس اليوم إلا عن الغلاء ... هذا الداء المستعصى الذى تعبت الرؤوس وكلت الهمم فى البحث عن علاجه ... ألا ترى له من دواء ... فلنبحث أولا عن أصل هذا المرض ، بعيدا عن نظريات العلماء والخبراء ... فمهما يكن من قوة الأسباب الاقتصادية أو غيرها مما يؤثر فى السوق ويرفع الأسعار فإن السبب الأكبر هو فى أيدينا نحن ، بل فى بطوننا ... فمواد الطعام من لحم وفاكهة وأرز لن ينخفض سعرها كثيرا فى أى يوم ما دمنا نريد أن نضعها على موائدنا فى كل يوم . إن شراهة المنتج والبائع تنبع من شراهة المشترى والمستهلك (مجتمع الاستهلاك) ... وإليكم تجربة تثبت ذلك بالدليل .. ... قوموا معشر المستهلكين بحملة واسعة النطاق ، واستخدموا فيها الصحف والاذاعة وكافة طرق النشر لتحديد الأصناف وتنظيم ألوان الطعام لكل قادر ولكل بيت ، محذرين من أكل الفاكهة أكثر من مرتين فى الأسبوع واللحم أكثر من ثلاث مرات والأرز أكثر من مرتين أو ثلاث ، واحملوا حملة شعواء على الاسراف والتبذير والترف فى المأكل والملبس ، وروجوا للقناعة والبساطة ... افعلوا ذلك بكل وسيلة وأنتم ترون العجب : إن الكروش ستختفى وينقص الترهل ومرض السكر وضغط الدم ، وتنقص الأسعار وتعمر الجيوب ويطعم الفقير والغنى ...

لا فائدة من علاج الغلاء قبل أن نعالج بطوننا وترفنا ... لا شيء يقتل البائع الطامع غير المشترى القانع » ...

(من كتاب عصا الحكيم) .

* * *

هذه بعض آراء واتجاهات متصلة بالروح الاشتراكية مما أمكن استخراجه على وجه السرعة من الكتابات المنشورة قبل ١٩٥٧ . وهى الكتابات المباشرة ، الخارجة عن نطاق المؤلفات الفنية فى الرواية والقصة والمسرحية . ذلك أن الكتابات المباشرة هى التى يعتمد عليها فى تحديد الموقف الاجتماعى للكاتب . أما العمل الفنى فقد يختلط فيه موقف الكاتب بمواقف أشخاص روايته أو قصته أو مسرحيته . وهذا ما جعلنى أستبعد هنا كل الأعمال الفنية ، ولا أعتمد إلا على الكتابات المباشرة وحدها . حتى وإن كانت بعض الأعمال الفنية تعالج بالفعل بعض النواحى الاجتماعية ، وكان لها من التأثير ما ظهرت نتائجه .

وبعد ... فما هو الموقف الآن ؟ وخاصة بالنسبة إلى شيخ مثلى فى المرحلة الأخيرة من العمر ؟ هل أسكن إلى الراحة ولى الحق فيها الآن ؟ أو أبذل ما بقى لى من عمر وأنفاس فى المشاركة بالجهد الضئيل فيما أتوقع حدوثه من أحداث ؟ ... نعم إن بلادنا مقبلة على تغيرات اجتماعية لابد منها للسير فى طريق التطور الحتمى . وإن ما أخشاه هو أن تضيع فرصة التقدم الحقيقى مرة أخرى فى متاهات تغوص فيها الأقدام ، وأن يفشل أصحاب النوايا الطيبة فى غرس اشتراكية حقيقية ، بعيدة عن الشعارات الكلامية ، تنفع الشعب حقا وتحمى حقوق الملايين من الكادحين والمحرومين ، وترتفع بمستوى اقتصاد شعبنا (كما نصحنا خروشوف) ومستوى ثقافته ورفاهيته الخ ... إنى أضع يدى فى يد من يسير بنا فى هذا الطريق ... وتحت تصرفه أودع رصيدى

الباقي من الطاقة القليلة والصحة الضعيفة ... لقد حقق عبد الناصر شيئا من الاشتراكية ، وكان من الطبيعي والمنطقي أن أنوه بذلك وأضخمه ، أنا بالذات ، لأنه كان يعلن أنه قرأني وتأثر بي إلى حد وصفته بعض الكتب الأجنبية بأنه تلميذ أفكاري . وكان من مصلحتي الشخصية إذن أن أستغل هذه الصفة وأضخمها بتضخيم منجزاته . ولكن مصر المتجددة هي في أن لاتقنع وتتجمد على هذه الاشتراكية المزيلة وأن تعلم أنه قد ضيعت عليها فرصة الاشتراكية الحقيقية حتى تهب مرة أخرى تطالب بها ...

توفيق الحكيم
القاهرة ١٩٧٤/١١/١٧

ندوات الحوار

أعضاء النـــدوة

توفيق الحكيم	خالد محيي الدين
لطفي الخولي	د. فؤاد مرسي
أحمد عباس صالح	د. عبد العظيم أنيس
لطيفة الزيات	د. مراد وهبة
أبو سيف يوسف	محمد سيد أحمد

الجلسة الأولى

لطفي الخولي :

نود في البداية أن نشكر تفضلكم بقبول دعوة « الطليعة » لاجراء الحوار مع أستاذنا توفيق الحكيم ، طبعا الشكر يجب أن يسبقه الأستاذ توفيق الحكيم مرتين : للمرة الأولى : على اصدار كتاب « عودة الوعى » الذى فتح الطريق لمثل هذه المناقشات الخصبة ، للمرة الثانية على أنه استجاب لدعوة « الطليعة » برحابة صدر وأستاذية نقدره عليها كل التقدير . وفي خطابه إلى الطليعة استشرف الحكيم آفاق المستقبل بأكثر مما كان الانسان يقدر ويتوقع . وأعنى به اهتمامه بقضية الاشتراكية وقضية اليسار في مصر ، ذلك الاهتمام العميق الذى بدا في الرسالة .

وبالتالى ، فإن المناقشة ، حتى تكون مثمرة ، فقد كان لابد من أن تأتى إلى هنا كل اتجاهات اليسار في مصر ، على قدر الممكن . طبعا مثل هذا اللقاء الأول : في الحوار ، لا يمثل كل اتجاهات اليسار . ولكننا حريصون على توسيع هذه الجبهة ، ودائرة المتناقشين والمتحاورين ، وذلك حسب ما سنتفق عليه في حوارنا . كان اهتمامنا ، أيضا ، أن تكون الندوة ممثلة للأجيال المختلفة في المجتمع المصرى ، خاصة أجيال الشباب . وهى غنية وفياضة وكثيرة الأسئلة ، وتطرح بإخلاص قضايا حيوية حول واقع ومستقبل مصر والوطن العربى ... الخ .

إن مثل هذا اللقاء يمكن أن يكون مجرد نزوة أو كما تقول « دردشة » مثقفين تضاف إلى « الدردشات » السابقة الكثيرة . وعلى العكس ، من الممكن أن يكون عملا فكريا وسياسيا حقيقيا ، من شأنه أن يمهد الطريق لمواصلة السير فى وضوح ، نحو المستقبل، كما قال الأستاذ توفيق الحكيم فى رسالته . وكذلك من أجل الوقوف ضد الهجمة اليمينية المتخلفة والمشحونة بالجهالة والتى تظن أن المجتمع قد أصبح « سداح مداح » لها ، وأنه لا توجد قوى وطنية تقدمية تستطيع أن تتصدى لها .

ومن هنا ، تنبع أهمية أن الأستاذ توفيق الحكيم ، بعد كل ما حدث ، يحرص على أن يحدد موقعه على أرضية القوى الوطنية والتقدمية ، ويؤكد اهتمامه بمستقبل قوى التقدم والتحرر . وذلك ، بعد أن حاولوا – مرة – أن يتخذوا من كتاب عودة الوعى درعا يحميهم من القوى الاشتراكية والتقدمية ، حاولوا ، مرة أخرى ، أن يتخذوا منه مدفعا يوجهونه إلى صدور التقدم والتحرر فى بلادنا .

إن هذه الجلسة ، هى فى الواقع ، جلسة استعراض عام للرؤية والمواقف . وأقترح أن نستعرض ما يمكن أن يسمى بوثائق هذا الحوار وهى ثلاثة أنواع :

المجموعة الأولى :

هو ما نشر فى الطليعة فى العدد الماضى من الرسالتين المتبادلتين ومقال الأستاذ توفيق الحكيم المرفق بالرسالة ...

المجموعة الثانية :

هى الورقة التى قدمها الأستاذ توفيق الحكيم تحت اسم « برنامج للحوار حول مستقبل الاشتراكية فى مصر ووضع اليسار المصرى » .

المجموعة الثالثة :

هى الوثيقة التى قامت مجموعة عمل فى الطليعة بتقديمها ، للاعداد لهذا الحوار .

ومسئول هذه المجموعة هو زميلنا الدكتور مراد وهبه . قدمت هذه المجموعة ورقة تحت اسم المدخل إلى حوار مع توفيق الحكيم .

وأفترض ، أنه من خلال مناقشة كل هذه الأوراق ، ومن المناقشة الأولية مع الأستاذ الحكيم ، نحاول أن نترجم هذه الأوراق ، إلى جدول أعمال محدد يتم على أساسه الحوار .

هل ترون أن نقرأ الوثائق أولا لأن بعضنا لم يطلع عليها ، وهى على العموم صغيرة الحجم ؟ إذا وافقتم نبدأ بها .

• لطفى الخولى :

أظن المجموعة الأولى كلكم قرأتموها ، وهى مجموعة الرسائل المتبادلة فى الطليعة وليس هناك داع إلى قراءتها .

واسمحوا لى إذن ، أن أبدأ بقراءة ورقة الأستاذ توفيق الحكيم وهذا نصها :

« برنامج للحوار حول مستقبل الاشتراكية فى مصر ووضع اليسار المصرى » :

« تنفيذا للاتفاق الذى تم بمقتضى الرسالتين المتبادلتين بيننا ، أنا ولطفى الخولى ، والمنشورتين فى عدد ديسمبر ١٩٧٤ من مجلة « الطليعة » بشأن الحوار المقترح إجراؤه حول مستقبل الاشتراكية فى مصر ، ووضع اليسار المصرى وتطوره فى المستقبل ، رأيت من الضرورى تحديد النقاط التى يجرى فيها الحديث والفحص والتحليل فى هذه النقاط الثلاث الأساسية :

١ – الشكل .

٢ – المضمون .

٣ – التجربة .

١ – بالنسبة للشكل :

فمن حيث الشكل ، فلا بد فى البداية من طرح هذا السؤال : ما هو الإطار الذى يتحرك فيه الآن اليسار المصرى والاشتراكية المصرية ؟ هل يوجد تجسيد محسوس لهما فى صورة حزب أو جمعية تمهد لحزب كالجمعية الفابية مثلا التى مهدت لحزب العمال ؟

إن اليسار بعد أن حل تشكيله لم يعد له غير وجود هلامى أو شبحى أو فرضى . وتعذر معرفة من هو اليسارى . وأصبح وجوده عن طريق الاشاعة فيقال – همسا أو اشارة بالاصبع : هذا يسارى . وقد تحتمل هذه الكلمة المهموسة أكثر من معنى ومقصد دون تحديد أو ضبط .

أما الاشتراكى فهو وصف للجميع لأن شعار الدولة الرسمى الاشتراكية والمجتمع الاشتراكى . القضية ، إذن هى مناقشة هذا الوضع وبحثه وتحليله ومعرفة هل هذا شكل مقبول أو أنه لا يعتبر شكلا ولابد من إيجاد الشكل الذى يصلح إطارا محددا لليسار وللاشتراكية فى المستقبل (وليس الآن) أى بعد انتهاء الوطن من معركة المصير . أما الآن ، فلا بد من التمهيد لذلك . ولابد لليسار المصرى أن تكون له ، منذ اليوم ، رؤية واضحة محددة لوجوده فى المستقبل من حيث الشكل والاطار .

٢ – بالنسبة للمضمون :

من حيث المضمون فإن اليسار المصرى مطالب بتحديد أهدافه أو براجه والمناقشة فى ذلك تقتضى :

هل يجب أن يكون لليسار برنامج اقتصادى واجتماعى وسياسى وثقافى خطط مسبقا للمطالبة بتحقيقه والعمل على مراقبة تنفيذه ، أو أنه لا يستطيع ذلك إلا بعد أن يتجسد فى شكل محسوس ؟

أما الآن ، وإلى أن يحين وقت تجسيده ، فما هى المواقف التى ينبغى له أن يقفها تجاه القرارات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التى تتخذها الدولة ؟ وهل يجب أن يقف منها دائما موقف المعارضة ، أو أن يفحص مضمون كل قرار ليرى منفعته للطبقة التى يدافع عن حقوقها ؟ ثم ، هل اليسار المصرى مرتبط بالمبادىء وللمذاهب اليسارية والاشتراكية العامة فيقف ويطالب بتطبيقها كما هى ؟ أو أنه يدرس بكل حرية واستقلالية مدى مطابقتها العملية على واقع الحال المصرى ؟ أى هل يجب أن يكون تابعا أمينا المذهب العام أو أن تكون له تصرفاته واتجاهاته المستوحاة والنابعة من طبيعة بلاده وحالة وطنه .

كل هذه قضايا تحتاج من اليسار أن يفحصها ويناقشها ويعمل على تكوين رؤيته الواضحة المحددة كذلك فيها .

٣ — بالنسبة للتجربة فى مصر :

من حيث التجربة ، فإن الاشتراكية المصرية بدت بعد ثورة ٥٢ بصورة ظاهرة وقبلها بصورة إرهاصات . فلابد — واليسار المصرى مطالب بهذا — من المناقشة الصريحة والفحص الحر الكشف عن مدى الايجابيات والسلبيات فى هذه التجربة مع الاستبعاد المؤقت للمواقف العاطفية أو التكتيكية التى تضخم وتدافع وتتستر . لأن اليسار ، فى هذه المناقشة والحوار وهذا البحث والفحص ، إنما يعمل من موقع المسئولية ، وهو يضع التجربة فى بوتقة التحليل الموضوعى وليس فى ساحة المحاكمة والاتهام .

« ومسئولية اليسار ، هنا ، فى التحليل الموضوعى ، تجربة تنبع من كونه يضع بذلك دعائم وجوده ونموه وتطوره فى المستقبل . فإن الأساس الذى

سوف ونركز عليه هو محصلة هذه التجربة . يجب — إذن — أن يكون على معرفة تامة وعميقة بمسار التجربة الاشتراكية ، فى كل طرقها ، واستوائها وانحرافها وتقدمها وتوقفها ، ودراسة كل العوامل التى دخلت فيها ودفعتها إلى الأمام أو إلى الخلف . حتى إذا نجح هذا النقاش والحوار والبحث . فإنه سيؤدى حتما إلى وضوح الرؤية الكاشفة لمستقبل اليسار المصرى ، فى شكله ومضمونه وتحديد ملامح الاشتراكية الحقيقية وصيانتها وتأمين مسيرها إلى الأمام .

« انتهت الورقة المقدمة من توفيق الحكيم » .

أما بالنسبة للورقة التى أعدتها باسم الطليعة مجموعة العمل التى أشرف عليها الدكتور مراد فتقول :

« إن التجربة الناصرية ، فى اللحظة الراهنة ، موضع تقييم من جميع القوى الاجتماعية وعلى تباين مواقفها وفكرياتها . فقد أثار كتاب « عودة الوعى » بقلم توفيق الحكيم جدلا ساخنا ، تولج بين النقد المرير لما أطلق عليه ردة توفيق الحكيم وبين كسر شوكة هذا النقد بدعوى أن توفيق الحكيم أحد كبار الملهمين لثورة ٢٣ يوليو .

« وحسما لهذا الترنح ، من أجل مصر المتحفزة للسير فى طريق الاشتراكية وافق أديبنا على مواصلة الحوار مع أسرة الطليعة على أن يكون هذا الحوار بداية لحوار يشمل كل القوى الوطنية والتقدمية فى الوطن .

« وثمة قضيتان مطروحتان فى هذا الحوار . نعنى بهما : مستقبل الاشتراكية فى مصر ، ووضع اليسار المصرى ونموه وتطوره فى المستقبل .

من البين — ها هنا — أن الرؤيا المستقبلية هى المعين لهاتين القضيتين . وهذه الرؤية لازمة لنقد الحاضر من أجل توجيهه الوجهة المرغوبة ، لازمة كذلك للإستفادة من الماضى حسبما تقتضيه هذه الرؤية .

« ومعنى ذلك ، أن المستقبل هو نقطة البداية لفهم الحاضر والماضى .

ويحدد أديبنا الكبير هذا المستقبل بالاشتراكية الحقيقية وهى تدور على محورين :

١ — محور إيجابى هو حماية حقوق الملايين من الكادحين والمحرومين لرفع مستوى اقتصاد الشعب .

٢ — ومحور سلبى هو إلغاء الشعارات الكلامية .

وفى ضوء هذين المحورين، يتأمل أديبنا حاضرنا فلا يرى فيه إلا اشتراكية هزيلة أثارته ، فسود ما سود من صفحات صدرت بعنوان « عودة الوعى » . فإذا باليمين التتارى يلتقطها ، ويروج لما جاء فيها من سلبيات فى التجربة الناصرية، وإذا باليسار يجد نفسه مضطرا لمواجهة هذا اليمين المتخلف، ومضطرا إلى التركيز على إيجابيات التجربة فحسب .

وفى تقديرنا ، أنه قد آن الأوان لتقسيم العلاقة الجدلية فى رسالته إلى اليسار المصرى المنشورة فى مجلة روز اليوسف فى عددها الصادر فى ٢١ أكتوبر ١٩٧٤ ، حيث يقول :

« وفى اعتقادنا أن اليسار يجب أن ينقد السلبيات الكثيرة التى عانينا منها لأن هذا واجب ، ولأن هذا لن يخدم اليمين ، وإنما سيحرمه من الاستفادة بالموقف التبريرى لليسار » . بل إن أديبنا العظيم لم يقف عند حد هذه العلاقة الجدلية بين ماهو سلبى وما هو إيجابى ، بل تجاوزه إلى حد طارح العلاقات الجدلية بين ماهو ذاتى وماهو موضوعى . ونعنى بذلك ، موقع عبد الناصر من قضايا الثورة والديمقراطية . فهو يقول فى نفس الرسالة « انى بما كتبت لم أكن أتجنى على عبد الناصر كما يقولون . إننى ، على العكس ، أحبه وأقدره لكنى أضع اجتهاداته فى موقعها أوأعتبر أن مشكلات الديمقراطية والاشتراكية

فى بلادنا ما تزال بعـــد عبد الناصر فى حاجة إلى حلول أخرى ثورية وديمقراطية » .

وأديبنا المبدع ، حين يثير هذه القضايا ، لا يرى غير اليسار المصرى كفيلا بفهمها وحلها . وهو من أجل هذه الرؤية يخاف على اليسار ، ويرغب فى الحفاظ عليه وعلى مستقبله . وهو من أجل هذه الرؤية أيضا ، يدعو إلى توحيد اليسار بمختلف اتجاهاته الشاردة وتكتلاته المتباعدة .

« وهنا ، يقدم أديبنا تقييما لليسار المصرى يغلب عليه طابعا سلبيا . وفى رأيى أن هذا التقييم هو حتما موضع تقدير من اليسار المصرى ، وهو يعتبر توفيق الحكيم واحداً من أهم الطلائع المستنيرة فى سماء هذا الوطن ، على حد قول الطليعة ، فى افتتاحيتها فى عدد ديسمبر ، من هذا العام(١) . ولهذا فإن التقييم يدخل ، بالضرورة ، فى إطار الحوار الخاص بالتجربة الناصرية . ومن هنا تكمن مشروعية فتح ملف التجربة » .

والآن ...

بعد قراءة هذه الوثائق ، أعتقد أنه من المفيد ، ونحن نخطو الخطوة الأولى نحو الحوار ، أن نسأل أستاذنا الحكيم إذا كان يود أن يقول أو يضيف شيئا إلى هذه الوثائق أو يلقى مزيدا من الضوء على ساحة النقاش قبل أن ندخل إليه .

• توفيق الحكيم :

أريد أن أقول إنه من المهم فتح الملفات لماذا ؟ لأنه يكون الخطأ فى فتح الملف عندما يعنى فتحه اتهام فترة بكاملها . وإذا كان اتهاما فحتى هذا يبقى شيئاً مطلوباً ، أيضاً الاتهام معناه أنه فتحت قضية ، وفيها دفاع وفيها خبراء وفيها تقييم . إنما قالوا : هجوم . هذا الهجوم يفهم منه أنه توجد عملية هدم لشخص

---

(١) الطليعة — عدد ١٢ — ديسمبر ١٩٧٤

أو لفترة. فالمسألة هي أنه عندما نرجع لما حدث : سواء في الكتاب (عودة الوعي) أو غيره تجد أني أقول يا ناس ! نحن نريد أن نفتح ملفاً لنصل إلى حقيقة. وأنا أرجو أن يسفر هذا عن - يعني - براءة، أو تخفيف لمسئوليات شخص أنا أحبه وأعتبر أنه كان هناك تلاق روحي وتلاق فكري بيننا. ولكن لماذا هذا ؟ لأن المسألة إذا انقلبت إلى ضريح وعبادة شخص، فمن هو الذي يستفيد منها ؟ الكهنة والسدنة « اللي هم ما تعرفوش عايزين يعملوا من الحكاية دي إيه ويقولوا أبوه ما احنا ماشيين على خط عبد الناصر - ما هو عبد الناصر عمل كذا - ما هو كان رأيه كذا ».

فالقضية هي أن الناصرية - كعبادة - خطرة على اليسار قبل كل شيء. لماذا ؟ هي ليست خطراً على اليمين، اليمين سوف يكسبها. اليمين قوى جداً، لأن اليمين هو الأصل في الإنسان. الأصل في الإنسان أنه يميني، واليسار هو الطارىء كيف ؟ الأصل في الإنسان الأول لما يولد طفل ... يبقى يميني، يعني يريد الأوضاع كما هي، وبعد ذلك يكبر ويجد مثلا أوضاعا قائمة وقديمة فيقال له جدك كان يعمل كذا، وللمسائل كذا. أما اليسار فهو التغير الطارىء يريد أن يعمل ما يريده، يريد أن يغير. فإذا بحثت عن ماضي اليسار، وفي أي زمن كان، سنرى أن ماضي اليسار يرجع إلى أيام أخناتون. لأن أخناتون جاء فلقى أوضاعا مستقرة في عبادة آمون، ولقى الكهنة مسيطرين، وقد وضعوا تقاليد معينة. وأن لهم قوة كبيرة لأنهم هم الذين كانوا يحكمون من وراء الفرعون. فجاء أخناتون، كيساري، لأن اليسار، هنا يعني الذي يريد تغيير وضع قائم وجامد. فالأنبياء كلهم في عصرهم يساريون، أي مجددون. مثلا : محمد وعيسى جاءا للتغيير، يعني تغيير أوضاع استقرت في المجتمع ويجب إصلاح هذه الأوضاع والأفكار والعقائد القديمة بتغييرها بعقائد وأفكار جديدة[1].

فعملية التفكير، بعد استقرار الدين، يظهر أنها غير مسموح بها ؟ كان

(1) قال الله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . »

مسموحا بها مع للثائر الذى هو النـبى . الثائر الأول يسمح لك بالتفكير والمعارضة لأنه هو بنفسه ثائر ويريد أن يعرف الحقيقة . إنما بعد أن عبد ، وبقى مقدسا وأصبح له كهنة وسدنة يغلقون عليه الأبواب ويمنعون التفكير والاجتهاد بحجة الحرص على الدين، فإن المجتمع يعود إلى الركود والتجمد . فإذن أنا أخاف من التجمد . أخاف من الناس الذين فى طبيعتهم التجمد، لأسباب طبيعية فيهم أو لفوائد ومصالح، وهؤلاء — مع الأسف فى كل الدنيا لهم أغلبية . إذن، هناك ناس خلقوا على الأوضاع التى تجمد . ومن هنا ، الخوف من تجميد الفكر . اليمين الرجعى يريد إما أن يثبت فى مكانه وإما أن يرجعك إلى عهود قديمة لا تنطبق على وقتنا الحاضر ويجعلها هى المقياس ... الوراء لا يمكن أن يكون مقياساً إلا فى الأشياء الثابتة الخاصة بأساس لا يتغير . يعنى مثلا شعورك بالقوة الكبيرة التى هى الله ، كما جاءت به الأديان . لكن عندما يتدخل الكاهن ورجل الدين ليخطط لمجتمع حاضر ، بمفهوم قديم ويقول : إن هذا التخطيط الذى يصلح للماضى يجب أن ينطبق عليك حالياً ، بلا اجتهاد وبلا تفكير ، فهذه عملية تجميد للمجتمع وللانسان البشرى . هذا الانسان لن تقوم له قائمة . وفى هذه الحالة يظهر اليسار . لكن ماذا تعنى كلمة يسار ؟ ... لا توجد كلمة فى مصر شوهت كما شوهت كلمة اليسار » ... لأنه لا ضابط ، ولا رابط لها حتى صارت تهمة . العملية إذن عملية عدم ضبط للمعانى وتحديد للكلمات . ولذلك لم أكن أحب أن أستعمل كلمة يسارى ويمينى لأنها تأخذ معانى أنا لا أقدر أن أضبطها . ولذلك ، أنا كنت أقول أنا لا أعرف هذا الكلام . أنا — فيما يتعلق بشخصى — خذونى بالسلوك والعمل . لكن لا تأخذونى بالأشكال . وعدم ارتباطى بالشكل السياسى ، فى ثورة ١٩٥٢ ، سوف أشرحه فى حينه .

• لطفى الخولى :

ماذا إذا طبقت على الواقع خطوط هذه النظرية ؟ أقصد على الواقع المصرى المعاصر ؟

• توفيق الحكيم :

اليوم ، فى الواقع المصرى سوف تقوم عبادة لعبد الناصر تمنع من محاسبة أعماله والأعمال التى حدثت فى عصره . والذين يريدون منع المحاسبة أو وصفها بهجوم سيقيمون ضريحا مقدسا حوله ، وسيوجد كهنة سيستفيدون منه . لكن لن يستفيد منه اليسار أو التقدم البشرى . إرجاعه إلى بشر مسئول يعنى أننا سنحاسبه . وإذا حاسبته فربما كان ذلك فى مصلحته . وقد تصبح مسئوليته فى الخراب الذى حصل ٢٠ فى المائة ، وربما ٣٠ فى المائة ، يعنى ، فلنقل ٥٠ فى المائة لعبد الناصر ولمن هم مسئولون معه .

الخمسون فى المائة الآخرون هى مسئولية كل الناس : وهم : ابتداء من المخابرات ومراكز القوى . لأنه إذا سألنا عن مراكز القوى ، هذه كيف تنشأ وتتكون — وأنا لم أدرسها — إلا أخيرا . أصلا أنا فعلا موقفى كان موقفا نابعا من التاريخ السياسى المصرى فى العشرينيات حتى مجىء عبد الناصر . كنت عارفا الحكاية . يعنى أنظر لها نظرة معينة . وهذه النظرة هى أن تاريخ مصر السياسى من العشرينات إلى الثلاثينات وإلى الخمسينات ، التى هى الثورة المصرية كان ماشيا فى اتجاه واحد وهو الاهتمام بالشكل دون المضمون . الدساتير ... مثلا عبد العزيز فهمى الذى وضع الدستور يقول : هاتوا لنا دستورا معينا ليأتى بالمفكرين . ويأتى الوفد يقول لك : نريد دستور ٢٣ ، وبعد ذلك يأتى الملك والانجليز ليوقفوا هذا وذاك ، ويوقفوا البرلمان ، لدرجة أنى كتبت أقول : البرامج أولا : طيب أين برنامجكم ؟ البرامج غير موجودة . فالمسألة كلها تدور حول الشكل ، أى شكل الحكم . لكن أين مضمونه ؟ أين برنامجكم ؟ داخلين الحكم لماذا ؟ وابتدأوا مهاترات فى مسائل كلها مسائل شكلية وتركوا البلد وتقدمها لنفسها . فإن كان بذلك قد أنشىء فبمجهود رجل خارج الحكم مثل طلعت حرب . وإذا كانت هناك نهضات

أدبية وفكرية فقصد تام ، بهذا ، الأفراد . أما الحكومات فكانت مهتمة بالشكل . وظل هذا الشكل أغلبية وأقلية ، والحزب الفلانى جاء والحزب الفلانى لا يمكن أن يحكم . هكذا ثلاثون سنة حتى جاءت ثورة ٥٢ . فإذا بثورة ٥٢ تأتى وتعمل العكس . دخلت بمضمون وإنجازات بلا شكل . يعنى جاءت كرد فعل عجيب قوى . لكن أين الشكل ؟ الشكل غير قائم إنما هم جماعة جاءوا مخلصين وشباب وطنى ، دخل ينفذ المضامين ويقول لك : الشكل لا يهم : طيب ! لكن سأوضح - فيما بعد - إن مسئوليتى فى هذا جسيمة . لماذا ؟ لأن هذا الكلام - بالضبط قلته فى «شجرة الحكم » ... (١٩٤٥) قلت لاينقذ البلد غير ثورة مباركة . ولا أعرف كيف حدث هذا ! كيف حدث أن خطرت لى فكرة ثورة فى عهد ملك ؟ يعنى هناك إلهامات تأتى ولا أقدر أحلل كيف تأتى . يعنى أنا غير مصدق كيف قلت هذا التنبؤ بثورة . ولذلك جبت الكتاب ثانى طبعة ٣٨ أو ٣٧ . الطبعة الأولى لم أجد نسخا منها بقاتا إلا بعد فترة طويلة يمكن طبعة ٤٢ . لكن فى طبعة ٣٧ أو ٣٨ كيف - وفى ذلك الوقت - أقول كلمة « ثورة مباركة » فى عنفوان الملكية ؟ ماذا كنت أريد من الثورة المباركة ؟ ما الذى تعمله ؟ - أولا الأحزاب كلها هاجتها - و « وبهدلت » الدنيا ورسمت لهم صورة كلها « زى الزفت » . وأنه لا أمل فيهم ، ولا يمكن أن يعملوا عملا فى الصميم يفيد الشعب باعتباره « مضمونا » فأنا أدنت الأحزاب ، وقلت أنا لا يهمنى شكل الحكم ، ولا الدساتير ، لأن العبرة بالأشخاص المخلصين الذين يستقطبون ما يريده الشعب فعلا .

وفى كتاب تحت شمس الفكر » أثرت قضايا خاصة بمظاهر مثل : يا ناس ! طربوش إيه ؟ الغوا الطربوش ! ودخلت فى معركة مع رجعى إسمه خليل ثابت رئيس تحرير المقطم فى سلسلة مقالات . فكان يقول لى هذا رمز الوطنية وذلك

يقول كلام لا أعرف نهايته . وبعد ذلك ، كتبت مقالات اصطهاد كادر للقامات ضد الألقاب . وبعد ذلك عن تحديد الملكية ووضع الفلاح . وفى المقالات التى نشرت ، شرحت كيف كان برلماننا عبارة عن برلمان ملاك ، والملاك الذين جاءوا بهم ، هم الذين أعطوا أنفسهم الوصاية على بقية عناصر الشعب . كل هذا كتب ونشر قبل ثورة ١٩٥٢ . وطبعا « عودة الروح » كان فيها مسألة هى نظرية الكل فى واحد والزعيم المعبود : مصر فى حاجة إلى زعيم معبود ينقذها « الكل فى واحد » — هذه رنت فى ذهن عبد الناصر رنينا قويا . وأيضا حكاية إلغاء الأحزاب . واحكم بنفسك وبمفردك ولكن بمضامين . فجاء عبد الناصر ولم يكن يباشر الثورة فى إطار شكلى ، لم يكن يهمه الشكل ، ترك الشكل ودخل فى المضمون ، كما كنت أعنى ... وإلا لما كنت تحمست له بهذه القوة . أين كنت عندما ألغيت الدساتير ؟ هنا ، لابد من ذكر أن من قاوم هذا الفكر الذى طرحته (عن الاهتمام بالمضمون دون الشكل) كانوا أولا الأحزاب القديمة . الله ! أين الدستور ؟ اعملوا لنا دستور ! أنا لم يكن يهمنى هذا الكلام . إنما أنا شتمت الدساتير المفتعلة . كان هناك اتجاهان : اتجاه الرجعيين واتجاه اليسار . واليسار فى ذلك الوقت قال : هذه نازية . يعنى خيل له أن هذه مسألة خطرة أى عدم وجود شكل ديمقراطى لهذا النظام .

• خالد محيى الدين :

لكن مصر ، أعنى الثورة ، لم تكن حددت البرنامج الاجتماعى . كان هناك اتجاه إلى فتح الباب لرؤوس الأموال الأجنبية والرغبة فى التفاهم مع الولايات المتحدة . الاتجاه الثورى لم يكن قد وضح . والسبب الذى حفزنا إلى الديموقراطية — على الصورة التى أشار إليها الأستاذ توفيق الحكيم — هو أن الاتجاه كان إلى قبول النقطة الرابعة ، وهى الاتفاقية التى كانت الحركة الوطنية ضدها قبل ٥٢ ، أى ضد فكرة استيراد رؤوس الأموال الأجنبية .

كانت هناك حركة وطنية ضد أي معاهدة تربطنا بالغرب . وكان الاتجاه السائد هو قبول معاهدة فيها نوع من الرباط واحتلال القاعدة ، ثم الانفتاح على رؤوس الأموال الأجنبية ثم شدة العداء للشيوعية . وأنا — كرجل يساري — كنت متخوفا من هذه الاتجاهات . فكانت وجهة نظرى أن العلاج لهذا الموقف ... ومع إبدال الحكم المطلق الذى تمارسه مجموعة مثل مجموعتنا — كان العلاج أن تكون هناك ديمقراطية . وكان الرأى أن الثورة تعمل حزبها . لم يكن مطروحا أنهم يتنحون . إن الثورة تعمل حزبا ، وعندها الشعبية القوية ، فلا يجب أن تخشى الانتخابات . لكن الفكرة التى كانت سائدة ، وهى فكرة المستبد العادل ، نظرية المستبد العادل كانت موجودة عند على ماهر . والاخوان المسلمون كانوا ، أيضا ، يدعون إلى أن المجتمع الإسلامى ليس فيه أحزاب . ثم أن الناس كانت « زهقانة » من الأحزاب .

• توفيق الحكيم :

هو أنا ، لما كانت لى كتابات سابقة ، كان فيها نقد شديد للاهتمام بشكل الحكم دون مضمونه ، ودون وجود رواج . هذا جعلنى لما لقيت رد الفعل العسكرى ، وهو مضامين بلاشكل رحبت بها . ثم كنت أشرت ، أيضا ، إلى أن الدساتير لا تهمنى ، وإنما تهمنى ثورة مباركة تشتغل لمصلحة البلد من أشخاص مخلصين . يعنى لا أريد الشكل . لكن اتضح أن إهمال الشكل أدى إلى المساوىء التى تنبهتم إليها . وأنا لذلك أتحمل جزءا من المسئولية فيها . وأنا لا أبرر موقفى . وإلا كنت أبنى حياتى على تزييف ... أنا طول عمرى ما عملتها ! فلابد أن الموقف يكون صادقا ، لأنى أنا لم أكن أطمع فى مناصب ، لا من هذا ولا من ذاك . كل ما أردته أن أرى حالة البلد لا بشكل نظرى ، ولكن بمضمون فعلى عملى نافع للشعب ، كنت أسأل قبل كل شىء : كيف سيحكمون ؟ هؤلاء جاءوا على الفور بإنجازات قالوا لك : عملنا الاصلاح

الزراعى والنظام والعمل (حتى كلمة النظام وردت فى كتبى) . إذن ، كنت أنا قائلا بالثورة ، بهذا الوضع ، بدون أن أرى أن هذه عيوب أو انحرافات يمكن أن تؤثر فى مجرى الثورة . فكانت النتيجة أننى كنت معها بإخلاص ، حتى لقد كتبت مقالة أقول فيها « منذ ٣٠ سنة أنتظر هذا الرجل » أى عبد الناصر . وكنت مخلصا فى كل هذا ، لأنى كنت أعبر عن آراء سابقة قبل الثورة . وكان يمكن أن تكون آراء مفتعلة لو أننى نظرت إلى عبد الناصر بعد أن جاء ولقيت فى يده السلطة ، لكن هذا لم يحدث . ولو أنه حدث ، لكنت أعطى لنفسى حرية الفحص . إنما هذه حاجة مغروسة فى أفكارى القديمة بكتابات من ٣٠ سنة . فعندما يأتى هذا الرجل لينفذها ، فإذن من الطبيعى أن أقول : أنا متحمس له . أيضا أنا فاكر إن السنهورى لما جاء وقال لنا الثورة تريد أن يكون الحد الأقصى للملكية الزراعية ٥٠٠ فدان أو ٢٠٠ ؟ قلت له : لا ! اجعلوها ٢٠٠ لأننا نريد ثورة لا أنصاف حلول . فإذن ، كنا متحمسين لهذا الاندفاع ، أو على الأقل أنا . أما المعارضون وقتئذ فقد تنبهوا إلى ضرورة الشكل . ولذلك ، أنا ، اليوم حقيقة ، إذا جئت إلى هنا وقلت : الشكل ، فلأنك إذا أنت عملت مضمونا بلا شكل ، وجاء حاكم فى يده سلطات تكاد تصل به إلى العبادة ، فتكون النتيجة أنه يعمل لنفسه شكلا . أى أنه يشرع على الفور فى البحث عن شكل يستطيع أن يقنن به سلطته العظيمة هذه . فيجمع المعبود ، الزعيم ، السلطة الشعبية الروحية والسلطة الفعلية المادية . ومثل هذه الأمور ما كانت لسعد زغلول . سعد زغلول كان عنده ما يمكن أن نسميه — السلطة الروحية ، وهى الزعامة الشعبية التى لا شك فيها . إنما لم تكن عنده السلطة الحقيقية . أمامه الملك وهو ضده ، وأمامه جيش الاحتلال الإنجليزى . فكان لسعد زغلول عبادة شعبية بلا سلطة حقيقية . لأن فى مواجهته القوى التى تملك السلطة : جيش وملك . فكان سعد زغلول

يسقط مرة ومرة ينهض . يعنى سعد كان محل نقد من الصحف المعارضة له ؛ لأن العبادة لم تكن تدعمها سلطة ... العبادة كانت عبادة شعبية .

عندما جاء عبد الناصر تمتع بما لم يتمتع به أحد فى العبادة بما فى ذلك الفراعنة الذين كانوا يحكمون بواسطة الكهنة . والكهنة - أتباع آمون كانوا يقولون للملك : لا ! اعمل كذا ، واعمل كذا نتوجك ! لكن سلطات عبد الناصر الكاملة بلا حدود لا يمكن أن نقول إنها تكررت فى مصر .

• لطفى الخولى :

لكن كانت رغم طابعها الفردى - وهذه سلبية طبعا - ذات طابع وطنى تقدمى وتأييد شعبى .

• توفيق الحكيم :

أنا أقصد أنها كانت سلطة شعبية وحكومية معا . وكنت أحبه لأنه جاء - كما أردت - بمضامين وإنجازات ولم يتكلم فى الشكل . ونظرنا فوجدنا إنجازات تتم ... إصلاح زراعى وأشياء كثيرة ومجلس أعلى للفكر . كل ما كان الناس يريدون .

طيب ! إذن ماذا حدث ؟ الذى حدث أنه عندما يكون الشعب معه ويعبده عبادة لانجازات تمت فعلا ، وبعد ذلك تكون معه السلطة الفعلية ، فلن يوجد مخلوق واحد يقدر أن يقول له الزم بيتك ، كما كانوا يقولون لسعد زغلول . فهذا نوع من أنواع السلطة التى لم يتمتع بها أحد . هو بمفرده لا لتشكيل بجانبه . فماذا حدث بعد ذلك ؟ حدث على الفور أن ظهرت الجماعة التى نسميها سلطات مراكز القوى . والتف حوله ناس أخذوا سلطات كبيرة جدا بحجة الدفاع عنه والمحافظة على حياته والمحافظة على نظامه . فيأتى له مثلا فلان ليقول : آه ... هذا فلان كان فى نادى كذا وكان قاعد يفتح ...

ففلان يوضع تحت الحراسة ويأخذون فلوسه وحريته بدون محاكمة . وكانت النهاية كل ما وقع من سجن وتعذيب . والأمر هنا واحد من اثنين : فإما أنه كان على علم بكل هذا ولم يكن بيده ، وفى بعض الأحيان تجد بعض ناس يقولون هو أمر بأن هذا لا يصح ! وأما أن هناك آخرين يعملون هذا كله من وراء ظهره وهو لا يعرف . وجائز أنهم كانوا يقولون له : لا ! أنت تعرض الخطر النظام كله إذا قامت المحكمة بتبرئة فلان ... أو يقولون : إن تبرئة المحكمة لفلان معناها أن القضاء سلطة أخرى ... وأن القضاء هو أيضا متعاطف مع القوى الرجعية ... يعنى كلام يفهمونه للزعيم للطالق ... فوجدت هناك قوى أخرى تنشط بدون مسئولية . وفى الناحية الاقتصادية ، أيضا ، استولوا على قطاعات لمصالح خاصة لا لمصلحة الشعب ، إلى غير ذلك من المساوىء التى رأيتموها .

ثم جاءت حرب اليمن . ما هى حكايتها بالضبط : هل كانت نتيجة معلومات مغلوطة عن حجم العملية ؟ وهل كان الدافع الأول إليها — كما قيل — أنها أمريكا والصهاينة لاستنزاف جهد مصر وأموالها فى حرب بين العرب والعرب بعيدا عن إسرائيل ؟ ما هى الحقيقة هنا ؟ وهل كلفت مصر حقا أربعة آلاف مليون جنيه كان الفلاح المصرى ينتظرها لتحقيق اشتراكيته ورفاهيته ؟ ؟ . نحن ، فى مصر ، عندنا فلاحون وعندنا القرى فى حاجة إلى إصلاح ... يعنى ٤ آلاف مليون هذا كثير . فهل هذا حقيقى ؟ أو غير حقيقى ؟ كيف نعرف كل هذا ؟ كيف ندرك الحقيقة ؟ لابد إذن من فتح الملفات ...

• لطفى الخولى :

إذا أذنت لى ... فقط من أجل محاولة تنظيم عمل الندوة ، ألا تلقى اليوم بكل أرائك دفعة واحدة . إنك أعطيتنا اليوم ما يمكن أن يكون « فرشة » أو خلفية مهمة لأبعاد آرائك ومواقفك . المطلوب ، بعد ذلك ، أن نستخدمها

فى ترجمة الأوراق والمناقشات إلى جدول عمل نسير عليه فى الجلسات القادمة .

وأقترح ، فى مجال تمهيد الأرضية العامة للحوار ، أن الأستاذ خالد محيى الدين، من موقعه : باعتباره أحد مفجرى ثورة ٢٣ يوليو ، وفى نفس الوقت ، كان قد اختلف فكريا واجتماعيا — فى مرحلة من المراحل — مع الثورة واستقال من مجلس قيادة الثورة . وذلك كله من موقع يسارى رغم استمراره فى تأييد الخط الوطنى التقدمى للثورة ، أقول الأستاذ خالد يمكن أن يزودنا أيضاً « بفرشة مختصرة » من وجهة نظره بحيث أنه بعد هذا ، نتصدى لتحديد جدول الأعمال بوضوح أكثر وبعدى أعمق .

• توفيق الحكيم :

نحن فعلا فى انتظار هذه « الفرشة » . ولكن أحب قبل هذا أقول كلمة فى « عودة الوعى » لأنك أنت وضعت الموضوع على هذا الأساس .

ونحن نتفق على أن « عودة الوعى » كان مطالبة بملف يفتح . وأن هذا الملف يفتح موضوعياً . وأننا نعمل كما حدث فى الاتحاد السوفيتى لما رفض عبادة الشخص ... لما جاء ستالين وكان قد جمع كل السلطات فى يده لأن أمامه النازية وأخطار خارجية لجمع كل السلطات . . كل سلطة تتجمع فى يد فرد عبادة وشعبا وجيشا وكل شىء ، فهنا يلتف حوله ناس « بخلوه » يرتكب هذه الكوارث الدموية... يعنى ، ما حصل فى أيام ستالين هو نتيجة تقارير . وبدأت العملية الدموية ، من أين تأتى هذه العملية ؟ تأتى من أن شخصا ليس هوايته الحكم بالدماء . لا ! وإنما هو حكم الفرد الذى ليس فيه معارضة . هنا تجد ناس يفتخرون به ويقولون له : إلحق ! نظف فؤادك وصفوفك ... فالعبادة فى الواقع تخدم ناسا يستفيدون من وراء العبادة ... هات أى شىء واعمل له ضريحا مقدسا فعلى الفور ستجد أنه طلع واحد شيخ وجاب صندوق نذور وهو الذى أكتسب فى النهاية من صندوق النذور . ويقول لك « يا أخى دا سره

بائع » ... فلا بد أن عبادة الفرد تكون بهذا الشكل ... كاهن وضع قطعة حجر وقاعد يقول لك القرابين ... ما هى القرابين؟ تذبح كذا وكذا ... وهو يملأ كرشه ... فحيث توجد عبادة فهذا يعنى أن هناك كهنة يستفيدون ...

• لطفى الخولى :

هل نفهم من ذلك أنك تراجعت عن هذه الأفكار والمواقف ... أو بتعبير آخر ... تعتبر نفسك مسئولا تاريخيا ؟ ...

• توفيق الحكيم :

طبعا أنا مسئول . أنا أدين نفسى · لأنه ما كان يصح لمفكر حر أن يكتب ويقول ما يجمع على ظهور زعيم معبود ... لماذا ؟ ... لأن الكاتب الحر كان يجب أن يتنبه لعبادة الشخص ونتائجها . إنما الذى خلانى أنقاد هو أنه أولا - من ٣٠ سنة - وأنا أمام أشكال من الحكم ليس فيها مضامين أبدا .. فلما أن جاءت الثورة ببعض المضامين ... ثم أجدها تنفذ كلاما أنا كاتبه فى الورق فهذه أمور كانت آمالنا وتتحقق . مسألة أن هذه الأمور تصل إلى عبادة الشخص لم يكن فى تخطيطى ، هكذا . وحتى إذا حدثت أيضا ، ما كان لى أن أرفضها لأنه لا بد أن يثبت - بعد ذلك - ضرر هذه السلطة المطلقة التى بلا حدود . وقد ثبت بالفعل والواقع هذا الضرر . كما ثبت أنه لا بد لأى بشر أن يكون قابلا للمحاسبة . هناك من يقول : الناصرية لا أحد يمسها ؟ لكن من يدافع عنها ؟ ستجد : أن الذى يدافع عن الناصرية - فى هذه الحالة - هم الناس الذين لا علاقة لهم بثورة ولا اشتراكية ... جماعة يستغلون صندوق النذور « واخد بالك ! » إنما يوم أن تجعله بشراً قابلا للمحاسبة ... وتقول نعم ! هذه الثورة ملكى ، ملك الشعب ، وليست ملك عبد الناصر ، فهنا لا بد من أن نفتح للملف ونرى كيف اتجهت الثـورة . فنسأل : لماذا فشلت هذه العملية ؟ طيب ! وماذا حدث فى هذا الموقف بالدقة ؟ ولماذا فعل عبد الناصر

هذا ؟ فإذا تمت المحاسبة بدون دفاع عن العيوب وتبرير للخسائر وبحث موضوعي ، ستجد أن هذا الرجل مسئوليته تضاءلت ربما إلى حيز ما كان يمكن أن نتصور درجته ، وأن درجات كبيرة من المسئولية قد تقع على آخرين .

فإذن « عودة الوعى » هو كذلك دعوة إلى البحث فى درجات المسئوليات .

لقد قلت فى هذا الكتاب إنه لا بد من كشف الحقائق لنعرف الحكاية إيه ؟ لا بد ! وهذا مهمة الكاتب التى لا يمكن أن يتنازل عنها : وهى معرفة الحقيقة ... لا بد أن أعرف الحقيقة ... ولهذا فإن « عودة الوعى » إذا ماوضع أمام التحليل المنزه أعتقد أنه سيكون فى مصلحة عبد الناصر ... إذا تركناه للسدنة « والكهنة » الذين يقولون لك : كفر ! حذارى من أن يمس أحمد عبد الناصر ! كفر ... فإن التاريخ لن يرحمه أبداً . لأنه أولا ... لكن هل هذه التهم حدثت ؟ طيب ! لم يناقشه فيها إنسان . طيب ! نناقشه. لكن أجزاء المجتمع الحاضر مختلفة على ذلك الآن .

جزء يقول لك ... لا ... لا داعى ! أنا أحب الرجل بعواطفى ، وأنتم تجرحونه ، وكلام من هذا القبيل . هذا هو النوع العاطفى وهو جزء ! أو اتجاه لا خطر منه .

وجزء آخر ، يقول لك لما يفتح الملف «حتروح فى داهية» لأن مسئوليتنا ستبقى ٨٠ فى المائة وهو ٢٠ فى المائة . لا ! الملف . لا يجب أن يفتح ... ولذلك ما أن فتحت الملف حتى لقيت نفسى داخلا فى الحكاية . وبعد ذلك لما ابتدأت أحلل لقيت أن الحكم المطلق ...

● لطفى الخولى :

أود أن أسأل سؤالا خطر ببالى الآن : عودة الوعى ؟ هل هو مجرد عمل

من أعمال النقد فى مواجهة أحداث الخمسينات وثورة يوليـــو وحسب ....أم هو أيضاً لأفكارك ومواقفك فى الثلاثينات قبل الثورة بمعنى النقد الذاتى ؟...

• توفيق الحكيم :

بدون شك . فان الإنسان لكى يجسم التهمة فإنه يقارن بما قبلها ... يقول لك : ما قبلها كانت هناك حرية تعارض الحكم . وهذه الحرية كانت تبيح لنا أن نعارض . ولو أن للمساوىء التى وقعت قبل الثورة كنت أدين الحكام عليها فى كتبى . ولكن عندما أرى الكارثة حصلت من العبادة والكهنة فأجد أنه كان من الممكن أن يبرأ منها ، لو كان هناك حكم فيه معارضة وفيه ديمقراطية سليمة . فمع أن السابقين (على ثورة ٥٢) أدوا إلى مساوىء للبـــلد أضعفت بعض تقدمها إلا أنه قبل الثورة لم تكن هناك كوارث ولكن عرقلة ما لتقدم البلد .

• فؤاد مرسى :

أستاذنا توفيق الحكيم قال لنا كلام درر فى الحقيقة ، وأنا معروف دائماً أن تقييمى للناس متشـدد ، فأنا إذا قلت درر فهى درر . وكلامك يسجل للتاريخ وليس لنا فقط ...

فى الحقيقة أنت وصلت إلى نقطة فى غاية الأهمية وهو تصنيفك لأولئـك الذين يرفضون مناقشة الملف ، وهم فعـلا بالتصنيف الذى أنت قلته . هـذا ، بإضافة ناس مستعدين أن يفتحوا الملف ... طيب ! هؤلاء المستعـدون لفتح الملف لم تصنفهم لنا ! أنا يهمنى جدا هؤلاء ...

• توفيق الحكيم :

كالعادة هناك تناقضات . ناس مخلصون لمصلحة البلد، وناس يقولون لك : نفتح الملف لنهجم على عبد الناصر لأسباب انتقامية ، ولأسباب يعنى نفعية لها غرض وتستهدف الردة لعل وعسى أن نقول إن عبد الناصر خرب البلد ، فنعود

إلى ما قبل عبد الناصر حتى تتساوى الأمور ويصبح المطلوب إلغاء فترة بكاملها . ولكن إذا ثبت أنها كانت فترة ضرورية فنحن من ناحيتنا نقول إنه لا بد من تقييمها ، ولا بد من معرفة موقع الخطأ فيها حتى ندعمها . لأنه إذا قلت كلمة « الاشتراكية » فقد حدث فعلا تحول اشتراكى . ولكن هذا التحول لماذا لم يأخذ كل قوته ؟ الجواب لأنه كان يجب أن تكون هناك اشتراكية قوية وعظيمة جدا . لكن لماذا نشأت طبقات جديدة ؟ . وكيف حدث أن هذا النظام يولد طبقات ... فنجد مثلا من يشترى شقة بـ ٢٠ ألف جنيه و ٣٠ ألف جنيه .

● عبد العظيم أنيس :

ملاحظة وحيدة فيما يتعلق بالاقتراح الخامس بأن الأستاذ خالد محيى الدين يعطى « فرشة » حول موضوع الثورة فربما يكون الموضوع هاماً لا غنى عن تناوله . لكن يمكن — من ناحية التوقيت — إنه إذا كنا سنتفق على ما هى القضية المطروحة فى هذا النقاش ... فأنا أتصور أنه لو بدأنا بحذف أشياء من جدول أعمالنا — كموضوع النقاش — فيمكن أن نستريح ابتداء ... لا شك أنا متصور أن هذه الجلسة ليس هدفها هو محاكمة كتاب « عودة الوعى » ، هذا أولا . وأيضاً القضية الرئيسية المطروحة هنا ليس هدفها هو محاكمة اليسار فى موقفة من عبد الناصر فى خلال الـ ٢٠ سنة الماضية . وبالتالى ، يعنى أنا متصور أيضاً من واقع ما طرحه أستاذنا توفيق الحكيم فى خطابه إلى الأستاذ لطفى الخولى ، ومن النقاش الدائر حالياً ، ومن الكلام الذى قاله ، متصور أن القضية مستقبلية أكثر منها قضية متعلقة بالماضى . لكن هذا لا ينفى ، طبعاً ، أن الماضى لا بد أن يتناول . وأنا غير متصور لنظرة مستقبلية دون أن يكون هناك نوع من التقييم للماضى . لكن تقييم الماضى يكون فى إطار هذه المناقشة الأساسية حول مستقبل مصر ومستقبل

اليسار فى مصر · على هذا الأساس ، أقترح — فى البداية أن يكون هناك نقاش — فى اطار المناقشة — فيما يتعلق بمستقبل مصر . يعنى هناك عدد من النقط الأساسية التى أعتقد أن من المهم أن نتفق فيها ، أو نختلف ، فقط يكون هناك وضوح حول الاتفاق أو الاختلاف فيها ، وذلك فيما يتعلق بقضية مستقبل مصر أو قضية اليسار من ناحية الاطار العام ··· أستاذنا توفيق الحكيم ··· وسأضرب مثلا من كتاباته — من زمان — كان باستمرار يركز على قضية مصرية مصر ··· مصرية مصر هذا معنى أكد عليه كثيرا فى كتاباته . أما فى كتاباته المتعلقة بعودة الروح ، أو الكتابات السياسية العامة أو الفكرية العامة ، أو ··· حتى إذا كان أمله باستمرار أن يكون فيه دراما مصرية ، عبر عنها فى أهل الكهف مقابل الدراما اليونانية . مثل هذه القضية ··· فى جو العشرينات والثلاثينات — قد يكون من المفهوم تماما أن تستوعب أو تستحوذ على ذهن المفكر الحر · لكن الأربعينات والخمسينات والستينات والسبعينات طرحت البعد العربى لمصر بشكل واضح ··· سواء شئنا أو لم نشأ . فهل إذا قبلنا فكرة مصريه مصر بالمعنى القديم يكون مبدأ دخولنا فى مشكلة الحين فلطا من أوله إلى آخره ؟ ··· جائز ··· الأستاذ توفيق أثار هذا الموضوع بصرف النظر عن التفاصيل ·

موضوع فلسطين — أصلا — ممكن أن يكون مطروحا للسؤال ممن ورطنا فى هذه العملية ··· هناك نظرية ، لدى عدد من المثقفين المصريين ، وحتى فى وسط الرأى العام المصرى ، الآن ، تقول (وأنا رأيى أنها نظرية مخلصة) « واحنا مالنا ومال الكوارث دى بتاع البلاد العربية . خلونا فى ظروفنا ومشاكلنا الداخلية » . فهذا محور . يعنى أنا أقول أن هذا أحد الأطراف الأساسية فى المناقشة · ففى تصورنا ، هل مثل هذه القضية ينبغى أن يكون هناك وضوح حولها قبل أن ندخل فى مشكلة الحين والمشاكل التى

من هذا النوع . من ذلك أنا أقترح أن تُجرى مناقشة لاطار عام لتصور مصر . ما هي المحاور الأساسية سواء اقتصادية أوسياسية أو عربية أو دولية التي يتحرك فيها الواقع المصري ؟ إذا اتفقنا على هذا — أو اختلفنا — فإنه سوف يساعدنا جدا على أن نستطيع أن نتصور مستقبل مصر . هذا المستقبل نقطة أنا أنظر إليها من الناحية العكسية . أبتدىء أنا بمستقبل مصر ، وبهذه المحاور . (ومستقبل اليسار — طبعاً كجزء من مستقبل مصر — وبعد ذلك أرجع عند توزيع المناقشة) — إلى الماضي وأسمع خالد محي الدين في تقييمه ، وأشياء كثيرة لا شك سنجد فيها نقدا لليسار فيما يتعلق بالتجربة الناصرية . ما هي حدود هذا النقد ؟ ما هي مسئولياته ؟ أعني نقد الكتاب والمفكرين أمثال الأستاذ توفيق الحكيم في هذا الموضوع ؟ إلخ ونقد التجربة نفسها من الناحية الموضوعية بصرف النظر عن الأشخاص فهذا مجرد اقتراح ... نقد اليسار لنفسه ...

• لطفي الخولي :

أنا موافق على ما يعرضه الدكتور عبد العظيم أنيس . لكن الحقيقة أنا أقصد زيادة على ذلك أمرين ... الأمر الأول أن الأستاذ توفيق الحكيم عرض « فرشة » مفيدة جدا لاثراء المناقشة ومحاولة الوصول إلى المفاتيح ، أو جدول الأعمال الذي يطلبه الدكتور عبد العظيم أنيس من أجل تحديد اطار المناقشة .

والأستاذ توفيق الحكيم عرض هذه المناقشة ، من واقع أنه يعتبر نفسه مسئولا فكريا عن ثورة ٢٣ يوليو ، أو أحد المسئولين المفكرين الأساسيين عن ثورة ٢٣ يوليو ، وقد أمن على ذلك الرئيس جمال عبد الناصر نفسه عندما قال أكثر من مرة — إنه تأثر تأثيرا كبيرا بتوفيق الحكيم ، وبالذات بعودة الروح . ولذلك يحاول الآن الأستاذ

توفيق الحكيم أن يستكشف أبعاد هذا التأثير المتبادل بينه وبين قيادة الثورة ... حسناً ، بعد أن حصلنا على « فرشة » من موقع مفكر قيادى — فى الثلاثينيات — وعاصر التجربة حتى الآن — مد الله فى عمره — من المفيد أيضا أن نتزود بفرشة أخرى من رجل شارك فى ثورة ٢٣ يوليو نفسها ، واختلف واتفق معها ، من موقع يسارى واضح ومحدد . وبالتالى يخيل إلىّ أن هذه الفرشة مع « فرشة » الأستاذ توفيق الحكيم ممكن أن تضىء لنا طريقاً أكثر وضوحا للوصول إلى تحديد النقاط التى أشار إليها الدكتور عبد العظيم . المطلوب هو مجرد « فرشة » لا تقييم . لأن كلام الأستاذ الحكيم ليس تقييما وإنما هو مجرد « فرشة » ، وبالتالى « فرشة » الأستاذ خالد ممكن تفيدنا جداً هذا هو الأمر الأول ... الأمر الثانى ... أنه فى الحقيقة نحن على تباين فى أفكارنا حول تقييم هذه التجربة ووزنها المادى والمعنوى ... الخ . بل أن زوايا رؤيتنا للتجربة تختلف ... خصوصا وأنه معنا اليوم مجموعة من زملائنا الشباب ، يهمهم بعد أن اطلعوا على « الفرشة » التى قدمها الأستاذ الحكيم ... ومن خلال كلامه ، وليس عن طريق السماع أو القراءة عنه . وهذه نقطة مهمة جداً . من حق هؤلاء الشباب الذين نحرص على أن يكون إسهامهم فى هذا الحوار أساسياً أنهم يطلعون أيضاً على « فرشة » الأستاذ خالد محيى الدين . ثم نعود إلى النقطة التى طرحها الدكتور عبد العظيم من جدول الأعمال ... ما رأيكم ... ؟

• محمد سيد احمد :

كلمة واحدة . أنا أقول أن الأستاذ توفيق الحكيم أثار بعدين محوريين ؛ النقطة الأولى يسار يمين ...

• لطفى الخولى :

وليست هذه هى القضية - الآن - إطلاقا . ما قاله الأستاذ توفيق

الحكيم ، لا نقيمه الآن ... أيضاً الأستاذ خالد محيي الدين يضع « فرشة » كلام ، فهذا سيفيد في بلورة نقاط للمناقشة التي يطلبها عبد العظيم ، وهي أساسية .

• توفيق الحكيم :

يعني أريد أن أقول أن هذا يدخل في الشكل ، في القسم الثالث الخاص بالتجربة ، تجربة الثورة باعتبار أنها لم تكن اقتصادية فحسب، بل هي اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية .

أنا أريد أن أدخل المسائل في إطارات. فإطار التجربة سيدخل فيه كل هذا الكلام ... الإطار رقم ١ ورقم ٢ هو شكل اليسار في المستقبل . لأن هذا يهمني — أنا أيضاً — لأني أنا لما أقول أنا أريد مضمون يحصل ان ضياع الشكل سيؤدي بنا إلى هذا، إلى متاهات معينة. وإذا قلت شكل بلا مضمون فهذا يعود بنا إلى ما قبل سنة ٥٢ .

• لطفي الخولي :

نريد أن نتفق — أرجوكم — على أمر من اثنين : إما نأخذ باقتراح د . عبد العظيم أنيس أنه نغفل « الفرشات » الخلفيات ونعتبر أن « فرشة » الأستاذ توفيق الحكيم كافية فنناقش مباشرة ما هو الإطار ، وما هو جدول الأعمال الذي سنسير عليه في هذا الحوار ، وإما أن نأخذ بالاقتراح الثاني الذي تقدمت به وهو أنه في مقابل « فرشة » الأستاذ توفيق تطرح أيضاً « فرشة مركزة » ومختصرة — وليست نقيضاً — من الأستاذ خالد محيي الدين ثم نعود إلى اقتراح د . عبد العظيم أنيس فأنتم تقررون في هذا المجال ما تشاءون...

• أبو سيف يوسف :

أفضل المنهج الذي يطرحه لطفي لأن هذه المسئولية خطيرة جداً وستكون

مثاراً لمناقشات كثيرة جدا . وحتى نقطع الطريق على أى تأولات تحاول أن تستفيد من فتح مثل هذا الملف ، فإنى أعتقد أن الرؤية الداخلية لما حدث ستكون ثمينة جدا فى تقييم التجربة بكل أبعادها . ولهذا أفضل أن نستمر فى النظر إلى ثورة ٢٣ يوليو من الداخل . وعلى هذا الأساس لو نستمع للأستاذ خالد محيى الدين ، فسيكون هذا مساعدا جدا على التقدم .

• فؤاد مرسى :

حدث تاريخى ، أيضا أن بين أعضاء مجلس الثورة قطب يسارى ماركسى ، هـذا حدث . فمن المفيد ، أيضا ، أن نستنير حول ما جرى للثورة من البداية حتى النهاية برأى هذا القطب الماركسى . لأنه عندئذ ، نستطيع أن نضع أيدينا على نواح ووقائع لا مجرد وجهات نظر قد تكون تعبيرا عن ذهننا ، نحن ، وتساعدنا على التقييم ... هذا الحدث التاريخى يجب ألا نتركه يفلت منا ...

• لطفى الخولى :

طيب : هناك موافقة الآن على أن الأستاذ خالد محيى الدين يتكلم ...

• خالد محيى الدين :

فى الحقيقة ، أنا فى غنى عن التكلم عن التقدير الكبير للأستاذ توفيق الحكيم ... أما بالنسبة لكتاب « عودة الوعى » ، ففى نظرى لا يوجد أحد فوق المناقشة ، ولا فوق المحاسبة ... إنما نقول أن سبب الضجة التى حدثت ، حول هذا الكتاب ، انه — فى وقت ظهوره — صاحب حملة من اليمين ضد عبد الناصر ... محاولة شطب التاريخ كله . والشيء الغريب ، أنى أكثر واحد اختلف مع عبد الناصر . يعنى من ٥٤ تركت مجلس الثورة وهناك أشياء كثيرة جدا . لكن للموضوع ، موضوع التجربة الوطنية ، هذه قضية أخرى .

وأقرر أن قبولك لتقييم التجربة ، وحديثك مع اليسار ينفي بتاتاً فكرة أنك تريد لليمين أن يستفيد من هذا الأمر .

الحقيقة فيما يخص التجربة الخاصة بثورة ٢٣ يوليو ، الكلام الذي قاله « توفيق الحكيم » من مسئولية الكل في واحد والواحد في الكل هو أنه أنا — كرجل عاصرت الثورة عندما قامت — إن هذا الفكر كان موجوداً قبل ثورة ٢٣ يوليو في أواسط الضباط . وتركيب مجلس الثورة عكس كل الأفكار الموجودة في مصر ... للماركسية ، يسار ، وسط وديني عادي ، ويميني على أساس ديني ... باختصار : الاتجاهات التي كانت موجودة في مصر ، كانت موجودة في الثورة وهذا كان يمثل — في الحقيقة — قوة الثورة . فهذه نقطة .

النقطة الثانية : أن برنامجها كان موجودا . والشيء الغريب جداً أن البرنامج الذي كان يوزع على الضباط الأحرار لم يكن فيه أي شيء بتاتاً عن حكم فردي لأنه لم يكن هناك تفكير فيه في ذلك الوقت . وما أقوله هو أنه كان هناك إقامة جبهة وطنية . أولا : كان هناك هجوم على الأحزاب المتعاونة مع الاستعمار ولكن كان هناك تصور أنه في داخل الأحزاب أو في مصر ، توجد أحزاب وطنية أخرى . ولذلك كانت أول نقطة في برنامج الثورة هي القضاء على الاستعمار الأجنبي وأعوانه من الخونة المصريين . والنقطة الثانية : إقامة جبهة وطنيــة من القوى الوطنية والأحزاب الوطنية . هذا البرنامج اختفى ولم يعثر عليه أحد كانت هناك نسخة واحدة عندي وطبعاً شارك في كتابته الماركسيون المصريون وهذه حقيقة تاريخية أيضا . وتضمن البرنامج عدالة اجتماعية ، ثم إقامة جيش وطني قوي يسمح بترقية الجنود إلى ضباط . هذه نقطة مهمة . كل هــذا كان وارداً لكن باختصار ... ناس الثورة وهي قائمة ، كان عندها فكرة ضرورة مساندة القوى الشعبية . وكان في نظرنا — في ذلك الوقت — أن الوفد هــو القوة الشعبية . هذا تاريخ وسأقول الوقائع . فعندما قامت الثورة ، أول بيان

فيه عودة الدستور ... وكانت المناقشة حول كيفية عمل مجلس الوصاية . واختلفوا فى مجلس الدولة حول هل يشكل بنص الدستور . لكن الدستور لم يكن فيه نص على عزل الملك . فيه نص على مرض الملك أو وفاته ، فاختلف مستشارو مجلس الدولة — وحيد رأفت ضد ٨ . وحيد رأفت قال لهم إن هذا دستور ملكى لا نص فيه على العزل فلا بد من أن نأخذ الوفاة والمرض مثل العزل .

الرأى الثانى : قال — لا — هذه حالة جديدة إذن نعمل حالة جديدة ... طبعاً ، مستشارو الرأى أحسوا أن من غير الممكن أن مجلس الثورة والاتجاه العام يريد دستوراً . فاذا أنت طبقت الدستور على اعتبار أن الوفاة والمرض هو نفسه العزل ، فلا بد من دعوة آخر برلمان ، ليقر الوصاية ويحل البرلمان . بعد ذلك ندخل فى ميكانيزم الانتخابات . كان هذا هو رأى عبد الناصر فى ذلك الوقت ، لأن هذا كان البرنامج الذى ارتبط به . كان رأيه أنه موافق على رأى وحيد رأفت وهدد بالاستقالة وخرج .. وهذه الجلسة لم أكن موجوداً فيها أنا كنت فى الاسكندريه ...

لما رجعت ، قال لى إنه استقال ... قلت له طيب ! ولماذا رجعت ؟ قال : لأنى لقيت للوقف فى الجيش منقسم على نفسه ولقيت للوقف بقات . وأضاف: فأنا رضخت (فى أغسطس ٥٢) . فكان هو فى هذا الاتجاه ولا أريد أن أقول لك أنه لم تكن عنده النوازع الفردية فى الحكم . كانت عنده باستمرار . لكن الحقيقة أن القوى التى كانت موجودة أو التى جاءت حول الثورة مثل مجلس الدولة : السنهورى والقوى التى حاصرت الثورة فى بدايتها (مثلا : جمعية الرواد) جمعية الرواد ، كان فيها د . أحمد حسين والعمرى وعباس عمار وفؤاد جلال وإسماعيل القبانى كانت تمثل فكرة الرواد المفكرين لمصر — رواد الفكر — هؤلاء كانوا يعتبرون أن حكم الوفد ، هذا ، حكم رعاع ليس فيه

كفاءات . وهو التفكير الذى كان موجودا قبل الثورة — وهو الكلام المعروف . ولذلك عندما أصدر على ماهر أول بيان الحكومة ولم يذكر فيه أن هناك انتخابات فى مارس ١٩٥٣ . وكانت الثورة متفقة معه على الانتخابات فى مارس . أصدرت الثورة بيانا ضد على ماهر لأنه لم يذكر الانتخابات . وتكلمت الثورة ، أيضا ، فى قضية الضرائب المباشرة وغير المباشرة ... فكان لا يزال هناك — فى ذلك الوقت — تمسك بالبرنامج . لكن جاءت القوى الأخرى المحيطة ، وهى كلها قوى لا تنتسب إلى الوفد . وهذه قضية تاريخية . كانت من الحزب الوطنى ومن السعديين ومن الرواد . وكان مذهبهم أن الثورة تقوم بالاصلاحات التى تريدها مصر والتى افتقدتها فى سنوات الحكم السابق نتيجة الصراعات الحزبية الخ ... أقول : كانت فعلا هناك أرض ممهدة لهذا الأمر ، أى لأن تحكم الثورة وبقوة ، وتمشى فى الطريق ، ولا تلجأ إلى طريق الانتخابات . وكان يدعم هذا أن الثورة ليس عندها حزب . فإذا أنتم عملتم انتخابات ، فإن الوفد هو الذى سيأتى . والسنهورى قال ذلك فى جلسة مجلس الوزراء أيام مناقشة قانون الاصلاح الزراعى : « انتو مستعجلين ليه على الانتخابات فى مارس ما انتوا بتعملوا قانون الاصلاح الزراعى اهه... ده تطبيقه عاوز وقت . إيه لزوم الانتخابات بسرعة ، انتوا عاوزين الوفد ؟! » .

ثم طلع السيد صبرى ، فى ذلك الوقت ، وكتب عن الفقه الثورى والفقه الدستورى ... كل هذه الأمور كانت موجودة ، طبعا ، فهذا شجع الاتجاه الفردى . لا أريد أن أقول لا يوجد استعداد ... لا ! هناك استعداد . طبعا رجل عسكرى موجود فى الحكم ، وممكن أنه يعمل شيئاً فلم لا ؟ والتاريخ ، أيضاً ، أقول أن الاتجاه الأمريكى كان ضد الحكم الدستورى فى ذلك الوقت . والتاريخ ، أيضا ، لا أريد أن يفهم من كلامى أن عبدالناصر كان مع الأمريكان. عبد الناصر اتصل بالأمريكان من موقع وطنى . أمريكا قوة عالمية لا يقدر أى

يشجاهلها . والتجربة أثبتت أنه إذا اختلفت للصالح الوطنية اختلف معهـم . إنما هو رجل وطنى ، تماما ، لأن أمريكا كانت قوة كبيرة . والاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية لم تـكن ظاهرة بعد فى المجال ... فالأمريكان أيضاً كانوا يشجعون على عدم إعادة الحـكم النيابى لأن فى نظرهم الحـكم النيابى إذا جاء بالوفد ... فالوفد سيكون ضعيفاً ، وأمام الشعب سيرضخ ، باستمرار ، ما دام هو حكم شعبى . فإذا حدث هذا ستبقى هناك حرية وفى الحرية اليسار يكسب وهذه كانت قضية مقاومة الشيوعية . وفى ذلك الوقت — فى غمار الحـــرب الباردة — الأمريكان ، كانت عندهم هذه القضية أساسية . لذلك كانت الثورة تهدد الأمريكان : إذا لم تساعدونا سنرجع إلى الانتخابات . (لاحظ أن هذه قضية مهمة) صلاح سالم كان يقول : « إذا مكنش الأمريكان حيتعدلوا معانا نرجع الانتخابات » . وهم « الأمريكان » كانوا خائفين جداً من أن الوفد يرجع هذه حقيقة تاريخية ، لأنهم خائفون من فـكرة الحياة البرلمانية وحرية النقاش وما تسببه من تقدم لليسار . وأنا فى الحقيقة، هذه من الأمور التى نبهتنى كثيرا إلى قضية الديمقراطية . لأنه ، ظهر فى الأيام الأولى ، أن الثورة بدأت تتجه إلى قبول الأشياء التى كانت الحركة الوطنية ترفضها (النقطة الرابعة : قانون استثمار رأس المال الأجنبى) تم وضعه . وكان هناك قانون للاستثمارات لـكن لم يكن ينفذ ، أو أن رأس المال لم يأت .

فـكانت هناك فعلا أرضية تمهد لهذا الأمر . وكانت الطبقة الرأسمالية فى مصر سعيدة جدا فى ذلك الوقت بحـكم عبد الناصر ، وكان يمثلهم اتحاد الصناعات وعبد الرحمن حمادة رئيس مجلس إدارة شركة المحلة كان صديقا لمجلس قيادة الثورة ويقول لهم مجىء الثورة أنقذ مصر من الراية الحمراء ... يعنى ، كان فى نظرهم أن الثورة إذ تقوم باصلاحات متعددة ، تقوم بمنع الشيوعية . هذا هو التفـكير الذى كان واردا فى الذهن تقريبا — فى ذلك الوقت .

فلماذا حدثت أحداث ٥٤ ؟ . كانت وجهة نظرنا ، انه ازاء هذا الموقف الذى فيه السلطة مطلقة ، وبعد حل الأحزاب ، وهذه الأشياء التى تمت ، انه فى غياب الديمقراطية يمكن يحدث انحراف الحكم ، لأنه لا توجد أية مساءلة . فأنت سائر تضرب كل القوى واحدة وراء الثانية . وبعد ذلك فإن السلطة المطلقة يمكن أن تقرر أى شىء .

أنا أتكلم كيسارى فى مجلس قيادة الثورة . وطبعا اليسار فى مصر — فى بداية الأمر — انقسم : هناك جزء ، أيد الثورة من أول دقيقة باعتبارها انعكاسا وطنيا . وهناك جزء اعتبرها حركة ديكتاتورية عسكرية فاشية ، يعنى كان هناك رأيان مختلفان فى هذا الأمر .

النقطة التى أريد أن أبرزها انه كان هناك رغبة فى وجود حياة ديمقراطية . أنا أعرض وجهة نظرى ، فى ذلك الوقت . وكان جزء كبير من الحركة الديمقراطية فى مصر ، واليسار المصرى أيضاً ، كان رأيه فى ذلك . يعنى أنا لم أكن أقول هذا بمفردى ... فكان هناك رأى أنه لابد وأن يكون هناك حكم برلمانى . لأنه ما دام المجتمع لن يغير نظامه الاجتماعى (مجرد الاصلاح الزراعى هذا ، لا يعتبر شيئا كبيرا) . وما دامت هناك طبقات ، فإن من حقها أن تعبر عن نفسها وإلا فإن طبقة معينة تمسك الحكم . وصحيح أن العهد السابق كان فيه اقطاع ورأسمالية ، ولكن كان فيه شكل ديمقراطى . ومادام هناك نظام رأسمالى ، فلابد أن تكون هناك ديمقراطية . وإلا فإن الطبقة الجديدة أو النظام الجديد سيسيطر ، ويحرم الفئات الأخرى . فلهذا السبب كان اتجاهنا فى مارس ٥٤ إلى الديمقراطية . لكن الحقيقة أن الرأى العام (المتعلم) كان فعلا ضد عودة الاحزاب . هذه حقيقة واردة ، وهذا شىء أحسسنا به . لأنه عندما دعونا إلى فكرة عودة الدستور ، وعودة الحياة النيابية ، كان فعلا هناك تيار فى الرأى العام (كان قويا جدا) خائفا من فكرة

عودة الأحزاب . وبالفعل كانت هناك أرضية سياسية ممهدة لهذا الأمر ، وأن عبد الناصر يحكم ، ويبعد كل القوى للمعارضة . فأصبح سلطة كبيرة . لكن هذا لم يكن السبب أيضاً ... السبب الكبير في نظري — لهذه السلطة الضخمة — جاءت من إنجازات عبد الناصر أو شعبيته ، وليس لأن معه سلطات . لأن هناك حكاماً كثيرين جدا عندهم سلطة لكن ليست عندهم مثل هذه القدرة ... فعلا ، حقق أشياء كانت أحلاما للرجل المصرى العادى : جلاء الإنجليز — تأميم قناة السويس ... كان لى — مثلا — صديق ذو فكر محافظ ، ويكره عبد الناصر جداً ، يوم أن أمم عبد الناصر قناة السويس قام احتضن الراديو وقبله وراح يبكى ويقول : داحنا عشنا طول عمرنا نحلم بهذا . وبعد أن تم تأميم قناة السويس تم تمصير البنوك ، لأن هذه قضايا لا ننساها .

إلى هنا وكانت الرأسمالية راضية . حتى جاءت تأميمات ٦١ وتحركت القوى الرأسمالية والإقطاعية ضده ... التحرك حدث هنا . لكن كانت سلطة عبد الناصر قد تدعمت بحكم أنه كان بطلا وطنياً حقق إنجازات عاش الشعب المصرى سنوات يطلبها وحقق للفلاح المصرى فعلا أشياء . لما نزل القرية ، نحن أبناء القرية ، نعرف ماذا تعنى إنجازات عبد الناصر إنه لا يستطيع مخلوق اليوم أن يطرد فلاحا من الأرض ، إلا « بالطبل البلدى » أى بصعوبة شديدة . وهذا عمل يعد استقراراً للفلاح . أولاد الفلاح تعلموا ويدخلون الجامعة . بنيت مستشفيات ومدارس . كميات المدارس التى بنيت فى الريف هائلة . يعنى عندنا فى مركز كفر شكر ، الذى أنا منه ، مدرسة ثانوى ، وزراعية ثانوى ، وتجارية ثانوى ، فى كل ثلاث قرى مدرسة إعدادية . كل قرية فيها مدرسة . كل ثلاث أربع قرى فيها وحدة صحية . المياه والكهرباء قضايا هامة بالنسبة للرجل الذى فى الريف ، شىء كبير . عبد الناصر طبعاً حقق إنجازات فهذه الإنجازات خلقت شعبية كبيرة أصبحت عنده سلطات مطلقة بسبب ضرب

القوى الأخرى: هو — فى الحقيقة أيضاً — رفض أن ينشىء ميكانيزم خاص له هو، كفرد أو كحاكم، أعنى ميكانيزم أو أجهزة سياسية تخدمه ... هل هناك حاكم — فى العالم — يقدر أن يأخذ قراراً من غير أن تجهز له عدة دراسات أو آراء؟. كان يلجأ إلى هذا فقط عندما يحب: ولا يلجأ إليه عندما لا يريد. لم يكن له «نظام» أو «نسق» دائم. وهذه هى النقطة الأولى فى العيوب.

فالأحداث التى حدثت فى مايو ويونيو ٦٧ سببها الأول أن الدراسات التى عن حالة العدو لم تكن كافية.

لكن الكوارث التى حدثت — فى نظرى أنا — جاءت من النقص الكبير فى ميكانيزم اتخاذ القرارات الأساسية، ومن الأجهزة السياسية التى تعمل مع عبد الناصر، وذلك قبل أن يأخذ القرار. وهذا الأمر لم يكن وارداً أو غير موجود تقريباً. وهذا الأسلوب تابع لفكرة الحاكم القوى. فما دام قد أخذ كل السلطة فمن الصعب جداً أن نقول له: احمل هذا طالما أنه هو صاحب الكلمة. الخطأ الأول، عند قيام الثورة، جاء من قبول الناس فكرة تفويض مطلق لمجلس الثورة للحكم.

لكن المسألة استمرت فى هذا الطريق، بسبب الانتصارات التى حققها عبد الناصر لا بسبب — كما يقول بعض الناس — أنه كان يعمل غسيل مخ للناس لأن أجهزة الأعلام ما كانت تقدر تعمل غسيل مخ للشعب المصرى بدون الإنجازات، وبدون الانتصارات. يعنى هذا كان عاملا من العوامل التى جعلت أن الناس يؤمنون أن هذا الرجل بطل.

النقطة الثانية ... موضوع الديمقراطية ورفض عبد الناصر للطاق أن يأخذ قراراً تحت أية ضغوط. الديمقراطية معناها قبول مشاركة الناس معه على جميع المستويات. يعنى كان فى مقدوره أن يعمل حزبا طبيعياً. وممكن

الديموقراطية أن تكون حزبا طليعيا حقيقياً ، أو منابر ، أو أحزاب تقدمية ، في نطاق التحالف . ومن الممكن الربط بين هذه الأمور . لكنه كان يرفض الضغط ، حتى من « الحزب الطليعي » الذي أنشأه . ولم يكن أحد منا يطمع أن توجد الديمقراطية في عهد جمال عبد الناصر بمعنى الديمقراطية الليبرالية ، إنما الديمقراطية المطلوبة كانت من أجل الأهداف التي وضعها هو . وهي : مقاومة التحدي الخارجي والتغيير الداخلي حتى هذه الأمور لم يكن مستعداً لها . لأن تجربته الشخصية كانت أنه لايجب أن يلتزم مسبقاً إلا بأفكار تجربته ، فهي التي تمكنه من أن يصل إلى هذه الأشياء بنجاح .

إلى أن حدثت كارثة ٦٧ وتفجرت العيوب الموجودة . وللأسف الشديد أن كل الهجوم عليه تركز على أنه انهزم لأنه اشتراكي . وليس هذا هو السبب .

نحن ، في الحقيقة ، كنا نؤيده بهدف أن الجانب الإيجابي للتجربة يستمر ، ونحاول أن نقلل من الجانب السلبي . لكن واضح أن القضية كانت صعبة . ولذلك يجب أن يكون هدفا أساسياً من أهداف المناقشة هو : كيف تصبح الحركة الوطنية التقدمية استمراراً لإيجابيات المرحلة السابقة وأنها تبتعد عن السلبيات ؟ وطبعاً ، كما قال عبد العظيم أنيس لن نقدر أن نقيم هذا ، فكيف نضع تصوراً المستقبل . لأن هناك — في الحقيقة — عدم وضوح . إذا كان هناك تصور للمستقبل ، فلا بد أن تكون هناك أيديولوجية .

وعبد الناصر ، لم يكن يحب الالتزام البعيد المدى في هذه الأمور . وكان هذا منبع الأخطاء التي وقعت . وأثبت تطور الحوادث أن عدم رغبته في الالتزام البعيد المدى كان ضاراً بالاشتراكية . وذلك ، طالما أنه لم يضع تصوراً للشكل النهائي للمجتمع الذي يريده .

لكن هذا الدرس لا يلغي أنه وضع نقطة أساسية جداً — في رأيي —

وهى حتمية الحل الاشتراكى للبلاد النامية . فأوضح أن البلاد النامية — إذا أرادت أن تتطور وتنمو تقع فى التبعية إذا اتبعت الطريق الرأسمالى : أما إذا اتبعت الطريق اللارأسمالى ، أى الاشتراكى ، فهذا هو طريق الدفاع عن الاستقلال الوطنى . فمن هنا ، ومن منطلق وطنى — وهذه حقيقة — تكون التجربة الناصرية هى مرحلة تاريخية يجب أن تقوم على أساس هذا الأمر ... دفاع عن الاستقلال الوطنى . والتغير الاجتماعى من الضرورى أن يلازم هذا الدفاع . ويتعين هنا — إذن — أن نناقش التجربة . فما دام عبد الناصر وضع مثل هذه الأهداف ، فلا يبقى إلا أن ندرس الوسائل لتحقيقها . وهنا ، يمكن أن ندرس عيوب التجربة ، فنقول : هى كذا وكذا وكذا . وبالتبعية لا يمكن أن يكون كل ما تم فى العهد الماضى سلبياً . لا ! هو إيجابى لأنه اقتراب من أهداف كبيرة . ولما نتصور المجتمع الذى نريده ، سنجد أن المرحلة السابقة كانت اقترابا كبيراً من هذه الأهداف . ولكن عظمها السلبيات المشار إليها منها ، مثلا : إنه كان يضرب القوى التى تنادى بالاشتراكية وتعادى الإمبريالية وتتفق مع هذه الأهداف . ومن ذلك ، أيضا ، إبعادها عن السلطة ،ووضعها فى السجون . لكننا ندافع عنه الآن لأن هذه الأهداف هى أهدافنا ، بصرف النظر عمن يعملها .

• توفيق الحكيم :

يعنى نحن متفقون على لب القضية . وهى أن الأساس الشكلى للثورة لم يكن من الممكن أن يؤدى فى آخر الأمر إلا إلى سيادة السلبيات .

• خالد محيى الدين :

عندما نصل إلى التقييم ، فسنجد أيضاً أن فى تفكير الرئيس عبد الناصر — كما هو وارد فى « الميثاق » — أخطاء هى أيضاً أدت إلى ثغرات فى التغير الاجتماعى .

• توفيق الحكيم :

أنا تنبهت إلى هذا أخيراً . وأنا كنت متحمساً للثورة بإنجازاتها ، وأن عبد الناصر هو الرجل الذى انتظرته من ثلاثين سنة . ولم أكن أعرف أن كل هذا يؤدى إلى حدوث أثره . لكن الشكل السيء لم يكن قد ظهر أثره فى ذلك الوقت ، فضلا عن أنى كنت غير راض عن نظام الأحزاب . ولذلك تلاقيت مع الثورة .

لكن بعد ذلك أذكر – أنه بعد صدور « الميثاق » — تحدثت إلى بعض الأصدقاء لينقلوا كلامى إلى عبد الناصر وقلت له : إننى ألاحظ الآن الرجل الذى يبيع بطيخا فى الشارع ، يمكن عندما تطلع بطيخة « قرعة » يتهم عبد الناصر . معنى كلامى ، أن عبد الناصر يتحمل مسئوليات لا يستطيع أن يتحملها ، لأنه يحكم حكما مباشراً . وقلت لصديق من هؤلاء الأصدقاء : لماذا لا تبلغه أن ينظم ضغط الجماهير فيعمل حزبين . والشعب عندما يغضب يصب غضبه على الحزب الموجود فى الحكم ، ويأتى بالحزب الثانى . فمن واقع «الميثاق» فإن « الميثاق » يحتمل حزبا معتدلا وحزبا متطرفا وقد قيل لى إن كلامى هذا نقل إلى عبد الناصر فقال : لكن أخشى أن تحدث صراعات فى البلد ويعطلون البلد ، وتصبح مشاغل كل حزب أن يحطم الحزب الآخر . وزمان كان التطاحن فى البلد بهذا الشكل .

• لطفى الخولى :

بعض الأضواء قد ألقيت من الأستاذ خالد محيى الدين والأستاذ توفيق الحكيم . أصبح عندنا نوع من « الفرشة » أو الأرضية التى يمكن أن نصل – من خلالها – إلى إطار نلتزم به ، بجدول أعمال لهذه المناقشة التى يبدو أنها ستمتد جلسات وجلسات . وأعتقد أنه من الممكن أن د. عبد العظيم أنيس يتكلم ، إذا كان عنده مشروع أو اقتراح – فى هذا الأمر — أعنى توجه

ما ناقشناه وما عرض علينا والوثائق — إلى جدول أعمال هذه المناقشة .

• توفيق الحكيم :

فلنبحث تقسيم الموضوعات على فترات حتى لا تختلط الأمور ... كلامنا اليوم — فى الواقع — ينصب على رقم ٣ الذى هو التجربة الناصرية . ولأن هذه نشرت فى « عودة الوعى » فأنا أقول افتحوا الملفات . فالقلق يجىء من أمرين :

أولا : الاطار الذى يوضع . لذلك فإننى لا أتكلم الآن عما تريده الدولة : أى عن تغيير فى النظام الموجود وفى الاتحاد الاشتراكى كشكل . أنا أتكلم اليوم عن رؤية واضحة لشكل اليسار — فى المستقبل — ولو بعد خمس سنوات . اليسار ، اليوم ، هل هو عارف ما هو الشكل الأمثل لوضعه فى المستقبل ، حتى لا نفاجأ يوما بيأس الناس ، ويتأكدون أن الاتحاد الاشتراكى ليست له فاعلية . فماذا نفعل عندما يأتى الوقت الذى تطرح فيه المسئوليات ؟ المسألة شكل الحكم ، وشكل اليسار ما هو . أما اليمين « فسيبك منه » لماذا ؟ لأنه طول عمره مستفيد من واقع أن وراءه تقاليد هائلة ووراءه التجارة بالدين . ووراءه أخلاقيات مجتمع قديم من الصعب أن تطالبه بأن يغير نفسه . ولذلك أنا ، اليوم ، أتكلم مع اليسار . لأن اليمين لا يريد التغيير ... فاليسار هو الذى يقوم بالتغيير . فالسؤال : اليسار ، هـذا ، هل سيكون فى اطار أو لن يكون هناك اطار ؟

• لطفى الخولى :

هذا سيبحث ، ونحن ملتزمون بهذا ...

• توفيق الحكيم :

لذلك أضيف أن الكلام الذى قلناه اليوم ، هذا يدخل فى الباب الكبير جدا الذى هو الثورة ، من حيث السياسة ، ومن حيث وضعها للعرب والعروبة ،

والانتاج الداخل والاصلاح الزراعى : كيف نفذ ، وما الذى حدث فى الريف ؟ كل هذا ، لأن اليسار عليه أن يبلور الثورة لأنها ستكون المنطلق . لابد أن يعرف اليسار التحول الاشتراكى : ما هى سلبياته ، حتى لو كانت ٢٠ فى المائة لابد أن يأخذها ويبنى عليها .

• لطفى الخولى :

اتفقنا : المطروح ، فى النقاش ، الآن ، وهو وضع الاطار العام للمناقشة ، بما فيه القضية الأساسية ... أين يقف اليسار من الواقع ومن المستقبل فى ضوء تجربة العشرين سنة الماضية . وهذا متفق عليه .

• توفيق الحكيم :

طبعا ، بالنظر إلى ظروف المعركة لا نريد أن نعمل أى تخطيطات فى الحاضر لأن السلطة تعمل وهى ماشية فى طريقها وتستعد للحرب . ونحن لا نريد أن « نلخبط » لها نظامها . ولكن حتى لا يفاجىء اليسار ، غدا ، بأنه مشلت وأنه قاعد هكذا فى شكل هلامى ، فلا بد — قبل أن يضع المجتمع الأساس لنفسه بعد الحروب — نقول لا ! هذا هو اليسار قد أصبح واضحا منذ الآن ، واننا من خمس سنوات اجتمعنا فى هذه الغرفة . وأنا من الجائز ألا أكون موجودا بحكم سنى المتقدمة لأنه من سنة لسنة عزرائيل واقف لى . لكن يبقى اليسار . فإما أن يظل مطاردا أو ينقسم على نفسه . أقول لابد من الآن ، لأن مسألة عدم الشكل هذه « تمبانى قوى ... قوى » . وهذه (مسألة عدم الشكل) مسألة لم تكن متوقعة من ثورة إيجابية عملت انجازات ولكن بدون شكل سياسى يسمح للشعب أن يشارك ، ويسمح لليسار أن يوجد ، ويسمح للمعارضة أن توجد .

• لطفى الخولى :

المطروح الآن للنقاش هو التصور ... كيف تجرى المناقشة من خلال ترجمة

كل هذا الكلام إلى جدول أعمال . يخيل لى أن الدكتور عبد العظيم عنده كلام .

• عبد العظيم أنيس :

أنا اقتراحى ، استكمالا المناقشة التى بدأتها أو التساؤل الذى بدأته ، هو مجرد اقتراح لإطار المناقشة . فإن وافقتم عليه ، يمكن نستمر فيه . وهذا الاقتراح قد يبدو غير منطقى فى مناقشات عادية . لكن أعتقد أنه سيكون منطقيا ، ومفيدا فى هذه المناقشة بالذات . لأن مثل هذه المناقشة الهامة جدا ، والضرورية جدا والتى تسجل للتاريخ ، أعتقد أن هناك خوفا من أن تتبلور المناقشة إلى مناقشة تفصيلات وجزئيات ، وبالتالى ، فإن القضايا الأساسية والجذرية التى دائما يتكلم عنها الأستاذ توفيق الحكيم ، تضيع فى هذا الموضوع . وعلى هذا الأساس أقترح أن تبدأ المناقشة .

أولا : حول صورة المستقبل . ماهى الملامح الأساسية التى يتصورها الجالسون هنا للمستقبل وذلك فيما يتعلق بمصر . ومرتبط بهذا طبعا موضوع اليسار . وهنا عندى ثلاثة محاور فى النقطة الأولى . اعتقد أنها محاور جديرة بالمناقشة .

(ا) مستقبل مصر ... فن ناحية ، هناك النظرة الليبرالية العادية ، ومن خلالها تتصور مستقبل مصر ، مجتمعا فيه أحزاب ، فيه نظام ليبرالى ، بكل ما يعرفه النظام الليبرالى فى بلد مثل بريطانيا أو الهند أو فرنسا ... الخ . أو نظام رأسمالى فى طابعه العام . وفى مقابل هـذا التصور ، هناك النظرة الاشتراكية التى تقوم على أساس حتمية الحل الاشتراكى . وأن بلدا مثل مصر ، بلد فقير ونام ، وانه لا مفر من هذا البعد بالنسبة للموضوع .

يرتبط بهذا ، كل مشكلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية كبعد . ثم قضية الديموقراطية وشكل الديموقراطية ، وتصورها ، وكل ما يرتبط بذلك .

(ب) البعد الثانى ، أعتقد أنه متعلق بالبعد العربى . ويرتبط بهذا قضية النضال ضد الاستعمار والصهيونية . وقضية شكل المستقبل فيما يتعلق بعلاقات مصر بالعالم العربى : صورتها سواء علاقة دستورية اتحادية وحدوية تضامنية فقط ... الخ .

(ج) البعد الثالث ، أعتقد هو البعد الدولى الذى أشار إليه الأستاذ توفيق الحكيم فى كتاباته فيما يتعلق بمشكلة تصورنا لعلاقة مصر بالعالم كله : الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفييتى ، الدول النامية ، المجتمع الاشتراكى ... الخ ...

هذه ثلاث أبعاد فقط عريضة أطرحها للمناقشة . ويرتبط بهذا موضوع دور اليسار المصرى فى تشكيل هذا المستقبل الذى تتكلم عن ملامحه . إذا تبادلنا الرأى فى هذا التصور ، وضمنا أن فيه حداً أدنى من الاتفاق ، وحددنا نقط الخلاف ، فى هذا الموضوع كله فسوف يكون من المفيد جدا أن نتكلم بعد ذلك فى « ثانيا » ... تقييم الوضع الحالى لمسار الثورة لأن هذه النقطة ، نقطة هامة جدا أريد ابراز أهميتها وليس لمجرد أننى أتناقش فيها الآن .

استاذنا توفيق الحكيم أشار إلى قضية الشكل . الشكل السياسى الذى اعتقد هو أنه كان بلا أهمية فى الماضى ، وا كتشف ، فيما بعد ، أنه ذو أهمية قصوى ، وأن إهمال هذا الشكل أدى إلى فكرة الزعيم المعبود ، وما ترتب على فكرة الزعيم المعبود ، من استئثار بالسلطة والدكتاتورية ، واتخاذ قرارات بدون مشورة ، الخ ... مما أدى إلى الكوارث التى رأيناها . أنا قد أختلف مع الأستاذ توفيق الحكيم فى هذه النقطة . لا لأنى أهمل قضية الشكل تماما ، إنما أرى جذور الموضوع هى فعلا قضية قصور فكرى فى القيادة السياسية لعبد الناصر ، ولقيادة الثورة فى فترة الستينات . بمعنى آخر ، أعتقد — وهذا ما سأفصله فيما بعد — أنه بانتهاء الخطة الخمسية

الأولى فى أول الستينات ، وانتهاء بقرارات ٦٣ . أقول — فى رأيى — أن الثورة لم تمد — حقيقة — قادرة على أن تعطى فى اتجاه الفكر الاشتراكى أكثر مما أعطت . وأن أحد الأزمات الأساسية التى بدأت تظهر فى النظام برزت فعلا فى سنة ٦٤ ، ٦٥ أى قبل ٦٧ بسنتين . وأن المشكلة هى أزمة فكرية كبيرة . وأنها كانت عاجزة عن أن تمضى فى طريق الثورة أكثر من هذا أعنى فى قضية الناحية الداخلية . هذا رأيى وجائز يثبت أن هذا الرأى صحيح وجائز يثبت أنه غلط . إنما أنا أعتقد أن هذه قضية قصور الثورة فكريا ، وتخلفها فى هذه الحدود التى وصلت إليها ، ولم تكن قادرة على أن تمضى إلى أبعد من هذا . وعلى هذا الأساس بدأت الانتكاسات تأخذ وضعها الطبيعى فى هذا الموضوع ممهدة لما قبل ٦٧ وانتهت بكارثة ٦٧ .

هذه نقطة مهمة نناقشها . قضية الشكل والمضمون فى داخل حدود تقييم الوضع الحالى .

• توفيق الحكيم :

مسألة أن قصور التفكير الثورى عن أنه يعطى الاشتراكية أكثر ... هل السبب فيها هو إضعاف اليسار فى ذلك الوقت ؟ أنا أعتقد أن الاشتراكية بنت اليسار ، وليس اليسار ابن الاشتراكية . لأنه كيف يتم التغيير . الإجابة : أولا : يتم لمصلحة الناس . ولكى يتمكن اليسار من التغيير فلا بد أن يكون قويا وبتغييراته تولد الاتجاهات الجديدة ومنها الاشتراكية .

• عبد العظيم أنيس :

لا أريد أن أقول إن قضية الشكل غير ذات أهمية إنما ينبغى أن توضع فى مكانها الصحيح . فى الإجابة على سؤال الأستاذ توفيق . أعتقد أن هناك أسبابا موضوعية وأسبابا ذاتية . يعنى ، هناك أسباب سندخل فى تفاصيلها . ومما لا شك فيه أن من بين الأسباب الذاتية ضعف اليسار . وهذا

سيكون وارداً فى رأيى أنا الشخصى ، وأنا أعبر عن رأيى الشخصى فى هذا الموضوع .

فإذا دخلنا إلى ثانياً ، فهناك نقط أساسية ينبغى أن تقال فى هذا الموضوع هل الثورة تشهد تقدما الآن فى السنوات الأخيرة ، بعد وفاة عبد الناصر أو تراجعا ، من ناحية الأهداف الاقتصادية والأهداف الاجتماعية ؟ ثم من ناحية الالتزامات التى التزمت بها الثورة فى مواثيقها : ميثاق العمل الوطنى ، برنامج العمل الوطنى؟ الخ... كل هذه الأمور فى حاجة إلى أن تناقش بالضبط ليضع الإنسان يده على هذا الموضوع . وفى هذه المناقشة للوضع الحالى ، فى مسار الثورة ، سيأتى موضوع البعد الداخلى والقومى، والقضية السياسية والقضية الاقتصادية قضية التنمية ، والبعد الدولى والبعد العربى .

ثالثاً : تقييم ثورة ٢٣ يوليو . أنا أعتقد أن هذا سوف يأخذ مكانه بعد ذلك . لأنه من المنطقى أن تطرح قضايا ستظهر حولها خلافات بين المجتمعين . تأصيل هذه الخلافات سيعود إلى الماضى . وسيكون من المنطق أنه سيؤصل فى حدود ثورة ٢٣ يوليو ، وقد يؤصل إلى ما قبل ثورة ٢٣ يوليو أيضاً .

فى هذه الحالة المناقشة يمكن — فى هذا الاتجاه — ستكون مفيدة وبناءة لأنه إذا كان هدف المناقشة أن نخرج بنتائج ذات قيمة عملية ، ولا تكون سفسطة مثقفين — لمجرد السفسطة — فلا بد أن يكون هناك تقييم للماضى . أنا لست أطرح فكرة تقييم عبد الناصر حتى ولا تقييم اليسار . فليست هذه هى القضايا الأساسية ، وإن كانت سترد فى داخل النقاش والإطار . وإنما هذا تقييم ثورة ٢٣ يوليو بالضبط : حقيقتها ما هى؟ والعناصر الأساسية لمكوناتها إذا كان رأيكم أننا نناقش أولا وثانياً وثالثاً بهذا الترتيب فأعتقد أنه سيكون مفيداً أيضاً إذا كان لكم رأى آخر .

• لطفى الخولى :

طرح د. عبد العظيم أنيس معروض للمناقشة .

• محمد سيد احمد :

أنا عايز أطرح بعداً آخر ... كان محور من المحاور التى طرحت يسار ويمين كان المحور الثانى : شكل وموضوع . أريد أن أقول : أن هناك محوراً ثالثاً موجوداً فى كل هذا الكلام : سأسميه تحت وفوق . هذا مهم جداً . يعنى مثلا لو تأخذ الشكل فى القسم الأول وهو نظام فوق ولا يتسرب إلى أعماق معينة تحت . لما جئنا نتكلم عن المضمون فى النظام ، قلنا أيضاً هذا نظام فوق ، ونظام فوق لضرب نظام فوق بدون استعانة بالتحتى . ولما كان عبد العظيم أنيس يقول ، من لحظة ، أن الثورة استهلكت إمكانياتها بعد ٦٥ . لأن أزمة « التحت » طرحت ، كان استثمار الإمكانيات من تأميم للمصالح الاستعمارية وتأميم بعض المصالح الفوقية انتهت فى الخطة الخمسية الأولى . وبعد ذلك كان المطلوب تراكما رأسمالياً آخر لا يأتى إلا من « تحت » . والثورة لا تريد أنها تقدم على « تحت » ، فلم تحدث الخطوة الثالثة ، وتعثرت فى الأزمة . هذه هى النقطة الثانية .

النقطة الثالثة : ربط الشكل والموضوع هو — فى نهاية الأمر — مطروح كقضية لم يعد من الممكن إرجاؤها . لأن « التحت » يبرز فى الصورة خصوصاً ، ونحن داخلون على مرحلة ثالثة : ما قبـــل ٥٢ ، ومن ٥٢ لغاية اليوم . وأنا أقول أن معركة أكتوبر ٧٣ كانت نقطة تحول . هنا نرتبط بقضية أخرى .

نحن تكلمنا عن مصر الناصرية ، أو مصر العربية . أنا أحب أتكلم عن مصر إزاء إسرائيل . وهذه قضية لا تقل أهمية عن هذه المشكلة . أنا أقول إن المرحلة القادمة هى مرحلة مصر ، ومصر العربية معاً ، إزاء إسرائيل . وهى

مرحلة تختلف عن طبيعة المرحلة السابقة . وفى تعبير موجز ، وتعبير رمزى أضع المسألة بالشكل التالى ، وارجع (الفوق والتحت) .

لقد دخلنا ثلاثة حروب مع إسرائيل : حرب ٤٨ ، وهى أنشأت بالمناسبة ٥٢ . لأنه بفضل ٤٨ حدث ما حدث فى ٥٢ وبسبب أننا كنا عاجزين عن أن نواجه إسرائيل ، فقد استرددنا كرامتنا بتصليح أمورنا فى الداخل . الثورة المصرية إلى — حد ما — لما بعد إزاء إسرائيل . الكرامة المصرية التى يمكن استردادها عن طريق ردالهزيمة إزاء إسرائيل استردت بتعديل داخلى لكن حرب ٥٦ لم تعالج هذا الموضوع لأن الانتصار كان سياسيا . الدم أهدر سنة ٤٨ ، والدم أهدر ٥٦ ، ولكن الدم — لأول مرة — لم يهدر فى ٧٣ . طبعاً ، هذه قضية نقاشية : إلى أى حد هو أهدر أو لم يهدر .

ما أريد أن أقوله أن الصورة التى عندنا إن هذا لم يهدر . وهذا مهم جداً . إن دخول عنصر الدم معناه دخول عنصر من تحت . الشعب . وهذا لا يقبل الردة . لأول مرة ، هنا ، عنصر داخل من تحت فارض نفسه فرضاً . وهذا سيرسم المستقبل . أنا آخذ هذا الجانب الرمزى . لكن هذا التعبير الرمزى بالغ الأهمية بالنسبة لكل صور المستقبل . وأقول أن المستقبل سيكون ، لأول مرة المرحلة التحتية وليس مرحلة فوقية . حين نتكلم عن مرحلة تحتية نتكلم عن اليسار بأجلى معانيه . لأنه حتى تاريخنا اليسارى ، فى مصر ، اليسار فوق أيضا . كان اليسار له دور الإشعاع الفكرى أكثر من دور التحت الطبقى . لم يكن اليسار يمارس عن طريق التحريك فى الشارع وفى الريف . ولكن آخر مرة دخل الريف كان سنة ١٩ . الريف اختفى بعد ١٩ ، والريف تجمد عند الإصلاح الزراعى سنة ٥٢ الريف لم يدخل الصورة . اليوم هناك بعد جديد .

● لطفى الخولى :

هل عندك إضافة للنقاط الأساسية ؟ أنت تكلمت عن أنه لابد فى المناقشة

أن نراعي البعد (مصر – إسرائيل) طيب هل هناك حاجة ثانية غير هذا الطرح ؟

• خالد محي الدين :

كلام عبد العظيم أنيس أنا موافق عليه . لكن موضوع المستقبل ، لابد أن يرتب ترتيبا منهجيا بالأولوية . لأن الكلام الذي قاله محمد سيد أحمد داخل في البعد العربي ، أو فيما يسمى بالاستراتيجية العربية أو الداخلية . ولذلك ، إذا كنا سنرتب قضية موقف مصر من الانتماء العربي والدولي ، فهذا يتم على ضوء تحديد للموقف الداخلي . ولذلك أنا لما سألته هل هذا هو الترتيب . قال لا ! هذه هي الموضوعات . وكل الموضوعات التي ذكرها هي هذه الموضوعات بالفعل . تبقى النقطة الثانية . والسؤال بالفعل : هل نبدأ بمناقشة المستقبل ، ثم نأتي حتما للحاضر ، فالماضي ؟ ... أم أننا ونحن نناقش المستقبل ، سنناقش حتما الحاضر والماضي ؟

• عبد العظيم أنيس :

لا مفر من هذا ...

• خالد محي الدين :

إذا كان الأمر كذلك أوافق .

• لطفي الخولي :

لكن بدون تركيز في البداية .

• خالد محي الدين :

أنا موافق على ترتيب أولوية المستقبل .

• مراد وهبة :

أنا أختلف قليلا مع د . عبد العظيم أنيس بحكم التزامي بوجود أستاذنا توفيق الحكيم . في تقديري ، أن نبدأ بالفعل بصورة للمستقبل . لكنني

مستقطب فى الاطار الذى يطرحه فيه الأستاذ توفيق الحكيم، إذ أن المستقبل، عنده هو تصور للاشتراكية الحقيقية . فأنا أقول — مبدئيا — أن نستقطب فى صورة المستقبل — وهو الاشتراكية الحقيقية — دون طرح : اشتراكية أم ليبرالية . وذلك بحكم أن الجالسين كلهم يسار . وإذا اتفقنا على هـذا الاستقطاب لصورة المستقبل — طبقا لما قاله الأستاذ توفيق الحكيم ، من أنه الاشتراكية الحقيقية — فسنعود إلى الوراء ، إلى الماضى ، ونقفز على الحاضر ونتجه إلى الماضى . وهو ما أشار إليه د . عبد العظيم خاصة بثورة ٢٣ ، وهو ما عبرنا عنه بفتح الملف . وفى تقديرى فتح الملف يدور حول ثلاثة محاور :

١ — العلاقة الجدلية بين الذاتى والموضوعى، أى تحديد مسئولية عبد الناصر، وتحديد القوى الجماهيرية ، وأصحاب المصلحة ، من ناحية مسئوليتهم تجاه تعاظم العامل الذاتى المتمركز فى شخصية عبد الناصر .

٢ — المحور الثانى هو : العلاقة بين البناء الفوقى والبناء التحتى . لأنه واضح من « الفرشة » التى طرحت أن إنجازات عبد الناصر كانت توحى بعدم الاهتمام بتغيير البناء الفوقى المتمركز ، فيما يتصل بالقيم والتقاليد والعادات ، أى كل هذه الأمور التى ألح عليها أستاذنا توفيق الحكيم بقوله : انجازات يسارية مادية . ولكن تقاليد وتراث عينى لم يحدث تغيير . وهى — فى تقديرى — قضية فى حاجة إلى نقاش .

٣ — المحور الثالث : هو العلاقة بين العام والخاص . وأنا لاحظت بأن الأستاذ توفيق الحكيم مهتم جدا بالتطبيق . أما مسألة الاشتراكية كمبادىء عامة متبلورة فى أيديولوجية معينة فيبدو لى أن هناك تخوف من جهة أستاذنا من أنه قد تتحول الدعوة الأيديولوجية إلى مجرد شعارات كلامية . إلى أى حد يمكن مستقبلا أن نتفادى تحول الأيديولوجية إلى شعارات كلامية ؟ .

حين نناقش هذه المحاور الثلاث ، فى تقديرى ، أن هذا بالضرورة — يعدل من صورة المستقبل فيمكن أن ندخل فيها ما يريده د . عبد العظيم ، ثم بعد تعديل صورة المستقبل نعود إلى صورة الحاضر حتى يمكن أن نعرف جيدا كيف يمكن تحريكه لأن هذه هى القضية التى يجب أن ينتهى منها الأستاذ توفيق الحكيم : أى كيف نحرك الحاضر إلى المستقبل ؟ إنى لا أستطيع إلا من خلال رؤيا مستقبلية داخلة فى علاقة جدلية من ماض متمثل فى فترة عبد الناصر تحدث انعكاساتها من جديد على الصورة المستقبلية . هنا ، يتشكل الاطار الذى فيه يمكن أن نتفق على كيفية تحريك الحاضر تجاه المستقبل .

• لطفى الخولى :

طيب تحديداً نريد نقاطا محددة .

• مراد وهبة :

أولا : صورة المستقبل ، هى الاشتراكية الحقيقية ، كما حددها الأستاذ توفيق الحكيم . وننتهى منها لا ندخل فى تفصيلات خاصة : ليبرالية أم اشتراكية . لأن مثل هذه القضية فى جلستنا هذه تعتبر وهمية ، لأن الحاضرين — كما قلت — يسار وإلا أصبح حوارا من جانب واحد ، إلا إذا كنتم ترغبون فى دعوة الليبراليين لكى يمكن أن نقتنع بوجهه نظرهم !

ثانيا : البعد العربى والبعد الدولى ...

● توفيق الحكيم :

إذن لابد أن ندعو الليبراليين فى جلسة من الجلسات أم ماذا ترون ؟

● لطفى الخولى :

د . عبد العظيم ، عندما طرح هذا ، فقد طرحه على أساس ضرورة أن يحدد اليسار موقفا . هذا الموقف ضرورى أن يتحدد فى مقابل موقف آخر . وبالتالى ، لا بد أن يقدم الحجج التى نختار على أساسها الطريق الاشتراكى

وذلك لفشل الطريق الليبرالى أو الطريق الرأسمالى فى التنمية . هذا واضح طبيعى ، أن الاشتراكية تكون مطروحة فى واقع محدد وفى ظروف محددة وطاقات قوى وطنية محددة . وهذا كله داخل فى مضمون المناقشات التى سنجرى ...

لكنى أسأل د. مراد وهبه هل هو معترض على السياق الرئيسى الذى اقترحه عبد العظيم ؟ عبد العظيم مقترح أن نعمل عكس ما هو تقليدى فى فى المناقشات على أساس أن هذه المناقشة أيضاً غير تقليدية . وأن هناك حداً أدنى من معرفة أفكار بعضنا البعض . ومن خلال « الفرشات » التى تمت ، لسنا فى حاجة إلى العودة باستمرار إلى المشكلات التاريخية ... الخ ... إلا فى مجال مناقشة خدمة الرؤية المستقبلة الحاضر . وعلى هذا الأساس هو يبدأ بالمستقبلية ، وذلك على عكس ما هو قائم فى المناقشات التقليدية . هذه نقطة .

• توفيق الحكيم :

هذه النقطة لها فائدة . لأنه إذا خططت وصورت للمستقبل ثم تكلمت بعد ذلك — فى سياق المستقبل — عن الماضى والحاضر ، فستكون بهذا غير قاصد أن تمس أحداً . لأن الخوف ، هو أنه عندما تتكلم فى الحاضر والماضى ستلقى من يقول لك : هذا نقد للماضى . إنما عندما تتكلم فى اتجاهات صورة للمستقبل ، عن مصر ، إذن يصبح كلامك منزهاً عن أية أغراض .

• لطفى الخولى :

صحيح ! وبجانب هذا فإنه بالنسبة للمستقبل ليس المطلوب تحديده إلى الأبد . وبالتالى ، ما هى المرحلة التاريخية التى نرى فيها هذا المستقبل ؟

النقطة الثانية : أن ما أثرته أنت (مراد وهبه) بين الذات والموضوع ، هو ما أثاره الأستاذ توفيق الحكيم حول الشكل والمضمون ، وما أثاره محمد

سيد أحمد بين الأبنية التحتية والأبنية الفوقية فإن كل هذا سيرد — كمنهج — خلال المناقشة. لكن أي واحد يمكنه أن يستخدم أي منهج يراه.

• لطيفة الزيات:

بالنسبة لجدول الأعمال الذي يقترحه عبد العظيم أنيس، أرى أن ثانياً وثالثاً في بعضهما البعض وأن مسار الثورة واختلاله — من سنة ٦٥ — مرتبط ارتباطاً كلياً بالحاضر. بعد هذا، أرى أن هذا المنهج واسع جداً. بحيث أنه من غير الممكن أن يؤدي إلى نتائج ملموسة. فلو عملنا مصالحة بين اقتراح د. عبد العظيم أنيس ومحمد سيد احمد، فإن اختلال الثورة من بعد ٦٥ هو اختلال مرتبط أساساً بالصراع المصري الإسرائيلي، واختلاط مرتبط أساساً بالوضع الدولي المتأثر بنتيجة هذا الصراع، واختلال مرتبط أساساً بفوقية الأشياء وانعزال الشعب عن هذه الأشياء ولا يمكن تصور أي صورة للمستقبل إلا في نطاق تجاوز الصراع المصري الإسرائيلي الذي هو نقطة الانطلاق، يعني الصراع المصري — الإسرائيلي ...

• لطفي الخولي:

دكتورة. نقطة نظام — لو سمحت — أنت بدأت تدخلين في النقاش. أولا: ما طرحه محمد سيد احمد هو مقولة وما تطرحين أنت مقولة أخرى ...

• لطيفة الزيات:

لا ... أنا أريد أن أوفق بين المنهجين.

• لطفي الخولي:

لا. لماذا المصالحة بين المنهجين ؟

• لطيفة الزيات:

هل يمكن أن أتصور صورة للمستقبل وأنا قاعدة في انفصال عن الحاضر ؟

● لطفى الخولى :

ولـكن من قال إن هذا سيحدث ؟

● توفيق الحـكيم :

أنا رأيى فى موضوع المستقبل لا بد تصوره بالنسبة لاستراتيجية مصر العربية والدولية وهذا أساساً صراع مصر مع إسرائيل . هذا جزء رئيسى .

● لطيفه الزيات :

هذه ستكون الأساس ، حتى نحيط بأطراف الموضوع .

● لطفى الخولى :

يا دكتورة لطيفه ... فيه أيضاً وجهة نظر — حتى من ضمن اليسار أن هناك تخطيطا من الاستعمار لاستخدام قضية الصراع العربى الإسرائيلى ، كى تـكون عملية ابتزاز كاملة وابتزازاً للقوى المصرية و ... و ... الخ . محمد سيد احمد نفسه قال : إنه لما بدأنا — حسب تصوره — فى إصلاحات الوضع الداخلى أمكننا إحراز بعض الانتصار فى ٧٣ . وبالتالى ، القضية المحورية ليست الصراع العربى الإسرائيلى . هذه وجهة نظر . لـكن القضية الأساسية إلى أين تتجه مصر ؟ فهذه — أيضاً — قضية رئيسية . وبالتالى ، المقولات تحتاج إلى مناقشة فلا نصادر هذه المناقشات . وبالعكس اختلاف وجهات النظر حول هذه القضايا سوف يغنى الحوار .

ومع ذلك ، فيمكنك إما أن تضعى قضية الصراع العربى الإسرائيلى باعتبارها النقطة الرئيسيه عندك ، ثم تبنين عليها كل حاجه . وأما أن تضعى قضية التخيل لعصر المستقبل والسياسة الاستراتيجية المصرية للمســتقبل كشىء منفصل أو مرتبط بالقضيه العربيه كـكل وخاصة بعدها الفلسطينى .

• لطيفه الزيات :

خلال كم سنه ؟

• محمد سيد احمد :

فليكن عشرين سنه مثلا .

• لطفى الخولى :

لا بد من تحديد أولى على الأقل .

• خالد محيي الدين :

أنت تضمين فى ذهنك — وأنت تبنين سياسة عربية وسياسة دولية وتنمية — إن هذا الصراع حتمى حتى ولو تم اتفاق . ففى تقديرى أن هذا الصراع لن ينتهى .

• محمد سيد احمد :

حتى هذا الاتفاق هو شكل من أشكال الصراع .

• لطفى الخولى :

هل هناك من الإخوان من له رأى آخر حول المناقشة وفى نقاط جدول الأعمال ؟

• محمد سليمة :

لقد أتيح لنا فعلا أن نسمع « الفرشة » وهذا جانب هام جدا فى تاريخ ثورة يوليو أتيح لنا وأنا اعتبر أن « الطليعة » ملتزمة وملزمة أنها تنشر هذه « الفرشة » .

• لطفى الخولى :

سننشرها كاملة .

• محمد سليمة :

وبالنص لأنها مهمة جدا بالنسبة لمجموعات الشباب حتى لا تضلل · ونحن نعرف أساليبهم ... للضللون يكفى أنهم استغلوا « عودة الوعى » وما يجب أن يكون ·

• لطفى الخولى :

فقط أحب أن أضيف إلى جدول الأعمال نقطة رابعة ، وهو أن كل هذا يعطى تشخيصا للموقف، سواء برؤيته للمستقبلية أو برؤيته الحاضرة . أعتقد أنه لابد أن نضيف نقطة رابعة أخرى تتحدد فى سؤال واحد : ما العمل ؟ أى تصور عملى للمستقبل .

• مراد وهبة :

أنا كنت أرغب فقط أن يؤجل تفصيل الكلام فى المستقبل — كما طرحه د. عبد العظيم إلى ما بعد طرح فتح الملف لأننى أخشى أن نستطرد فى المستقبل بحيث أنه لا يوجد وقت لفتح الملف ·

• لطفى الخولى :

لا ... أنت عارف أنه قد يبدو أنه من غير المنطقى فى البداية . لكن فى الحقيقة البدء بالمستقبل هنا بالذات منطقى ... لماذا ؟ لأن الجميع لهم تجارب، ولهم رأى ، وقد عانوا التجربة و ... و ... الخ ... وبالتالى ، إن الأساس الذى سنبدأ منه أرضية نقاش وتحليل لمسار الثورة ولتجربة العشرين سنة الماضية ولعبد الناصر ولدوره و ... و ... الخ ... فيه — منذ البداية — بين المتناقشين تحديد واضح لفهمهم للمستقبل... بنقط اتفاق ونقط اختلاف محددة . فهذا ، يعينك على فهم الواقع وعلى فهم مسار التجربة ، ولهذا أهميته . وأهميته : أنه منذ البداية ، وأنا واضح تماما فيما اتفق معك ، وما اختلف

معك حول المستقبل . وهذا ، بالتالى ينعكس فى منهاجك فى الرؤية والتحليل للحاضر وللماضى .

❊ فؤاد مرسى :

لو سمحت لى ... أعتقد أن « الفرشة » التى تقدم بها الأستاذ توفيق الحكيم ، فى هذه الجلسة ، وكما اكتملت — كفرشة — بالعرض الذى قدمه الأستاذ خالد محيى الدين قد تجاوزت أمرين : الأمر الأول محاكمة « عودة الوعى » ككتاب وضعه الأستاذ الحكيم واستغل واستفيد منه بدرجات متفاوتة . الأمر الثانى الذى تم إنجازه ، بمناقشة اليوم ، هو مجرد فتح الملف . يعنى لسنا نحاكم عبد الناصر — أيضا — ولسنا نحاكم التجربة الماضية ، ولسنا نحاكم اليوم بقدر ما نحن مشغولون بالمستقبل .

❊ لطفى الخولى :

إذن اتفقنا على هذا الأساس . ونرجو أن نستأنف جلستنا الثانية يوم الاثنين القادم الساعة الحادية عشرة .

❊ خالد محيى الدين :

هناك نقطة أريد أن أضيفها على كلام فؤاد مرسى . الحقيقة أن هذا المنهج يجعلنا نتخطى الكلام الذى قاله توفيق الحكيم عن : هل الاشتراكيون أتباع مذاهب عامة يفكرون ، فقط ، فى التزامهم الخاص دون النظر لوطنهم . هذه المناقشة عليها أن تضع تصورا للمستقبل مصريا عربيا ، وتناقش معاكلنا ببرنامج يؤكد أن الانسان الاشتراكى قضيته الأساسية هى وطنه ، ويضع ظروف وطنه قبل كل شىء . وإن كان عنده منهج فكرى فهو لخدمة وطنه ببرنامج عملى مراعيا كل الظروف المصرية والعربية .

● لطفى الخولى :

اتفقنا . وشكرا .

﴿ انتهت الجلسة الأولى ﴾

الجلسة الثانية

• لطفى الخولى :

هذه هى الجلسة الثانية للحوار . فى الجلسة الأولى ، أتيح لنا أن نتعرف على رؤية الإطار العام للتجربة لدى كل من الأستاذ توفيق الحكيم والأستاذ خالد محيى الدين ، وذلك من خلال موقعيهما وتجاربهما المختلفة مع ثورة يوليو وقيادتها الوطنية . واستطعنا ، فى نهاية هذه الجلسة الأولى ، أن نتفق على جدول أعمال محدد للحوار . واستقر الرأى بيننا على أن نبدأ — على خلاف المعتاد — بتصور كل منا لمستقبل المجتمع المصرى بعد تجربة يوليو وحرب أكتوبر . وذلك بهدف الوصول إلى مناهج التفكير التى على أساسها نناقش تجربة يوليو ومسارها الإيجابى والسلبى . أو كما يقول أستاذنا الحكيم نفتح الملفات . والمفيد هو البدء بالمستقبل ، ثم الرجوع إلى الماضى والحاضر ، ثم العودة من جديد إلى المستقبل للإجابة على سؤال : ما العمل ؟ ... أقول المفيد ، فى هذا ، أننا سنتمكن من أن نحدد نقاط الاتفاق ونقاط الاختلاف ، فيما بيننا ، وأسبابها الموضوعية . وبالتالى ، ننقذ المناقشة من الوقوع فى مهاوى « الدردشة » . وأعتقد أن هذا هو مطلبنا جميعاً .

وقبل أن ندخل فى الموضوع ... الأخ محمد سليمة كان قد طلب أن يتحدث فى ختام الجلسة الماضية ، لكن الوقت لم يسمح . ولذلك أدعوه إلى أن يدلى بما عنده قبل أن نلتزم بجدول الأعمال .

• محمد سليمة :

أولا : أنا شاكر لدعوة الأستاذ لطفى الخولى ، وهذا يمكن أن يكون أول تمثيل للشباب . وكانت فرصة — الحقيقة لنا - لنلتقى بالعناصر المفكرة فى البلد ، وخاصة أستاذنا توفيق الحكيم . وأنا أقول ذلك ، لأن ما دار حول أستاذنا توفيق الحكيم وربما كانت جريدة الطلاب هى أول من بادر لمناقشة توفيق الحكيم ، سببه المباشر ، فى هذا ، كان كتاب « عودة الوعى » ، كتاب « عودة الوعى » ، وما صادفه من ظروف معينة . إذ هو ينشر ، أول ما ينشر فى بيروت ، وتقوم بعض العناصر الرجعية فى مصر والوطن العربى لنستغل الكتاب ، وتظهر ما به من انطباعات سلبية فحسب ، وتبرزها بشكل لم يكن وارداً فى حسبان أستاذنا توفيق الحكيم . وهو أول من ناصر فعلا الثورة وأول من وقف إلى جوار الزعيم جمال عبد الناصر . وهذا ثابت من خلال كتاباته ولا تأتى عنها بجديد . وأريد أن أقول نفس الشىء بالنسبة لدور الشباب وتصدى الشباب فعلا للمجموعات الرجعية .

الشباب كان له دور ممتاز جدا خاصة فى البدايات ، من أول ابريل سنه ١٩٧٤ حتى الآن — من أول المؤتمر العاشر لطلاب الجمهورية . كان تصديه واعيا وشجاعا فى ظروف لم تكن قد تبلورت فيها بعد حرية الرأى وحرية الصحافة . فالحقيقة ، هى أنه ، من خلال هذا المؤتمر ، بدأ الاتحاد العام لطلاب مصر الدور المنوط به فعلا فى التصدى للمجموعات الرجعية العائدة والتى حاولت أن تقتنص فرتصها ، وتنشب بالفعل أظافرها فى مكتسبات ثورة ٢٣ يوليو . الاتحاد وجريدة الطلاب والشباب بدأوا عملية التصدى فى اللقاءات المتعددة ، وفى الندوات المتعددة ، وفى حضور الرئيس أنور السادات ، المسئول الأول عن ثورة يوليو اليوم . كانت هناك ، أيضا تجربة ناجحة جدا ، وأعنى بها لقاء ناصر الفكرى الرابع ، وما صاحبه من انفتاح كبير على القاعدة

الجماهيرية لدرجة أن الجماهير استوعبت التجربة الطلابية والشبابية التى كانت متمثلة فى قيادة عين شمس . فكانت فرصة لتكشف الجماهير النوايا السيئة التى دخلت بها بعض المجموعات الرجعية العائدة . هذا تحليل موجز لما صاحب دور الشباب والطلاب فى هذه الفترة ، وذلك بقصد أن نضع التجربة الطلابية والشبابية الناصرية ، الموجودة حاليا فى مصر ، والتى تتصدى للمجموعات الرجعية فى دور التكوين ، وذلك عندما نتحدث عن المستقبل . إذن ، كان دور أستاذنا توفيق الحكيم ، وما صاحب كتاب « عودة الوعى » ، من بعض الشبهات ، قد استغلته هذه المجموعات ، وخاصة فى جريدتها أخبار اليوم والأخبار . والتشنيعات التى ظهرت وكانت واضحة . ولا بد لنا ، كشباب ، أن لا نغفل أبدا التجربة الحية . وريادة أستاذنا الحكيم للأدب فى مصر ، وذلك مهما كان من الأحداث التى حدثت فى خلال هذه الفترة . وهذا لا ينفى أن لنا بعض التحفظات على ما جاء فى كتاب « عودة الوعى » . إلا أننا ، مع تقديرنا واحترامنا للرأى ولأستاذنا توفيق الحكيم ، فإننا أول الناس الذين ينادون ، فعلا ، بفتح الملف لهذه التجربة سواء التجربة الناصرية أو تجربة ثورة ٢٣ يوليو . نحن لا نخاف من فتح الملف . على العكس ، نحن ننادى بفتح الملف . نحن على ثقة من أن التجربة ممتازة والتجربة واعية ، فيها بعض السلبيات نعم ، لكن طبعا هى تجربة لا بد من استمرارها .

• لطفى الخولى :

حسنا ... هل لنا بعد ذلك أن نبدأ بالمناقشة على أساس جدول الأعمال . النقطة الأولى : ماذا عن المستقبل ؟ ماذا يا أستاذ توفيق ؟ ... للمستقبل ؟

• توفيق الحكيم :

فى الواقع ، أنا دائما أحب أن أبحث عن جذور مواقفى وتفكيرى ، حتى لا أكون رهنا بنوازع جزائية أو تلقائية أو دافع مناسبات . ذلك أن هذه

النوازع والدوافع ، فى الحقيقة ، تكون أحيانا سطحية وموجهة لاعتبارات معينة . ومن هنا ، فإنى دائما أرجع إلى الخط الرئيسى فى تجربتى فى الحياة أو فى مواقفى ، لأن هذا هو الأصح . فعندما أردت أخيرا أن أحلل مواقفى ، وجدت خطأ معينا وهو أنه فى الثلاثين سنة السابقة على ثورة ١٩٥٢ ، كان لى موقف معين : وهو أنى تنبهت إلى أن الديمقراطية انحرفت وأصبحت ديمقراطية مزيفة لعوامل كثيرة . وهى أنها لم تكن فى بيئة حرة ، ولكن فى بيئة تسيطر عليها السلطات — أو على الأقل — سلطتان كبيرتان وهما الاحتلال الانجليزى والسراى . وكانت هناك ثلاث قوى موجودة فى البلد : وهى الاحتلال الانجليزى والسراى والشعب . الشعب ممثل فى القيادة الثورية ، قيادة ١٩١٩ . لأنه قبل ذلك كان الموقف الشعبى موقفا غير واضح . كان يوجد مفكرون ومثقفون ثوريون مثل الحزب الوطنى ، أو قبل ذلك مثل الحركة العرابية . لكن ، أين الشعب فى ذلك ؟ كان الشعب غير مركز فى إطار ... يعنى مصطفى كامل كان يخطب ونحن بقلوبنا معه . ولكن ما هو الإطار الذى نستطيع أن نقول إن الشعب كان معه فيه ؟ هل الفلاح فى الريف كان يشعر بمصطفى كامل أو يتصل بفكره ؟ هل العامل كذلك إذا كان قد وجد فى ذلك الوقت ؟ أعتقد أن من كان يفهم خطب مصطفى كامل هم طبقة المثقفين وللطربشين أو المعممين — أعنى — المثقفين عموما ، وفى إطار الإيقاظ الوطنى العاطفى وليس بعد فى إطار ثورة فعلية . ولكن ثورة ١٩١٩ ، كانت غير ذلك . لأنها بلورت قوة شعبية فعلية ، من فلاحين وعاملين ومثقفين ونساء خرجن بالبراقع وقرى استقلت مما اضطر الاحتلال الانجليزى إلى إرسال قطار مسلح إلى الأرياف ... ورجال دين مسلمين ومسيحيين معا فإذن ، كانت حركة شعبية مركزة ، فاجأت الانجليز بل فاجأت سعد زغلول نفسه عندما عاد من المنفى فوجد البلد كلها مشتعلة ومركزة ضد عدو موجود

بيننا، وهو الاحتلال الانجليزى المركز فى القاهرة نفسها، فى ثكنات قصر النيل، أمامنا. وفى الوقت نفسه، كانت سلطة الاحتلال هذه تتدخل فى شئوننا باعتبار أنها هى السلطة القوية التى تملى إرادتها على الشعب. فلما جاءت ثورة ١٩١٩، جاءت لتطالب بحق أصبح أيضا محسوسا عالميا، وهو أن الحرب العالمية الأولى وضعت لنفسها هدفا إنسانيا. قالت إنها تحارب للحرية. وجاء ويلسون الأمريكانى — وكان أصله أستاذا فى جامعة — بالمبادىء التى نعرفها عن حق الشعب فى تقرير المصير. فتمسكنا بهذا، وقلنا نحن أجدر وأولى بتقرير المصير. والشعب قام، ولذلك كانت ثورة شعبية. بعد ذلك، اعتبر زعماء الثورة مجرد ثائرين لأنه ليس لهم إطار معين ولا شكل معين... ثائرين ضد الانجليز، ولذلك، فإن الإنجليز عند المفاوضة، قالوا: نحن نتفاوض مع رئيس حكومة مصرية ولكن لا نتفاوض مع رئيس الشعب أو ما تسمونه أنتم برئيس الشعب لأنه، فى الحقيقة، رئيس عصابة ثورية، هو رئيس الثورة. ولم تجر العادة أن تحدث مفاوضات بين حكومة رسمية وبين زعيم ثورة، وكان هذا تحديا للسلطات الإنجليزية. فرفضوا — فى البداية — أن يفاوضوا سعد زغلول باعتباره رئيس ثورة. وقبلوا للمفاوضة مع رئيس الحكومة وقتذاك «عدلى يكن» مما جعل سعد زغلول يقول قولته المشهورة «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس»...

والغريب أن هذا يحدث مع جميع الثائرين... يسمونهم فى البداية باسم عصاة أو إرهابيين، كما يحدث الآن مع منظمة التحرير الفلسطينية وياسر عرفات. لماذا عصاة؟ لأن عرابى والناس الذين قاموا معه كانوا يسمون العصاة، لا ثورة عرابية، بل «العصاة» فقط. وكانت تأتى من الباب العالى، السلطان يعنى، أوامر باعتبارهم عصاة على سلطته، لأنهم قاموا بدون أمره، بثورة ضد الخديوى الذى كان هو الوالى رسميا والمعين بواسطة السلطان.

فأصبح هؤلاء يسمون العصاة تماما . كما يقال اليوم، مثلا عن اليساريين . فى ذلك الوقت ، كان لى جد اشترك قليلا فى الثورة — أو ربما لم يشترك — وإنما كان من الموالين للثورة العرابية . ففصل من عمله . وكنت أسمع دائما فى ذلك الوقت ، أنه كان يعتبر من العصاة . فسألت جدتى ، العصاة يعنى ايه ؟ قالت « بيقولوا عنهم العصاة ، وبعدين سموها ثورة عرابى » إذن فى البداية كان الثوريون عصاة ، والثورى من العصاة ، كما يقال اليوم — مثلا — عن عن اليساريين إنهم كذا وكذا وكذا . أنا أذكر كلام جدتى حتى الآن .

• لطفى الخولى :

يبدو أن جدتك كانت أستاذتك الأولى ؟

• توفيق الحكيم :

أظن هذا ! ولو أنها كانت مسكينة لا تقرأ ولا تكتب ولا تدرك شيئا يعنى ، إنما كل الذى كانت تدركه أن زوجها كان من العصاة . من العصاة يعنى إيه ؟ يعنى العرابيين . فإذن ، كلمة الثائر أو الوطنى ضد السلطات كانت له صفة العاصى .

• لطفى الخولى :

ترى ماذا كان موقفها من العاصى هذا ، جدك ... زوجها ؟

• توفيق الحكيم :

طبعا هو زوجها . والحقيقة أنها لم تكن مدركة تماما لما يحدث . ولكنها كانت معه باعتباره زوجها . فإذن نحن من نسل العصاة . يعنى أنا منهم بطبيعتى وبدون أن أدرى . لأنها وراثة . إن الوراثة عندى هى أننا كنا من العصاة . ودائما الثورات الوطنية أو الاجتماعية أصحابها بالنسبة للسلطات

خارجون عن القانون ، يعنى عصاة . وفى الواقع ، يثبت التاريخ — بعد ذلك — أنهم كانوا ، فى نظر أنفسهم ، من المصلحين ، أو الوطنيين ، وإن كانوا فى نظر السلطات من العصاة . استمرت المسألة لغاية سنة ١٩١٩ ، واعتبر سعد زغلول الذى قام بالمطالبة الشعبية بالاستقلال زعيم ثورة . لم يكن بوصف « بالعصاة » وإنما من الثائرين . وهذه الثورة ، وإن منحت سعد زغلول زعامة الأمة ، لكن رسميا لا يحق له أن يعتبر — أمام السلطات — أن له الحق فى أن يتكلم على مائدة مفاوضات ، يتكلم بإسم من ؟ بإسم ثورة ؟ الثورة غير معترف بها أمام القوة ، وإلا إذا كانت الثورة يعترف بها أمام القوة ، فلن يكون هناك تناقض . بعد ذلك ، حدث تصريح ٢٨ فبراير ، أى الاستقلال ... لا ! هو المناداة باستقلال مصر من طرف واحد تحت ضغوط الثورة . الانجليز وجدوا أنهم مضطرون لتهدئة الثورة ، وذلك بأن يعطوا مصر ، من طرف واحد وبدون مقابل ، الحكم الذاتى . والسلطان أعطوه لقب ملك ، وبعد أن كان الذى يمثل مصر فى الخارج ، هى السفارة البريطانية ، أصبح هناك ، بعد تصريح ٢٨ فبراير ، سفارات مستقلة تمثل مصر . وانفصلت السفارة المصريه عن السفارة البريطانية . وأصبح لنا الحق فى دستور نيابى يعطى الشعب حق أن يمثل فى برلمان . وهكذا ، صار لنا دستور ١٩٢٣ وبرلمان ... وأصبح للثورة شكل . أريد أن أشير إلى الشكل الذى تحددت فيه الثورة . مسألة الشكل مهمة جدا لما نتكلم بعد ذلك . لما أن دخلنا فى شكل برلمانى ، حتى جاءت الأغلبية إلى الحكم ، أى سعد زغلول ... وبدأنا نعيش فى نظام شكلى ديمقراطى ملكى . يعنى نظام مصر أصبح هو الملكية الديمقراطية . طيب ... عملت إيه الملكية الديمقراطية . طبعا رحبنا بهذا ومشينا فى طريق الشكل الملكى الديمقراطى . هذا فى الظاهر ، ولكن خارج هذا الشكل وجدت حراب . هذه الحراب هى أسنة الرماح البريطانية ، لأنه كان احتلال . يعنى ،

هو نظام ملكى ديمقراطى معاصر من الخارج بدون أن يشعر الإنسان بقوة الاحتلال البريطانى . ولذلك فإن الثورة فى ذلك الوقت — لا أقول انحرفت — إنما كل شىء معاصر ما دام هناك سلطة عليا هى سلطة احتلال أجنبى أو قوة عليا فى العالم تملك خمس قارات هى بريطانيا . وبريطانيا ، فى ذلك الوقت ، امبراطورية عظيمة .

المهم ! شيئا فشيئا ، شعرنا أن المسألة وصلت إلى برلمان . وانفجرت الخلافات على الكراسى فى البرلمان . وكانت هذه لعبة الشكل لمجرد الشكل . والمضمون هنا أصبح فى الخلفية التى لا يشعر بها الشعب . ولكن ، كنا نشعر بلعبة برلمانية ولعبة شكلية . ولست أدرى ، كيف حصل انقسام فى قوة الوفد التى كانت تمثل الشعب . تفتت إلى أحزاب أخرى أقلية . وأنا أقدر وأحب وأعز عبد العزيز فهمى ، لقيمته الفكرية والوطنية أيضا ، وربما أيضا ، لبعض العلاقات التى تمت — فيما بعد — بينى وبينه لما دخلت المجمع اللغوى ، لأنه كان عضوا فيه ، وبعد وفاته انتخبونى فى كرسيه ... وكنت دائما أقدره . ولكن لا أنسى أبدا — وإنى هنا أحلل الأشياء بموضوعية . ويجب أن أنحى العواطف والصداقات جانبا — أن عبد العزيز فهمى ، بمواقفه ، كان من الأسباب التى ساعدت — مع الأسف الشديد — على تدمير الوحدة الوطنية التى تمثلت فى الوفد ... لماذا ؟ لأنه كان أول من خرج على سعد زغلول وانضم إليه ناس آخرون .

وتفتتت الوحدة الوطنية المصرية ، مع الأسف . وهو الشىء الذى لم يحدث للوطنية الهندية التى كانت تتلمذت علينا . لأن غاندى كان قد اندهش كيف نجح سعد زغلول فى ضم صفوف الأمة كلها بعناصرها المختلفة ، فى حين أنه أخفق . يعنى سعد زغلول نجح ، أو الشعب المصرى — على الأقل — أو الوطنية المصرية نجحت فى جعل الأقباط والمسلمين — يندمجون فى وطنية مصرية واحدة ، فى الوقت

التى كانت انجلترا تسعى لتفريق المسيحيين عن المسلمين . وكانت تريد أن تصل بهذا إلى التفريق ، بدعوى حق حماية الأقليات . ومن قبل كانت تريد تقسيم القطر المصرى . فتجعل للأقباط دولة عاصمتها أسيوط ، كما فعلت بعد ذلك ونجحت فى باكستان ، وجعلت الباكستان منفصلة عن الهند .

فغاندى كان يريد وحدة تجمع بين الهندوس والمسلمين كما حصل بين المسلمين والأقباط فى مصر . وكتب لسعد زغلول وقال له كيف حققت هذا ؟ أنت حقيقة قائد لهذه الوطنية الكاملة المتكاملة المتجانسة المتحدة لكن ، حدث ، بعد ذلك أن جاء عبد العزيز فهمى . وأنا آسف أن أدينه وأرجو أن التاريخ يحلل لنا هذا الموضوع أكثر . إنما الذى أعرفه عن موقف عبد العزيز فهمى — لأنه كان عاطفيا جدا — أنه كان يعتقد أن سعد زغلول رجل مستبد برأيه . ولكن ، أياً ما كان الأمر ، فقد كان أملى أن عبد العزيز فهمى يصبر على كل ما يراه من مساوىء لسعد زغلول فى سبيل أنه لا يحدث هذا التفتيت فى الوطنية المصرية ، لأننا ارتكبنا نحن الغلطة التى لم يرتكبها حزب المؤتمر الهندى . حزب المؤتمر الهندى ظل متماسكا وتماسكه الآن سمح له بأنه يتطور .

• لطفى الخولى :

لم يعد حزب المؤتمر الهندى متماسكا الآن ، كما تعرف . والانقسامات فى الأحزاب لها أسباب اجتماعية وسياسية ، وليست عاطفية ... على العموم ، أعتقد أن انقسامات الأحزاب شىء ، والوحدة الوطنية فى معركة شىء آخر . والآن ، فى الهند ، هناك ائتلاف بين قسم من حزب المؤتمر وأحزاب أخرى .

• توفيق الحكيم :

ولكن حزب المؤتمر ظل فترة طويلة موحدا إلى أن جاءت الظروف الاجتماعية وفرضت أن يتكون فيه حزب اشتراكى .

• لطفى الخولى :

عظيم ! . هل لى أن أقول لأستاذنا الحكيم أن المقدمة الواسعة المتشعبة آن لها أن تمسك بالنقطة الأولى من جدول الأعمال : رؤيتك للمستقبل ؟

• توفيق الحكيم :

هذا كله يهم المستقبل ، لماذا ؟ لأنى أريد أن أقول ما هو شكل الأمة المصرية . نحن دخلنا فى الشكل الذى جعلنا ما أن نبدأ فى ممارسة الديمقراطية حتى تفتتت الأمة إلى أحزاب أقلية وأكثرية . ولعبت فى هذا السلطات المحتلة وسلطة الدولة ، فى الداخل ، التى كانت تمثلها السراى . ولا أعرف لماذا كان الدستور ، الذى كان أحسن الدساتير ، عندنا ، يعنى دستور ١٩٢٣ أو غيره ، لا أعرف لأى سبب أهمل فقرة كانت سيكون لها تأثير كبير فى تاريخ مصر ، وهى الحد من سلطة الملك . أى أن لا يكون له حق إسقاط الوزارات وأن يكون إسقاط الوزارات ليس فى يد الملك بل فى يد الشعب أو الهيئة الممثلة للشعب فى البرلمان .

• لطفى الخولى :

لا يوجد نص فى دستور ١٩٢٣ بهذا المعنى . ولم يكن ممكنا ، بحكم علاقات القوى فى ظروف إصدار الدستور ، أن يقنن مثل هذا النص .

• توفيق الحكيم :

هذا هو الخطأ . منح الملك حق إسقاط الوزارات وإقالتها ، وله سلطة حل البرلمان . وحصل الملك على سلطة استطاع أن يلعب بها فى التاريخ المصرى كله . البرلمان الذى لا يعجبه يسقطه . وإذا قام الشعب بمطالب معينة والبرلمان أيدها ، يروح يحل البرلمان . لو أن الملك كان قد جرد من سلطة إقالة البرلمان كان تغير الوضع إلى تقوية لسلطة الشعب .

* عبد العظيم أنيس :

هذه هي النقطة ... النقطة الجوهرية . والقضية قضية علاقة قوى حددت طبيعة النظام ونصوص الدستور .

* توفيق الحكيم :

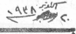
أريد أن أقول إن هذا كان خطأ . وهذا الخطأ أدى إلى التلاعب بالدستور والتلاعب بسلطة الشعب ، في ذلك الوقت . ووضع سلطة قوية جدا في يد الملك .

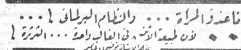
* لطفي الخولي :

حسنا . وما تأثير هذا كله إذن على المستقبل ؟

﴿ انتهى الجزء الأول من الكتاب ﴾
ويليه إن شاء الله الجزء الثاني

الوثائق





أنا عدو المرأة .... والنظام البرلماني ! ....

لأن طبيعة الاثنين في الغالب واحدة .... الثرثرة !

بقلم الاستاذ توفيق الحكيم



إذا أردتم أن تأخذوا رأيي في مشكلة الحكم في مصر فخذوه على أنه رأي رجل بعيد عن المسة يشرف عليها من أعلى برج دون أن يكون له فيها عنزة ولا خروف .

وقديما كانت الأساطير تروي أن أهل البلد إذا تنازعوا على أمر اجتمعوا عند الأسوار ليأخذوا رأي أول غريب يدخل من باب المدينة . فلأكن أنا إذن هذا الغريب الهابط عليكم لأقول لكم في صراحة إن هذه الديموقراطية كما تفهمونها وتزاولونها في مصر هي أصلح أداة لتوليد الحكم ... فهو الصالح :

وإنه ينبغي لكم أن لا تغتروا بالألفاظ الأوربية ، ولا تتقيدوا بالنظم الأجنبية ، وأن لا تترددوا في اتباع ما فيه النفع الحقيقي وترك ما فيه الدم والجدل والموت .

هذا اتضح لكم يوما أن « البرلمان » وما ينفق عليه من آلاف الجنيهات سنويا هو غرم لا غنم فيه ، فحولوه في الحال إلى « مصنع » طائرات تعقد فيه – بدل جموع الأعيان الموسرين – أفواج العمال المصريين من أولئك المساكين المتسكعين العاطلين الذين يتسقطون فتات المقاهي والبارات ، حتى يعملوا عملا شريفا ويعيشوا عيشا ... .

ثم فإن كان قد كتب على « القبة الذهبية » أن تخرج شيئا طائرا في الهواء ، فلا ينبغي أن يكون دائما الصياح والخطب !!

فهذا شعب أحوج إلى عمل وانتاج ، لا إلى معمل « كلام » . فاتجهوا في الحال إلى تنفيذ ذلك واصنعوا بأيديكم لتغلقوا قليلا هذا « الفم » الواسع الكبير الصاخب حينا ، المتثائب أحيانا ! لتسكنوه الأعوام التي تروضها الأزمة كي يفسح للأيدي وحدها أن تنطلق عاملة في هدوء ونشاط . فالفم إذا سكت ، واليد إذا عملت استطاع الانسان أن يتقدم ركضا . وهنا تتلاشى الأحزاب والأحقاد والأغراض . وتصبح العيون كلها متجهة إلى الرجل المنتج حقيقة ومن ذلك الشعب كحكومة لا بد أن تتوفر فيها هذه الشروط

أولا : أن يكون أعضاؤها من أولئك الرجال الذين اشتهروا بقلة الكلام وسرعة العمل ..

ثانيا : أن لا يكون لأعضائها لون حزبي واضح .

ثالثا : أن يكون عدد أعضائها قليلا لأن خير إدارة هي الموضوعة في الأيدي القليلة الخبيرة ، كما أن في ذلك تحديدا للمسئولية ، واختصارا للمرتبات الوزارية !

هذا طلبتم إليّ بعد ذلك أن أعين أشخاصا بالذات تنطبق عليهم اليوم في مصر هذه الشروط فإني أقف حائرا مترددا ، ولكنكم مع ذلك تستطيعون أن تنتقوا الأمثال من هذه الأسماء :

علي ماهر	الرياسة والمعارف والحربية
حافظ عفيفي	المالية
عبد الحميد بدوي	الحقانية والتشريع
أمين عثمان	الخارجية
عبد السلام الشاذلي	المواصلات
عبد الرحمن عزام	التربية الوطنية والدعاية والصحافة
عزيز علي المصري	النظام الوطني
حبيب صبحي المصري	التجارة والصناعة
عبد القوي احمد	الأشغال والزراعة
عبد الواحد الوكيل	الصحة والأوقاف والحياة الاجتماعية

(ويلاحظ أن تسعة من عشرة بتلقوا تعليمهم الأولى أو الثانية بغير مصر ، لا عجب فهي الوزارة التي عليها العين !)

صورة وثيقة ٢٠ أكتوبر ١٩٣٨ بمجلة آخر ساعة المصورة

(هجرة الحكم السياسى ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠)

وحبذا لو سميتم وزارة الأوقاف منذ اليوم «وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية» حتى يتسنى لوزيرها تحويل ثروتها «المرصودة» إلى وجوه المنافع الاجتماعية المثمرة كالملاجىء والمستشفيات والنوادى الرياضية، وإنى فى وضعها تحت اشراف وزير الصحة العمومية لتسهيل لهذا الغرض.

ولا أحسبني قد أخطأت كثيرا فى الاختيار لكم فهؤلاء «العشرة الطيبة» لم من شهدتم لهم فى جميع المناسبات بالعمل الصامت، وقلة الميل إلى الحزبية العمياء، والخطب الصماء مع نشاط ملحوظ فى طبيعتهم وجلد على الانتاج يطمئننا إلى إلقاء مصير البلاد على كواهلهم لمدة خمسة أعوام على الأقل.

وإنى واثق أن مثل هؤلاء الرجال البعيدين عن الأحزاب اذا تسلموا العمل تحت نظام لا يعرف «الحزبية» فانهم سيستنهضون فى الحال همم أصحاب الكفايات على اختلاف ألوانهم لأن الذى طالما أفسد بلادنا إنما هو تعطيل ذوى المواهب بجهد بعضهم ضد بعض فى قتال عنيف مستمر لم تكن له نتيجة غير تحطيم الجميع. بينما السر فى تقدم الدول التى نبذت النظام البرلمانى هذا التقدم العجيب الذى يعيبه الوثب هو أنها قضائها على التطاحن الداخلى بين الكفاءات، وإلغائها احتراف السياسة والكلام قد جندت جميع الكفاءات للعمل الحقيقى فى خدمة البلاد.

وبعد ... فيا أهل البلد هل ترونى قد أخلصت لكم النصح؟

إن كان الجواب: لا

فأنتم فى حل أن تقولوا لى: «إطلع من البلد» وسوف يأتى اليوم القريب الذى أذكركم فيه بنصيحتى سائحا! . قلنا لكم كده فلتم إطلع من البلد ... !

توفيق الحكيم

بقية وثيقة ٢٠ أكتوبر ١٩٣٨ آخر ساعة المصورة

أمر وزاري

صورة وثيقة الأمر الوزاري ٢٦ أكتوبر ١٩٣٨

(شجرة الحكم السياسي ص ١٣٤، ١٣٥)

غضب الديموقراطية !

بقلم حفنى محمود بك

عضو مجلس النواب (تعقيبه محمد محمود باشا رئيس [illegible] في الحكم [illegible])

أمسيت الديموقراطية فى هذه الأيام متوترة أعصاب وصدر هضم أضنيا إلى الاضطراب ، وتطور هذا الاضطراب إلى غضب متسعر وغيظ غير مكظوم !

الديموقراطية اليوم حانقة على كل شيء ، تغضب من لا شيء ، وتنزعج من أى شيء !

أزعجها توفيق الحكيم عندما كتب مقالا بمجلة آخر ساعة ، وغضب الديموقراطية فى أشخاص نوابها المحترمين ، أو نواب الشعب كما يحبون أن يسميهم الناس ، وفى دور آخر نواب العهد المنتشر ، وفى رواية أخرى نواب الحكم الصالح !

• • •

أقول ذلك وأنا فى غاية الاستغراب فقد عرض هذا الكلام لتغضب الديموقراطية رسمياً باحتجاج صاخب شديد من سعادة محمد محمود خليل بك قطب الديموقراطية فى هذا الزمان .. إلا أن الطريقة الديموقراطية كالطريقة الصوفية لا تستغنى فى كل وقت عن « قطب الوقت » !

وقد يطلب سعادة قطب الديموقراطية محمد محمود خليل بك — التحقيق مع توفيق الحكيم ، بل قد يذهب إلى أبعد من ذلك فيرسل إلى الصحف أنباء هذا الاحتجاج كما فعل مع معالى كبير الأمناء وحادث التشريفات !

• • •

ولكن لماذا غضبت الديموقراطية على توفيق الحكيم ؟

إن مقاله ينقسم إلى قسمين ، أحدهما تعرض للديموقراطية كمبدأ عام والآخر تناول أشخاص رجال الحكم أنفسهم .

أما تناول للمبادئ العامة فلا أظن أن الحكم — الأحرار الدستوريين — الذين غضبوا لحرية الرأى فى عام ١٩٢٥ حين أخرج الأستاذ على عبد الرازق كتابه « الإسلام وأصول الحكم » ورغب البعض فى معاقبته ، والذين ثاروا حينما أصدر الدكتور طه حسين كتابه « الشعر الجاهلى » وأراد أعضاء البرلمان تقييد حرية الكاتب ، لا أظن أن هؤلاء الأحرار الدستوريين يحللون اليوم لبعض ما حرموا بالأمس ... خصوصا وأن الأستاذ على عبد الرازق كان موقفا ، والدكتور طه حسين كان موقفا أيضا مثل توفيق الحكيم

• • •

أما فيما يتعلق بذكر توفيق الحكيم لأشخاص بالذات ، فإنه إذا كانت فى هذا العمل مجافاة للذوق السليم فليس على كل حال أبعد عن الذوق من موقف سعادة قطب الديموقراطية حينما نشرت الصحف احتجاجه على معالى كبير الأمناء ...

صورة وثيقة ٣ نوفمبر ١٩٣٨

آخر ساعة المصورة

(شجرة الحكم السياسى ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١)





... عد عودتنا الديموقراطية ـ فيا عودتنا ـ أنها لاتهم كثيرا مسائل الذوق وخفة الروح بدليل أن الحكومة القائمة نفسها — وهي حكومة الديمقراطية — تخلصت من رياسة صديق الجميع الأستاذ محمود تيمور في عصر القبوح ، وهو أخف الناس حناء، وأبعدهم عن الأحقاد الحزبية ، وأكثر المصريين ثقافة ديمقراطية ، وهو الذي ستظرفه الأحزاب كلها ، ويبقل معروفه شتى الطبقات ، ولكن ذلك ، وهو كثير لم يشفع له واستبدلته الحكومة الديمقراطية بالرئيس الحاضر ، ولعل رحمة الرئيس الحالي للنالية الفرنسية ، وما يبغل من « كرم » لوستكر لمن نرى لا عت إلى الشرق بسببه لعل هذا يجعل جناحة الديمقراطية في مصر تظل قائمة عدة سنوات !

•••

ولعل كا يقلق الديموقراطية عندنا ، ويثير غضبها، هو كثرة معانيها فكل حزب يتغنى بها ويدعي الوجود منها ويتظاهر بالتفاني في حبها والتدله في غرامها ، حتى تسابق الجميع في « المزاحمة » فأقلقها كثرة المتصايحين واحتشاد الطالبين فأصبحت تريد أن تعرف ماوراء هذا الكلام المعسول وما تكنه لها القلوب ؛

ترى ماذا يكون شأنها ، وأية لجنة نصيبها ، لو تكشفت لها قلوب أولئك المحبين يوما فوجدت منثورها عليها

فتنحي الدكتاتورية :

ويومئذ تعلن الديموقراطية انتهاءها صراحة مخصين أولهما توفيق الحكيم ، والآخر ...

... حفني محمود

قية وثيقة ٣ نوفمبر ١٩٣٨
آخر ساعة المصورة

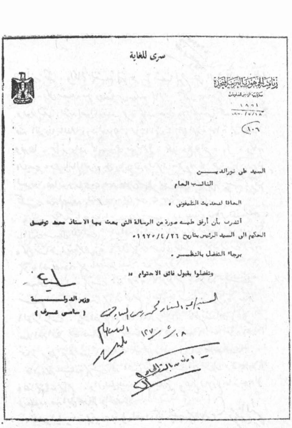
صورة رسالة توفيق الحكيم

سيادة الرئيس

سمحت لنفسي أن أكتب إليكم هذا الخطاب الخاص لما لي من صلة قلم بجريدة الأهرام باعتبارها المنبر الذي ينطلق منه صوت العروبة في أرجاء العالم ودعاني إلى ذلك ما لاحظت من أمر تعيين الأستاذ محمد حسنين هيكل وزيراً للإرشاد. ولقد لاحظت في بغداد أن الخبر فجأة تلقته الكثرة بشيء من القلق. ووجدت أغلب الآراء مختلفة وجدلها. وعرفت قليلاً من قول ما يقوله الناس من تعليقات، ربما كان أكثرها صادراً عن سياسيين أصدقاء هذا المنبر واختفات صوت يعتقد أنه منبعث من منبع الفكر الوطني والقومي. ومهما يكن من أمر فهناك حقيقة لم أستطع إلا دفعها: هي أن جريدة الأهرام باستقلالها وما بلغته من تقدم وما يشبه الرأي من استطاعت أن تستطيع دائماً أن تشيع في النفوس الثقة والأمل، وبهذا الاتجاه الذي سارت فيه منذ خطط لها - في اليوم مثلاً - ثم الاتجاه في ذلك روح التفاؤل، بعيداً عن أي توجيه رسمي، قد هيأها لهذه المهمة النزيهة في وقتنا الحاضر، وجعل منها الأداة الفعالة في تنوير الرأي العام والتأثير فيه دون الالتجاء إلى الشعارات المفتعلة التي مجها الناس من أجهزة تابعة رسمية. وهذه الأجهزة الرسمية الآن لا أجر لها. ولا ينتظر منها أن تفعل أكثر مما تفعل. لأن الناس لا يتصورون غالباً ما يصدر من جانب الحكومة. وهذه هي الحقيقة يا سيادة الرئيس. ولك السلام

(شجرة الحكم السياسي ص ٤٢٩، ٤٣٠)

من أزمة ثقة. والحالة النفسية التي يمر بها شعبنا اليوم هي الحيرة والقلق وبلبلة
الفكر. وكل شعب في مثل وضعنا من حقه هذه الحالة. ولكنه محتاج دائما الى
وجود الثقة. لقد كان اصواتنا ونائب ... كان يعرف من كل شيء بحجمه. أما نحن
فقد انفردنا بالعلاج دون العلاج. لأننا اتخذنا من اجهزة الدعاية الرسمية
وحدها. جهاز واحد كان يرجى منه العلاج: هو الأهرام في الحق. ولكن
الناس في مصر والعالم العربي بل وخارج هذه البلاد ينتظرون كل جمعة مقال الأهرام
ليعرفوا حقائق ما جرى من خلال سطور لا تنتمي الى جهة رسمية، ولكنها
تمكنت من الصدق الذي يريده الناس في هذه الظروف.
أفتدري الآن ما يجري يا سيادة الرئيس اذا فقدت الأهرام هذه الصفة.
ما الذي سيبقى للناس؟ أبواق اذاعة وتلفزيون لا تنقل الا الانباء
وكل نشاط تزينه الاجهزة في مجال الرأي سيأتي بالعكس. لأن الناس لا يريدون
الآن أن يصدقوا الا ما يصدر بعيدا عن السلطة.
صدقني يا سيادة الرئيس ان جريدة كالأهرام بالاضافة الى المستقبل
تستطيع ان تعالج نفسية الرأي العام بأفضل ما تستطيعه وزارة من
الوزارات. ولا أقول ذلك دفاعا عن زميل. فالموقف اجل واخطر
من ان انظر اليه من زاوية شخصية. انما هو يخص الناس أمره ونحن
نجتاز مرحلة حرجة من تاريخنا يجب على كل مواطن فيها ان يكون جديا.
فاعذرني يا سيادة الرئيس اذ اقحمت نفسي وكتبت اليك لأول مرة بجلالك
في هذا الشأن الهام. واني لعلى يقين دائم بحلمكم وحبكم لبلادكم بما يجعلكم لا
تغفلون عن اجل حريتنا ونهضتنا.
وتفضلوا يا سيادة الرئيس بقبول اصدق آيات التقدير والاجلال
ثروت ...



سرى للغاية

رئاسة الجمهورية العربية المتحدة
سكرتارية الرئيس للمعلومات

١٨٦١
١٩٧٠/٥/١٨

١٠٦

السيد على نورالديـــن

النائـب العام

الحاقا لحديث التليفونى .

أتشرف بأن أرفق طيه صورة من الرسالة التى بعث بها الاستاذ محمد توفيق الحكيم الى السيد الرئيس بتاريخ ١٩٧٠/٤/٢٦ .

برجاء التفضل بالنظـــر .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،،

وزير الدولـــــة
(سامى شرف)

(شجرة الحكم ص ٤٢٩)

٩

محضر اجتماع

تم في مصر يوم الأحد ١٧/٥/١٩٧٠ الساعة ١٢ ظهراً بادارة
البحث العلمي
باللجنة السابقة.
حيث استمعت لأوراق الباحث العام للمراحل المختلفة وكذلك
سيرها بحضور [illegible] السيد [illegible] عبد العزيز وقد وجهوه
رسالة بالحروف التالية.
بسم [illegible] السيد [illegible] عبد العزيز (أما الرسالة [illegible])

ب - هو ذكر أحداً ما [illegible] [illegible] [illegible] عبد الحليم [illegible]
الخطاب [illegible] [illegible] السيد [illegible] [illegible] قبل ارسال
[illegible] [illegible] قال [illegible] [illegible] شهادة الطالب - أما [illegible]
[illegible] لا أساس [illegible]

جـ - لم يذكر أحداً ما [illegible] الأستاذ [illegible] عبد الحليم [illegible] الطالب
[illegible] [illegible] [illegible] قبل ارسال

د - [illegible] - وأما أحد [illegible] [illegible] السيد [illegible] [illegible]
بالصادق [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أخبار [illegible]
[illegible] [illegible] لم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
زيارة [illegible] [illegible] أساساً [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

هـ - ولم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الطالب
في [illegible] أما [illegible]

و - [illegible] [illegible] [illegible] - [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

(شجرة الحكم السياسى من ٤٣١ إلى ٤٥٦)

في كل الاجراءات التي رأيتها

ج أنا إلى الآن عندما أذكر ما حصل [illegible] أبدأ
ونحيب [illegible] والظلام [illegible] [illegible] الاطراف
[illegible] شخص [illegible] شخص [illegible] أما الشخص
الثاني [illegible]

س وهل [illegible] السيد [illegible]
مع ما ذكرت

ج أنا أقصد [illegible] أكثر شخص [illegible]

س [illegible] السيد [illegible]
[illegible] أو الشخص الطويل

ج أذكر [illegible] كانت [illegible]
[illegible] شخص [illegible]
[illegible] ٦٥ تقريباً وكانت [illegible]
[illegible]
[illegible] السيد الرئيس [illegible]
[illegible] أنا [illegible]

س [illegible]

ج [illegible]
الكلية [illegible] حاتم [illegible]

س هل [illegible]
المقاتل [illegible]

ج معروف

س [illegible] السيد [illegible]
[illegible] السيد الرئيس [illegible]

ج [illegible]

[illegible] الآن [illegible]

س ألم يذكر ذلك صراحة أحد أمامك

ج لا

س حين تحدث هذا الحديث الذي حضره أحمد السيد رجائي ألم [illegible] لماذا لم يسأل ذلك [illegible]

ج الحقيقة ما أحد سمع منه هذا التشكيل ولم أسأل والحقيقة أنني إنما ما جاءت منه قصة [illegible] والحديث كان مجرد سؤال والطرح وأنا لم أتعمق فيه

س ألم يذكر أحد أمامك أن السيد رجائي [illegible] مشروع [illegible] الأحكام

ج أنا سمعت إشاعات بعد ذلك من [illegible] عن [illegible] وأنا سمعتها [illegible] غير [illegible] أداة [illegible] هذه الأحكام [illegible] مع الرئيس [illegible] ما [illegible] والحكم [illegible] ليس له [illegible] معروف أنه [illegible] [illegible] أقول

س [illegible] الإشاعة التي ذكرتها

ج [illegible] الأحكام [illegible] الناس [illegible] هذا الكلام [illegible] الطعن والإنذال [illegible] هذا الكلام [illegible] [illegible] الأحكام

س هل تعرف [illegible] مع [illegible]

ج [illegible] لم أسمع [illegible] مع [illegible]

س [illegible] لم [illegible] لنا [illegible] أقوالك

والضغط هو اللي بيقول ان الرئاسة متضايقة

س ورد بعض الصحف ما يفيد ان ذلك حدث بين الصف الأول

[illegible] الكلمة بعد انعدام الظروف في البلد

ج ابو صالح كان ده شئ انا ما سمعته الا منه

س ولماذا لم تذكر ذلك في سؤالك

ج انا ما عندي [illegible] والقصة [illegible] كانت [illegible] ولم يطلبه

[illegible] شئ [illegible] [illegible] الا [illegible]

[illegible] الكتب [illegible] والى [illegible] الا [illegible]

[illegible] الخاصة [illegible] عن [illegible] الواحد [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] الحديث [illegible]

[illegible] [illegible] والذي [illegible] خالد [illegible]

[illegible] [illegible] الوزارة [illegible] الاسلوب [illegible]

[illegible] الاستاذ [illegible] الكلمة [illegible]

وتضمن [illegible] بما ورد الصحيفتين ١٢ و ١٦ والجزء الأول

من صفحة ٢١٤ [illegible] [illegible] حجرت [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] وان [illegible] الصف الأول

[illegible] [illegible] خالد [illegible]

[illegible] [illegible]

[illegible]

س [illegible] من [illegible] الصف الأول [illegible] خالد

من [illegible] [illegible] الاستاذ [illegible] الوزارة

ج [illegible] [illegible] الكلام [illegible] للصف [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

س ورد [illegible] عن [illegible] الصف الأول [illegible] الاستاذ [illegible]

الكلمة [illegible] المسألة [illegible] [illegible]

[illegible] منذ كتابة نسخة الرسالة [illegible] المذهبية [illegible]
[illegible]

ص [illegible] التشبيه [illegible]
ل [illegible] فما أذكر [illegible] الأستاذ [illegible]
[illegible] رسم [illegible]
س [illegible] ذلك [illegible]
ص [illegible]
س ولذلك [illegible] الرسالة
ص [illegible]
[illegible]
ص [illegible] الأولى [illegible]
[illegible] الأستاذ [illegible]
[illegible] الرسالة [illegible]
[illegible]
ص أما [illegible]
[illegible] التشبيه [illegible]
[illegible]
[illegible] أبدا
س [illegible] صفحة ١٠ "[illegible]
العبارة الواردة في هذه الصفحة [illegible]"
ص الكلام [illegible]
[illegible]
[illegible] إذا [illegible]
[illegible] إذا قصد العبارة [illegible]
إذا [illegible]

ب- ورد في النص صفحة ١٦ عن السابعة أن شهادة السيد [illegible] فإنه
قد حسم الترتيب لمن صلة البحث من أن أسناد التسجيل [illegible]
موازية [illegible] وهذا وإن تعارض مع شهادة تذكرة أو تصحيحه [illegible]
حصل وتريثا

ج- أنه صفحة أذكر أن زوجتي قالت له / وما خرج عن [illegible]
موضوعه ، وأنت مشغول بالكتب إلا [illegible] بحوزتهم ١٤ ساعات [illegible]
إلا [illegible] موضحة له [illegible] خارج [illegible] أن أسناد التسجيل

س- [illegible] وردت أسماء [illegible]
في صفحة ١٨ من التفريغ

ج- [illegible] إنك تشتغل مع [illegible]

س- ورد بالنص [illegible] في صفحة ٢٧ [illegible] سواء [illegible]
[illegible] الأولية [illegible] في [illegible]
[illegible] التفريغ في صفحات ٢٢، ٢٣، ٢٤

ج- [illegible] الكلام [illegible] إلا [illegible]
[illegible] الكلام [illegible]
[illegible] ما دام [illegible]
[illegible]
[illegible] الأولية [illegible]
موضوع الحكم

س- [illegible]

ج- [illegible] الأولية [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

ما فهمته في التحقيق انهم جابوا [illegible] وسلموه للرئيس
وانا معترض للنظام اللي [illegible] لأنه
دي مسائل [illegible] توضيح الكبير [illegible] والضغط [illegible]
[illegible] للرئيس [illegible]

س - ولم [illegible]
ج - أنا ما عرفتش [illegible]
س - ورد في [illegible] أنك صورت [illegible]
[illegible]
ج - أيوه فعلا أتكلم [illegible]
س - ولم [illegible]
ج - [illegible]
[illegible]
س - هل تعرف [illegible]
ج - [illegible]
[illegible]
س - [illegible]
[illegible]
ج - في ٤ مايو ١٩٦٨ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
س - وما [illegible]
ج - [illegible]
[illegible]
[illegible]

أحب أن أقول (١) إنني أصبحت أؤاخذ
نفسي وأنا آسف ... الكلمات
التي تشبه الطائفية وإني مثل أي مسلم
إنسان يعتقد أن ... دولته ونيابة
... وإنه كما كان ... أصلي
مع أصحابي ولم أفقد في يوم من الأيام
الدين إنما ... العبادات ... أحب
أن أعتقد أنها مساوية مع الإيمان بالوطن وتقدم
المجتمع أما أن علي الذنب الذي ليس لي
فقط إلي بل أيضا الذي ...
ماذا أقول بعد ذلك

تمت أقواله ووقع عليه [illegible]

ثم أعدنا سؤاله بالآتي فقال:

(سؤال) أحمد لطفي الخولي ... سؤاله

س ماذا تعرف ... ف ... في ... من
أن أتيه في يوم ... منه بالمنزل ...
... الجديد ... حول ... اليسار
... بعد ... أنه ذكرت في هذه
الفترة أن ... الكريم ...
... يعبر فيه عن رأيه في هذا ...
وأنه ... الذي ... الإسلام
في ... وأن ... لماذا ...
... هذا ...
... أن ... وأن ... هذا ...

[illegible]

حصل الى عدد من الأشياء هل أنا أن أحسه
جيد بشأنه بين الأشياء هل وقد شيء الكلام
بعد ذلك .. تعلمنا عليه أقوال عملية النادي
الذي أدلى به بالتحقيق الذي أجراه معه السيد
فضلا عن تفتيش النيابة .
أنا لا أذكر شيئا عن هذا الموضوع وأستطيع أن
أقول لك هذا كله ماذا يعني هل يعني هذا
نقدا للحكم هل وهذا قد يعني انتقاما من
إدارة أمريكية تعني تطاول على الرئيس هل
يعني خيانة للقيادة الوطنية . ماذا يعني ويعني
العدوى أنا لا أذكر أنني تكلمت أتكلم وأنا لي
أنا أخشى أن أنه هل صدقني من ...
من هذا الشأن ولا أدري إذا يدفعني هل
أنت ظالم في هذا الشأن كما لو كان يريد
وسيطا بيني وبين الرئيس
س هل كانت هناك أجانب في هذا الشأن هل عليك
النيابة ونصه .
ج لم يكن هناك أجانب وإنما كانت هناك زيارة
عادية جدا مشروعة والأكرم منى كانت عادية
تبادل أمورا كثيرة كالمرة وشاشات التي ...
... ... ودفعهم ولم أكن أذكر ...
هل أتيت هذا والأهم انه لم يتم وإنما
كان مشاعر مذهبية أنني ذكرت ...
أن تلقته في هذا الشأن ...
... الدفاع

س- ثم كانت هذه بيانات من المتهم أم بعده.
ج- لا أذكر
س- لماذا عثر عليه البوليس ذلك.
ج- لا أعرف وربما اختلط على الأمر
س- وما تفسيرك اذا ما ثبت أن هناك خطابا أرسله تنظيم الحكيم للبوليس.
ج- سيأتي رسم الخطاب ويتبين منه دليل على تحمله تنظيم الحكيم من سنة ٥٦ وأنا لست هناك أي جهة في أن يرسل أي خطابات خطابا باسمي في أي أحد من الأخوة الى بين هذا هو المطلوب والذي سيتبعه عليه البوليس نفسه في خطابات
س- واذا كان هذا أمر جيد وسطوب فماذا ترد على ذلك
ج- لذلك لم يحدث تنظيم الحكيم في هذا ولا حصل علم أن هذا الخطاب.
س- ألم تسمع من أي أحد آخر
ج- لا
س- ومن أين علم بمعلية البدائي
ج- ليس لدي أي فكرة عن ذلك.
س- أليس لديه تعليل عن هذا المعنى
ج- كل ما سمعت في الأخوان انا است أسئلة عن الحكيم حكل في الذين في البلد سيد مصطفى في العمل كيشي وناسه تحت الأخوان بما فيهم تنظيم الحكيم

٢١ك

س: هل عندك شيء آخر تقوله الأن من هذا
ج: لقد أذكر وكانت يجب أن أتكلم
س: هل تذكر أشياء وأشياء بين وبينه تدعيم الاتهام وضحت هذا الوضوح
ج: لقد أذكر وسبب العمل داخل أول مرة أخرى إذا ثبت كل هذا ما هو وجه الحرية المسندة الى [illegible] ما [illegible]
أمام أهل البلد
س: [illegible] أقوال أخرى
ج: لا

تمت أقواله ووقع

محقق [illegible]

وأقفل المحضر [illegible] بعد اثباته ما تقدم حيث كانت الساعة ١٢ صباح يوم ١٢ / ٥ / ١٩٧٠ وقررنا ما يأتي:
أولاً: حبس المتهم احتياطياً خمسة عشر يوماً على ذمة القضية [illegible]
ثانياً: ندب [illegible] القسم الفني بإدارة [illegible] العامة لتفريغ شريط التسجيل المقدم من [illegible] الذي [illegible] بالعرض الساعة ٩ صباحاً خلف [illegible] واستلام الشريط [illegible]

[illegible]

فتح المحضر يوم الأربعاء ١٢ / ٥ / ١٩٧٠ الساعة ١١ صباحاً [illegible] بالنيابة السابقة

جـ : ما الذي وصلنا إليه إذا استنتجت أنني لم
أعمل في الأهرام الذي الأستاذ هيكل وكان
رأيي أن الصحفي إذا بارح تحت قدميه آفاقه
الأستاذ هيكل نمي عن المستقبل أنه يعمل مع نفس
الحاكم الذي كان يعمل معه رئيس التحرير لسابقه
وأنه لم يكن لدي لا يصلح نفسي أن أحاج أي شخص
س : وما قصة ما دار فيه الدكتور بعد أن استمع
إلى شريط المستقبل أن الحديث الذي استمع
إليه خاص بي وبالطبيب الملك رأفت والليبيات
جـ : كله محروم رأيي ومن أنا أستطيع أن أرد
منه صوتك ولذا أستطيع أن أميز بصحة
الأصوات وليس عندي تعقيب على هذا التسجيل
س : ألديك أقوال أخرى.
جـ : ليس لدي أقوال أخرى

ثبت أقواله ووقع [illegible]

[illegible]

ثم استدعينا السيد/ أحمد لطفي الخولي وسألناه بالآتي
قال :
س : أحمد لطفي الخولي سابق سؤاله .
س : ألم تسمع أو تعلم أن السيد/ تقديم الكاتب أرسل
هذا الخطاب إلى السيد الرئيس ثم عرضنا عليه
صورة الخطاب المرسل من السيد/ تقديم الكاتب إلى السيد
الرئيس .
جـ : اطلعت على هذا الخطاب الذي ذكرت أن هذه

أول مرة أرى فيها هذا الخطاب فلم يحدث أن
عرضه علي الأستاذ توفيق الحكيم من قبل وأنا أعرف
أن الأستاذ توفيق الحكيم كان قد ألمح برغبته
في كتابة خطاب للرئيس وطلب مني مستعجلا أن لا
أذكر نسيت لمن وهذا هو كل ما لدي من معرفة
بهذا الخطاب ولكني أذكر على وجه التحديد أن
الأستاذ توفيق الحكيم قال لي انه عايز يوصل رأيه
إلى سيادة الرئيس ولم يحدد لي الطريقة بدقة
ولا أذكر بالدقة انه قال لي الطريقة التي عايز
يوصل رأيه بها إلى الرئيس وأنا فهمت له
اذا كان هذا يعني بخطاب أو بمقابلة اذا أمكنه
تحديد ميعاد ولكنه لم يحدثني عن ما سيكتبه في
الخطاب والأستاذ توفيق الحكيم في غنى عن
القول بأنه من المؤمنين إيمانا عميقا وقويا بالثورة
وبقيادة جمال عبد الناصر شخصيا وهو دائما يتحدث عن
ذلك حتى أنه يذكر أنه يسمي جمال عبد الناصر عودة
الروح ابنته البكر منذ ذلك نسبة إلى كتابه
العظيم المعروف عودة الروح.
وأضيف أيضا أن وجدت في ملف التحقيق لديه.
أنه لا علم لي أن الأستاذ توفيق الحكيم أرسل
خطابا إلى الرئيس
ج هذا صحيح وأنا لا أعرف إذا كان أرسل
الخطاب أم لا ولكن أذكر ما علمته من الأستاذ
توفيق الحكيم أن له رغبة في إرسال خطاب
وأعتقد أنه لا أذكر الشيء أن الأستاذ

[illegible] [illegible]

توفيق الحكيم أضاف أنه تأسس الخطاب أم لا
لذلك الوقت لم أتمكن أي حتى أن كان
كم يكتب خطاب أو توصل رأيه إلى قيادة
البلد لأن هذا هو المفروض والواجب
وأنه يجب كتاب أن يصدرون عن رأيهم
القيادة واعتقد أن الشيء يرجع به لمن
س: ومتى أبديت إلى توفيق الحكيم رغبتك
في إرسال خطاب من الرئيس
ج: لا أتذكر على وجه التحديد أو الظروف في
الوقت الذي صدرت فيه البيانات الوزارية
الأخيرة.
س: وما هي المناسبة التي ذكرت فيها إلى توفيق
الحكيم هذه الرغبة.
ج: أنا أتذكر أنه في ذات يوم واحد في الأهرام
أرجح ولا أتذكر في أي يوم ولكن بالتأكيد
كان في الأسبوع بدأ الأستاذ توفيق أمامي حديثه
بما أبدا كأنه سيؤثر تعيين الأستاذ هيكل وزيرا
على ممارسته عمله في الأهرام وبالتالي فقد
لا يجد الوقت الذي كان يعطيه للأهرام مما
قد يضعف الأهرام صحفيا وأنه يرى أن
هذا يجب تحديده أو علاجه لأن فيه مصلحة
البلد باعتبار الذي يؤديه الأهرام كجهاز إعلامي
في الداخل والخارج خصوصا مع مراعاة أن الأهرام
كانت الدعايات الغربية تقول إنه الصحيفة الرسمية
وكانت ترى أن مصدر (صحيفة) إليها هيكل

في رواية المستشار سيرف ميغ بار : لهذه الروايات
وكان رأيي أنا الشخصي أنني قلت له وهو
نفس الرأي الذي قلته في الاجتماع العام
في قسم الإخوان وهو الرأي الذي قلته
أيضا للأستاذ هيكل وأنا أظنه أن لابد وأن
يكون للقيادة السياسية أي شيء مجال بأشخاص
أسبابا دقيقة بناء على رؤيته الشاملة للوقت
والتي تمنع جميع مسئوليته الشاملة وهي رؤية
لا يمكن أن تتاح لأي واحد منا بهذا الشمول
وبالتالي فلا يمكن إلا أن نقدر كل هذه الأسباب
التي بالضرورة غير معلومة وتدخل في نظامه
الاستراتيجية السياسية وأن كل ما نتمناه
هو أن يبقى الأستاذ هيكل بعد نيله لهذه الثقة
في مهمته الجديدة كما بقي في الأهرام وأن الوقت
قد حان ليعتمد نظام الأهرام في استمراره بنفس
الإدارة مع وجود الأستاذ هيكل لنصف الوقت
فقط ومن خلال هذا الحديث بدأ توجيه
الكلام التفصيلي فسألني في هذا الرأي وقال
إنه رأيه في أنني أبعث رسالة بوجهة نظري
للرئيس فأنا أحجم وقلت له اعتقد أنني
وأن الرئيس يرحب بأي آراء طالما أن الأمر
بين ناس مسئولين وكثيرا مسئوليتهم تجاه الوطن
ووجدت صدره مليئا ... منافع مشتركة
واعتقد أنه يتدخل في الرأي توجيه الكلام
حول ... إلى توجيه الكلام ...

الخ

هذه الرسالة أو الأفكار التي تضمنتها .

ج: لقد وكنت أنا ضمنت أن لا آراء والتي سمعتها وذكرتها .

س: ألم يأت إليا نقيب الحكم هذه الرسالة بخط يده

ج: لقد

س: ألم تطلع عليها قبل إرسالها .

ج: لقد

س: ألم تكن أنت صاحب هذه الفكرة في إرسال هذه الرسالة

ج: لقد وكنت قد إليه مرض إرسال الرسالة فأنا وافقته وفي هذا المعنى حيث إني مرضت أنا غير متذكر بالدقة لأنه كان هناك حديث جاري بيني وبينه وبين القدم فإنه كنا طلب أن يتم الاتصال بين الكتاب المؤمنين بالثورة وبين هذه الثورة وأن تكون القاعدة ما يدعم قيا يستعدون من آراء .

س: ومن الذي اشترك معكم في هذا الحديث

ج: أعتقد أن كان موجود الأستاذ هيكل وذلك كانت الجلسة في بتخرج ويتيب لأن المكتب كان مفتوح الذي كنا قاعدين فيه وهو في الدور الرابع وبالقرب من مكتب الأستاذ هيكل .

س: هل اشترك الأستاذ هيكل في الحديث الذي دار بينك وبين الأستاذ نقيب الحكم

ج: الأستاذ هيكل كان موجود واستمع لحديث النقط

[signature]

٥١١

وقرر أنه لابد أن يكون معذوراً أن هذا
قرار من القيادة التي يشترك في معرفته وعليه
أن يطيع وأنه في نفس الوقت مستمر في
عمله في الأهرام كما قرر السيد الرئيس نفسه في
القرار الصادر بنقله إلى منصب بالتنظيم وقرر أيضاً
أنه يستطيع أن يوائم بين وقته في العملية خاصة
وأنهما من طبيعة واحدة وأنه يرى أن ذلك
تدعيم للصحافة لكل من الرئيس وتشريف لشخصه فقط
وقبلت تقضي ذلك لهذه الاعتبارات

س: ألم يعرض السيد/ هيكل رأيه بالنسبة لما أبداه السيد/
توفيق الحكيم من إرسال خطاب إلى السيد الرئيس

ج: حقيقة لم أسمع رأي السيد/ هيكل في هذا الموضوع
بالذات لأن تركت المجتمعين وصعدت إلى مكتبي ولم
أسمع بعد ذلك شيئاً عن الموضوع

س: وهل كان السيد/ توفيق الحكيم قد أبدى
رغبة في حضورك تعرض إرسال خطاب إلى
السيد الرئيس

ج: أظنه كان أبداها في حضوري

س: وما تعليق السيد/ هيكل على هذه الرغبة في حضورك
وقبل أن تنصرف

ج: أعتقد قال له انت حر

س: ألم يعرض السيد/ توفيق الحكيم على السيد/ هيكل مضمون
الخطاب أو المذكرات التي سيذكرها في هذا الخطاب

ج: مطلقاً أمامي ولكن رأي السيد/ توفيق الحكيم
معروف بوضوح بدون إلى حد ما يمكن أن يذكره

وهو هيكل توجيهي للدولة على ضوء الاستخدام
لجهاز المخابرات من الداخل والخارج
س: وهل كان يعرف السيد/ هيكل الرأي الخاص بالسيد
توفيق الحكيم
ج: لا أعلم وقت الحديث الذي سبق أن ذكرته من
وجهة السيد/ توفيق الحكيم كان من صف السيد/ هيكل
س: ألم تكن نوال المحلاوي موجودة أثناء هذا الحديث
ج: في بدايتها سكرتيرة السيد/ هيكل كانت تدخل
وتطلع
س: ألم تطلع السيد/ توفيق الحكيم نوال المحلاوي
على الخطاب الذي أرسله للسيد الرئيس
ج: لا أعلم
س: ألم تطلع نوال المحلاوي على هذا الخطاب
وتقرأه عليك وعليه.
ج: مش فاكر لكن الموضوع كان بالنسبة لي
أمرا عاديا بحكم كاتب مشغول مع قيادة
س: هل دار في الزيارة التي تمت يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠
من عطية البنداري وزوجته لك حديث بخصوص
هذا الخطاب
ج: جايز يكون حصل حديث ولكن لا أذكره وأريد
أن أذكره أن هذا الموضوع لم يكن محل بحث
في مكان خاص
س: قرر عطية البنداري في التحقيق أنه في هذه
الزيارة ذكرت زوجته نوال أنها هي حررت الرسالة
التي أرسلها السيد/ توفيق الحكيم للسيد الرئيس قبل إرسالها؟

٥١٢

ج لا أتذكر الآن إذا كانت قد قالت هذا
الكلام من عندها والمرض [illegible] ما أعرفه [illegible]
أنني [illegible] على أساس أن المرض خاص
بالسيد عبد الحكيم
س ألم يقل السيد عبد الحكيم ما يفيد عما إذا كان
هو نفسه [illegible] في إرسال هذه الرسالة من عنده
ج أعتقد أنه قال لي أنه بعث هذه الرسالة
س قل [illegible] كيف أرسل هذه الرسالة إلى
السيد الرئيس ؟
ج [illegible]
س وما هي الظروف التي ذكر فيها أنه أرسل
هذه الرسالة
ج أنا لا أذكر الظروف ولكن الذي أذكره أنه قال
لي شخصيا أنه بعث الرسالة
ومتى ذكر لك أنه أرسل الرسالة
ج لا أذكر ولكنه [illegible] المنزل الذي أبدى فيه
[illegible] في إرسال الرسالة بيوم أو اثنين .
س ألم تستفسر منه عن الطريقة التي أرسل بها
هذه الرسالة
ج لا .
س ألم يقل لك السيد عبد الحكيم أنه أرسل هذه
الرسالة مع السيد حاتم صادق
ج لا [illegible]
س [illegible] عدم ذكر موضوع الرسالة
ج [illegible] عبد الحكيم [illegible] أنه [illegible]

[illegible] [illegible]

في نص الرسالة من عدمه على أساس أنك كنت تريد
وسع تقديمها رغبة منه.

س تقدر أنه تظهر أن الذي ذكرته ذنبك
هو إلغاء توقيف الحكم فهل نفهم من هذا الظهر
أنه من الجائز أن يكون شخصا آخر هو الذي
طلب منك عدم إذاعة إرسال هذه الرسالة

ج أعتقد أن إلي قال لي هو توقيف الحكم
وبالفعل نفذت طلبه ومجرد لفظ الطلب الذي
ورد في إجابتي السابقة يأتي من ضمن لأن
أن هذا الموضوع مر عليه مدة من الزمن
ولم يكن متيقن كل ما أراه الذي من تفتيش
وضبط وأنا نفذت رغبة إلغاء توقيف الحكم
الذي اعتمده أستاذ صلينا

س ألم يطلب منك إلغاء هيكل عدم إذاعة إرسال
خطابك من إلغاء توقيف الحكم إلغاء رئيس

ج ما أذكر

س هل نفهم من إجابتك السابقة أنه يحتمل أن
يكون إلغاء ... ولم تذكر ذلك الهيكل ولم تذكر

ج حقيقة ما أذكر أقول إيه أو ليه لأن
هذا الموضوع كما قلت قبل كده أن
قد يشبه توقيف الحكم لم يحدث منه أحد
ولم يكن موضع تحليل أحد

س هل تناولتم بالحديث فرار إذاعة التي ... في
منزلك وحضرها ... ابنك ... ووصفه
حديثا عن الحوادث

الكـ   مرزي

ج: بالتأكيد لا أذكر

س: تقول عقيلة الشابي أنك ذكرت في هذه الزيارة أنك صحيا دائماً [illegible] ويعود إلى تدمير الأمم من انعدام الحريات في البلدان.

ج: لا أذكر أنني ذكرت لعقيلة الشابي أن نهضة صحية دائماً ويعود إلى تدمير الأمم من انعدام الحريات ولكن بالتأكيد أكون قلت لعقيلة الشابي ولكن لا أستطيع أن أقطع أن تدمير الأمم وأنا أنظر في هذه المناقشات في الإقدام لتكون حادة بين أجيال مختلفة أو أفكار مختلفة وحول قضايا عديدة ومن الممكن أن يكون اسم هذه المناقشات حادة.

س: [illegible]:

انتهينا هذا التحقيق الساعة الثالثة ولدينا استئنافه لمباشرة [illegible]

المحقق [illegible]　　　　　المتهم

وأقفل المحضر في ساعته وتاريخه حيث كانت الساعة [illegible] دقيقة

المحقق　　　　　الكاتب

فتح المحضر يوم الخميس ١٠/٥/١٩٧٠ الساعة ١١ صباحاً
بإدارة المباحث العامة

بالجلسة السابقة

لاحظت أننا قد حددنا اليوم لاستكمال استجوابه

السيد [illegible] وسائل [illegible].

اسم: أحمد لطفي الخلي — [illegible]

س: ما هي فكرة ومضمون [illegible] الذي تناقشه [illegible]
[illegible] الحكيم.

ج: أنا طبيعي وأسلوب أن القارئ لم يكن أن
يجد من طبيعة مجرد مقال يعرض فيه وجهة نظر
واحدة للكاتب ويتحدى الجمهور أما ما يسمى الشيء
في الصناعة العالية في الكتب تناولت المناقشة أيضاً
ولهذا هذا الأسلوب يعرض عمل موضوع واحد ولا-
نظر متعددة من زوايا مختلفة ولهذا يغني في تمييز
فهم الموضوع وتتبعه ويشد جهد القارئ [illegible]
القول بأن هذا أسهل أو أسعد وقد ابتعدت
نفسي في ما [illegible] من الفائدة صفحة من
خلال الأحداث كما [illegible] مع [illegible] ومساعدة وحاورة
أيضاً [illegible] وهذا أيضاً [illegible] الأسلوب
الذي اتبعه في تحرير الطبيعة نفسه دون العادة [illegible]
موضوعي كانت فيه عدة تساؤلات وحيث أن هذا
[illegible] فقط بالنسبة للقارئ بل بالنسبة [illegible]
نفسه ويعقب في النهاية [illegible] الشط
بطريقة طبيعية وصحيحة وهذا الأسلوب الذي أثرته
التي تناقشته فيه مع [illegible] [illegible] الأمر عليه أن
يتبع هذا الأسلوب في الأحداث [illegible] أسلوب
الحوار وقد وجب [illegible] [illegible] فيه [illegible] [illegible]
[illegible] هذا وهذا عليه [illegible] [illegible] [illegible]
والأمر الذي كان يدافعني في الأمر وهذا [illegible]

[illegible]

صديقاً في الأهرام فترة منذ بضعة سنوات
أن اشتغلت في صحيفة لعرض الأشعار والمقالات
وكنت مشغولاً واعتقد أنه كانت فكرة تامة
ومنذ ذلك لم يكن هناك وقت لتنفيذ هذه الفكرة
نظراً لانشغاله التام على ما أعتقد لأن هذه
الفكرة كانت منذ أسبوع فقط على ما أذكر

س: ومن يقصد بطلبة البناء في السجن أنه ذكرهم
أثناء الزيارة أن صديقاً زاره بيته وبين لبنانيين
حول انقسام الرأي.

ج: أنا لا أعتقد أن هذه الأشياء حصلت كما أن
طلبة البناء ليس الرحالة ... أن عبد الرحمن
الذي أتحدث معه في شأن هذه الأشياء وأنا
لا أستطيع أن أقول حاجة غير ذلك.

س: تقدم أن الدكتور يوسف الكاتب طلب منه أن يتوسط
في إيصال رسالة منه إلى الرئيس ما هي
الأسباب التي دعته إلى ذلك

ج: الأستاذ يوسف الكاتب طلب مني لو كنت أسأل
عن إذا كتب مقالة وستنشر هنا في الأهرام
فيقول أكثر ... ولم تكن لدينا فرصة ...

ج: طلبه يوسف الكاتب لم يستغرب عليه ... وخاصة
بالنسبة لمضمون الرسالة ليس فيه ما يمكن أن يكون
فيه ثمة ضرر لذلك إن رسالة من كاتب
ومفكر إلى الرئيس الجمهورية وبالذات ليس هناك
أسباب معينة وهي أن الأستاذ يوسف الكاتب أن يطلب
مني هذا الطلب

[توقيع]

[توقيع]

س: وقد طلب منه السيد رئيس الأمن هذا الطلب
وأنت أبلغته رغبته في إرسال هذه الرسالة
ثم عدنا وذكرت أنه أرسلها لك.
ج: الحقيقة أنا مش فاكر هو قال لي إيه.
س: ولكن قد علمت النيابة من التحقيق أنه وأنت
... نقلت أن السيد هيكل طلب منك دون
السيد ... أن تفهموا بينا عن عدم ارسال
هذه الرسالة للخارج.
ج: مضبوط وليس في علمي الدقيق هل يذكر
وهل وصل ان السيد رئيس الأمن هو اللي
قال لي فقط ما ... سيرة لتوصيل
الرسالة وهو طلبته كده.
س: ولكن ذكرت صحتك عقيب أنك قد فعلت ... قطعي
أن تقول بالنفي أو بالعربي أن السيد هيكل
طلب منه عدم إذاعة إرسال خطاب من السيد
رئيس الأمن للسيد ...
ج: الطريقة اللي كانت بالنسبة لطلب السيد ...
يطلب منا السيد هيكل طلب معين وأنا لا أذكر
أن السيد هيكل كلمني في موضوع الرسالة وإذاعة
إرسالها وأريد أن أؤكد أن قضية الخطاب
لم تكن واردة في ذهني ولم أعط لأي شيء
منها أهمية وأنا أعتبر الخطاب الذي
س: وقد علمت النيابة أيضا من التحقيق أن السيد
رئيس كان أن يرسل السيد هيكل الدلالة
ولطبيعة ... ثم ... وأنت ذكرت له هذا

الذي تم بشأنه الزيارة

ج: أنا لا أذكر أنه لفت لي أنه تحدث مع عبد الناصر ناقش هذه الفكرة وربما قلته علنا في الاجتماع العام بمناسبة المؤتمر، ولذا فهيكل نفسه وراء لدعم ولدي من جهة المشير وهيكل نفسه يعتبر أنه هو الذي طلب من القائد كل شيء في معرفة.

س: قد أيضا ... الناصر أنه أثناء الزيارة ذكرت أنت أو نوال المهدي أن الخطاب للسيد ... تصعيب الأمر حسب ما ... الإعلام ...

ج: بالنسبة لي أنا لم أتذكر هذه الواقعة. بالنسبة لنوال فلم أسمع أيضا تذكر ذلك أثناء الزيارة.

س: وكيف أوصل الى ... تعقيب الأمر الرسالة الى ...

ج: ...

س: هل علم أحد آخر بواقعة ارسال الرسالة؟

ج: أنا شخصيا لا أعرف.

س: وما الذي كان يعنيه السيد ... الأمر من ارسال هذه الرسالة

ج: لقد كان غرضه ... وجهة نظره ...

س: ألم يكن يعبر عن رأي أحد آخر

ج: لا أعتقد ذلك

س: ولماذا وافقت أنت على ارسال هذه الرسالة ثم عرضت الفكرة عليك

ج: أنا اعتقد ان أي كانت تعبر عن وجهة نظره.

[signatures]

خطاب الى السيد الرئيس أمر مستبعد واعتقادي
الشخصي هو أنه بنفسه وبذمته فيما عرضه على
فكرة ارسال خطاب الى السيد الرئيس واقتنعت من
هذه الفكرة.

س: متى واقتنعت من هذه الفكرة هل كنت تعلم مضمون
الرسالة التي سيرسلها الى السيد الرئيس

ج: بعد ما سمعت المضمون (ولكني التذكار) هو لتنبيه السيد
رئيس الحكومة لم يطلعني على الرسالة ولم اقرأها،
بالتالي ولهذا أعرف ما فيها ولكن من المهم
أني اعتقدت أن هذه الرسالة تتضمن عدل رأيه
في كيفية عمل الإعدام واستبداله في وجوه العلاج
بالمنفى لتجنيب السيد [illegible] وان [illegible]
له عمله في الإعدام وكما سمعته أن [illegible]
في التنفيذ. كنت قد أوضحت له أنه لا بد أن
يكون القرار قد اتخذ من القيادة التي [illegible]
تتحدث عن هذه البيانات التي هي بالضرورة غير ظاهرة
[illegible] في الاعتبارات التي هي بالضرورة غير ظاهرة [illegible]

س: إطلعت على صورة الخطاب الذي أرسله السيد [illegible]
[illegible] للسيد الرئيس أثناء التنفيذ - فهل التذكار
التي وردت فيه هي التذكار التي عرضها عليك
السيد [illegible] عندما وافقته على ارسال هذا
الكتاب [illegible] عليه الخطاب [illegible] عليه [illegible]
[illegible]

ج: اطلعت على الخطاب الآن واذكر أن [illegible] هذا
الخطاب هو تقليل [illegible] السيد الرئيس هو [illegible]

[illegible]

[illegible]

الكلام لم يأخذ وقت منه وانما هو حديث عن
نقطة ان اول مبدأ ارسال خطاب الى السيد الرئيس
يتضمن كيفية مواصلة الدفع في الاقدام بعد بيعته
الى الحكم وتدريجيا وبنشاط لكي يستمر الاقدام في
ازدهاره بالنسبة للبلد والحركة في الداخل والخارج
وان هذا هو ما يقع هذا الرأي تحت نظر
السيد الرئيس

س: ألا تذكر الكلمات التي وردت في زيارة عطية البنا لي
ونوال المهدي له يوم ٢٨ ج ٩٧١.

ج: انا مش متذكر وكنت مريض في الفترة بالقلب
لدرجة انني انسى تواريخ ووقائع قريبة جدا
لدرجة انني انسى تاريخ زواجي وتاريخ ميلاد
ابني وزوجتي مما يسبب لي حرجا عائليا كما انني
نسيت في هذا العام موعد وفاة والدي وهذا اول
عام لها.

س: ألا تذكرت شيئا واحدا في هذه الزيارة عن موضوع
هذه الرسالة التي ارسلها السيد محمد الامام للسيد
الرئيس.

ج: جائز يكون حصل كلام عن موضوع الرسالة اثناء
هذه الزيارة مع نوال المهدي باعتبارنا اننا نشتغل
سويا في الاقدام وكلنا مهتم بالموضوع ولكن لا
اذكر اذا كان تم هذا حديث او لا ولا مضمونه.

س: هل تذكر ان هذا الحديث قد جرى بين نوال المهدي
اثناء الزيارة ونصه [illegible] الاسم [illegible] (على) [illegible]
او نبيه — [illegible] كما كتبه [illegible] حاجة [illegible]

ولا غيره فعلا ولا عفيه ولا كله وهمست أنا
وأنا أتترنح الخاتم فقد سحبت منه لغاية ما خلعته
وسلمته وقال لي إيه يا ... إنتي عايزاه ايه يا أ.
قلت الحقيقة أنا بتوعنب به أنا طالباه مرة ثانية
علشان أقول لك رأيي قال لي كده على مهلك
استنى أصلك انتِ تايهة وه فقلت له متشكرة
قد إيه من الثقة ونسيت هي إيه تنفخني طبعا —
وطلعت من ... الباب.

٥: ماذا يحدث عند مثل هذا القول ولكن حقيقة
لا أتذكر لذلك لا أستطيع أن أقول أمرا.

ملحوظة :

كما أراد محمد حسن إسماعيل بالعلم الذي يأداة
الأحداث الآتية لديها - بل - تستقبل ناهضة لا تستقبل
داخل زنزانة التعذيب - وكما نفسه وزير الشرطة المسئول
وسلمناه إليه. ولكنه أداة الأمن من ... بالعملية
... تدفع أداء الأحداث الآتية لسان حال
المتهمين ... وانقبه ... الكاتب وتعزيزها
له وهذا أن استمعنا مع التراب الرئيسية السالف
وبيبه أنه يكابد ... بالتعذيب - ... التي مما
إذا كان الحدث الذي ... فاحص سؤال المتهمين
فقد أنه لا يستطيع أن ينطق لذلك الحدث ...
واضح لنا ... بالأصوات ولا ... مدى
هذا السؤال ووظيفة وتشويه الأذنية.
... ✗ ... المحمودي ...
... ...

إلى باعث الأدب الأستاذ
توفيق الحكيم مطالباً بعودة
الروح مرة أخرى بعد الثورة

جمال

٢٨ مايو ٥٤

اخترنا لك ...

فلسفة الثورة

بقلم
جمال عبد الناصر

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

صورة وثيقة إهداء
من جمال عبد الناصر فى ٢٨ مايو ١٩٥٤

(هجرة الحكم السياسى انظر ص ٤٦٥)

السيد / رئيس اللجنة البرلمانية لتقصي الحقائق

تحية طيبة وبعد

بالنيابة عن زملائنا الكتاب والادباء الموقعين على البيان المرفق صورته فاننا نضع انفسنا تحت تصرفكم اذا كان من المفيد الاستماع الى رأينا فيما تبحثون فيه .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

٢١ يناير ١٩٧٢ — عن الكتاب والادباء الموقعين .

(بيان الأدباء لأنور السادات شجرة الحكم السياسي ص ٤٠٩)

فهرست الكتاب

كان الفراغ من طبع هذا الكتاب
فى الثانى والعشرين من شوال ١٤٠٥ هـ
العاشر من يوليو ١٩٨٥ م
بالمطبعة النموذجية ٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة ت ٩١٩٣٧٧
مطبعة مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الأوبرا ت ٩٢٠٨٦٨

— تصويب خطأ يرجى تصحيحه :

السطران الأول والثانى من ص ٣٥٤ وضعهما فى هذه الصفحة خطأ مطبعى والوضع الصحيح لهما هو أول ص ٣٦٤ ولذا لزم التنويه .

رقم الإيداع ٣٩٣١ / ٨٥
الترقيم الدولى ٨ — ٤١٠ — ٤٧٢ — ٩٧٧

من إصدارات مكتبة الآداب









